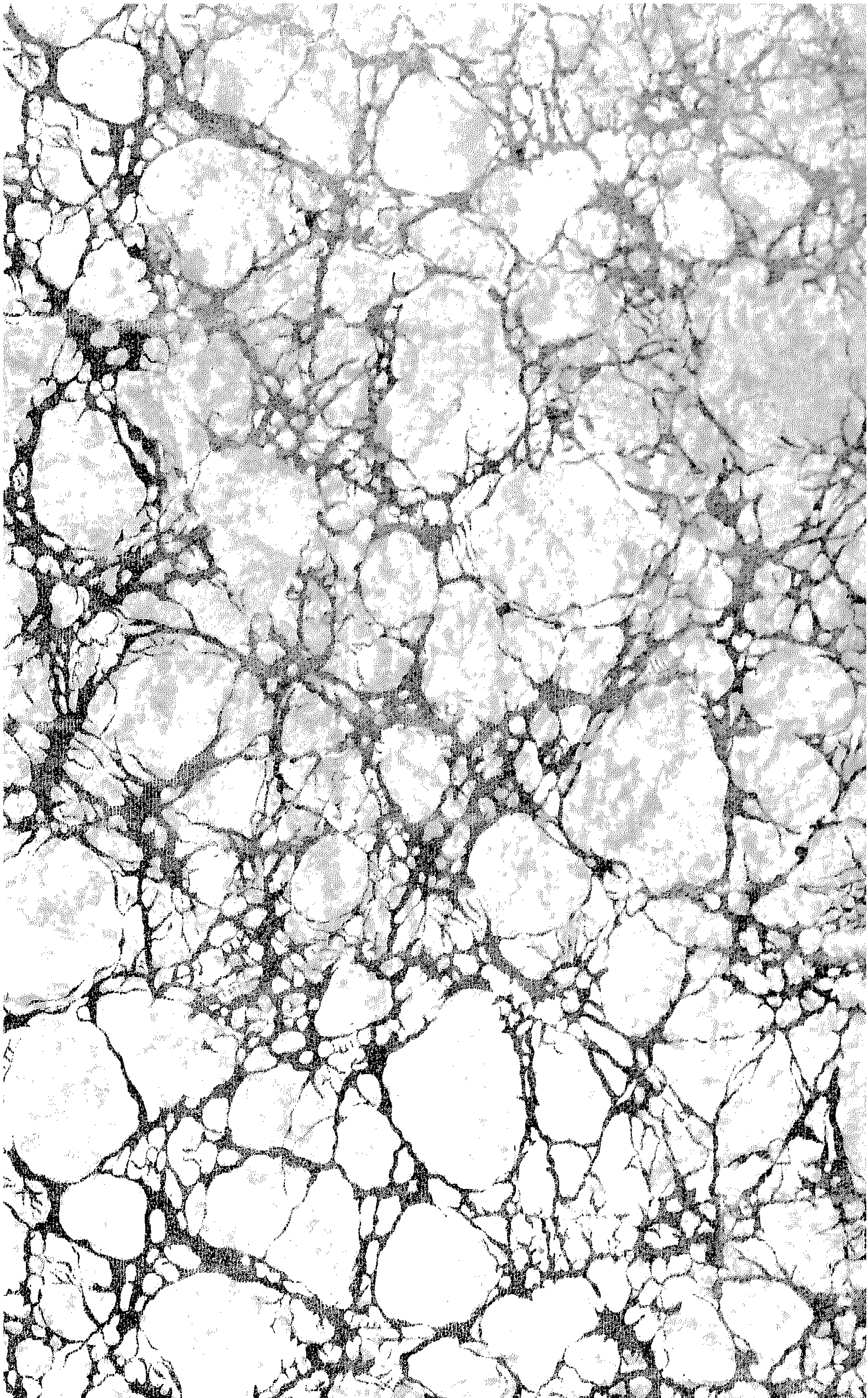


ثمار الانشاء



الطبعة الثامنة من

٥٣٥٠٠

ثمار الإنشاء

آداب نادرة . ورسائل جيدة . وموضوعات مختارة

للطلبة والطالبات

مع تنقيح وزيادة فى هذه الطبعة

بقلم الأستاذ

عبد الفتاح خليفة

المدرس بدار العلوم

سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

مطبعة مجلة الإسلام تليفون ٥٣٣١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك[1] اللهم ولك الحمد والشكر ، ومنك الإحسان والفضل ، وبيدك الملك والخير ، وأنت على كل شيء قدير ، نعم المولى ونعم النصير ، وصلاتك وسلامك على من أفردته بالحكمة وفصاحة اللسان ، وجعلته زعيم البلاغة والبيان ، سيدنا محمد الذى أنزلت عليه القرآن بلسان عربى مبين ، وعلى آله وصحبه الخطباء المفوَّهين[2] ، الكتّاب المجيدين ، ذوى الإيضاح والإفصاح والتبيين « أما بعد » فلما رأيت كتابى « ثمار الإنشاء » نال بفضل ربى جميل الثناء ، طبعته الطبعة الثامنة ، راجياً أن تكون كسابقاتها مفيدة نافعة ، وما ألوت[3] جهداً فى التحسين والتجديد ، ولا ادّخرت وسعاً فى التنسيق والترتيب ، كاتباً فيما يناسب هذا العصر من الموضوعات ، ويوافق هذا الزمن من جيّد المقالات ، ضابطاً وشارحاً ما خفى على القارىء لفظه ، وعسر عليه فهمه ، مختاراً من الكلام أظهره وأجوده ، ومن القول أوضحه وأحسنه ، ومن القَصَص أنفعه وأبينه ، وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وبه أهتدى إلى سواء السبيل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

عبد الفتاح خليفة

---

(١) سبحانك كلمة تنزيه وتقديس لله تعالى ، (٢) المفوهين الفصحاء ، (٣) ما ألوت جهداً ، لم أدع ولم أترك جهداً والجهد بضم الجيم وفتحها الطاقة والوسع

القسم الاول في الادب

للأدب العربي أصول ثلاثة : هي . كلام الله تعالى . وكلام رسوله ﷺ. وكلام العرب . فمن أراد القدرة على الانشاء والكتابة ، ورغب أن يكون من أولى البراعة في الخطابة ، فليتزود لذلك بما يقيم لسانه من النحو والصرف ، وباستظهار نصيب وافر من كلام الله ورسوله ، وحفظ مقدار مفيد من جيد كلام العرب ، وما قالوه من الأمثال السائرة ، والحكم البالغة ، والاكثار من قراءة كتب الأدب القيمة . وكتابي هذا « من فضل ربي » فيه الكفاية للطلاب متى فهموه ، واقتدوا به وامتثلوه ، والاجادة لا تأتي إلا بعد مِرانة ودربة ، وتعب شديد ، والظفر للصابرين ، والنجاح للعاملين .

ومن تكن العلياء همة نفسه　　فكل الذى يلقاه فيها محبَّبُ

---

١ ـ القرآن الكريم

قال ابن المعتز(١) : فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفي ، يشهد بذلك عجز المتعاطين (٢) ووهن المتكافين (٣) وتحير الكاذبين، وهو المبلغ الذى لا يُمل، والجديد الذى لا يَخلق(٤) والحق الصادع (٥) والنور الساطع ، والماحي لِظلم الضلال ، ولسان الصدق النافي للكذب ،

---

(١) ابن المعتز هو عبد الله بن المعتز بالله ولد سنة ٢٤٧ الهجرية وبويع بالخلافة سنة ٢٩٦ وقتل ليلة بويع (٢) المتعاطين: الذين يريدون أن يغالبوا بالاتيان بمثله (٣) المتكافين الذين يدخلون فيما لا يعنيهم فيلاقون المشقة على غير فائدة (٤) لا يخلق : لا يبلي (٥) الصادع: البين الواضح

ونذير قدمته الرحمة قبل الهلاك وناعي[1] الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة ، إن أوجز كان كافياً ، وإن أكثر كان مذكراً ، وإن أومأ[2] كان مقنعاً ، وإن أطال كان مفهماً ، وإن أمر فناصحاً ، وإن حكم فعادلاً ، وإن أخبر فصادقاً ، وإن بيّن فشافياً ، سهلٌ على الفهم ، صعبٌ على المتعاطي ، قريب المأخذ ، بعيد المرام[3] سراج تستضيء به القلوب ، حُلو إذا تذوقته العقول ، بحر العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم ، ونزهة المتوسمين[4] وروح قلوب المؤمنين ، نزل به الروح الأمين[5] على محمد خاتم النبيين : صلى الله عليه وعلى آله الطيبين . فخصم[6] الباطل وصدع[7] بالحق . وتألف من النفرة ، وأنقذ من الهلكة ، فوصل الله له النصر ، وأضرع[8] به خد الكفر :

آيات من القرآن الكريم

(١) الله سبحانه وتعالى

اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ[9] الْقَيُّومُ[10] لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ[11] وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ * وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ[12] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ *

---

(١) ناعي الدنيا : المخبر بفنائها (٢) أومأ : أشار (٣) المرام : المطلب (٤) المتوسمين : هم الناظرون المعتبرون (٥) الروح الأمين هو سيدنا جبريل (٦) فخصم غلب (٧) صدع الحق : تكلم به جهارا (٨) أضرع : أذل (٩) الحي : الدائم الحياة (١٠) القيوم : القائم بتدبير خلقه (١١) سنة : السنة ما يتقدم النوم من الفتور (١٢) كرسيه : الكرسي هنا بمعنى العلم

وَلَا (١) يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٭ (هذه آية الكرسيّ وهى في سورة البقرة)

٢ — لا يعلم الغيب ولا يتصرف فى العباد إلا الله

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ٭ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ٭ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ (٢) مُبِينٍ ٭ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ (٣) بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ (٤) بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (٥) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (٦) وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٭ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ٭ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٭ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ٭ (سورة الأنعام)

٣ — سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(أ) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ (٧) عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (٨)

---

(١) يئوده : يثقله (٢) كتاب مبين : هو علم الله (٣) يتوفاكم : ينيمكم (٤) جرحتم : كسبتم من خير وشر (٥) حفظة : ملائكة وهم الكرام الكاتبون (٦) رسلنا : ملك الموت وأعوانه من جنود الله من أمراض وغيرها (٧) عزيز : أي شديد (٨) عنتم : أي ما تلاقونه من المشقة والمكروه

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ۝ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . (سورة التوبة)

(ب) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ
النَّبِيِّينَ ۝ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا
اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً(١) وَأَصِيلًا(٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي(٣)
عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا . (سورة الأحزاب)

٤ ــ صفات المؤمنين

(أ) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ(٤) قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . (سورة الأنفال)

(١) بكرة هي أول النهار (٢) أصيلا وهو آخر النهار (٣) يصلي عليكم : أي يرحمكم وملائكته تطلب منه سبحانه وتعالى العفو والمغفرة لكم (٤) وجلت : خافت وخشعت

(ب) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [١] وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

(سورة الحجرات)

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ [٢] هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ [٣] الْعَابِدُونَ [٤] الْحَامِدُونَ [٥] السَّائِحُونَ [٦] الرَّاكِعُونَ [٧] السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ [٨] لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ. (سورة التوبة)

٥ — العدل والوفاء

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ [٩] وَالْإِحْسَانِ [١٠] وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ [١١] وَالْمُنْكَرِ [١٢] وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ * وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا [١٣] وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً [١٤] إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. (النحل)

---

(١) يرتابوا : الارتياب الشك (٢) وذلك إشارة إلى البيع (٣) التائبون من الشرك والنفاق (٤) العابدون المخلصون العبادة لله (٥) الحامدون لله على كل حال (٦) السائحون الصائمون (٧) الراكعون الساجدون المصلون (٨) الحافظون لحدود الله أي لأحكامه بالعمل بها (٩) العدل : الانصاف (١٠) الاحسان أداء الفرائض (١١) الفحشاء الفعلة المتناهية في القبح (١٢) المنكر مانهى عنه الشرع (١٣) توكيدها : توثيقها (١٤) كفيلا : بالوفاء

٦ — حقوق الوالدين وأولى القربى والمحتاجين

وَقَضَى (١) رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ (٢) وَلاَ تَنْهَرْهُمَا (٣)
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ
ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ (٤) أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ
تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ (٥) غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ (٦)
وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٧) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ (٨)
الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٩) (سورة الأسراء)

٧ — الاستقامة والتأدب فى الدعوة الى الحق

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا (١٠) تَتَنَزَّلُ (١١) عَلَيْهِمُ
الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا (١٢) وَلاَ تَحْزَنُوا (١٣) وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (١٤) * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ

---

(١) قضى : أمر (٢) أف : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر (٣) تنهرهما : تزجرهما
(٤) ربكم أعلم بما فى نفوسكم من إضمار البر أو العقوق (٥) الأوابين: الرجاعين إلى طاعته
(٦) حقه من البر والصلة (٧) ولا تبذر فى الانفاق فى غير طاعة الله (٨) إخوان الشياطين
أى على طريقتهم (٩) كفورا : شديد الكفر لنعم الله فكذلك أخوه المبذر
(١٠) استقاموا على التوحيد وغيره مما وجب عليهم (١١) تتنزل عليهم الملائكة عند
الموت (١٢) ألا تخافوا من الموت ومابعده (١٣) ولا تحزنوا على ماخلفتم من أهل وولد
فالله لهم (١٤) تدعون : تطلبون .

رحيم * ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع[1] بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي[2] حميم * وما يلقاها[3] إلا الذين صبروا * وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * (سورة فصلت)

آيات تقتبس ويتمثل بها

أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة * وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم * أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير * ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله * فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * ولكل وجهة * ولكم في القصاص حياة * ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون * وأتوا البيوت من أبوابها * والفتنة أشد

---

(١) ادفع السيئة (٢) ولي حميم : صديق قريب (٣) يلقاها يعطاها

مِنَ الْقَتْلِ * فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّٰهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ *
وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى * كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللّٰهِ * وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا *
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ * كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ *
لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَلَا
تَفَرَّقُوا * قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَمَا النَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ * وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ * خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً *
وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً * إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا * إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً * أَيْنَمَا
تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ * مَنْ يَشْفَعْ
شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا * وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً
يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ
مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ *
وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ
بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ * لَا يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ
بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ * انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ * وَتَعَاوَنُوا

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ * اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى * يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ * عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ * وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ * قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ * عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ * وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ * أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ * خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ * صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ * فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً * لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ * إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ * قُضِيَ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ * وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ *
فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا * كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * بَلْ
نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ * خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ
عَجَلٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *
أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ *
الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ * لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا *
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا
ظَلَمُوا * هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى
وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ
ضَلَالَتِهِمْ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا * كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ * كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا * مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ *
قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ * وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ * بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ * فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ * يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ * كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ * وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *

(صدق الله العظيم).

وفى هذا القدر كفاية من كلام الله تعالى ومن أراد الاستزادة فعليه بالمصحف الذى به التفسير ، وقد استخرجت آيات الاقتباس التى ذكرتها هنا من القرآن الكريم مرتبة من أول سورة البقرة إلى سورة ألم نشرح لك صدرك ، وتلك ثمرة طيبة أعدها أحسن ثمرات الكتاب فى نفع الطلاب، لما حوته من جيد اللفظ وجليل المعنى فى كل وجه يريده الكاتب ، فليحرص عليها من أراد التفوق فى التحرير والكتابة ، والإنشاء والخطابة

كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

قال الجاحظ : لم يسمع الناس بكلام قط ، أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين من فحواه ، من كلامه ﷺ ، بعد كلام الله تعالى .

١ — خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ؛ فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار .

٢ — خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة (١) الوداع

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، واستفتح بالذى هو خير : أما بعد أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ بِهِ ربا عمى العباس بن عبدالمطلب

---

١ حجة الوداع سميت بذلك لأنها آخر حجة حجها رسول الله صلى الله عليه وسلم

و إن دماء[1] الجاهلية موضوعة ، و إن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ؛ و إن مآثر الجاهلية موضوعة غير السَّدانة [2] والسقاية [3] العمد [4] قَوَد [5] وشبه العمد ماقتل بالعصاوالحجر ففيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية ، أيها الناس إنما النسيء [6] زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا يحلونه عاما و يحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . و إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم [7] ثلاثة متواليات و واحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، و إن لكم عليهن حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن فإن الله أذن لكم ألا تعضلوهن [8] وتهجروهن فى المضاجع . وتضربوهن ضربا غير مُبَرِّحٍ فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رِزْقُهُنَّ وكسوتهن بالمعروف . و إنما النساء عندكم عوارٍ لايملكن [9] لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ؛ واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً . أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة فلايحل لامرىء مالأخيه إلا عن طيب نفسه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب

---

١ دماء الجاهلية كانوا إذا قتل للقبيلة قتيل فلا بد أن تأخذ بدمه ممن قتلوه

(٢) السدانة بفتح السين : خدمة الكعبة (٣) السقاية بكسر السين وفتحها : موضع السق أو الاناء يسق به ، وأهل السقاية الذين يسقون الناس فى الحج (٤) والعمد : أى القتل العمد (٥) قود : أى يقتل فيه القاتل (٦) النسيء : التأخير والمراد تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر وذلك أن أهل الجاهلية كانوا اذا وقعوا فى حرب وجاء عليهم شهر حرام شق عليهم ترك الحرب فيحلون هذا الشهر الذى دخل عليهم وهم فى الحرب ويحرمون مكانه شهراً آخر ليوافقوا العدة التى هى الأربعة الحرم ، فلما جاء الاسلام استدار الزمان كهيئته وصارت الأشهر الحرم هي هى وعدة الشهور اثنا عشر شهراً فلا يزاد فى الايام حتى تكون ثلاثة عشر كما كانوا يفعلون

(٧) حرم أى محرمة معظمة فالمعاصى فيها أشد وزراً من غيرها ولا يحرم الغزو والجهاد فيها لقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة أى فى كل شهور السنة (٨) تعضلوهن أى تمسكوهن عن الزواج بغيركم

(٩) لايملكن أى لايمكنهن أن يطلقن أنفسهن فان العصمة بيدكم

بعضكم أعناق بعض ، فإنى تركت فيكم ماإن أخذتم به لم تضلوا كتابَ الله وأهلَ بيتى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس: إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ؛ قال فليبلغ الشاهدُ منكم الغائب . أيهاالناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش [(١)] وللعاهر [(٢)] الحجر . مَنْ ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفا [(٣)] ولا عدْلا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لؤلؤة من بحر حديثه الزاخر صلى الله عليه وسلم

(أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) (إن من أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) (على كل مسلم صدقة . قيل أرأيت إن لم يجد ، قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ، قال : يُعين ذا الحاجة الملهوف ، قال : أرأيت إن لم يستطع ، قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت إن لم يفعل ، قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة) (لا تحقرنّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) (ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم ، خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم ، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم) (تجدون من شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) (إن الصدق يهدى إلى البر . وأن البر يهدى إلى الجنة . وأن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وأن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار . وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه : ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ،

---

(١) للفراش أى لأبيه (٢) العاهر التى تخون زوجها وجزاؤها الرجم بالحجارة (٣) الصرف بفتح الصاد التوبة والعدل الفدية أى لا يقبل الله منه توبة ولا فدية

ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) (ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيّض الله تعالى له من يكرمه عند سِنه) (ليس منا من لم يرحم صغيرنا و يوقر كبيرنا) (من عاد مريضا أو زار أخا له فى الله تعالى ناداه منادٍ أن طِبْتَ وطاب ممشاك وتبوّأت من الجنة منزلا) (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه[1]) (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت) (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام) (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) (ليس الشديد بالصرَعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) (لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم) (ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه) (من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) (قل الحق ولو على نفسك) (كل معروف صدقة) (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس)

هذا قليل من كثير من فيض حكمته ﷺ .

كلام العرب

قال عتبة بن أبى سفيان : إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء ، وأعذب من الماء ، مَرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إن فُسرت بغيرها عُطلت ، و إن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت ، هم اللطيف فهمهم ، النافع علمهم ، بلغتهم نزل القرآن ، و بها يُدرك البيان ، وكل كلام من معناه مباين لما سواه . الناس إلى قولهم يصيرون ، و بهديهم يأتمون ، أكثر الناس أحلاما ، وأكبرهم أخلاقا ،

(١) بوائقه شروره

١ — خطبة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه

حين بايعه الناس البيعة العامة

أما بعد : فانى وليت عليكم ولستُ بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسنّ النبى ﷺ ، وعلّمنا فعلمنا ، واعلموا أن أكيَسَ [١] الكيس التقى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس : إنما أنا متّبع ، ولست بمبتدع ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فردونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيتُه فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٢ — كتاب سيدنا عمر بن الخطاب إلى معاوية رضى الله عنهما

أما بعد فإنى لم آلك [٢] فى كتابى إليك ونفسى خيراً ، إياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وأدْنه [٣] حتى تبسط لسانه وتجرىء قلبه ، وتعهَّد [٤] الغريب فإنه إن طال حبسه ، وضاق إذنه ، ترك حقه ، وضعف قلبه ، وإنما أتوى حقه [٥] من حبسه ، واحرص على الصلح بين الناس ، ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة ، والأيمان القاطعة ، فأمض الحكم .

٣ — كتاب سيدنا عثمان بن عفان

يستنجد بالامام علىّ رضى الله عنهما

أما بعد فقد بلغ السيل الزُّبى [٦] وجاوز الحزام الطِّبيين [٧] وطمع فى من لا يدفع عن نفسه ، ولم يعجزك كلئيم [٨] ولم يغلبك كمغاب [٩] فأقبل إلى ، علىّ كنت أم لى

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فادركنى ولما أمزّق

(١) الكيس العقل والمعنى أن أفضل شىء معقول حسن هو التقى (٢) آلك أى اقصر فى خيرك وخير نفسى (٣) ادنه أى قربه (٤) وتعهد أى تفقد أحواله واحتفظ به (٥) أتوى حقه أى أهلك حقه (٦) الزبى جمع زبية وهى الرابية لايعلوها ماء (٧) الطبيين مثنى طبى وهو حلمات الضرع والغرض قد اشتد الامر و فاتم (٨) كلئيم أى ولا يعجزك مثل لئيم (٩) كمغاب ولا يغلبك مغلب وهو العاجز .

٤ — خطبة الإمام على حين تمت له البيعة بالمدينة

قال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه و وعد من نفسه خيراً وتألفهم جهده — لا يستغنى الرجل و إن كان ذا مال و ولد عن عشيرته ، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم . هم أعظم الناس حيطة من ورائه ، وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة ، أو نزل به بعض مكاره الأمور ، ومن يقبض يده عن عشيرته ، فإنه يقبض عنهم يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة ، ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله ما أنفق فى دنياه ، و يضاعف له فى آخرته ، واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال ، فلا يزدادن أحدكم كبرياء ولا عظمة فى نفسه ولا يَغفُلْ أحدكم عن القرابة أن يَصلها بالذى لا يزيده إن أمسكه ، ولا ينقصه إن أهلكه ، واعلموا أن الدنيا قد أدبرت ، والآخرة قد أقبلت ، ألاَ و إن المضمار اليوم، والسبق غداً ، ألا و إن السبقة الجنة ، والغاية النار ، ألا و إن الأمل يشهى القلب ، و يكذب الوعد ، و يأتى بغفلة ، و يورث حسرة ، فهو غرور وصاحبه فى عناء فافزعوا إلى قوام دينكم ، و إتمام صلاتكم ، وأداء زكاتكم ، والنصيحة لإمامكم ، وتعلموا كتاب الله ، واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ ، وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانات إذا اؤتمنتم ، وارغبوا فى ثواب الله، وارهبوا عذابه ، واعملوا الخير تجزوا بالخير ، يوم يفوز بالخير من قدم الخير .

حكايات أدبية ؛ وملح عربية

١ — رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه

كان رسول الله ﷺ مع سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه فمر بهما رجل وهو يقول

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هَبِلَتْكَ[١] أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عُدْم ومن إقتار[٢]

(١) هبلتك أمك تستعمل فى المدح والاعجاب مثل لله درك يعنى ما اعلاك وما أكمل رأيك (٢) الاقتار الفقر

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال له : لا . . والذى بعثك بالحق . . لكنه قال :

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن أقراف (١)
الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يعود فقيرهم كالكافى
ويكللون جفانهم بسديفهم (٢) حتى تغيب الشمس فى الرجاف (٣)
منهم : على ، والنبى محمد القائلان هلم (٤) للأضياف

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه

٢ — معاوية بن أبى سفيان وعرابة بن أوس

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصارى . بأى شىء سدت قومك ياعرابة . قال أخبرك يامعاوية بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال وكيف كان ؟ فأنشد قول حاتم

أصبحت فى أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى مايقول ويعرف
وذاك لأنى لا أعادى سراتهم ولا عن أخى ضرائهم أتنكف (٥)
وإنى لأعطى سائلى ولربما أكلف مالا أستطيع فأكلف (٦)
وإنى لمذموم إذا قيل حاتم نبا نبوة إن الكريم يعنف

ثم قال : ووالله إنى لأعفو عن سفيههم . وأحلم عن جاهلهم وأسعى فى حوائجهم ، وأعطى سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى . ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى ، ومن قصر عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية لقد صدق الشماخ حيث يقول فيك :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

---

(١) الاقراف الدنو من الهجنة والمعنى منعوك من الفقر وأعزوك (٢) السديف شحم السنام وقطعه . يعنى أنهم يضعون قطع السنام وشحمه فوق القصاع كالاكايل (٣) الرجاف البحر والرجاف مبالغة من رجف اذا اضطرب وسمى البحر رجافا لاضطرابه . والشمس عند غروبها تظهر للرائى كأنها تغيب فى البحر لا تساعه . (٤) هلم اسم فعل أمر بمعنى أقبل (٥) اتنكف أى اتغافل واعدل . (٦) اكلف أى أحمل وأؤدى ما كلفته

٣ — قول الأحنف بن قيس وعمرو بن سعيد فى يزيد بن معاوية فى حضرة معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية ويزيد بين يديه وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال ياأبا بحر ماتقول فى الوُلْد ، فعلم ماأراد ، فقال ياأمير المؤمنين هم عماد ظهورنا ، وثمرة قلوبنا ، وقرة أعيننا بهم نصول [1] على أعدائنا ، وهم الخلف منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءظليلة ، إن سألوك فأعطهم ، و إن استعتبوك فأعتبهم، لاتمنعهم رفدك [2] فيملوا قربك،ويكرهوا حياتك، و يستبطئوا وفاتك ، فقال لله درُّ كياأبا بحر ، هم كما وصفت .

ولما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد قام الناس يخطبون، فقال معاوية لعمرو بن سعيد قم ياأبا أمية، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن يزيد بن معاوية أمل تأملونه،وأجل تأمنونه ، إن استفضتم [3] إلى حلمه وسعكم ، و إن احتجتم إلى رأيه أرشدكم،و إن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم، جَذَعٌ [4] قارح ، سُوبق فسبق،و مُوجد فمَجدَ ،وقورع ففاز سهمه فهو خلف أمير المؤمنين . ولا خلف منه . فقال معاوية ، أوسعت ياأبا أمية فاجلس .

٤ — معاوية بن أبى سفيان والخيار بن أوفى النهدى

دخل الخيار بن أوفى النهدى على معاوية فقال له ياخيار كيف تجدك وما صنع بك الدهر ؟ فقال: ياأمير المؤمنين صدع [5] الدهر قناتى . وأثكلنى [6] لداتى. وأوهى [7] عمادى وشيب سوادى . وأسرع فى تِلادى [8] ولقد عشتُ زمناً أُصبى [9] الكعاب . وأسر الأصحاب ؛ وأجيد الضراب . فبان ذلك عنى . ودنا الموت منى . وأنشأ يقول :

---

(١) نصول أى نستطيل ونثب (٢) الرفد بكسر الراء الصلة والعطاء (٣) استفضتم أى تكاثرتم ووصلتم إلى حلمه (٤) جذع قارح أى صغير كامل والجذع الصغير والقارح من ذوى الحافر ماتمت أسنانه فى السنة الخامسة (٥) صدع الصدع الشق والغرض هنا الكسر والقناة الرمح (٦) أثكلنى أى أفقدني لداتى الذين ولدوا معى أى أقرانى (٧) وأوهى أى أضعف قوتى وعمادى (٨) التلاد القديم والمعنى أسرع الدهر فى جعلى قديما كبير السن (٩) اصبي أى افتن الكعاب اى الحسان

غَبرْتُ زماناً يرهب القِرن جانبى | كأنى شتيم[1] باسل القلب خادر[2]
يخاف عدوى صولتى ويهابنى | ويكرمنى قِرنى وجارى المجاور
وتُسبى الكعابَ لمتى وشمائلى | كأنى غصن ناعم النبت[3] ناضر
فبان شبابى واعترتنى رَثية[4] | كأنى قناة أطّرتها[5] المآطر
أدِبُّ إذا رمت القيام كأننى | لدى المشى قَرم[6] قيده متقاصر
وقَصْرُ الفتى شيبٌ وموتٌ كلاهما | له سائق يسعى بذاك وناظر
وكيف يلذ العيشَ من ليس زائلا | رهينَ أمور ليس فيها مصادر[7]

فقال معاوية أحسنت القول . واعلم أن لها مصادر . فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير . فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يصدرنا عنها وهو راض

٥ — كثير[8] وعبد الملك[9] بن مروان

دخل كثير عزة[10] على عبد الملك بن مروان فقال عبد الملك أأنت كثير عزة ؟ قال : نعم ،قال : أن تسمع بالمعيدى[11] خير من أن تراه. فقال: ياأمير المؤمنين كل عند محله رحب الفناء ، شامخ البناء ، عالى الثناء ، ثم أنشأ يقول :

ترى[12] الرجل النحيف فتزدريه[13] | وفى أثوابه أسد هَصُور[14]

---

(١) الشتيم الاسد العابس (٢) الاسد الملازم عرينه (٣) اللمة هى الشعر المتجاوز شحمة الاذن (٤) الرثية وجع المفاصل (٥) اطرتها سهلت عطفها وانثناءها والمآطر هى آلات التأطير

(٦) القرم الفحل (٧) الصادر جمع مصدر وهو المرجع والموارد جمع مورد وهو المقصد الذى يقصده الانسان حين يهم به . والاصل فى ذلك أن ترد الابل الماء فالماء مورد ثم تصدر عنه إلى أعطانها فذلك المصدر (٨) كثير هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الخزاعى توفى سنة خمس ومائة الهجرية وهو من الشعراء المجيدين (٩) عبد الملك بن مروان هو من خلفاء بنى أمية وكانت خلافته من سنة ٦٥ إلى ٨٦ الهجرية (١٠) عزة هي عزة بنت جميل محبوبة كثير وله معها نوادر وحكايات .

(١١) المعيدى تصغير معدى نسبة إلى معد وقوله ان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه مثل يضرب فيمن اشتهر ذكره وسار حديثه وقبح منظره ومرآه (١٢) ترى إلى آخر الابيات قالها عباس بن مرداس السلمى الصحابى الشاعر الشجاع السخى (١٣) فتزدريه اى فتحقره (١٤) هصور يقال هصر الاسد فريسته كسرها وهصور مبالغة اى كثير التكسير للفريسة

ويعجبك الطرير[1] إذا تراه | فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث[2] الطير أطولها رقابا | ولم تطل البُزاة ولا الصقور
خشاش[3] الطير أكثرها فراخا | وأم الصقر مِقْلاتٌ[4] نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيرا | وأصرمها اللواتى لا تزير
وقد عظم البعير بغير لب | فلم يستغن بالعظم البعير
يُنوّخ ثم يُضرب بالهراوى | فلا عُرف لديه ولا نكير
يُقوّده الصبى بكل أرض | وينحره على الترب الصغير
فما عظم الرجال لهم بزين | ولكن زينهم كرم وخير

فقال عبد الملك : لله دره ما أفصح لسانه ، وأضبط جنانه ، وأطول عنانه ، والله إنى لأظنه كما وصف نفسه .

٦ — اسحق[1] الموصلى والرشيد[2]

دخل إسحق الموصلى يوما على الرشيد فقال يا إسحق أنشدنى شيئاً من شعرك فأنشده

وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصِرى | فذلك شىء ما إليه سبيل
أرى الناس خُلان الجواد ولا أرى | بخيلا له فى العالمين خليل
ومن خير حالات الفتى لو علمتِه | إذا نال شيئاً أن يكون يُنيل
فإنى رأيت البخل يزرى بأهله | فأكرمت نفسى أن يقال بخيل
عطائى عطاء المكثرين تجملا | ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى | ورأى أمير المؤمنين جميل

---

(١) الطرير ذو المنظر والرواء (٢) بغاث الطير شرارها والتى لا تصيد (٣) خشاش الطير ضعافها كالعصافير (٤) مقلات هى التى تضع واحداً ثم لا تحمل والفعل قلت بكسر اللام كعلم .

(٥) إسحق الموصلى هو ابو محمد إسحق بن إبراهيم الموصلى كان ظريفاً فاضلا عالماً ولكنه برع فى علم الغناء فغلب عليه ونسب إليه وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه . وتوفى سنة خمس وثلاثين ومائتين الهجرية (٦) الرشيد هو الرشيد هرون أبو جعفر بن المهدى وهو من خلفاء العباسيين ولى الخلافة سنة سبعين ومائة وتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائة .

فقال الرشيد : كيف ؟ . . إن شاء الله . ثم أمر له بصلة قيمة ، ثم قال : لله در أبيات تأتينا يا إسحق . ماأتقن أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها . فقال إسحق : كلامك ياأمير المؤمنين أحسن من شعرى . فأمر له بصلة مثل الأولى

٧ — ابراهيم[1] بن المهدى والمأمون

دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون قبل رضاه عنه فقال : يا أمير المؤمنين ولى الثار محكم فى القصاص ، ومن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر . وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن تأخذ فبحقك : وإن تعف فبفضلك . ثم قال :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فِعالى من الكرام فكنه

فقال المأمون : القُدرة تُذهب الحفيظة[2] والندم توبه ، وعفو الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاوَل ، يا إبراهيم لقد حببت إلىّ العفو حتى خفتُ ألا أوجرَ عليه : لا تثريب[3] عليك يغفر الله لك : وعفا عنه وأمر برد ماله وضياعه ، فقال :

رددت مالى ولم تبخل على به وقبل ردِّك مالى قد حقَنت دمى
فأبت منك وما كافأتها بيد هما الحياتان من وَفر ومن عدم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به والمالَ حتى أُسلَّ النعل من قدمى
ما كان ذاك سوى عارية رجعتْ إليك لو لم تهبها كنت لم تُلَم

---

(١) إبراهيم بن المهدى هو اخو الرشيد وعم المأمون الذى تمت له الخلافة بعد موت ابيه الرشيد فخرج عليه عمه إبراهيم هذا ببغداد فغلبه المأمون فاستعطفه بالكلام المذكور هنا فرضى عنه .

(٢) الحفيظة ما يكنه المرء فى صدره من الغيظ

(٣) التثريب التعيير والاستقصاء فى اللوم .

٨ — كتاب كلثوم بن عمرو إلى صديق له يستجديه

أما بعد أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النُّجعة (١) استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سِنِى يوسف، واشتد علينا كلبها (٢) وغابت قطتها (٣) وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الاخوان فيها، فانتجعتكَ (٤) وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد (٥) وأنك تغطى عين الحاسد، والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة (٦) الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل. ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته

ظل (٧) اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبداً بالبخل معقود
إن الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود (٨)
وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجهٌ سود
إذا تكرمت عن بذل القليل ولم ... تقدر على سَعة لم يظهر الجود
بُثَّ النوال ولا يمنعك قِلّتهُ ... فكل ما سد فقراً فهو محمود

فلما قرأ الكتاب، أعجب به أيما إعجاب، وكافأه أحسن مكافأة.

٩ — الوليد والحجاج

سأل الوليد عامله الحجاج أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه (إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى، فادنيت السيد المطاع فى قومه، ووليت الحرْبَ الحازم فى أمره؛ وقلدت الخراج الموفر لِأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظاً من نظرى،

---

(١) النجعه طلب الكلام فى موضعه والغرض طلب المعروف (٢) كلبها اى شرها (٣) غابت قطتها اى فنيت لانها لم تجد ما تأكله (٤) انتجعتك اى طلبت عطاءك (٥) الرائد الذى يرسل فى طلب الكلا والمراد طالب العرف (٦) حومة الاهل اى فى موضعهم ومنهم والحومة أصلها موضع القتال (٧) الغرض ان من الناس من يكون غنياً ولكنه بخيل (٨) مجهود اى فقير محتاج.

ولطيف عنايتي ، وصرفت السيف إلى النطف [1] المسيء ، والثواب إلى المحسن البرئ ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب) : بهذه السياسة أقام الحجاج الملك لبنى أمية .

١٠ — عبد الملك وابنه الوليد

قدم إلى عبد الملك بن مروان رجلان كلاهما مستحق للعقوبة فضرب أحدهما فضرط الآخر ، فضحك الوليد بن عبد الملك ، فغضب عبد الملك . وقال : أتضحك من حد أقيمه فى مجلسى ؟ خذوا بيده ، . فقال الوليد : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فإن ضحكى كان من قول بعض ولاة الأمر على منبر البصرة ، والله لئن غمزت حنيفة لتضرطنّ عبد القيس : والمضروب حنفيٌّ والضارط عبديٌّ ، فضحك عبد الملك وخلى عنهما .

١١ — الاحنف والمنقرى

سئل الأحنف : هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم . . وتعلمت منه الحلم قيل : ومن هو ؟ قال : قيس بن عاصم المنقرى . حضرته يوما وهو محتب [2] يحدثنا . إذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف . فقالوا : إن هذا قتل ابنك هذا . فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته . حتى إذا فرغ من الحديث اتجه إليهم فقال : أين ابنى فلان ، فجاءه . فقال : يابنى قم إلى ابن عمك فأطلقه . و إلى أخيك فادفنه . و إلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه . ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول :

إنى امرؤ لا يعترى خلقى ... طبع يدنسه ولا أفن [3]
من منقر من بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء . حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحسن جواره فطن

---

(١) النطف ككتف هو الرجل المريب الذى تشك فى اخلاصه
(٢) محتب من احتبى بالثوب جمع بين ظهره وساقيه بذلك الثوب ونقض حبوته بفتح الحاء وسكون الباء حلها (٣) الأفن الحمق وضعف الرىء

١٢ ـ خالد بن الوليد وعبد المسيح بن عمرو

لما وصل خالد بن الوليد بجيش الجهاد وهو أميره إلى الحيرة وتحير أهلها دخل عليه عبد المسيح بن عمرو (وكان فى قومه ذا رأى وتجربة فقال لهم يأهل الحيرة مكانكم حتى آتى هؤلاء فان وجدتهم على حق فلا خير فى خلافهم وإن يكن غير ذلك فسأحتال وشأنكم وماتريدون) فلما رآه خالد قال له . من أين ؟ قال من صلب أبى . فقال من أين خرجت ؟ قال من بطن أمى . فقال علام أنت ؟ قال على الأرض ، فقال فيم أنت ؟ قال فى ثيابى . قال من أين أقبلت قال من خلفى . فقال أين تريد ؟ قال أمامى . فقال ابن كم أنت ؟ قال ابن رجل واحد . فقال أتعقل[1] قال نعم وأقيد[2] . فقال أحرب أنت أم سلم ؟ قال سلم . قال فما بال هذه الحصون ؟ قال بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم فينهاه ، فقال خالد دعنى من هذا ماأنت ؟ قال أنا رسول من ورائى . وعلم خالد أنه رسول القوم فحادثه حتى أسلم عبدالمسيح . فذلك هو الأسلوب الحكيم وهو تلقى المخاطب بغير مايترقبه لغرض . ولهذا حكايات كثيرة وهذه أوضحها

١٣ ـ هَبَنَّقَة

اسمه يزيد بن ثروان أحد بني قيس بن ثعلبة ويضرب بحمقه المثل فيقال « أحمق من هبنقه » ومن حمقه أنه جعل فى عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وهو ذو لحية طويلة ، فسئل عن ذلك فقال لأعرف بها نفسى ولئلا أضل ، فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته وهو نائم فتقلدها ، فلما أصبح ورأى القلادة فى عنق أخيه . قال ياأخى أنت أنا فمن أنا ؟ وكان يرعى غنم أهله فجعل يسوق السمان للكلأ والعشب وينحى المهازيل . فقيل له فى ذلك . فقال لاأفسد ماأصلحه الله ولا أصلح ماأفسده

---

(١) اتعقل من العقل وهو الدية التي تؤخذ فدية للقتيل يقال عقل القتيل أدى دينه

(٢) أقيد القاتل بالقتيل أقتله به من القود وهو القصاص

١٤ — عبد المطلب

روى أن عبد المطلب جد النبي ﷺ نذر إن ولد له عشرة ذكور ليذبحن العاشر فولد له عشرة، وكان عاشرهم عبد الله والد رسول الله ﷺ فرام ذبحه، فعارضته قريش وأشاروا عليه بأن يقرع بينه وبين عشرة من الإبل فخرجت القرعة عليه، ثم زاد عشرة بعد عشرة وهي تقع عليه، حتى بلغ مائة من الإبل، فوقعت القرعة عليها فنحرها. وصارت الدية مائة من الإبل عندهم وأقرها الإسلام، فعبد المطلب هو أول من سن الدية مائة من الابل وكان رسول الله ﷺ يقول أنا ابن الذبيحين يعنى إسماعيل وعبدالله.

١٥ — المعتصم

خليفة جرت أموره على ثمانية وهو المعتصم، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة، وعمره ثمان وأربعون سنة، وكان ثامن أولاد الرشيد، وملك ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وخلّف ثمانية بنين، وثمانى بنات، وثمانية آلاف دينار، وثمانية وعشرين ألف درهم، وثمانية عشر ألف دابة، وله ثمانية بيوت، وولى الملك سنة ثمانى عشرة، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأول، ومن ثم سمى المثمن

١٦ — معاوية والشعر

قال معاوية رحمه الله فى فضل الشعر، اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين، وقد أتيت بفرس أغر (١) محجل (٢) بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملنى على الاقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة

أبت لى همتى وأبى بلائى (٣) وأخذى الحمد بالثمن الربيح

---

(١) أغراى له غرة: وهى البياض فى جبهة الفرس (٢) محجل: له بياض فى قوائمه لايجاوز ركبتيه وعرقوبيه والعرقوب من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها (٣) بلائى أى اختبارى

وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المُشيح[1]
وقولي كلما جشأت[2] وجاشت[3] ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

١٧ — لابن الرومي واسمه علي بن العباس

المتوفى ببغداد سنة ٢٨٣ الهجرية في العتاب

قد قضينا لُبانة من عتاب ... وجميل تعاتب الأكفاء
ومع العتب والعتاب فإني ... حاضر الصفح واسع الإعفاء
وأنا المرء لا أسوم عتابي ... صاحبا غير صفوة الأصفياء
ذا الحجا منهم وذا الحلم والعلم وجهلٌ ملامة الجهلاء
إن من لام جاهلا لطبيب ... يتعاطى علاج داء عَياء

١٨ — ولابن الرومي

قاد الهوى الفجار فانقادوا له ... وأبت عليه مقادة الأبرار
وكفى الحقود مهانة وغضاضة ... أنْ لستَ تلقاه عدو جهار
ردت يداه كيدَه في نحره ... وكذا تكون مكائد الأغمار[4]
فانظر بعين الحق لا عين الهوى ... فالحق للعين الجلية عارى
كن مثل نفسك في السمو إلى العلا ... لا مثل طينة جسمك الغدار
إياك . . ! واستضعاف حق إنه ... في كل حين حاضر الأنصار

١٩ — ولابن الرومي في نفسه

حكم الله بالعلا لعلي ... وبحق النجيب وابن النجيب
فليمتْ حاسدوه هماً وغماً ... ما لحكم الإله من تعقيب

---

(١) المشيح : الحازم الشجاع (٢) جشأت : أي ثارت من شدة الفزع والخوف
(٣) جاشت : أي همت بالفرار (٤) الأغمار جمع غمر مثلث الغين وهو الجاهل الأبله

فَلَّ بالحجة الخصوم وبالـــكيد زحوف العدا ذوى التأليب
رُبَّ مَغْنى لحزب إبليس أخلا ه فأمسى وما به من عَريب
لو دعى له فؤادٌ ذكـــىٌ ما لذكائه من ضريب
اللمعىُّ يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب
لا يروِّى ولا يقلِّب كفّا وأكف الرِّجال فى تقليب
ليِّنٌ عطفهُ فإن ريم منه مكسر العود كان جِدَّ صليب
في حجاه وفي ندَاه أمانا ن من الخوف والزمان الجديب
أحسنت وصفهَ مساعيه حتى ألجمت كل شاعر وخطيب

٢٠ — الحجاج وقد حضرته الوفاة

لما حضرت الوفاةُ الحجاج بن يوسف الثقفى وأيقن بالموت قال اسندونى وأذن للناس فدخلوا عليه فذكر الموت وكربه ، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها ، وذنوبه وكثرتها ، ثم أنشأ يقول :

إن ذنبى وزن السموات والأر ض وظنى بخالقى أن يحابى
فلئن مَنَّ بالرضا فهو ظنى ولئن مر بالكتاب عذابى
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظــلم رب يرجَّى ليوم الحساب

ثم بكى وبكى جلساؤه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبدالملك بن مروان أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك وأحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفراناً لخطاياه ، وتكفيراً لما حمل من ذنوبه . ثم كتب فى آخر الكتاب

إذا ما لقيت الله عنى راضياً فإن شفاء النفس فيما هنالك
فحسبى بقاء الله من كل ميت وحسبى حياة الله من كل هالك

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ... ونحن نذوق الموت من بعد ذلك
فان مت فاذكرنى بذكر محبب ... فقد كان جماً فى رضاك مسالكى
و إلا ففى دُبْرِ الصلاة بدعوة ... يلقّى بها المسجون فى نار مالك
عليك سلام الله حياً وميتاً ... ومن بعد ماتحيا عتيقاً لمالك

ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعى وقال : كيف ترى مابك ياحجاج من غمرات الموت وسكراته فقال : يايعلى غما شديداً وجهدا جهيدا . وألما مضيضاً (١). ونزعا جريضاً (٢) . وسفراً طويلا . وزاداً قليلاً . فويلى ويلى إن لم يرحمنى الجبار . فقال : ياحجاج . إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه . أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك، وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وأبَرْت (٣) عترة (٤) التابعين فتبرتهم (٥) وأطعت المخلوق فى معصية الخالق، وهرقت الدماء وضربت الأبشار . وهتكت الأستار ، وسست سياسة متكبر جبار . لا الدين أبقيت ، ولا الدنيا أدركت ، أعززت بنى مروان وأذللت نفسك ، وعمرت دورهم وأخربت دارك فاليوم لاينجونك ولا يغيثونك ، إذ لم يكن لك فى هذا اليوم ولا لما بعده نظر . لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما ، وعناء و بلاء ، فالحمد لله الذى أراحها بموتك، وأعطاها مناها بخزيك . فلم يحر (٦) الحجاج جوابا ، وتنفس الصعداء وخنقته العبرة ، ثم رفع رأسه فنظر إلى يعلى وأنشأ يقول :

رب إن العباد قد أيأسونى ... ورجائى لك الغداة عظيم

٢١ — عظة لمن يعتبر

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

---

(١) المضيض : الموجع المؤلم (٢) الجريض : الذى يأتى بالغصة والألم (٣) أبرت أى أهلكت (٤) العترة : الخلاصة (٥) تبرتهم : أى كسرتهم (٦) يحر : أي يستطع

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يُلهى به ... يوماً يصير إلى بِلًى ونفاد

كانوا على قُلل[1] الأجبال تحرسهم ... غُلب الرجال فلم تنفعهم القُلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم[2] ... فأسكنوا حفراً يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد مادفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحُلل
أين الوجوه التى كانت محجبة ... من دونها تضرب الأستار والكِلل[3]
فافصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا يوما و ما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أُكلوا

٢٢ ــ عظة أخرى

لبس سليمان بن عبد الملك أفخر ثيابه ، ومس أطيب طيبه، ونظر فى مرآته، فأعجب بنفسه وقال : أنا الملك الشاب ؛ وخرج إلى الجمعة ، فقال لجاريته : كيف ترين ؟ قالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لابقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب ... عابه الناس ! غير أنك فان

فلما عاد من الجمعة قال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، ثم عهد عهده وأوصى وصيته ولم تأت الجمعة الثانية إلا وهو فى قبره .

و بنى أحد الملوك قصرا ، وقال : انظروا . . ! من عاب منه شيء فأصلحوه وأعطوه درهمين ، فأتاه رجل فقال : إن فى هذا القصر عيبين ، قال : وما هما ؟ قال : يموت الملك ويخرب القصر . قال : صدقت ، ثم أقبل على ربه وترك الدنيا

---

(١) القلل : جمع قلة وهى أعلى الجبل
(٢) المعاقل : جمع معقل وهو الحصن
(٣) الكلل : جمع كلة بكسر الكاف وهو ستر رقيق يضرب على السرير (الناموسية)

٢٣ — عظة ثالثة

مرَّ على رضى الله عنه بالقبور ، فوقف عليها وقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لا حقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عنه الله تعالى ، ثم قال : يأهل القبور ، أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سُكنت ، وأما الأموال فقد قُسمت ، فهذا خبر ماعندنا ، فما خبر ما عندكم ثم التفت إلى أصحابه وقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا أن خير الزاد التقوى .

٢٤ — عظة رابعة

كان الحجاج فى بعض أسفاره ، فنزل فى بادية خالية ، ودعا بالغداء ، وقال لحاجبه : انظر من يتغدى معى ، فبحث الحاجب فما وجد إلا راعياً ، فندبه وقال له : إئت الأمير . فأتاه فقال له الحجاج : اغسل يديك وتغد معى ، فقال الراعى : دعانى من هو خير منك فأجبته ، قال الحجاج : ومن هو ؟ قال : الله تعالى ، دعانى إلى الصيام فصمت ، قال : تصوم فى هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم . . صمت ليوم هو أشد منه حرًّا ، قال : فأفطر وصم غداً ؟ قال الراعى : إن ضمنت لى البقاء إلى غد أطعتك ، قال : ليس ذلك إلى ، قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل لاتقدر عليه ، قال : لأنه طعام طيب ، قال الراعى : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، وإنما طيبته العافية ، وتركه وانصرف .

٢٥ ـ الأحنف ومعاوية

دخل الأحنف[١] بن قيس على معاوية بن أبى سفيان ، وعليه شملة[٢] ومدرعة صوف ، فلما مثل بين يديه اقتحمته[٣] عينه ، فأقبل عليه معاوية وقال : مه[٤] ؟ فقال

---

(١) الأحنف بن قيس من كبار التابعين يضرب به المثل فى الحلم (٢) الشملة بوزن النملة كساء يشتمل به الانسان فوق الملابس كالعباءة والملاءة والمدرعة بكسر الميم وسكون الدال جبة من صوف (٣) اقتحمته : ازدرته واحتقرته (٤) مه اسم استفهام من ما الاستفهامية حذفت ألفها وزيدت هاء السكت

فقال الأحنف : ياأمير المؤمنين ؛ أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير[١] ، مع تتابع ، المحول[٢] ، واتصال من الذحول[٣] ، فالمكثر منها قد أطرق[٤] ، والمقل منها قد أطلق[٥] وبلغ به المخنق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ، ويجبر الكسير ، ويسهل العسير ويصفح عن الذحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، وتزول اللأواء[٦] ألا وإن السيد من يعُم ، ولا يخص ، ويدعو الجفلى[٧] ، ولا يدعو النقرى[٨] ، إن أحسن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء الرعية عماداً يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات ، قال معاوية : ههنا يا أبا بحر ، ثم قرأ : (ولتعرفنهم فى لَحن[٩] القول)

٢٦ ـ سليمان بن عبد الملك وأبو حازم

استحضر سليمان بن عبد الملك أبا حازم ، ثم قال له : تكلم ، فقال : فيم أتكلم ؟ قال : فى الخروج من هذا الأمر ، قال : هو يسير إن فعلته ، قال : وما ذاك ؟ قال : لاتأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا فى أهلها ، قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من الأمر ماقلدك ؛ قال عظنى يا أبا حازم ، قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ماصار إليك ؛ ثم قال : ياأمير المؤمنين ، نزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، ياأمير المؤمنين : إنما أنت سوق ، فما نفق[١٠] عنك حمل إليك ، من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت ، قال : فمالك لاتأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ؛ وإن أقصيتنى أحزنتنى ، وليس عندى ماأخافك عليه ، ولا عندك ماأرجوك له

---

(١) كسير مكسور والمراد فى ضعف وحاجة (٢) المحول بضم الميم الجدب مصدر محل كقعد قعوداً (٣) الذحول جمع ذحل وهو العداوة مثل كعب وكعوب (٤) أطرق سكت مهموما (٥) أملق اشتد فقره (٦) اللأواء الشدة والمحنة (٧) الجفلى الدعوة العامة (٨) النقرى الدعوة الخاصه (٩) لحن القول ، التصرف فى الكلام والقدرة على توجيهه كيف يشاء (١٠) نفق بمعنى راج ، والمراد ماترغب فيه يحمل إليك .

قال : فارفع إلينا حوائجك ، قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت ، يقول الله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فمن ذا الذى يستطيع أن ينقص من كثير ماقسم الله ؟ فبدا التأثر على سليمان ، فقال أحد جلسائه : أسأت إلى أمير المؤمنين ، فقال أبو حازم : اسكت . . ! فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء : ليبيننّه للناس ولا يكتمونه ، ثم خرج أبوحازم إلى منزله فبعث إليه سليمان بمال فرده وقال للرسول : قل له : ياأمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى ؟

٢٧ ـ هشام بن عبد الملك والأعرابى

استأذن أعرابى على هشام بن عبد الملك فأذن له ؛ فدخل حتى قام بين يدى هشام فقال : أيها الأمير ؛ أتت على الناس سنون ثلاث ؛ أما الأولى فأكلت اللحم ؛ وأما الثانية فأذابت الشحم ؛ وأما الثالثة فهاضت[١] العظم ؛ وعندك فضول[٢] أموال ؛ فإن كانت لله فاقسمها بين عباده ؛ وإن كانت لهم ؛ فلم تحصرها[٣] عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا ؛ فإن الله يجزى المتصدقين ؛ فأمر هشام بمال فقسم بين الناس ؛ وأمر للأعرابى بمال ؛ فقال : ألكل المسلمين منك مثل هذا ؟ قال : لايقوم بذلك بيت المال قال : لاحاجة لى فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين .

٢٨ ـ الغلام وعمر بن عبد العزيز

لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ؛ جاءته الوفود من كل بلد ؛ فلما مثل بين يديه وفد الحجازيين ، تقدم غلام منهم للكلام ؛ فقال له عمر : ليتكلم من هو أسن منك فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استحق الكلام ، وعرف فضله من سمع خطابه ،

---

(١) هاضت العظم أضعفته (٢) فضول جمع فضل : ما فضل عن الحاجة (٣) تحصرها : أحصر عنه كذا حبسه عنه ، فالمعنى لم تحبسها عنهم .

ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن ، لكان فى الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك ، فقال صدقت ! قل ما بدا لك ؟ فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة ، لا وفد مرزئة[1] ، وقد أتيناك ، لمن الله الذى من علينا بك ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنا قد أمنا فى أيامك ماخفنا ، وأدركنا ما طلبنا ، فقال عمر : عظنى يا غلام ، فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام ، فهووا فى النار ، فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول أملك ، وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل بك قدمك ، فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحى هذه الأمة ، ثم سكت ، فسأل عمر عن سن الغلام فاذا هو ابن إحدى عشرة سنة ، ثم سأل عنه فاذا هو من ولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم

٢٩ ـ الأصمعى والرشيد

قال الرشيد للأصمعى : هل تعرف كلمات جامعات فى مكارم الأخلاق ، يقل لفظها ويسهل حفظها ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين . . دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها ، فقال له : إنى سائلك عن أشياء لاتزال بصدرى مختلجة[2] ، وما تزال الشكوك عليها والجة[3] ، فأنبئنى بما عندك فيها ، فقال : أبيت[4] اللعن : سألت خبيراً واستنبأت[5] بصيرا ، والجواب يشفعه الصواب ، فسل عما بدا لك . قال ما السؤدد ؟ قال : اصطناع المعروف عند العشيرة ، واحتمال الجريرة[6] ، قال : فما الشرف ؟ قال : كف الأذى ، وبذل الندى . قال : فما المجد ؟ قال : حمل المغارم ، وابتناء المكارم . قال : فما الكرم ؟ قال : صدق الإخاء فى الشدة . قال : فما العز ؟ قال : شدة العضد ،

---

(١) المرزئة والرزء والرزيئة : المصيبة (٢) مختلجة : اختلج الشىء فى الصدر احتك فيه مع تردد وشك (٣) والجة داخلة (٤) أبيت اللعن ، دعاء بالحفظ مما يوجب اللعن والمقت (٥) استنبأت طلبت النبأ والخبر (٦) الجريرة الغرم .

وكثرة العدد . قال : فما السماحة ؟ قال : بذل النائل[1] ، وإجابة السائل. قال فما الغنى ؟ قال : الرضا بما يكفى ، وقلة التمنى . قال : فما الرأى ؟ قال : لُب تعينه تجربة ، قال له الملك : أوريت[2] زناد بصيرتى ، وأذكيت[3] نار حيرتى ، ثم وصله بصلة عظيمة .

٣٠ ـ عمر بن الخطاب والربيع بن زياد الحارثى

أمر عمر بن الخطاب بقدوم عماله إليه ، وأن يستخلفوا جميعاً ، قال الربيع بن زياد لما قدمت المدينة أتيت يَرْفَأ[4] فقلت يايرفأ مسترشد وابن سبيل ، أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين يرى فيها عماله؟ فأومأ إلى الخشونة فاتخذت خفين[5] مطارَفين،ولبست جبة صوف ، ولبست عمامتى على رأسى ، فدخلنا على عمر فصُففنا بين يديه ، فصعّد فينا وصوب ، فلم تأخذ عيناه غيرى ، فدعانى فقال من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثى قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين ، قال وكم ترزق ؟ قلت ألفاً ، قال كثير : فما تصنع بها ؟ قلت : أتقوت منها شيئاً ، وأعود على أقارب لى ، فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعى من الصف ، فصعدفينا وصوب ، فلم تقع عينه إلا على فدعانى ، فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة قال : الآن حين استكملت ، ثم دعا بالطعام ، وأصحابى حديثو عهد بلين العيش ، وقد تجوعنا له فأُتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابى يعافون[6] ذلك ، وجعلت آكل ، وجعلت أنظر إليه يلحظنى[7] من بينهم ، ثم سبقت منى كلمة ، تمنيت أنى سخت فى الأرض ولم أقلها ، فقلت ياأمير المؤمنين : إن الناس يحتاجون إلى سلامتك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ، فزجرنى ، ثم قال ياربيع ؛ إنا لو شئنا لملأنا هذه الرحاب من صلائق[8]

---

(١) النائل العطية (٢) أوريت أوقدت وأشعلت ، والمراد أنه زاده إيقاظا وانتباها (٣) أذكيت بمعنى أوريت ، والمراد أنه زاده حيرة إعجابا به ، وبفصاحته وحسن إجابته (٤) يرفأ اسم حاجب عمر (٥) مطارفين . مطارف اسم فاعل من أطرف إذا أطبق جفنيه، فالخف أو النعل المطارف غير المكشوف (٦) يعافون يتركونه كراهة فيه (٧) يلحظنى ينظر إلى (٨) الصلائق جمع صليقة وهى القطعة المشوية من اللحم

وسبائك [1] ، ولكنى رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ثم أمر بإقرارى على عملى ، وأن يستبدل بأصحابى .

شىء من الأمثال العربية

(١) (إنْ ترد الماء بماء أكيس) يضرب فى المحافظة على ما معك وإن كنت واثقاً فى الحصول على أكثر منه .

(٢) (إنّ الحديد بالحديد يفلح) — يفلح أى يُشق . يضرب للأمر الشديد لا يؤثر فيه إلا مثله .

(٣) (إنّ غداً لِناظره قريب) . يضرب للأمر المتوقع حصوله

(٤) (إن أخاك من آساك) يضرب فى الحث على مراعاة الإخوان .

(٥) (إن الجواد عينه فِراره) — الفرار النظر إلى أسنان الدابة ليعرف قدر سنها . يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه : فيغنى ذلك عن اختباره .

(٦) (إذا جاء الحين : حارت العين) — الحين الهلاك . يضرب للأمر تخطىء فتأتيه وأنت عالم بالمكروه الذى فيه ومثله (إذا جاء القدر عمى البصر) .

(٧) (إذا ضربت فأوجع . وإذا زجرت فأسمع) يضرب فى المبالغة وترك التوانى والعجز

(٨) (إن أردت المحاجزة . فقبلَ المناجزة) — المحاجزة الممانعة ، والمناجزة المقاتلة . يضرب لمن أراد النجاة أن يطلبها قبل الوقوع فيما يكره .

(٩) (إنك لا تجنى من الشوك العنب) يضرب لمن يعمل السوء لا يجنى إلا مثله .

(١٠) (إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر) يضرب فى أن الخير لا ينال مع فعل الشر .

(١١) (أبدى الصريح عن الرغوة) — الصريح اللبن الخالص والرغوة ما يعلوه أى بدا الصريح تحت الرغوة ، والغرض وضح الأمر فهو مثل يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره .

---

(١) السبائك جمع سبيكة وهى من الطعام وغيره ما أذيب ووضع فى قالب ، وهى فى الأصل لما كان من ذهب وفضة .

(١٢) (بغير اللهو ترتتق الفتوق) ترتتق تلتئم الفتوق الخروق . يضرب فى الحث على استعمال الجد فى الأمور وترك اللهو .

(١٣) (يطلب أثراً بعد عين) يضرب لمن ترك شيئاً يراه ثم تبع أثره بعدفوات عينه

(١٤) (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) المعيدى منسوب إلى معد وكان المعيدى دميم الخلقة غير أنه على أدب ومعرفة . يضرب لمن خبره خير من مرآه .

(١٥) (حال الجريض دون القريض) حال منع الجريض الغصة . القريض الشعر. يضرب للأمر تقدر عليه أخيراً حين لا ينفع عمله . وأصله أن رجلا منع ابنه قول الشعر فأشرف الولد على الهلاك فأذن له أن يقول . فقال الولد : حال الجريض دون القريض أى تأذن لى بعد فوات الفرصة .

(١٦) (حسنٌ في كل عين ما تودُّ) يضرب لمن يرى الشىء كاملا لأنه يحبه وهذ كقولهم (حبك الشىء يعمى ويصم) وقول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

(١٧) (حظٌ جزيل بين شِدقى ضيغم) الضيغم الأسد : يضرب للأمر المرغوب فيه الممتنع على طالبيه .

(١٨) (خير سلاح المرء ماوافاه) يضرب فى أن خير شىء المرء من أهله وولده وماله مانفعه وكفاه مايحتاج اليه

(١٩) (دع العوْراء تخطَّاك) العوراء الفعلة القبيحة — تخطاك تتجاوز عنك : يضرب فى الحث على ترك القبيح

(٢٠) (رُبَّ عَجلةٍ تهب رَيثا) أى رُب سرعة تدعو الى تأخير يضرب لمن يعجل فى طلب الشىء فيكون ذلك داعية الى ضياعه

(٢١) (أريد حِباءه ويريد قتلى) يضرب لمن تريد به خيرا ويريد بك كل سوء

(٢٢) (سكت ألفاً ونطق خَلْفاً) — الخلف الردىء من كل شىء يضرب لمن يسكت عن القول وغيره ثم ينطق أو يعمل مالا قيمة له

(٢٣) (أساء سمعا فأساء جَابة) — الجابة والاجابة بمعنى واحد يضرب لمن تقول له قولا فلا يسمعه فيجيب بغير المقصود

(٢٤) (سفيهٌ لم يجدْ مسافهاً) يضرب لمن يتمادى فى الشتم حين لايجد من يصده

(٢٥) (أسرع فى نقص امرىء تمامُه) — يضرب فى أن الشىء اذا تم أخذ يبدو نقصه

(٢٦) (شنشنة أعرفها من أخزم) — الشنشنة العادة وأخزم اسم رجل عَق أباه فلما مات كان له أولاد فعقوا جدهم فقال جدهم المثل أى تلك عادة أبيكم أخزم يضرب فى قرب الشبه

(٢٧) (شفيتُ نفسى وجدعت أنفى) — جدعت قطعت . يضرب لمن يضر نفسه لينتقم من غيره

(٢٨) (الظفر بالضعيف هزيمة) يضرب لمن يستضعف الضعيف و يذله

(٢٩) (عند الرِّهان تعرف السوابق) يضرب لمن يدعى ماليس فيه

(٣٠) (قطعتْ جهيزَة قول كل خطيب) أصله أن قوما اجتمعوا للصلح بين حيين قتل أحدهما من الآخر قتيلا فجاءت جهيزة وهى امرأة وقالت إن القاتل ظفر به بعض أولياء المقتول فقتلوه فقال الحاضرون هذا المثل وهو يضرب لمن يقطع على الناس ماهم فيه

(٣١) (قد شمرتْ عن ساقها فشمِّرِى) التاء فى شمرت للداهية والياء فى شمرى للنفس . يضرب فى الحث على الجد فى الأمر

(٣٢) (قد أسمعتَ لو ناديتَ حياً) يضرب لمن يوعظ فلا يقبل ولا يفهم

(٣٣) (قد يؤخذ الجار بذنب الجار) يضرب لمن يناله الأذى ولا ذنب له إلا اتصاله بالمقصود بالأذى

(٣٤) (قول الحق لم يدَع لى صديقا) يقال لمن يتبرم من الحق

(٣٥) (كلام كالعسل وفعل كالأسل) الأسل . الرماح . يضرب لمن قوله جميل وفعله رذيل

(٣٦) (كالمستجير من الرمضاء بالنار)الرمضاء شدة الحر . يضرب لمن يستجير من شدة بأشد منها

(٣٧) (كمبتغى الصيد فى عَرينة الأسد) عرينة الأسد وعرينهُ المكان الذى يأوى إليه . يضرب لمن يطلب المحال

(٣٨) (لايضر السحاب نباح الكلاب) يضرب لمن ينال من إنسان بما لايضره

(٣٩) (ما كل رامى غرض يصيب) يقال لمن لم يدرك غرضه تسلية له عما فاته

(٤٠) (من الخواطىء سهم صائب) يضرب لمن يخطىء كثيرا وأصاب مرة، ومثله (رب رَمية من غير رام)

(٤١) (من استرعى الذئب ظلم) يضرب لمن يلقى قياده إلى عدوه

(٤٢) (النفس مولعة بحب العاجل) يضرب لمن يتعجل فى طلب الخير

(٤٣) (الناس إخوان وشتى فى الشيم) يضرب فى تشابه الأشياء شكلا وتخالفها فعلا

(٤٤) (انصر أخاك ظالمًا أو مظلوما) أى إذا كان ظالمًا فانصره برده عن ظلمه يضرب فى الحث على الوفاء بالإخوان

(٤٥) (هذا أوان الشد فاشتدى زِيم) زيم اسم فرس يضرب فى طلب الجد فى الأمر

(٤٦) (هل ينهض البازى بغير جناح) يضرب فى الحث على التعاون والوفاق

(٤٧) (يدب له الضرّاء ويمشى إليه الخمَرَ) الضرّاء الشجر الملتف والخمَرَ ماواراك من جرف أو غيره يضرب للرجل يختل صاحبه

(٤٨) (يالهَا دَعَةً لَوْ أَنَّ لِى سَعَةً)الدعة النعيم والسعة الغنى يضرب لمن يترفه وهو فقير

(٤٩) (يكفيك مما لاترى ما قد ترى) يضرب فى الاعتبار والاكتفاء بما يرى حتى لايقع فى مثله مما لم يحصل

(٥٠) (اليد العليا خير من اليد السفلى) يضرب فى الحث على تقديم الخير على الشر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

شىء من الحكم

قال تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وقال ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ثم اتبع ضالة أخرى » وقال لقمان : « إن القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة كما تحيا الأرض بوابل المطر » : لذلك أتيت هنا بنصيب يستعين الكاتب به ويسير المنشىء على ضوئه ، لتكمل الفائدة ويتم المقصود وها هو ذا .

(١) العاقل من افتتح فى كل أمر خاتمته ؛ وعلم من بدء كل شىء عاقبته (٢) المكثار كحاطب ليل (٣) المنة تهدم الصنيعة (٤) إياك والسآمة فى الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها (٥) منتهى المعرفة أن يعرف المرء نفسه (٦) شر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئاً (٧) من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان (٨) درك الآمال فى ركوب الأهوال (٩) حق يضر خير من باطل يسر (١٠) من صنع خيراً أو شراً بدأ بنفسه

(١١) الأمانى تخدعك وعند الحقائق تدعك (١٢) الصبر على كتمان السر أيسر من الندامة على إفشائه .

(١٣) عاشر الناس عشرة إن غبت حنوا إليك وإن فقدوك بكوا عليك

(١٤) ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه (١٥) شرار الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم (١٦) كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك فيه مصدق وأنت له كذاب (١٧) لا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل الذى ترى له

(١٨) المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وإن وضعها اتضعت (١٩) من سل سيف البغى أغمد فى رأسه (٢٠) ما أحب أحد الرياسة إلا حسد وبغى وطغى وتتبع عيوب الناس وكره أن يذكر أحد بخير (٢١) مالا ينبغى أن تفعله احذر أن يخطر ببالك (٢٢) لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدرى ما يفعل الزمان بك (٢٣) لا تلومن من أساء بك الظن إذا جعلت نفسك هدفاً للتهمة (٢٤) لا تترك الأمر مقبلا وتطلبه مدبراً ، فإن ذلك من ضعف العقل وقلة الرأى (٢٥) لا تحقرن الرأى الجليل إن أتاك به الرجل الحقير ؛ فإن اللؤلؤة

الكريمة لا يستهان بها لهوان من أخرجها (٢٦) إياك ومعاداة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم (٢٧) إياك وإخوان السوء فإنهم يخزنون من رافقهم ، ويخونون من صادقهم (٢٨) إذا كان الرأى عند من لا يقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور (٢٩) لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام فكر ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلب الجاهل من وراء لسانه ؛ فإن هم بالكلام تكلم به له أو عليه ، (٣٠) إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق (٣١) إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره (٣٢) أحمد ما يكون الإقدام ، إذا زلزلت الأقدام (٣٣) لسان العمل أنطق من لسان القول ، وجميل الفعل أزجر من حسن الوعظ ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلا (٣٥) ما أصعب اكتساب الفضائل ، وأيسر إتلافها (٣٦) رب كلمة يجترعها حليم مخافة ما هو شر منها ، وكفى بالحلم ناصراً (٣٧) من استحيا من الناس ولم يستحى من نفسه ، فليس لنفسه عنده قدر (٣٨) الأشرار يتبعون مساوى الناس ويتركون محاسنهم ، كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويتركون الصحيح منه (٣٩) ينبغى لمن ولى أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع فى تقويم رعيته ، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود (٤٠) المعتذر من غير ذنب يوجب على نفسه الذنب (٤١) إذا أعجبك ما يذكره الناس من محاسنك ، فانظر فيما بطن من مساويك ، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك (٤١) لا تقبلن فى استعمال عمالك وأمرائك شفاعة إلا شفاعة الكفاية والأمانة (٤٣) بلوغ أعلى المنازل من غير استحقاق من أكبر أسباب الهلكة (٤٤) الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود (٤٥) تعرف حقارة المرء بكثرة كلامه فيما لا يعنيه ، وأخباره عما لا يسأل عنه (٤٦) أولى الأشياء أن يتعلمها الأحداث الأشياء التي إذا صاروا رجالا احتاجوا إليها (٤٧) لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم (٤٨) من أمضي يومه في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ،

أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه ، أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه (٤٩) اعمل الخير تجز بالخير يوم يفوز بالخير من قدم الخير (٥٠) الدال على الخير كفاعله وهو لسيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

أبيات يتمثل بها

فى الحث على العمل

ولا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج السارى صفاء المناهل

فى الجبن عار وفى الاقدام مكرمة ... والمرء فى الجبن لاينجو من القدر

ليس الفتى بفتى لايستضاء به ... ولا يكون له فى الأرض آثار

إذا ما العز أصبح فى مكان ... سموت له وان بَعد المزار

إذا لم أجد فى بلدة ما أريده ... فعندى لأخرى عَزمة وركاب

وما طالب الحاجات فى كل وجهة ... من الناس إلا من أَجدّ وشمرا

الجد يدنى كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب مغلق

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام الكرائم

تريدين إدراك المعالى رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

لاتقنعن ومطلب لك ممكن ... فاذا تضايقت المطالب فاقنع

لايدرك المجد إلا سيد فطن ... لما يشق علي السادات فعال

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبا فى الناس أعلى المراتب

إذا المرء لم يبن الفخار لنفسه ... تضايق عنه مابنته جدوده

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ... ولو تسلت أسلناها على الأسل

لاينزل المجد إلا فى منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

ولست منافساً فى المال خلقاً ... ولكنى أنافس فى المعالى

أحب بأن يكون الناس دونى ... طوال الدهر فى كرم الفعال

أبى الله أن أسمو بغير فضائلى ... إذا ماسما بالمال كل مسوّد

وإن كرمت قبلى أوائل أسرتى ... فانى بحمد الله مبدأ سؤددى

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

لابد للشهد من نحل يمنعه ... لايجتنى النفع من لم يحمل الضررا

إذا صحب الفتى جِدٌّ وعزمٌ ... تحامته المكاره والخطوب

جدير بالعلا من يصطفيها ... ويركب فى مطالبها الصعابا

وما استوى شرف إلا على كلف ... ولا صفا ذهب إلا على لهب

وكل شىء جناه ممكن أبدا ... إلا إذا اعتصم الإنسان بالكسل

دع التكاسل فى الخيرات تطلبها ... فليس يسعد بالخيرات كسلان

لغير العلا منى القلا والتبغُّض ... ولولا العلاما كنت فى الفضل أرغب

فى الحكم

ومن نصب الفعل الجميل حبالة ... تصيّد حسن الذّكر فيا تصيّدا

المرء آفته هى الدنيا ... والمرء يطغى كلما استغنى

وإذا اؤتمنت على السرائر فاخفها ... واستر عيوب أخيك حين تطلع

إذا أنت حملت الخئون أمـانة فإنك قد أسـندتها شر مُسْنَد

إن شر الناس من يَكْشِر[1] لى حين يلقانى وإن غبت شتم

وأحزم الناس من لو مات من ظمإ لايقرب الوِرْد حتى يعرف الصدَرا

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

وقد عَجَمَتْنِي الحادثات فصادفت صبورا على مكروهها حين تَعْجُمُ

تندمت والتفريط يجنى ندامـة ومن ذا على التفريط لايتندمْ

فقل للذين استعذبوا الغدر مشربا رُوَيْداً فمرعى الغادرين وبيـل

يموت راعى الشاء فى إبـله ميتـة جالينوس فى طبـه

رُبّ عـلم أضاعه عدم المـا لِ وجهـل غطى عليه النعيم

لما دنا الوقت لم تُخْلَفْ له عدةٌ وكل شىء بميقات وميعـاد

وما يستوى وُدُّ المقـلد والذى له حجـة فى وده ودليـل

ما تنسجُ الأيدى يبيـد وإنما يبقى لنـا ما تنسج الأخـلاق

فـلا جمع إلا والزمان مفرق ولا شَمـلَ إلا بالخطوب مُبـدَّد

إذا ضـيعت أول كل شىء أبت أعجـازه إلا التواء

أنت للمـال إذا أمسكته فإذا أنفقتـه فالمـال لك

وإذا هممت بأمر شرفاتّئـد وإذا هممت بأمر خـير فافعـل

وكالنار الحياة فمن دخان أوائلهـا وآخرهـا رمـاد

(١) يكشر أى يبتسم

وخز الأسنة والخضوع لناقص ... أمران عند ذوى النهى مُران

وما الفخر بالعظم الرميم وإنما ... فخار الذى يبغى الفخار بنفسه

ولا خير فى ود إذا لم يكن له ... على طول مَر الحادثات بقاء

وعاجز الرأى مِضيَاعٌ لفرصته ... حتى إذا فات أمراً عاتب القدرا

إن العيون لتبدى فى نواظرها ... ما فى القلوب من البغضاء والإِحن

وسيبقى الحديث بعدك فانظر ... خير أُحدوثة تكون فكنها

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة ... مدبرة ضاعت مروءة داره

وأحسن الحالات حال امرىء ... تطيب بعد الموت أخباره

لا تترك الحزم فى شىء تحاذره ... فإن سلمت فما فى الحزم من عار

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت [1] إلى كل باطل

إن العدو وإن أبدى مودته ... إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا

إن الطبيب بطِبِّه ودوائه ... لا يستطيع دفاع محذور أتى

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

واحذر مؤاخاة اللئيم فإنه ... يبدى القبيح وينكر المعروفا

إذا ثارت خطوب الدهر يوماً ... عليك فكن لها ثَبتَ الجنان

دعوى الصداقة فى الرخاء كثيرة ... بل فى الشدائد تُعرف الإخوان

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها ... فسرك عند الناس أفشى وأضيع

صغار الناس أكثرهم قبيحاً ... وليس لهم بصالحة نهوض

(١) تاقت أى مالت واحبت

ألم تر فى سباع الطير نَسرا يُسالمنا ويؤذينا البعوضُ

تَضْفُو (١) على المحسود نعمة ربه ويذوب من كمد فؤاد الحاسد

فى المدح

لازال يرقى فى المعالى بجده والسعد يخدمه مدى الأيام

هو السيف إن لاينته لانَ مَتنه وغرباهُ إن خاشنته خشنان

سرى كيدُك اليقظان والنجم راقد يجوب سهولاً نحوهم ويجول

فلو صورت نفسك لم تزدها على مافيك من كرم الطباع

ذكر الآنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرْد من أبياتها

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط

يرد دَبيب المارقين بِوثْبة وهل تتساوى وثبة ودبيب

لقد راق مدحى فى معاليك مثل ما صفت منك أوصاف ورَقت شمائل

فأنت الذى ترجى لتخفيف زلتى وتحقيق آمالى ونيل مآربى

فما أفنى السؤال لكم نوالا ولكنْ جودكم أفنى السؤالا

وما ذاك إلا نية خلصت له فليس له فيما سوى الله مقصد

وإنك للخلُّ الوفى وإنه هو الواحد المطلوب إن عَزَّ مطلب

ولو نظمت نجوم الليل ممتدحاً لم أقض من حقكم بعض الذى وجبا

حوى من ثناء الناس أوفى نصيبه كريم له فى الأكرمين نصاب

---

(١) تضفو أى تتسع وتزيد وتكمل

وإنك سيف سله الله للهدى وليس لسيف سلهُ الله غامد

خليل لا يُغيرهُ صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

هم القوم إن قالوا أصابوا و إن دعوا أجابوا و إن أعطوا أطابوا وأجزلوا

جمع الفضائل والمحامد والعلا خلق لَعمرُ أبيك غير تخلُّق

وأفنى فنون الشعر وهى كثيرة وما فنيت آثاره والمناقب

لقد اصطفى رب السما ء له الخلائق والشيم

بلغ الزمان بهديكم ماأملا وتعلمت أيامه أن تعدِلا

إذا كان الفتى ضخم المعالى فليس يضره الجسم النحيل

إن يحسدوك على فضل خصصت به فكل منفرد بالفضل محسود

إن العرانين تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادا

لقد ثبتت فى القلب منك مودة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

عليم بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذى نثني

وما بلغت كف امرىء متناولاً من المجد إلا والذى نلت أطول

ففي كفك الدنيا وشيمتك العلا وطائرك الأعلى وكوكبك السعد

فى الهجاء

أسمعنى عبد بنى مِسمع فصُنت عنه النفس والعرضا

ولم أجبه لاحتقارى له ومن يعَضُّ الكلب إن عضا

يا أبغض الناس فى فقر وميسرة وأقذر الناس فى دنيا وفى دين

تيه الملوك إذا فلسٌ ظفرت به وحين تفقده ذلُّ المساكين

تجمعتم من كل أوب وبلدة على واحد لازلتم قِرْنَ واحد

إذا ولدت حليلةُ باهلىٍّ غلاما زيد فى عدم اللئام

وكاتب أقلامه معوّدات بالغلط

ينكشطُ ما يكتبه ثم يعيد ما كشط

فذاك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتما

شتمت مواليها عبيدُ نزار شيم العبيد شتيمة الأحرار

ولو أنصف الدهر فى حكمه لما ملّك الحكمَ أهل النّقيصة

تنحنح زيد وسعلْ لما رأى وقع الأسلْ

لو أن تغلبَ جمّعت أحسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالا

وكل كليبىٍّ صحيفة وجهه أذل لأقدام الرجال من النّعْل

كأن المنايا والزمان تعلّما تحيّلَه فى القطع بين ذوى الود

إذا الناس غطونى تغطّيتُهم وإن بحثوا عنى ففيهم مباحث

لحى الله صعلوكا مناه وهمه من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعماً

وإذا تذوكرت المكارم مرّة فى مجلس أنتم به فتقنّعوا

عجبتُ والدهر كثير عجبهُ من عنزى سبّنى لم أضربه

وإنّ عناء أن تفهّم جاهلا فيحسب جهلا أنه منك أفهم

لايكثرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا

إذا هتف العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا علىّ لئامها

فى مَعانٍ مختلفة

ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى من العيش ما يصفو وما يتكدر

إذا ما الجرح رَمّ على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

فلو أن أعضائى تحولن ألسنا لشكر الذى أوليت لم توف حقه

يقولون لى أهلا وسهلا ومرحباً ولو ظفروا بى ساعة قتلونى

ولو لبس الحمار ثياب خزٍّ لقال الناس يا لك من حمار

يفارقنى من لا أطيق فراقه ويصحبنى فى الناس من لا أريده

كلامىَ إن قلته ضائرى وفى الصمت حتفى فما أصنع

لا تعجبنّ مَضيما حسنُ بِزَّته وهل تروق دفيناً جودةُ الكفن

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطّراح العذْر خير من العذْر

يهوى الثناء مقصر ومبرِّز حب الثناء طبيعة الإنسان

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وما يغنيك من همم طوال إذا قُرنت بأحوال قصار

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس قائد

ذل من يغبط الذليل بعيش ... رُبَّ عيش أخف منه الحِمام

وسائل من تنطس فى التوقى ... لأية علة مات الجبان

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يُراق على جوانبه الدم

نروح إلى كسب الثناء ونغتدى ... إذا كان هَمُّ الناس كسب الدراهم

يرى الجبناء أن العجز حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

صبور ولو لم تبق منى بقية ... قئول ولو أن السيوف جواب

إلى الله أشكو أننا بمنازل ... تحكم فى آسادهن كلاب

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عُدَّ من سَقط المتاع

ولا خير فى حسن الجسوم ونبلها ... إذا لم تزن حسن الجسوم عقول

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى ... أرض ينال بها كريم المطالب

أرى ماء وبى عطش شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود

لا تطلبن معيشة بمذلة ... وارفع بنفسك عن دنىء المطالب

وكل مكارم الأخلاق صارت ... إليه همتى وبه اكتسابى

وما هذه الدنيا بدار إقامة ... ولكنها الدنيا مجاز ومعبر

القسم الثانى فى الرسائل

١ — من والد إلى ولد له أرسله إلى مدارس أوربا ينصحه

بنى العزيز . ألهمك الله الصواب .

لقد أردت لك الإصلاح ما استطعت ، ورغبت فى خيرك ما قدرت ، فأرسلتك إلى بلاد غير بلادك ، وأوطان غير أوطانك ، بعيداً عن أهلك ، وأقاربك ، وأصدقائك ، وأصحابك ، أبغى بذلك مقصداً شريفاً ، وأقصد أمراً جليلاً ، يسعى إليه العاقل ، ويشرف به الخامل ، ذلك هو نيل العلوم والمعارف ، واجتناء ثمارها ، واقتطاف أزهارها ، فى بلاد نال أهلها عز الدهر ، وقوة السلطان « وحق لهم ذلك » لأنهم أهل جد ونشاط وسعي واجتهاد ، وقد صرت يابنى بين أولئك الرجال ، ولا هادى لك ولا مرشد ، ولا ذائد ولا حائط سوى رأيك وعقلك وعملك . ومستقبلك الآن بين عينيك ، وحياتك فى يديك ، فابن لنفسك مستقبلا حسنا ، وأعدد لها حياة سعيدة ، وعهدى بك أن تسعى إلى الخيرات ، وتجتهد فى إحراز الكمالات ، فاقتد بمن حولك من أهل الجد ، وحافظ على دينك وأخلاقك وعادات قومك ، واترك مواقف الريبة ومواطن الشبهة ، وأما كن الفتنة وأحسن معاملة أساتذتك ورؤسائك ، واسع فى نيل رضاهم ؛ ولا تؤخر عمل يومك لغدك واحرص على التقدم جهدك ، فإن سمعت قولى وأجبت داعى الشفيق عليك ، الحدب على إسعادك ، كنت ذا مستقبل حسن ، ومحل مغبوط ، ومكان رفيع ، تنفع أهلك ووطنك وذلك ما أرجوه ، والله يتولاك ، ويحفظك ويرعاك .

٢ — رد على الكتاب السابق

والدى بقيت محفوظاً ، وبنعم الله محوطا ومحروسا

أسلم عليك سلام ابن مخلص لك ، متعلق بك ؛ يعد نفسه سعيداً بإنفاذ أوامرك ، وإجابة مطالبك ، وبعد : فقد تلقيت كتاب الوالد فحمدت ربى على صحته ، وقرأته فهنأت

نفسى بحسن طاعته ، لأنى أرانى عاملا بإرشاده ، متبعاً نصحه، وسأظل كذلك حتى ألقاك ياوالدى سعيداً بهديك ، غنيا بإرشادك إن شاء الله تعالى ، و إنى أيها الوالد الشفيق إن طلبت شيئاً فلا طلبن رضاك ، الذى هو غاية رجائى ، ونهاية أملى ، وإن رغبت فى أمر فلأرغبن فى أن تزودنى بإرشادك المفيد ، و رأيك السديد، وسأحافظ على ثقتك وعهدك بى ما استطعت ، تولاك الله بالحفظ ، وسرنى ببقائك ، والسلام عليك وعلى الوالدة وجميع الأهلين ورحمة الله و بركاته ممن يود لقاءكم ، ولكن صبراً صبراً فكل آت قريب

٣ — من والد إلى ولد له بلغه عنه الاهمال فى دروسه

ولدى : أرشدك الله إلى مافيه خيرك ، و إسعادك وهنائى

أما السلام فعلى تلك الأيام ، أيام كنت مجداً فى أعمالك ساعياً فيما يكسبنى الفخر ، ويكسبك جميل الثناء ، و بعد : فلقد ضللت بعد الهدى وغويت بعد الرشاد ، إذ بلغنى عنك ماساءنى بعد أن عرفت عنك ماسرنى ، بلغنى عنك إهمال فى الأعمال ، وافتخار بالأموال ، وتعلق شديد بالزينة والجمال : وما الفخر إلا بالعلم ، وما الجمال إلا جمال التربية وما الزينة إلا زينة الأدب ، وليس للمرء إلا عمله ، ماهذا الذى تسول لك نفسك ، أتعتمد على ثروة أبيك ، وهى لاتغنى عنك شيئاً لو كنت جاهلا ؟ أتركن إلى مال والدك وهو لاينفعك لو كنت من المعارف خاويا ؟ ومن الآداب خاليا ، لم يكن لجدك هذا المال ولكن أباك هو الذى أحرزه بجده وكده ، فلم لاتكون مثلى ؟ سائل نفسك وانظر فى عملك ، تجد أنك قد فعلت مالا أرضاه ، ولا تحمد عقباه: ولا يكسبك غير الذلة والاحتقار وعار عليك أن تعيش ذليلا محتقراً ، وعيب عليك أن يسبقك من كنت سابقه ، وأن يتقدم عليك من كان متأخراً عنك ، إن ذلك ليؤلمنى و يزعجنى يابنى : مستقبلك الآن بين يديك وأبوك حى يعظك و يرشدك ، فإن شئت سمعت العظة ، وعملت بالإرشاد ، و إن أردت غير ذلك فستعلم مصير أمرك ، وعاقبة عملك ، ولكننى لاأزال أرجو منك الخير ، وأنتظر منك حسن العمل ، والسلام على من عرف الحق فاتبعه ، و رأى الباطل ففرّ منه، وصدّ عنه .

٤ ـ رد الكتاب السابق

والدى: أعزك الله وأعزنى بك : —

أما السلام ؟ فعليك أيها الوالد العلىّ القدر ، الرفيع المنزلة . وأما التحية ؟ فلك أيها الأب الشفيق — و بعد : فأحمد الله على صحتك ، وأتمنى دوام عافيتك ، وآسف كل الأسف لما أصاب رضاك عنى ، واعتقادك فىّ ، والله حسبى ونعم الوكيل ، ياوالدى : إن تربيتك إياى تمنعنى أن أعمل غير الذى تحب ؛ أو أفعل غير الذى تريد . فأنا لم أهمل درسى كما بلغك ، ولم أترك السعى وراء ما يكسبنى الشرف وعلو القدر ، وما هى إلا وشاية خاطئة ، وأكذوبة خاسرة ، وإن رأيت ألاّ أروّح نفسى من عناء أعمالى فعلت ، سعياً وراء طاعتك ، وأما ما بلغك من تفاخرى بالمال . فالمال مالك والفخر لك ؛ ولم يقع منى ذلك غير أنى قلت لطالب باهانى بالمال ، إنى من ذوى المال ولكنى لا أفتخر به ، بل أفتخر بعملى ، هذه مقالتى فإن عددتها تفاخراً بالمال ، فلك علىّ ألا أعود لمثلها ، وعلى كل حال فأنا الخاضع لأمرك ، السامع لإرشادك ونصحك ، المسرور من حسن عنايتك ، ولقد زادنى ما كتبته إلىّ نشاطاً فوق نشاطى ، وهمة على همتى : ولا أزال أسعى فيما يسرك و ينفعنى ، حتى أعود إليك كما تحبُّ وتبغى إن شاء الله تعالى .

٥ — من والد إلى ولده يعلمه بقرب الامتحان ويرشده إلى أمور تحسن مراعاتها

ولدى العزيز : سرنى الله بنجاحه وكماله .

السلام عليك . سلام أب شفيق . ووالد عطوف . يبغى علاك . ويرجو تقدمك ، أما بعد : فإن من نعم الله الكاملة أن أرى لى ابناً قد أعزهُ الله ، ورفع قدره ؛ وأعلى شأنه ، وجعله قدوة لإخوانه ، وقرة عين لمعلميه . وذلك ما أرجوه منك . وأمنّى نفسى به : ولن يكون ذلك حتى تتجمل بكامل الآداب : وفاضل الأخلاق وتنال غاية السبق فى العلوم والمعارف ، وقد علمت أن الامتحان سيكون يوم كذا فخذ له الأهبة ،

وأعِدَّ العُدة ، من قوة ونشاط . وعلم ومعرفة ،مع الثبات والصبر والمحافظة على الصحة فإن العقل الكامل فى الجسم الكامل ، وليس من الرأى أن تسرع فى الإجابة قبل أن تتثبت من السؤال ، فتزل بك القدم ، ولا تجنى سوى الندم . أعيذك بالله منه ، وإياك أن تعتمد على غيرك .

فإنما رجل الدنيا وواحداها من لايعول فى الدنيا على رجل

ولا تخط بيمينك إلا ما عرفت صحته ، وعلمت صوابه ، فإن قليل الثواب خير من كثير الخطأ ؛ ولا خير فى الخطأ : وحسِّن خطك يزدد جوابك حسناً ، وراع النظام ما استطعت ، حتى يقرأ المصحح كتابتك بسرور وانشراح ، فتنال أعلى الدرجات ، وتفوز بتمام النجاح ، وهو ما أنتظره أنا ووالدتك التى تعانى الآلام لبعدك عنها فحقق آمالنا فيك ، والسلام عليك .

٦ — من ولد إلى أبيه يرجوه أن يفتح مدرسة

والدى الأجل ، أدام الله بك النفع ؛ وتمم بك الخير :

بعد سلامى عليك ، وتحيتى لك ، أكتب إليك مجيباً داعى الوطن الذى أقلتنا أرضه ، وأظلتنا سماؤه وغذانا نباته ، وأروانا ماؤه ، أطلب أمراً يكسبنا الرفعة ،وعلو القدر وحسن الذكر . ياوالدى العزيز : عهدى بك أن تحب الخير ، وتسارع إلى صنائع المعروف ، وتسبق إلى عمل البر : ولا أجد خيراً أحسن ، ولا معروفاً أكمل ، ولا براً أفضل ، من إنشاء معاهد العلم ، وبناء دوره التى تربى الأمة وترشدها إلى مافيه الخير والسعادة ، وتبعدها عن الشرور والآثام ، فتعيش آمنة مطمئنة ، فأى كريم يرى ذلك ويعرفه ولا يبذل من ماله مايجمله ويجعل أمته فى مأمن من عبث الدهر ، ونوائب الأيام ، فيفتتح المدارس وينشىء دور العلم ، مما يأخذ بيدها إلى المكان الموافق بها وبسابق مجدها ، فأجب ياوالدى داعى الوظن ، وافتح للعلم أبوابه ، وانشىء له دوره ، حتى يسطر لك التاريخ آى الحمد والثناء ، ويحفظ لك جميل برك . وحسن سعيك

تـدول أحاديث الرجال وتنقضى ويبقى حـديث الفضـل والحسنات

وإنى لأجد أغنياء هذه الأمة وأرى أهل الثراء فيها ، انتهجوا قصد السبيل فعنُوا بأمر التعليم ، وأنشـئوا المدارس ، فتمم عملهم ، وحقِّق أملهم ، وأحسن إلى الوطن وساكنيه ، ببناء مدرسة تـكون حسنة من حسناتك ، ومبرة تسند إلى عظيم مبراتك ، والله لايضيع أجر المحسنين .

٧— من أخ لأخيه ينصح له بإطاعة والده وحسن المعاشرة والاجتهاد

أخى العزيز : عاش سعيداً موفقاً للخيرات

أما بعد سلامى عليك ، وتحيتى لك — فقد علمت أن والدىَّ ووالديك غضـبا عليك ، ولم يرضيا عنك ، وذلك أمر كنتُ أعده محالاً ، وأعتبره غير ممكن ، لما عهدته فيك من كامل الآداب ، وفاضل الأخلاق ، وما طبعت عليه من السعى المتواصـل ، وبذل الجهد فى إرضاء والدينا العزيزين ، ولا عجب : فلـكل جواد كبوة ، ولـكل فرس نبوة ، وستـكون هذه هى الأخيرة من نوعها إن شاء الله تعالى . ياأخى أدام الله بك الخير ، ووفقك لصالح الأمور ، إن رضا الوالدين أفضل مايتقرب به النـاس إلى ربهم ، وقد أمرنا الله بذلك ، حيث يقول : « وبالوالدين إحسانا » فابذل وسعك ، واصرف جهدك ، حتى تحوز رضاها ، وتتجنب غضبهما ، وتنال من الله المثوبة والأجر ، وذلك أمر يسير ، لايكلفك غير اتباع أوامرهما النافعة ، واجتناب نواهيهما المفيدة ، مع تـكملك بالآداب ، واتسامك بجميل الصفات ، وحرصك على اقتناء العلوم والمعارف ، وصرف زمنك فيما فيه سعادتك ، وبه هناءتك ، وأنت تعلم أن لاملجأ لنا نلجأ إليه سوى ما نحصـل عليه من الآداب ، ونقتنيه من المعارف ، فإن الثروة مهما تـكن سريعة الزوال ، والمال وإن كثر قريب الضياع . أما العلوم والمعارف والآداب فهى الثروة الباقية ، والمال الخالد ، فأطع أخاك ، واسمع نصائحه ، تـكن من الفـائزين الناجحين ، وهو ما سيكون إن شاء الله تعالى .

٨ ـــ شكر والد لولده على حسن سيرته

أى ولدى ، وموضع أملى ، أدام الله هداك :

سلامى وتحيتى لك .. و بعد : فإذا أحب الله عبداً جعله موفق النية . سديدَ الرأى. جميل الفعل ، حتى ترضى عنه الناس وتحبه . وأنت أيها الولد البار ممن وفقهم الله وهداهم وأخلص سرهم ونجواهم ، وذلك من دلائل رضاه عز وجل ، ومن علامات كمالك ، وطهارة نفسك ، ونور قلبك ، وحسن سيرتك ، وتمام إيمانك ، حتى لقد تحدث الناس بكرم خلالك ، وجميل فعالك ، وهذا ماأريده من حياتى الدنيا ، وما أطلبه وأبغيه من عملى واجتهادى ، وسعيى وجدى ، فسرّ على بركة الله فى طريقك القويم ، وصراطك المستقيم ، واقتن من المعارف أنفعها ، ومن العلوم أفيدها ، وإنى لعملك محب ، ولفعلك شاكر ، وبك فرح ومسرور ، أدامك الله سعيداً وموفقاً ، ولْتَعْرف أن كل الأسرة عنك راضية ، ولك شاكرة ،مثلى وأكثر منى ، وكلنا بخير مادمت بخير ، وهناء ما كنت فى هناء ، نسأل الله أن يديم فرحنا بك ، وفخرنا ببقائك ، وأن يرزقك الصحة التامة ، والنعمة العامة ، وأن يكلأك ويحرسك ، ويزيدك ويعينك ، ومنا عليك السلام .

٩ ـــ شكر ولد لأبيه على حسن معاملته

والدى العزيز ، وأبى الرشيد ، أبقاك الله وحرسك

سلام الله عليك ورحمته وبركاته ، وبعد . فياوالدى الكريم وأبى الشفيق إن مابنفسى لك من المحبة الصادقة . وما بقلبى من الألفة الخالصة ، وما انطوت عليه نفسى من السرور بوجودك أصبح مشهوراً معروفا، كالشمس لاتخفى بأى مكان ، أيها الأب الرحيم منْ نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء ، ومن قام بشكر النعمة ، فقد استحق دوامها ، ولكنى مهما أسطر من ضروب الثناء ، وأقم بواجب الجزاء ،وأكتب

من أصناف الشكر ، وأقر بمـا وجب عليّ من الحق ، فإني عاجز ضعيف غير قادر على إيفائك حقك ، والقيام بالشكر لك — معاملة حسنةٌ ، وتربية صحيحة، وعيشة هنيئةٌ ، وحبٌ وإخلاصٌ ، وتعلق شديدٌ ، وكرمٌ كبيرٌ ، كل هذا رأيته منك ، وفوق ذلك رأيت ، فـكيف وبأى لسان أستطيع أن أشكر لك جميل ماصنعت ، وجليل مافعلت فأنا كما يقول القائل .

وما علمت لسانى كلَّ عن صـفة وما علمتك إلا فوق ما أصـف

أدام الله لك السعادة ، وأبقى لك السيادة ، ورزقك الحسنى وزيادة ، فأنت ولى نعمتى ! وأصل سـعادتى ، حرسك الله وحفظك ، وبلغك المنى والأمانى ، وأسألك أن تبلغ عطفى وحبى وسلامى وتحيتى لوالدتى العزيزة ، فإنى بخير مارضيتما عنى ، أبقاكما الله لى ولباقى الأسرة ، ومتعنا بوجودكما . وتقبلا منى ما يليق بكما من السلام والاحترام

١٠ — شكر من رئيس انفصل عن الخدمة لمرءوسيه

إخوانى الأفاضل وأصدقائى الأماجد،حفظـكم الله وحرسكم . إنى أشكر لـكم مآثركم الغراء ، وفعالـكم الحسنى ، وشيمكم الطاهرة وخلالـكم الفاضـلة ، التى أتم الله بها نعمته عليـكم ، وأظهر كرمه فيكم ، أيها الإخوان ، لقد رأيت منكم عوناً فى الشدائد ، مساعداً عند الحاجة ، سامعاً مطيعاً ذا رأى سديد وفـكر صائب وخبرة تامة ، وعـلم وتجربة ، وصدق وإخلاص ، ولقد كنتم كالحلقةِ المفرَغة لا يُدْرى أين طرفها ولا غرو فأنتم نخبة أهل الفضل ، الحاملون لواء الأدب ، الرافعون منار مكارم الأخلاق ، ولم أجد منكم من كدَّرنى ، ولم أرنى غضبت على أحد ، حتى سارت بكم الأمور سيراً حسناً ، وتقدمت تقدماً سريعاً جميلا ، فمضت مدتى معكم على أحسن ما يكون من السرور والهناء والود والصفاء ، وأملى ألاَّ أُحْرَمَ الاجتماع بكم ، والأنس بمشاهدتكم ، حتى يدوم سرورى وتتم سعادتى ، وبعد فإنى أبذل لـكم كل ما أستطيع من الشكر والحمد والثناء ، لعلى أقوم ببعض ماوجب على لـكم : أدام الله سعادتكم وأعلى منازلـكم ، ورعاكم وحرسكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١١ — شكر من مرءوسين لرئيس لهم انفصل عن الخدمة

ياصاحب الفضل والشرف الرفيع ، إليك ياخير العادلين نقدم كتابنا هذا معربا عن بعض ماانطوت عليه صدورنا لك من المحبة الكامله ، والمودة الحقة ، والتعلق الشديد ، والإخلاص الذى لايشوبه ملق ، ولا يصحبه رياء ، وسيبقى ذلك ويدوم وينمو ويزيد رغم أنف الفراق ، فان بعدك عنا لم يزدك إلا قربا من قلوبنا ، ولم يزدنا إلا ارتباطا بك وميلا إليك ، فنحن كما كنا . . . . أيها الهمام : إن ماجبلت عليـه من الرأفة والشفقة بأتباعك ، والحنان والعطف على مرءوسيك ، وما طبعت عليه من مكارم الأخلاق ، وطهارة الأعراق ، وكمال النفس ، وسلامة القلب ، وما عودك الله من الإحسان، ومنحك من إتقان الإدارة ، وسداد الرأى ، وبعد النظر ، كل هذه الفضائل هى التى جعلتنا طوع يمينك ، ورهن إشارتك ، وتحت أمرك ، فى تلك المدة التى قضيتها بيننا بالعدل واللطف وحسن العمل ، فى تلك المدة التى طاب فيها العيش ، وعزت الحياة ، وتم السعد ، فنحن إذا شكرنا لك عاجزون ، وإذا أثنينا عليك مقصرون ، وإذا مدحنا فلن نبلغ الغرض المقصود ، ولن نقدر على أن نجىء بما يكافىء مكرمة من مكارمك. وخلة من خلالك

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

فتقبل منا شكر أحبابك المخلصين ، ، وحمد أتباعك الصادقين الذين لايزالون طوع يمينك ، ورهن إشارتك ، ويتمنون لك السعادة ؛ ولو أن ذلك لايفى ببعض ماعملت ، ولا بشىء مما صنعت ، بلغك الله المنى ، وأدام لك الخير . . والسلام ؟

١٢ — من والد لولده الكبير يلومه على أمر غير مناسب فعله ، ويحذره

بنى . . ! أرشدك الله ، ووفقك لخير الأمور

لقد عرفتك — صغيرا — ذا أدب وكمال ، تسرنى أعمالك ، وتفرحنى فعالك ، أفتخر بك ، وأزداد سرورا إذا تذكرتك ، فمالك اليوم وقد كبرت سنك ، ونما عقلك وأصبحت أكبر أولادي ، وموضع آمالى ، وصرت قدوة لإخوتك ، يأتمون بك ،

و يقتدون بفعالك ، مالك لاتسرنى أعمالك ، ولا تفرحنى فعالك ، فى مسألة (كذا) نهيتك و زجرتك وخوفتك العواقب ، فلم تسمع لقولى ولم تنته بنهيى ، ولم تخف العواقب ، حتى وقعت فيما نهيتك عنه ، وخوفتك منه ، وفى مسألة (كذا) نصحت نصحى ، و بينت الرشد من الغى ، والنفع من الضرر والهدى من الضلال ، فاتبعت نفسك وهواك ، وكدت تقع فى الهلاك ، وندمت فى المرة الثانية ، كما ندمت فى الأولى ، وهذه ثالثة المسائل أحذرك أن تدخل فيها وأخوفك أن تقع فى شباكها ، فأنا والدك ، وأعلم منك بما يفيدك ، وأحرص على فائدتك من نفسك ، وكفاك ماقلته لوما وتحذيراً ، وزجراً وتخويفاً ، وإن قدمت على مانهيتك عنه (وهو مالا أنتظره) فلا ملام ولا عتاب ، ويكون ذلك عليك وحدك ، هداك الله إلى خير الأعمال ، وأرشدك إلى جليل الفعال والسلام .

١٣ — من صديق لآخر يعاتبه على إفشاء سره

صديقى الكامل ، وعزيزى الكريم ، أدام الله توفيقه :

تحية وسلاما ، و بعد فما كنت لأظن أن الأخ الصادق أعزه الله يرضى أن يبوح بشىء من أسرارى ، أو يسمح لأحد بمعرفة ما عاهدته على كتمانه ، مهما يكلفه ذلك من المصاعب والمتاعب ، فقد عهدته أخا صادقاً ، وصديقاً مخلصاً ، وخلا وفيا يحافظ على الأخوة والمودة جهد المستطاع ، ولكنى رأيت سرى بين الناس منشوراً ، والملأ معروفا وقد كان لايعلمه غيرى وغيره ، وتلك شيمة لا أرضى للصديق أن يتصف بها ، ولا أحب أن تسند إليه ، ولعلها الأحاديث يدعو بعضها بعضاً ، ويستخرج ظاهرها ماخفى من باطنها فبدت من الصديق أسرارى غير قاصد ولا متعمد ، فله العذر المقبول ، إن شاء الله تعالى وكفانى ذلك تأديباً وعظة ، حتى أحتفظ بسرى ولا أطلع عليه غيرى ، فما أبعدنى عن الصواب ، وما أحوجنى إلى التعليم ، لو كنت أحتفظ بسرى ولم أطلعك عليه ، مااضطررت إلى أن أوجه إليك مثل هذا الملام ، فأنا المخطىء ، ولا أعود لمثلها أبداً ؛ حتى تدوم مودتنا ،

وتبقى صداقتنا ، ولقد كتبت ما كتبت لألومك وأعاتبك ، قاصداً بقاء أخوتنا ، ودوام محبتنا فقد قيل :

إذا ذهب العتـــاب فليس ود   ويبقى الود مابقى العتـــاب

١٤ — من صديق لآخر يعاتبه على قطع المكاتبة

صديقى العزيز ، عشت سعيداً :

السلام عليك أيها الأخ الجليل ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد كنا يوم كنا بالمدرسة إلفين حبيبين ، وأخوين صديقين ، لايهدأ لأحدنا بال حتى يقف على أحوال أخيه ، ولا يطمئن له خاطر حتى يتعرف أمور صديقه ، أحب الأشياء إلينا أن نكون مجتمعين ، وأعظمها لدينا ألا نفترق ، فما لنا بعد إذ خرجنا من المدرسة لم نجتمع ولم يعن أحدنا بشأن الآخر ، ولم يبحث عن أحواله ، وإنى أبرىء نفسى من ذلك كله ، فقد كتبت إليك ولم تكتب إلى ، وسألت عنك ولم تسأل عنى ، وعنيت بأمرك ولم تعن بأمرى ، ولعل لك عذراً لا أعرفه وأنت تعرفه ، وأتمنى أن يكون لهذا التقاطع سبب غاب عنى وحضرك ، فقد عهدتنا أخوين متحابين لايفترق قلباهما ، مهما يفترق جسماهما وتتباعد ديارهما ، فكاتبنى ولا تقاطعنى ، حتى أقف على أحوالك ، وأسر بما نلته من رقى وتقدم ، وأفرح لفرحك وأكون جذلا بهناءتك إن شاء الله تعالى ، واجعل هذا الكتاب مفتاحاً لباب المكاتبة بينى وبينك ، ولا تحوجنى إلى العتاب مرة ثانية ، ولا تلجئنى إلى اللوم تارة أخرى ، أحسن الله لك الأحوال ، وبلغك طيب الآمال والسلام ؟

١٥ — من صديق لآخر يعاتبه على التكلم فى شأنه وهو غائب

صديقى صاحب الكمال ، رفع الله قدره ، وأعلى شأنه

السلام عليك والتحية لك ، والشوق إليك ، سرنى الله بارتقائك ، وطول بقائك :

و بعد : فما أعظم حبي لك ، وما أشد ميلي إليك ، وما أكبر إخلاصي وصدقي . وأخوتي وودي . هذا ما أعتقده وما أعترف به . وقد كنت أوقن أنك مثلي أو تزيد . ولكن ياصديقي قد بدا منك ماغير اعتقادي وعهدي وأخلف يقيني وظني . فما عهدتك تذكرني بما لا أحبه . وما علمتك تقول في ما لم يكن . بل هذه أول مرة تقولت علي فيها . وتكلمت في غيبتي بما لا أرضاه . ولا ترضاه نفسك الشريفة . نعم هـذه أول مرة ، نطقت فيها بما أكرهه . وذكرت فيها ما أبغضه . وفي كل الأحوال عرفتك تشد أزري وتقوي عضدي وتساعدني في غيبتي وحضوري . ولعلها الأحاديث ساقتك إلى ذلك مكرها وموافقة الحاضرين ألجأتك إليه على غير رضا . ولكني لم أكن لأنتظر منك مثل هذا . أيها الأخ الكريم : أنت صديقي الوفي . وكل الناس تعرف ذلك . فما يسيئني يسيئك ، وما يحط من قدري يحط من قدرك . وما يرفعني يرفعك . وما يعزني يعزك ، فلا تعد إلى مثلها . ولك عليّ أن أحافظ على مودتك جهدي . وأبذل في إبقاء صداقتك وسعي . ولا تلجئني إلى العتاب مرة أخرى . فان ذلك بيدك وأنت قادر عليه . و إني أود كل الود أن تدوم مودتنا . وتبقى أخوتنا . وفقني الله وإياك إلى طرق الهدى وسبل الرشاد . ومني عليك السلام م؟

١٦ — من صديق لآخر يعاتبه على ترك عيادته

أخي وصديقي ، دام عزك وهناؤك :

السلام عليك و رحمة الله وبركاته . و بعد : فقد عرفتك وصحبتك فما خوفتني الأيام منك نقضاً . ولا توهمت منك صداً ، بل كلما طال العهد على صداقتنا . ومضت الأزمان على مودتنا . كلما تأكدت الصداقة وثبتت المودة . ولكن لم تلبث الأيام (وهـذه عادتها) . حتى بدلت الوفاء صدا . والقرب بعداً . أيها الصديق : مضت على أيام كأنها أعوام . وأنا أتقلب على فراش المرض . كأني أتقلب عل جمر الغضا . وشـوك القتاد . حتى وهنت قواي . وضعف جسمي . وتألم لحالي البعيد والقريب . وزارني الصديق

وغير الصديق . فكنت أرقب ورودك وأنا صابر . كما صبر الظمآن بالبلد القفر . وأنتظر قدوم شفائى بقدومك . فما زادنى ذلك إلا ألما وضعفاً ، حتى مَنَّ الله علىَّ بالشفاء . فلم تعدنى مع العواد . ولم تكن من المهنئين . وكنت أود لو يدوم المرض فى غير جهد . حتى تزورنى فألتمس لك عذراً . ويكون لك من عيادتك شفيع . ولكن الحجة كانت عليك ولى الحق . ولا أقول هـذا فراق بينى و بينك . فما حرصى عل شفائى . كحرصى على أخائى . ولئن ذكرنى ماصنعت قول الشاعر :

إن خلا مـلَّ منا خلِّنـا بالله منـه
هـو لايسأل عنـا مالنا نسأل عنـه

لقد أنسانيه قول الآخر :

وإذا الصديق أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فاجتهد أن يزول ما بنفسى منك بالإسراع فى المقابلة إن قدرت . وإلا فاكتب إلىَّ بما عاقك عنى حتى لا أعود لعتابك . وحتى تدوم صداقتنا . وتبقى مودتنا . وليطمئن قلبى . أدام الله سعادتك وأعلى شأنك . فى صحة تامة . وعافية كاملة والسلام م؟

١٧ — من ولد لأبيه يطلب عفوه

والدى وولىّ نعمتى ، أعزنى الله بك ، وأدام حياتك السعيدة ، إليك أقدم سلامى وتحيتى ، وأنا ولدك الذى أختصك بالمحبة ، وأفردك بالطاعة ، وهو يتمنى علاك ، ويرجو رضاك ، ويرغب إلى الله عز وجل أن يمـد فى عمرك ؛ ويزيد فى رزقك ، مع كمال الصحة وتمام العافية ، يا والدى : أعزك الله ، قد فرطت منى فارطة لم أقصدها ، ونَبوْتُ نبوة لم أرغبها ، وهفوت هفوة لم أتعمـدها ، وأى الناس ليس له عيوب ، وأى الرجال المهذب ، فاغفر زلتى وأقل عثرتى ، وتقبل توبتى ، غفر الله لك ، وأتم نعمته عليك ، وتقبل منك صالح عملك ، ولو لم يكن يا والدى ذنب لما عُرف العفو ، ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا ، وإن الرفق بالجانى عتاب ، وأنا الآن أيها الأب الرحيم ، فى ضيق شديد ،

وكرب عظيم لفقد رضاك ، وافتقارى إلى عفوك ، وقد عجلتُ بالتوبة فعجل أنت بالمغفرة ، : حتى يصلح حالى ، ويطمئن بالى ، وتحسن أعمالى ، والعذر عند كرام الناس مقبول ، أدام الله لك السعادة ورزقك الحسنى وزيادة ، وجعلنى بك كما تحب .

١٨ — من أخ صغير لأخيه الكبير يطلب عفوه

أخى أطال الله حياتك سعيداً موفقاً

عليك سلامى ولك تحيتى . وبعد : فأنت لى بمنزلة الأب، وعندى أعز من النفس ، أحبك وأحترمك ، وأبذل جهدى فى سبيل رضاك ، وقد بدت منى بادية لا أرتضيها ، وفرطت منى فارطة لا أحبها ، وزللت زلة لا أرغبها ، وكبوت كبوة لا أريدها، وعثرت عثرة لا أمتدحها . وقد علمت وساءنى ما علمت ، إن الأخ حرمنى رضاه ، ومنعنى لقياه ، وسخط علىّ . وهو فى كل ذلك صاحب الحق ، وهو المحسن وأنا المسىء المذنب .

ولكنى عهدتك أيها الأخ تقيل العثرات ، وتغفر الزلات ، وتقابل الإساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو . وقد كفانى ما لقيت ، وأدّبنى ما عانيت ، وهذبنى ماقاسيت ، فأرجوك وأنا أخوك الصغير أن تشملنى بعفوك ، وتمن علىّ بصفحك ، وتتفضل بالقبول ، وتسعفنى بالرضا ، حتى أجد للحياة لذة ، وللعيش هناءة والمقام طيباً .

ليس للمكثر المنغص عيش إنما عيش عائش فى هناء

تولاك بالرأى السديد ، والفعل الحميد ، وبلغك ما تريد ، وسلامى عليك ورحمة الله .

١٩ — من مرءوس لرئيسه يطلب عفوه

أيها الرئيس المحبوب ، أدام الله سعادتك ، ومنحنى رضاك وصفحك ، أكتب إليك بكل إجلال واحترام ، معربا عن طاعتى وإخلاصى ، معترفاً بزلاتى وعثراتى ، راجياً عفوك ، متمنياً صفحك ، فقد عودك الله الصفح عمن أساء ، والعفو عمن أذنب ، أطال الله مدتك ، وأتم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ودفع بك الشر ، وإنه ليشق علىّ

وأنا المغمور بنعمتك، المطوق بمنتك، المحوط بكرمك، أن أراك غنى مغضياً وعلىَّ غضبان، لقد ذهب هنائى ، وزاد شقائى ، وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ؛ وصغرت عندى الحياة

فإن تعف عنى أُلفِ خطوى واسعاً ... وإلا يكنْ عفوٌ فقد قصر الخطو

فأسألك يا مولاى صفحك الجميل ، وعفوك الشامل : فإن كل ذنب وإن عظم صغير فى جنب عفوك ، قليل مع صفحك .

رضيت منك بأخـــلاق قد امتزجت ... بالمكرمات امتزاج الروح بالبدن

فإن غفرت زلتى ، وأقلت عثرتى ، وأدركتنى بصفحك وعفوك ، فأنا الأسير لمنتك المؤمل لخدمتك، الخاضع المطيع ، وإلا فأنت الرئيس العادل والسلام .

٢٠ — من تلاميذ يطلبون عفو أستاذهم

إلى الأستاذ الجليل ، والمربى النبيل ، أدام الله عزه والنفع به :

إليك نكتب يا من هذبت نفوسنا ، وربيت عقولنا ، ونميت معارفنا ، وعلمتنا خير العلوم، وكملتنا بجميل الخلال ، نكتب رسالتنا هذه لنعرب عما فى نفوسنا من الاكبار والاجلال ،والتعظيم والاحترام ، فقد بذلت مجهودك لتنفعنا . وصرفت وسعك لتفيدنا ، وعملت لخيرنا فى كل حين ، فنحن المدينون لك بالشكر ، المطالبون بحسن الثناء عليك . وما يكون منا غير ذلك فإنا له كارهون ، وعنه راغبون ، فما فرط منا بالأمس لم نكن له قاصدين ، وما كنا عليه مجمعين ، ولكنه التسرع ساقنا إلى ما فعلنا مكرهين ، وعدم التبصر قادنا إلى ما عملنا مرغمين ، ونحن الآن قد عرفنا خطأنا ،وأيقنا فساد عملنا ، فاغفر زلتنا ، وأقل عثرتنا ، وتقبل توبتنا ، واعف عنا ، فأنت أستاذنا الكريم الذى دلنا على المكارم بفعاله ، وهدانا إلى جليل الصفات بأعماله ، وإنا بما أخطأنا معترفون ، فإن تعاقبنا فبحقك ، وإن تعف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء

فإن نسلمْ فعفو الله نرجو ... وإن نُقتل فقاتلنا شريف .

٢١ — من صديق لآخر طال غيابه

صديقى الكامل أعزه الله :

منى إليك سلام مملوء بالوجد ، مفعم بالشوق ، سلام من قلب مكاوم لبعدك : فى حرقة لنأيك .

سافرت عنا فظل الناس كلهم يراقبون إياب العيد من سفر

سافرت عنى فتركت فراغا لم أجد من يشغله ، وخلفت وحشة لم أصادف من يزيلها ، وكنت أعلل النفس بقدومك ، وأسليها باقتراب وصولك ، فإذا الفراق قد طال ، وإذا غيابك قد أتى على كل سلوة وعلالة ، فمتى تكون أوبتك ، ومتى أسر برؤيتك ، وكيف أنت ، لعلى أراك قريباً على أحسن حال ، ليتنى أكون معك ، فأنت مبعث سرورى ، وأنت سر حياتى ؛ إن كنت لا تجىء الآن وهو مالا أحب ، فابعث إلىّ بكتاب يخفف من لوعة الفراق ، وألم البعاد ، وحرارة الشوق

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

عسى الله أن يمن على بحضورك ، فيطمئن القلب ، وترتاح النفس ، وتذهب ثائرة الشوق ، وتنشر ألوية الأنس والسرور ، وإذ ذاك يطيب العيش ويهنأ المقام ، ولك التحية وأعز السلام

٢٢ — رد الكتاب السابق

صديقى الجليل ، سرنى الله برؤيته على أكمل حال . وأهنأ عيش :

عليك سلامى . ولك تحيتى . وبعد : فيعلم الله مقدار شوقى ومبلغ وجدى . إن شوقى لعظيم . وإن وجدى لأعظم . وإن الذى تجده من فراقنا . وتراه من تنائينا . لعله يكون بعض ما أجده وأقاسيه ، وأكابده وأعانيه . أيها الأخ الصادق : أين ذاك الزمان الذى آنسنى بقربك . وأقر عينى برؤيتك . لقد عاد يبكينى ، وأصبحت ذكراه تؤلمنى وتؤذينى .

فلا تظن أنى قد جفوت . وعن وثيق المودة سهوت . فان بعدك عنى : زادك حباً عندى . وزادنى تعلقا بك وميلا إليك .

لاتحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ماغير النأى المحبينا

لقد كان من الواجب على أن أسأل عن الأخ وصحته . والصديق وحالته . ولكنى — والله يشهد — مقصر . فأرجوك الصفح الجميل . والعفو الشامل . وأنا الآن فى رغد من العيش . نعم الله علىّ كثيرة . وعطاياه متوافره . وخيراته متتابعه . فله الحمد والمنة . أسأله عز وجل أن ينيلك فوق ماأنالنى . ويعطيك أكثر مما أعطانى . وأن يجمع بيننا عن قريب . حتى أسر برؤيتك . وآنس بلقائك : فذلك ما أرجوه . وهو ما أتمناه . ومنى عليك ألف تحية وسلام

٢٣ — من ولد لأبيه يتشوق إليه ويخبره بالسفر اليه لتمضية عطلة العيد عنده

والدى الماجد . وأبى البار . أطال الله بقاءك . وتم هناءك

عليك ياوالدى خير سلام . وأكمل تحية . وبعد : فلو تكرمت علىّ وأنا ابنك الذى شملته نعمتك . وغمرته منتك . وتواتر عليه إحسانك . وتتابع خيرك . لو تكرمت بكتاب تقر به عينى ، وينشرح له صدرى . ويبشرنى بتمام صحتك ، ويسرنى بكمال عافيتك، فقد بدا طالع سعدى . وكمل سرورى. ياوالدى قد برح بى الشوق، وزاد الوجد وطال عهد الفراق، وودت لو أراك وأحظى بلقياك . فأنت أصل حياتى .ومنشأ وجودى ومصدر نعمتى . وبك خيرى وسعادتى . فأسعفنى — رفع الله قدرك — وأدركنى — أبقاك الله — بالمكاتبة . عسى أن يقل مابى من الوجد . ويخف ماأجده من الشوق وقد أقبلت أيام العيد . جعلها الله عليك أيام أنس وسعود. وخير وسرور ،وأعادها وأمثالها وأنت على أحسن حال . وأهنإ بال . وأنا عازم على السفر إلى والدى مدة العطلة. لأحظى بالمثول بين يديه ، وأظفر برؤيته ، فأجمع بين عيدين . وأقرن بين سرورين . على أن رؤية والدى هى العيد الأكبر . والسرور الأوفر . لا زلت يا والدى مصدر نعمتى وسعادتى وبقيت فى أرغد عيش وأتم عافية . . .والسلام .

٢٤ — من والد الى ولده يتشوق اليه

أى ولدى وموضع آمالى . حقق الله فيك ظنى

عليك سلام أبيك الذي يعنيه شأنك ويهمه أمرك . ولك تحية والدك الذى يريد لك السعادة والخير . وبعد — فقد بعد المزار . ونأت الدار . وشحطت بك النوى . وطالت الفرقة، وزادت الوحشة . ولكن كل ذلك هين فى سبيل رقيك . زهيد مع علو شأنك . فاصبر صبر الحازم صاحب العزم . فما هى إلا أيام تمرّ مرّ السحاب . ثم نلتقى على المحبة والرضا . والخير والسرور بعون الله وحسن توفيقه . واعلم أن بعدك عن والدتك هو أصعب الأمور عليها . ومن أشق الأشياء عندها . فاجتهد أن ترجع إليها مكملا بالمعارف مزودا بالعوارف . حائزا أرقى الشهادات ، حتى يكون ذلك كفاء صبرها . ونظير ماتعانيه من ألم فراقك . وإنى لأعدنى سعيداً يوم أراك أسبق الناس إلى المعالى . وأسرعهم فى الخيرات . وأحسبنى موفقا إذا سمعت عنك مايسرنى ويفرحنى . فاكتب إلىّ بأخبارك الحسنى . وأعمالك الفضلى . وكن عندظنى بك . وعهدى فيك، واعرف أنا بخير مادمت بخير . وسرور إذا نلت السعادة . وحزت السيادة . وفقك الله لصالح الأمور . فى عز وسرور . إن شاء الله تعالى ؟

٢٥ ـ من شخص لآخر فى التعارف قبل اللقاء

إلى السيد الأجل . أدام الله به الخير وتم به النفع

السلام عليك ورحمة الله . . . وبعد — فإنى أبتدئك بالمكاتبة . وأفاتحك فى المخاطبة . راغبا أن أكون من أصحابك . متمنيا أن أعد من أصدقائك . محبا أن أرى من أهل الود والإخلاص لك فقد سمعت عنك الخير كله . والكمال أجمعه من حديثك المحمود . وخلقك المشكور . وسيرتك الحسنى، وسريرتك الفضلى . مما شهد به إخوانك وتحدث به معاشروك . وعرفه كل من رآك . وماسألت أحدا إلا قال : إليه تنتهى المكارم . وعنه تصدر الفضائل . ومنه تنال الآداب، فوجب على أن أتعرف بك . وأتشرف بصحبتك . وإنى

وإن لم أحظ برؤيتك ،فقد سمعت بحميد سيرتك، وشهدت جليل أثرك، والأذن تعشق مالايعشق البصر ،فأناسعيد إذا عددت من إخوانك ،وأكون مسروراً إذا كتبت مع أصحابك ،فبشرني بالقبول ،وأجبني فيما أقول، وستجدني كما تحب ،وستراني كما تريد إن شاء الله تعالى ؟

٢٦ رد علي هذه الرسالة

حضرة السيد المحترم والأخ الصادق :

سلاماً وتحية إليك يحملان شكراً يليق بمقامك ويرفعان تقديري لحسن فعالك . ابتدأتني بالمكاتبة، وسبقتني بالمراسلة ،للتعرف إلى شخصي الضعيف، ورغبة في إخائي وصداقتي. وتلك مكرمة أقدرها ،قدرها وحسنة لا أنساها ،وإني لأول من يتشرف بصحبتك ويرغب من قلبه في صداقتك ولكنها سجاياك العالية أبت إلا أن تكون البادىء بالخير والخير بالخير أدام الله لك وبك الخير، وإني لقادم إليك مسارع إلى لقائك مجيب تلك الدعوة البريئة فلعلك تنتظرني بمكان (كذا) مساء اليوم الساعة السابعة ، لأقوم لك بخالص الشكر وأمتع النفس بحديثك وجميل لقائك ولك الفضل السابق والسعي المحمود ، والى اللقاء القريب إن شاء الله تعالى ؟

٢٧ — من صديق لآخر يهنئه بعام هجرى جديد

إلى السيد الجليل دام موفقا

سلام الله عليك .وبعد :فما أعظم شوقي اليك،وما أشد وجدي بك ،أطال الله حياتك وأعلى شأنك . لقد دعاني أيها الصديق إلى مكاتبتك الاستفسار عن صحتك ثم تهنئتك بأول يوم من هذا العام الجديد،عام الهجرة النبوية،عام الهدى،عام نشر الدين ، ذلك العام الذى هاجر فيه الرسول المصطفى ﷺ . فقام بأمر ربه بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، صابراً على أذى المشركين ومناوأة الظالمين ،حتى قُوض بناء الشرك. وأزيلت معالم الضلال ، وخذل الشيطان وحزبه . وعُبد الله وحده . وهو في أثناء ذلك يعاني

أهوالاً تزيل الرواسي ويقاسي أحوالاً تشيب النواصي . خائضاً غمارها . راكباً ثيارها . مع ثبات جأش وطلاقة وجه . وذلاقة لسان . وحسن بيان . حتى أقام الهدى . وضرب الصوى . وأمن المسالك . واستضاء العام بنور الاسلام . وظهر الحق . وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقا . . . ! فجزاه الله عنا أحسن مايجزى به نبيا عن أمته عليه الصلاة والسلام

فأهنئك بهذا العام ، وأسأل الله أن يجعله عاماً مملوءاً منك بحسن العمل . وجليل الأثر . مقتديا فى أمورك بالمصطفى . موفقاً إلى طرق الهدى . مع وفرة صحة . وتمام عافية أنت ومن تريد من أسرة وآل . وأحباب وأصحاب .

والسلام عليكم ورحمة الله

٢٨ ـ من صديق لآخر يهنئه بعيد الفطر

عزيزى الكريم — وصديقى الحميم أدام الله بك ولك السرور

سلامى عليك . وتحيتى لك . وبعد : فأكتب إليك أهنئك بيوم الفطر يوم المسرة والهناء ،يوم الأنس والصفاء ،يوم الإكرام والإحسان ، يوم الفضل والإنعام ، يوم الفرج بانقضاء شهر الصيام ،أهنئك فيه باستكمال صحتك واستتمام نعمتك، واستيفائك رفاهتك ونعمتك ورضا الله عز وجل عنك بقبول خيراتك وصيامك ،وصلاتك فلك أجمل التهانى بهذا اليوم المبارك ،يوم العيد السعيد،لازلت لابساً فيه لبوس العز ، متحلياً بحلى المجد أعاده الله عليك وعلى أسرتك وعلى الأمة باليمن والبركة والخير والسعادة والسرور والهناء

وتقبل سلاماً أزفه إليك فى كل وقت وعيد

٢٩ — من صديق لآخر يهنئه بعيد الأضحى

صديقى الفاضل أدام الله سعده وتوفيقه . وأنسه وسروره :

سلاماً واحتراماً . وتحية وإكراماً . وشوقاً عظيما . وبعد فما أجل يوماً يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ليتعارفوا ويتآلفوا . ظاهرين بأجمل المظاهر .

قائمين بأداء الشعائر ،متبعين سنة سيدنا إبراهيم الخليل . وطريقة نبينا الحبيب . عليهما صلاة الله وسلامه ، ذلك هو خير الأيام . ذلك يوم الحج الأكبر والسرور الأعظم . ذلك يوم الأضحى المبارك . فوجب علينا أن يهنيء بعضنا بعضا . بهذا اليوم السعيد . يوم الهناء والصفاء . والأنس والسرور . وإنك أيها الأخ الصادق ممن عنوا به . حتى نالوا عظيم الثواب وجميل الأجر على ما قدموا من حسنات . وأنفقوا من طيبات . كما عودك الله فى مثل هذه الأيام من الأعوام الغوابر . والسنين السوالف، فحق عليَّ أن أهنئك بيوم العيد الكبير عيد الأضحى . أعاده الله عليك وعلى من تريد باليمن والبركة والخير والسعادة . بقيت موفقاً محموداً . فى خير وهناء وأنس وصفاء . ومنى عليك السلام م؟

٣٠ — من صديق لآخر يهنئه بالقدوم من الحج

صديقى الجليل : لازلت موفقاً لصالح الأعمال . وخير الفعال

سلامى عليك وتحيتى لك . و بعد : فإن خير الناس من أطاع ربه . وأدّى فرضه . وامتثل أمره . وجانب ما نهاه الله عنه . ولأمر ماجعل الله التكاليف ودائع عند خلقه . وأمانات لديهم يردونها إليه سبحانه وتعالى . فضلامنه ونعمة . وإن من أجل ماافترض الله على عباده الحج إلى بيته الشريف . وحرمه المنيف. فندب إليه . وحض عليه . وألزم به المستطيع القادر . وأبان مافيه من المثوبة والأجر على لسان رسوله . وخير أنبيائه ﷺ لقد كنت أيها الأخ الموفق ممن أجاب الدعاء . ولبى النداء وفاز بالخير . وظفر بالبر وحسن الأجر . خرجت من بيتك مهاجراً إلى الله ورسوله . متوجها نحو هذا البيت المبارك : فأديت أمانة الله التى عندك . وقمت بما فرض عليك . وعدت بالبركة واليمن . والعافية والسلامة . فلما بلغنى خبر تشريفك وقدومك . امتلأ قلبى سروراً وفرحاً . ولولا بُعد الشقة وطول السفر لطرت شوقاً إليك . وحرصاً على لقائك . والمثول فى حضرتك والتمتع بمشاهدتك . فأفوز فوزاً عظيما . ولكن إن فاتنى هذا ، فما يفوتنى

أن أرسل إليك كتاباً ينوب عنى . وينال منك القبول . جعل الله حجك مبروراً . وجزاءك موفوراً . وأدام لك الخير والهناء والعز والصفاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

٣١ — من صديق الى آخر يهنئه بمولود

صديقى الفاضل دمت سعيداً موفقاً

السلام عليك . والتحية لك . وبعد فيعلم الله مقدار سرورى وفرحى . بما رزقك الله من خير الأولاد ،وأنجب الأبناء ، وأسعد الأنجال . أقر الله بهعينيك وأبقاك له تهذبه وتحفظه . وتربيه وتكلؤه : حتى يكون رجلا عاملا . وإنساناً كاملاً . يسعى فيما يرفع شأنه ، ويخلد ذكره . وإن من سعادة المرء فى هذه الحياة أن ينال الذرية الطيبة . والنسل الصالح . الذى يرفع من أمره ويعلى من قدره . فاحتفظ بهذه الدرة اليتيمة . والجوهرة الكريمة واللؤلؤة النفيسة . وتعهدها بنفسك . وتولها برعايتك حتى تكون قد أديت الأمانة . وعملت بحق الولاية . فإذا ترعرع فى عزك وبين يديك . فاعهد به إلى مؤدب عالم . ومرب كامل . ليتأدب ويتعلم . ويتربى ويتهذب . ويعرف مافيه خيره وسعادته ونفعه وفائدته . ولا تدع فرصة تمر بك إلا وأنت باذل جهدك فى إعانته . صارف وسعك فى إفادته . حتى يبلغ غايته . ويظفر بما ترجوه وترمى إليه . وهو ما سيكون إن شاء الله تعالى . فأهنئك بهذا المولود المضىء نجمه . المتألق كوكبه . السعيدة أيامه . المرضية عيشته . وأسأل الله أن يبقيك له راشداً مرشداً ،وهادياً وناصراً . وأن ينفعه بك . وينفعك به . وأن يجعله قدوة حسنة لإخوانه . عوناً لأصدقائه . ظهيراً لأمته وبلاده . والسلام عليكم ورحمة الله .

٣٢ — من صديق لآخر يهنئه بنيل الشهادة الثانوية

صديقى الفاضل . رفع الله قدره : وأعلى شأنه

أما بعد السلام عليك . والتحية اللائقة بك . فإنى أشكر الله تعالى على سنىّ ماأعطاك . وجميل مامنحك . وأهنئك بما نلت من رفعة وتقدم . وعزة وشرف . وفخر وسؤدد . وذلك أجر من سعى وجد . وجزاء من عمل واجتهد . نعم قد حزت الشرف

بتلك الشهادة التى تدل على رقى فكرك ، و كمال عقلك . وغزير علمك ، فأهنئك ولك الفخر ، وأرجو الله عز وجل أن تكون هذه الشهادة أوسط سلسلة تنتهى بعلو قدرك ، وارتفاع شأنك ، و بلوغك الدرجة القصوى فى الكمال ، ولئن كانت هذه الشهادة مداداً على ورق ، إنها لعنوان شرفك ، ودليل على حسن سعيك : ومثابرتك على العمل ،و سيرك فى طريق الجد ، وأسأل الله أن يديم توفيقك ، حتى تفوز بالخير والسعادة فى حياتك المستقبلة إنه سميع مجيب .

٣٣ — من صديق إلى آخر توفى أبوه يعزيه

أخى وصديقى الجليل : رزقه الله الصبر ، وجميل الأجر ، سلام الله عليك وتحيته و بركاته و بعد : فقد كنت أود (وما أود لك إلا الخير) كنت أود وأبغى لك دوام السرور ،و بقاء الهناءة، واستمرار الفرح ، ولكن أبى القضاء إلا أن نشاركك فى الأحزان والهموم . وكان أمر الله قدراً مقدوراً . فمات أبوك رحمة الله عليه وما ماتت مكارمه . وانقضت أيامه . وما انقضت محامده . وأنت له خير خلف . فما الجزع مما لابد منه . وما الحيلة فيما لا يمكن دفعه ، ولا يُستطاع رده . ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات

حكم المنية فى البرية جارى ما هذه الدنيا بدار قرار

و إنى أعرف أن المصاب جلل . والخطب عظيم . والرزء جسيم

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

غير أن أفضل الأشياء عند المصائب الصبر عليها، والاستسلام لها، فانه لا مفر من قضاء الله،ولا بد مما هو كائن،و إنما الدنيا دار هَمٍّ و بلاء،و بؤس وعناء ، لاتدوم نعمها .ولا تؤمن فجائعها . فصبراً صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

عول على الصبر الجميل إنه أمنع مالاذ به أولو الحجا

و إن وراءك الآن مستقبلا فانظر إليه . وأمامك حياة جديدة تتطلب الثبات والصبر وحسن العمل،فهوّن عليك . واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور . وأسأل الله لك جميل العزاء وخير الجزاء والسلام .

٣٤ — من صديق إلى آخر مات ابنه

أخى وصديقى رزقه الله حسن العوض . وألهمه جميل الصبر

سلاماً وتحية و بعد : فأكتب إليك وبى من الألم ما الله يعلمه . ومن الحزن مابلغ نهايته لموت ولدك العزيز ، وفقد نجلك المحبوب . صاحب الخلق المحمود ، والأدب البارع ، والعقل الكبير . الذى اختطفته يد المنون . وهو فى ريعان الشباب . ومقتبل العمر ، فأخفت منه شمساً زاهية ، وسترت منه نوراً وضياء . وفهماً وعلماً . ففارقنا مأسوفاً عليه ، وغاب عنا بالرغم منا . وهذه حال دارنا الدنيا ، تجود لِتسلبَ وتحلى لتمر ، وتهبُ لتأخذ . تعب دائم وحزن طويل

وقد فارق النـــــاس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب

لجدير بك وأنت خير من يقتدى بأعماله ، ويهتدى بفعاله ، أن تصبر الصبر الجميل والله موليك أحسن العوض ، ومعطيك أفضل البـدل ، ورازقك أنجب الأولاد ، فى عيشة هنيئة طيبة ، وحياة سعيدة مرضية . لا أراك الله سوءا . ولا أبصرك مكروهاً وأسأل الله عز وجل . أن تكون كتبى إليك كلها فى التهانى . وعامتها مُفعمٌ بالبشائر . والسلام عليكم ورحمة الله .

٣٥ — من صديق إلى آخر يشكو إليه

سوء معاملة ثالث صـديق لهما

عزيزى الفاضل . وصديقى الصادق أعزه الله :

لك منى سلام يحمله الوداد . واحترام يحرسه الشوق . وتحية يقدمها الإخلاص المحض . و بعد : فمالى ولأخى وأخيك الأجل ، كلما سعيتُ له سعياً حسبه أمراً نُكراً ، وكلما قدمت له خيراً عـده أذى وشراً ، أحسن إليه ويسيئنى ، وأساعده ويضرنى ، وأكون له ولا يكون لى ، وما أعرف لى ذنباً إلا أنى أشفق الناس عليه ، وأبرهم به ، وأصدقهم له ، وأوفاهم وأخلصهم ، وهـذا ما تعرفه عنى ، وتعهده بى ، ولقد صبرت حتى كتبت إليك أشكو أمره ، وأخبرك خبره ، لتحكم بينى و بينه ، وأنا الآن معه كما قيل :

تصبرت مغلوباً وإنى لموجع   كما صبر الظمآن بالبلد القفر

وأملى عظيم، ورجائى أعظم، فى أن تكاشفه فيما قلت، وتخبره بما كتبت، حتى يحسن إلىّ، كما أحسنت إليه، ويعاملنى كما أعامله؛ وإلا كنت وإياه كما يقول ذو الأصبع العدوانى:

ما ذا علىّ وإن كنتم ذوى رحمى   ألا أحبكم إن لم تحبونى

واقبل من أخيك المخلص الصادق سلامه واحترامه، بقيت محروساً، وبنعم الله محوطاً، فى عز وسرور، وصحة وسلام.

٣٦ — من صديق إلى آخر فى شكوى الزمان

صديقى . . .

سلاما وتحية. وبعد: فمن لى من زمان كله نوب. ودهر كله كرب، وحياة كلها بؤس وشقاء، وعناء يتبعه عناء. مالى وللدهر يؤلمنى وأنصبر، ويؤذينى وأتحمل، ويسىء إلىّ وأتقبل كأن له ثارات[1] قديمة وترات[2] سالفة يريد الأخذ بها وقد ظفر بى مع أنى — والله يعلم — لم أقترف ذنباً، ولم أجن جناية غير أنى للعلم منسوب، وبالفضائل بين الناس معروف وللخيرات فاعل، ولأمتى عامل، فإن كان ذنبى إليه ذلك فتبا[3] له ما أظلمه يعاكس الفطن الأريب، والعاقل اللبيب، ويترك الغر[4] الجاهل والأحمق الأبله. ولا عجب فهذه شيمته، وتلك سجيته، وإن لى أسوة حسنة وموعظة ظاهرة فى قول من قال:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فأبسط يدى لمن خلق السموات والأرض ربى ورب الدهر أن يقينى شره، ويحفظنى من أهله، إنه مولاى ونعم النصير، والسلام عليكم ورحمة الله

---

(١) ثارات من الثأر وهو أن يقتله فى نظير من قتله.

(٢) ترات جمع ترة وهى الاخذ بالثأر مع ظلم فى ذلك.

(٣) تباً له ألزمه الله خسرانا وهلاكا (٤) الغر الذى لا تجربة له.

٣٧ — من صديق لآخر يدعوه للغداء معه فى رفقة لهما من الطلبة

أخى الذى به يتم سرورى ، ويكمل أنسى .

عزيزى ، سلاماً وتحية ، ومعذرة منى إليك : لقد كنت أود أن أجىء إلى أخى ، وأدعوه بنفسى ، ولكنها الشواغل خانتنى ، فلم أجد الفرصة الكافية ، لأحظى بالمقابلة ، التى أعد وقتها من أسعد الأوقات ، فأرسلت إلى أخى الذى أعرفه عفوًا كريماً ، وأعهده محباً صفوحا ، أرسلت أدعوه إلى الغداء ؛ مع إخوة لنا أصفياء ، من طلبة الجامعة ، فى منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم بمنزلى رقم كذا بشارع كذا

ولى كبير الثقة فى مكارم أخى أن أراه كوكباً وضاء وسط إخوانى وإخوانه ، فى ذلك اليوم الذى سيكون يوم السعادة ، ويوم الهناءة ، بحضوره ، وتشرفى بقدومه ، وإنى لجاب وشاكر ، وإنه لمجيب وحاضر ، كما عودتنا سجاياه ، وكما نعهده فى شيمه ، من المسارعة فى إرضاء الإخوان ، وأنه مصدر الفضل ومنهل الإحسان ، وسأبشر الإخوان بمقدمك السعيد ، وأقدم لك الشكر قبل المجىء ، لاعتقادى أنك لابد حاضر ، وأنى لابد شاكر ، والسلام على أخى ورحمة الله

٣٨ — من أخ يدعو أخاه لرحلة خلوية مع اخوانهما

أخى العزيز وصديقى المحترم :

أكتب إليك متمنياً حضورك ، راغباً فى مجيئك ، صباح الأحد المقبل فى مبدأ الساعة السابعة بمنزلى ، لأنا قد اعتزمنا الخروج فى هذا اليوم إلى الهواء الطلق ، فى الرياض والحدائق عند القناطر الخيرية ، وشواطىء النيل السندسية ، لنقضى هذا اليوم بعيدين عن الأعمال ، ومشاق الأعمال ، بين المياه والأزهار ، والحدائق ، والأنهار ، فى صحبة إخوان لنا كرام ، وطلبة كملة أخيار ، وقد أعددنا العدة ، واتخذنا الأهبة ، ليكون هذا اليوم يوماً سعيداً ، نتمتع فيه برحلة هنيئة ، فاتفقنا على الأغذية والأشربة ، وأحضرنا آلات الطرب ، وكرة القدم ، وبعض الخدم ، والمصور الشمسى ، وأدوات التصوير ،

وستكون هذه الرحلة إن شاء الله تعالى رحلة مباركة ، وجولة طيبة ، تفيدنا صحة وعلماً وتعارفا وائتلافا ، ووقوفا على تلك الأعمال الجيـدة ، التى خلفها رئيس الأسرة العلوية « محمد على باشا » تلك الاعمال التى تدل على أن اليـد المصرية يد قوية موفقة تأتى بالعجائب ، متى وجدت من يحولها إلى العمل المنتج ، والفعل المثمر ، وقديماً تركت هذه اليد آثاراً لا تزال باقية تشهد بأن مصر وشعبها كأرقى الممالك والشعوب .

ولى أمل عظيم فى حضورك ، فإن كل الإخوان يعدونه سعادة الرحله ، وأنها لا تكمل إلا به ، وإنى لأشعر من أعماق قلبى أنكم حاضرون إن شاء الله تعالى .

٣٩ — من صديقة لأخرى تشكر لها حسن صنيعها

صديقتى وعزيزتى المهذبة الكاملة :

إليك أسمى تحيتى ، وعليك أسنى سلامى ، ولك عظيم شكرى ، وجليل احترامى ، لقد توالى علىّ فضلك ، وترادف علىّ جميلك ومعروفك ، وإنى لأقف أمام فضلك وجميلك ومعروفك ، موقف العاجزة الضعيفة عن الوفاء ، بما يجب لك من الشكر والثناء ، ولا عجب فأنت السباقة إلى الفضل ، الفائزة بالحظ الأوفر فى فعل الجميل ، وهـذا ما عودك الله إياه منذ نشأتك ، وهو الذى عرفته عنك من أول يوم رأيتك فيه .

رضيت منك بأخلاق قد امتزجت ... بالمكرمات امتزاج الروح بالبدن

فتقبلى من أختك المعترفة بفضلك ، المقرة بعظيم معروفك ، جميل شكرها ، وجليل ثنائها ، ظافرة بما ترغبين من عيشة هنيئة ، وحياة سعيدة ، ولا زلت لك الوفية المخلصة ولا زلت لي ولأخواتنا الكوكب الساطع فى سماء الرقى والفضل العظيم .

٤٠ — من صديقة تشكر لصديقتها إجابة دعوتها

عزيزتى ذات الفضل والأدب ، والكرم والحسب :

أما السلام فعلى تلك الشيم الطاهرة ، وأما التحية فإلى هذه الأخلاق العالية ، تلك هى شيمك وهذه هى أخلاقك ، يا ربة الصون والعفاف ، يا صاحبة الكمال والجمال ،

دعوتك دعوة من لا يتم سرورها إلا بك ، ولا يكمل هناؤها إلا بوجودك ؛ وأنت تعرفين ذلك ؛ فأجبت دعوتى ، ولبيت طلبى ؛ وشرفت حفلنا الذى زها بطلعتك ، وتم بهاؤه بحضورك ، فكان مجمع الأنس والصفاء ، وحفل المسرة والهناء ، ولقد ازددت عند الحاضرات قدراً بتشريفك ، وعلا مقامى بينهن بمجيئك ، فأنا المدينة لك بالجميل ؛ المعترفة لك بالفضل ، فكتبت ما كتبت لأعرب لك عن عظيم سرورى ، وكبير امتنانى ، وعما تكنه نفسى من الود والإخلاص ؛ والحب والوفاء ، راجية أن تقبلى شكر من أعجزها معروفك عن الشكر ؛ أبقاك ربك متمتعة بما تحبين من سعادة وهناءة وتفضلى بقبول أسمى سلامى ، وتقديرى واحترامى .

٤١ — من صديقة تسعى للصلح بين صديقتيها

وترجو إحداهما الذهاب معها إلى الثانية

صديقتى العزيزة ، وأختى الودودة :

يا ذات الشرف والمجد ؛ لك من المكارم ما سارت به الأمثال ، ومن الخلال الطيبة ما عرفت به بين الأتراب ، فكتبت إليك راجية وأملى عظيم فى قبول الرجاء ، ورجائى كبير فى إجابة النداء .

رجائى وأملى أن تصحبينى إلى أختى وأختك ، صديقتنا النبيلة المهذبة ، الكاملة المؤدبة ، غير ناظرة إلى ما كان منها فى حقك ؛ ولا ما كان منك فى حقها ، ولا ينبغى أن تكون أول هفوة سبباً فى الخصام ، ولا يليق أن تكون أول زلة داعية إلى الفراق

ولأنى أعهد فيك كرم الشيم ، وعلو الهمم ، وكمال الحلم ، وعظيم الخلق ، كتبت راغبة إليك أيتها الكريمة أن نذهب معاً إلى منزلها ، لتكونى السابقة إلى الفضل ، المسارعة إلى الجميل ؛ البادئة بالصفح والعفو ، فأرجو أن تجيئى إلى منزلى ، أو أجىء إليك فى الميعاد الذى تحبينه ، لنذهب إلى صديقتنا التى تنتظرنا بمنزلها انتظار المحبة والوداد ، والإخلاص والوفاء ، راغبة فى زوال ما كان من سوء التفاهم ، وإعادة ما كان بينكما من خالص

الحب ، وعظيم الود ، و إنى و إنها لنقدر لك هذه المكرمة قدرها ، وسنقوم لك بما يجب من شكرها . بعد تفضلك بإجابة رجائى ومنى عليك السلام .

٤٢ — من أخت تشكر لأختها نجاحها في الصلح بينها و بين صديقتهما

عزيزتى المهذبة :

إليك يا أصيلة الرأى ، يا صاحبة الحكمة والفضل ، أرفع تحيتى وسلامى ، شاكرة حسن سعيك ، مقدرة جميل صنعك ، معترفة بحميد فعلك ، بقيت للخير تُعلين مناره ، وللمعروف ترفعين علمه ، لقد بذلت فى سبيل الصلح بينى و بين أختينا الصديقة المخلصة ، مجهوداً مشكوراً كلّله الله بالنجاح ، وغزاه إخلاصك بالفوز والقبول ، فبأى لسان أشكر لك هذا المسعى الحميد ، وذلك الفضل الكبير ، ليتنى أستطيع أن أفى لك ببعض مايجب من الجزاء ، لعلى أوفق للاعراب عما يناسب فضلك من الحمد والثناء ، حقاً إن عملك فوق كل شكر ، و إن سعيك ليستحق كل ثناء وحمد ، ولكنى إن عجزت عن الشكر ، فلا أعجز عن الدعاء ، فأسأل اللهلك جزاء عظيما ، وعيشاً هنيئاً ، وحياة سعيدة ، وأعمالا خالدة مجيدة ، بقيت لى ولأترابك سراجاً منيراً ، ولوطنك وساكنيه كوكباً مضيئاً

سأشكر ما حييت حياة روحى   وأذكر فضلها فى كل حين

وتقبلى من أختك الاحترام والشكر والسلام .

٤٣ — شكر لصديقة كلفتها صديقتها عملا فأدته كما يجب

صديقتى العزيزة وأختى الوفية يرعاك الله و يحفظك

يا كريمة النفس ،ياعلية القدر والمقام ،أنت الكريمة حقاً، أنت ذات الفضل العظيم ياعزيزتى :لك من الأعمال الجليلة،والفعال الحميدة ،بل من السجايا الشريفة ،والخلال الطيبة ماجعل لك فى نفوسنا جميعاً المحل المحمود والدرجة الرفيعة

ياأختى كلفتك — وليس لمثلى أن تفعل ذلك — ولكنها أخلاقك الحسنى أطمعتنى أن أكلفك وأنت العالية القدر، السامية المنزلة ، كلفتك فرأيت همة عالية ، ونفساً سامية

وكرما ليس بعده كرم ، وقياما بالاحسان والاكرام هو خير القيام ، ولقد أديت العمل أحسن منى ، فلله تلك السجايا الكريمة ، ولا غرو فأنت قد عرفت بالعناية بحاجات أخواتك أكثر من العناية بحاجات نفسك ، فما أكرم أخلاقك ، وما أعلى نفسك جزاك الله أحسن الجزاء ودمت فى عز وهناء

ياأختى العزيزة لك شكرى ، لك ثنائى وحمدى لك كل الفضل يارفيعة المقام ، ولعلى أوفق أن أقوم لك بأى خدمة تريدينها ياعزيزتى حتى أؤدى واحدة من كثير أياديك ، وإن يوما أخدمك فيه لهو يوم سعادتى وأنسى ، وسرورى وانشراحى .

فاقبلى الآن شكرى وأسنى سلامى

٤٤ — من صديقة لأخرى تعدها أن تجتمعا للذهاب معاً إلى حفلة زفاف صديقتهما

أختى . عزيزتى ، رعاك الله وأدام بك ولك السرور

أيتها الحبيبة : إن أوقات السرور نادرة . وساعات الفرح عزيزة قليلة ؛ فهى إحدى الفرص التى يجب أن تنتهز،ولحظات الهناء التى يلزم أن تختلس : وقد منّ الله على أختنا « فلانة » بأعز ساعات العمر ، وأهنأ أوقات الحياة ؛ تلك هى ساعة زفافها ، وهذا هو وقت فرحها بزوجها ، في ليلة « كذا » فقابلينى الساعة « كذا » فى منزلى ؛ وتأهبى لنشترك معاً فى فرح أختنا وسرور صديقتنا ، تلك الصديقة التى أنت أعلم بها منى ، تلك الصديقة الرءوفة العطوفة ، الشفيقة الرحيمة ، ذات الود والاخلاص ، والصدق فى جميع الأحوال .

وقد دعتنى ودعتك فوجب علينا أن نلبى دعوتها ؛ ونؤدى حقها ، ونبين مابيننا وبينها من قوة الرابطة ؛ وتمام الألفة والصداقة ؛ فتزداد بنا سروراً ، ونزداد بها فرحا وحبورا

فتعالى تعالى ولا تتأخرى ، فذلك وقت الوفاء ، وهذا مكان إظهار العطف والوداد أقبلى . . أقبلى ، ولك الشكر والفضل ، وعليك السلام

٤٥ — من بنت لأبيها تطلب العفو عن أخيها

والدنا وولي نعمتنا حفظك الله ورعاك وبلغك مناك .

سلامي عليك أيها الوالد العليّ القدر، الرفيع المنزلة، السامي المقام، وبعد فما كنت لأظن أن أخي الذي أحبه من صميم قلبي يطيع نفســه . ويتبع هواه ، ويعمل مايغضبك ، ويأتي ما لاترضاه مما علمت به ووقفت على حقيقته . هذا الذي نفرك من أخي قد اشمأز منه كل من اطلع عليه . كيف وقد سمع نصائحك وعرف أوامرك، وعلم نواهيك — يقدم على مافعل ؟ ماأقبح فعله ! وما أبعده عن الصواب ، وقد لمت أخي أشد اللوم ، وأنّبته أكبر التأنيب فاعترف بذنبه . وأقرّ بجرمه، وأظهر الندم، وأبدى شديد الأسف . وقد رجع وأناب واستغفر ربه وتاب، ولم يبق له من مكدر سوى سخطك . ولم ينغص عيشه سوى غضبك فهو يرجوك وقد توسل بي إليك — أن تجود عليه بالصفح وجليل العفو ، وكل ماتفعله جميل وحسن ، ولـكني أرغب إليك — وأنت الوالد الرحيم العادل الشفيق — أن ترحمه بالعفو وكفاه أدبا وعقابا، وردعا وزجرا، ما قاساه وما عاناه من ذنبه، وما يقاسيه ويعانيه من غضبك

فجد بعفوك واصفح   فأنت بر كـريم

وأنا شفيعته إليك فاقبل شفاعة بنت أملها فيك عظيم، ورجاؤها في رضاك كبير ، حرسك الله وأعزنا بك . وأرفع إليك في الختام مايليق بمقامك السامي من السلام والاحترام

٤٦ — في الشوق من صديقة إلي صديقتها

إلى ربة الأدب والـكمال وذات اللطف والجمال

صديقتي وحبيبتي

أكتب إليك سلام من أخلصت لك الوداد ، وتحية من أفردتك بالإخوة والمحبة ، تلك أختك التي أذابها الشوق وما تصادفه من الوجد عليك . هذه صديقتك التي من أعز الأشياء لديها رؤيتك ، ومن أكبر الأماني عندها مشاهدتك

خيالك في التباعـــد والتـداني   وشخصك ليس يبرح عن عياني

وشوقـك فى الجوارح مستـكن وذكرك لايفارقـــــه لسانى

نعم : هو ذاك ، فإن أدبك البارع وجمالك الفائق ، ومعاملتك الحسنى،وأخلاقك الفضلى ، وعشرتك الجميلة ، ومحاسنك الجليلة ، كل هذه دواع تستوجب تذكرك فى كل وقت وحين ، فـكيف أنسى شخصك الـكريم ، أم كيف أغفل ذكرك الحسن؟ ذلك مالا يكون،قرب الله بيننا،وجمع شملنا ، حتى لاأحرم من رؤية ذاتك الشريفة،والاقتداء بآدابك الفاضلة . فما أجمل الوقت الذى أراك فيه ، وما أفضل الساعة التى أشاهدك فيها ، ذلك أحسن أوقاتى، وتلك أجمل ساعاتى ،متى يجيئنى كتابك يبشرنى بقرب اللقاء، ويسرنى بوقت الحضور ، ويقلل بعض مابى من الشوق ، وما عندى من الوجد . إنى لأرجو أن أحظى بك فى أقرب فرصة ، وأسرع وقت

عسى الدهر يدنينا ويدنى ديارنا فنأنس أنسا ليس يعـد له أنس

أدام الله علاك ، وبلغك مناك ، وزاد لك فى الخير والسرور ، والسلام .

٤٧ — من صديقة إلى أترابها تتشوق اليهن

أخواتى العزيزات ، وصديقاتى الفضليات ، سرنى الله بلقائـكن عن قريب

سلاما وإعظاماً ، وتحية وإكراماً ، وشوقا وهياما ، إلى من كنت معهن على الوفاء مجتمعات ، وبالود والإخلاص معروفات ، ليس فينا إلا كريمة الأخلاق ، وما منا إلا طيبة الأعراق ، نفوس طاهرة ، وقلوب نقية ، وظواهر جميلة ، وبواطن أجمل ، ونيات خالصة،وصداقة حقة ومودة فائقة ، فما أهنأ عيشاً جمعنا ،وما أحسن حياة كانت لنا ، ذلك عيش طيب ، وتلك حياة مرضية ، فمن لى بلحظة من هذه اللحظات،ليتنى أحظى ببرهة من تلك الأوقات ، ماأشد شوقى إليها ، ماأكثر وجدى لها ، ليتنى ولعلى أبلغ تلك المجالس المضيئة ، وهذه المجتمعات المشرقة ، بكن وبحسن وجوهكن ، تلك مجالس العلم والأدب وهذه مجتمعات الأنس والهناء ، أتمنى أن أراكن ، وأستمع لحديثـكن ، فتذهب كربتى ويزول وجدى ، ولا يؤلمنى ذلك الشوق الذى أرى بيانى عنه قاصراً ، ودونه ذاهباً

والشوق أعظم أن يحيط بوصفه قلم وأن يطوى عليــه كتاب

أدام الله لـكن السعادة والهناء ؛ وأبقى لـكن العز والصفاء ، وجعلـكن للخير موئلا وملجأ ، وللكمال مورداً ومصدراً ، وللبلاد نوراً وهدى ، وللأمة مناراً وصوى ، ورجائى وودى ، ومناى وأملى ، أن تبعثن إلىَّ برسالة تخفف مابى من الوجد والشوق ، تذكرن فيها أسماءكن وتـكتبنها بأيمانـكن ، لتضاف هذه إلى جليل مكارمـكن — علىَّ — لازلتن لى أخوات صادقات ، ولا زلت لـكن أختاً وفية ، وسلامى عليـكن حتى يجمع الله بينى وبينـكن . وما أدرى أقريب أم بعيد،ولعله قريب ! فأسعفننى الآن بالمـكاتبة ولـكن الشـكر المضاعف والثناء الجميل والسلام يصحبه كل أمل ورجاء .

٤٨ — من فتاة لأخرى تهنئها بزواجها

ياجناب الـكاملة ، جعل الله حياتك الجديدة ، حياة سعيدة ، مرضية هنيئة

ياأخت : أدام الله سرورك،وأتم نعمته عليك،وجعل عهدك الجديد عهد الأنس والصفاء والسعادة والهناء،والخير والبركة والذرية والبنين،والأبناء المسعدين،فنحن لهذه الحياة تعلمنا ولأجل بناء الأسرة المجيدة تهذبنا وتربينا،فأهنئك ثم أهنئك بما صرت إليه،وما أصبحت فيه ،لأنه هو الذى سيمكنك من العمل الجدى ، والخدمة النافعة والعمل المثمر لخير مصر وفائدة الوطن العزيز . فهنيئاً لك ألف مرة ياذات الأدب البارع،والـكمال الفائق والحسب والجمال ، وجليل الفعال ، إن زوجك لسعيد بك إذ فاز بحسنة الدنيا وزهرتها ، وروضة الآداب وجنتها ، فهو بك فى هناءة وسعادة ، وحياة هى أبهى حياة ، وإنه حقا لسعيد وجدير أن ترسل إليه التهانى بتلك الدرة الفريدة والجوهرة الوحيدة

ياأخت : ليس لمثلى أن تـكتب إلى مثلك مرشدة وواعظة،ولـكنها الشفقة الزائدة هى التى دعتنى أن أقول لك وأنت أدرى منى بما سأقول . أقول لك إن عهدك الآن غير عهدك الماضى ، وكل ماتحتاجين إليه فى هذا العهد الحاضر هو أمور ثلاثة : العمل والصبر والبشاشة ، بهذا تملـكين ناصية السعادة ، وتحصلين على كل ماتريدين من هناءة وسيادة

وما عرفته عنك يجعلنى أطمئن كل الاطمئنان،وأرتاح تمام الارتياح،فستكونين كما أحب وفوق ما أحب ،أدام الله بك الصفاء وكل عز وهناء وعليك من أختك عزيز السلام

٤٩ — من صديقة لأخرى تهنئها باسناد نظارة مدرسة اليها

أيتها الآنسة الأديبة والمربية الحكيمة دام بك ولك الخير والهناء

ياصاحبة الرأى السديد،والفعل الحميد،والمعارف المفيدة، والعلوم النافعة:لقد عهد إليك بإدارة مدرسة « كذا » للبنات ففازت بك المدرسة و بناتها ، ورحب بقدومك معلموها ومعلماتها ،فهنيئاً للمدرسة بك ،وهنيئاً لمن فيها بجليل مقدمك،فعدلك معروف ، وفضلك مشهور ؛ وعملك مشكور ، ومقامك محمود ، وأياديك على العلم والتعليم كالشمس لاتخفى بأى مكان، و إنك لجديرة بهذه الثقة ولأنت خير من تسند إليها جلائل الأعمال فماضيك مجيد، وعملك حميد ،و رأيك أصيل ، وفكرك ثاقب ، و إدارتك أجمل الإدارات ، فأنا أهنيء المنصب بك،وأهنيء من سيكن معك من بنات ومعلمات ،وأهنئك بما صرت إليه مما يمكنك من نفع الأمة والوطن العزيز أكثر من نفعك الأول الذى لايزال أثره ماثلا أمام العيون .

لك الهناء بمنصب أنت فيه ذات فضل بسعيك المحمود

لك الهناء الكامل ولك الفضل العظيم ،جعلك الله للتعليم شمساً منيرة،وللمعارف معينة ونصيرة، و إنى لمشتاقة إلى رؤيتك، راغبة فى لقائك ،منّ الله علىّ بالسفر إليك لأحظى بوجودى معك وأسعد بمشاهدتك ومنى عليك السلام

٥٠ — من صديقة لأخرى تهنئها بعيد ميلادها و ترجو أن تقبل هديتها

صديقتى ذات الوفاء أدام الله لك و بك العز والهناء

ياعزيزتى الصادقة : لك عندى من الود أخلصه ، ومن الإخلاص أعظمه ، ومن الحب أكرمه ، والفضل لك ، والسبب إليك ، فلقد سبق إلى معروفك ، وسارع لدى

حسن صنيعك وعمني برك وخيرك ، والخير بالخير والبادئة أرحم ، وأنَّى لى أن أجاريك فى مضمار المحامد وكيف أستطيع أن أسابقك فى حلبة المكارم

وهل أحدٌ إن مدَّ يوماً بكفه إلى الشمس فى مجرى النجوم ينالها

لذلك أظهر عجزى وأبدى ضعفى أمام فضلك الجم ،وسعيك المحمود، ولكنى أقدم ماأستطيع تقديمه إليك فى عيد ميلادك البهى ، ويوم سطوع نورك السنى، فأرجو قبول هديتى ياسليلة المجد والشرف ، وياصاحبة اللطف والرقة والأدب، ولأنت خير من تهدى إليها النفائس،وتقدم إليها الكرام ، ولأنت الدرة الغالية والجوهرة الفريدة، فكل هدية دون قدرك ، وأقل قيمة من مقامك ، وهديتى ولو أنها كذلك ضئيلة فى جنب معروفك ، حقيرة أمام صنيعك — لكنها تشرفنى بتذكرك إياى ، وتسرنى بدوام الصلة بينى و بينك ، والفضل لك على كل حال

بقيت بعز فى العلا لك مجلس علىٌّ وقدر فى الكمال عظيم
أهنيك ياذات الوفاء بمولد يعود بخير والهناء مقيم

ومنى لك الشكر وأعز السلام



القسم الثالث فى الموضوعات

١ — الله تبارك وتعالى

تعرفه بقلبك الطاهر ، ونفسك المطمئنة ؛ وعقلك الحكيم ، وصدرك السليم ، وخلقك الكريم ، وبصيرتك النيرة ، وعملك الصالح ، تعرفه بآثاره العظيمة ، وأعماله الحكيمة ، وملكه الكبير ، ونظامه الدقيق ، تعرفه بإبداع صنعه ، وإتقان خلقه ، وإحكام تدبيره ، فى السموات والأرض ، وفى كل موجود ، تعرفه بقدرته التامة ، ونعمه العامة ، وإرادته النافذة ، وحكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ، تعرفه بعظمته وبهائه ، وجلاله وكبريائه ، تعرفه بعلمه الذى وسع كل شىء ، وأحاط بكل شىء ، وهو يرى كل شىء ، ويبصر كل شىء ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، له البقاء ، ولغيره الزوال والفناء . وهو الفعال لما يشاء ، يملك كل الموجودات ، ويتصرف فى كل المخلوقات ، تعرفه بأنه الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، تعرفه بغناه عن كل مخلوق ، واحتياج كل مخلوق إليه ، تعرفه بأنه لا يحيط به زمان ، ولا يشتمل عليه مكان ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا يشاركه أحد فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، يدبر الأمر كله منذ خلق الخلق إلى يوم القيامة ، وإلى ما شاء جل شأنه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يقع فى ملكه إلا ما أرد . ولا يكون إلا ما قدر وقضى . يقضى بالحق ، ويحكم بالحق ، وهو الحق ، ولا يرضى بغير الحق ، موجود قبل كل شىء ، باق بعد كل شىء ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . لا إله إلا هو خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له ملك السموات والأرض ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم . هو الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون . خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وبين له الصراط المستقيم ، ولم يكن

شيئاً مذكوراً ، بل كان عدماً مستوراً ، خلقه وخلق له كل شيء ، وسخر له كل شيء ، ولم يخلقه عبثاً ، ولم يتركه سدى ، بل أرسل إليه رسلا مبشرين ومنذرين ، يهدونه إلى الخير ، ويخوفونه عاقبة الشر ، ليجزى من كان مؤمناً ويحق القول على الكافرين . من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ذلكم الله ربكم رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم . الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، فوجب على عبد الله ، الذى خلقه وآواه ، وأنعم عليه وأعطاه ، عبد الله الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، أن يعبد الله كأنه يراه ، فيتذكر فى كل أموره وأحواله مولاه ، ويعرف أنه معه أينما كان . وأنه مطلع عليه فى كل مكان وزمان . فيعتصم به . ويعتمد عليه ، ويوقن أن لا ملجأ منه إلا إليه ، فيخشاه ولا يخشى أحداً سواه ، ولايخضع لغير الله ، الذى فى قبضته كل من عداه وما عداه ، الأحياء منهم والأموات ، الملوك والقياصرة ، والأمراء والأباطرة ، والظلمة والجبابرة ، والطغاة والعتاه ، والقساة والعصاه ، وأنهم جميعاً لو اجتمعوا فى صعيد واحد لينفعوا أو يضروا ما نفعوا ولا ضروا إلا بإذن الله ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . فلا تعبد غير الله ، ولا تخش إلا الله ، ولا تخف إلا من الله ، وإياك وما يغضب الله ، من رياء ونفاق ، ومداهنة ومخاتلة ، وكن واضحاً صريحاً ، تقول الحق ولو على نفسك ، وتفعل ما يرضى ربك ولو أغضب الناس ، إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ومن أظلم ممن يتقلب فى نعم الله ، وفى فيض عظيم من خيرات الله ، ثم هو يغضب ربه وينساه ، ويقابل هذا الإحسان ، بالجحود والعصيان ، والفسوق والكفران ، والعتو والاستكبار ، والغطرسة

والاستهتار ، ينسى الله الذى أفاض عليه ما هو فيه ، ليختبره و يبتليه ، فيظهر للناس أنه شرود عنود ؛ جحود كنود ، و يقابل النعمة بالكفر ، ولا يؤدى ما وجب عليه من الشكر ، والله يقول : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد .

الله سبحانه وتعالى خلق لعباده ما فى السموات وما فى الأرض ، للانتفاع به ، والاستفادة منه ، فجهلٌ من الإنسان أن يغفل عن تلك الكنوز ، وحمقٌ منه أن ينام عن هذه الخيرات ، ولا يبحث فيها ولا يفكر ، ولا يتجه إليها ولا ينظر ، حرامٌ عليه أن يعرض عن هذه النعم ، وهو يطؤها ويدوسها كل حين بالقدم ، فيعيش جاهلا غبياً ، جباناً عصياً ؛ منبوذاً قصياً ، ذليلا شقياً . أليس من العار ومن الإجرام ، ومن أخبث أنواع الحرام ، أن يرى الإنسان إخوانه فى الإنسانية ، وهم مثله وهو مثلهم فى كل شىء إلا فى الشجاعة والإقدام ، والجرأة والثبات ، يجيئون من مشارق الأرض ومغاربها ، فينتفعون ببلاده وأرضه و وطنه ، ومائه وسمائه : وصحرائه و بيدائه، ويستغلون هذه الكنوز القيمة ، وتلك الدرر الغالية ، وهو فى ظلمات من الجهل والفقر ، والحاجة والعوز ، مكتفياً بالنظر إلى ما يفعلون ، قانعاً بقليل حقير من فتاتهم يتركون ، ولا يستفيد كما يستفيدون ، وهم له يسخرون ، كأنه فقد الشعور والإحساس ، كأنه حيوان وهم أناس ، والله يأمره بالنظر فى ملكوته الواسع فى قوله الكريم : أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، فاعمل بأمر ربك وكن مع العاملين ، ولا تكن من الغافلين ، وأظنك الآن قد عرفت ربك ، إذا عرفته فأد فرضه ، وأطع أمره ، واجتنب نهيه ، واشكر له نعمه ؛ ولا تجبن عما يفيدك ، ولا تتوان فيما ينفعك ، وأقدم فى شجاعة ، وثابر فى صبر وقوة إرادة ، وأعمل ما يبقى لك حسن الذكرى ، و يناديك بالبشرى ، و يعلى مكانك فى الدنيا والآخرى .

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى .

ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين .

٢ — سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

هو النبي الأمى ، العربى القرشى ، الهاشمى المكى ، هو أشرف الناس نسباً ، وأكرمهم حسباً ، وأفضلهم عجماً وعرباً ، وخيرهم أماً وأباً ، أعز الناس قومه ، وأجل القبائل قبيلته ، طهره مولاه ، وصانه وزكاه ، من لدن آدم إلى أبيه عبد الله ، فهو كما قال : خيار من خيار ، تقلب فى الساجدين ، وتنقل فى المؤمنين ، حتى ولد فى الطاهرين أبوه عبد الله بن عبد المطلب من نسل إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليه وعليهما الصلاة والسلام ، وأمنه آمنة بنت وهب ، تجتمع معه ﷺ فى الجد الخامس وهو حكيم . ولد عام الفيل بمكة المكرمة يوم الاثنين ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٥٧١ للميلاد ، ومات أبوه بعد شهرين من حمله ، وقد سبقت ولادته آيات بينات ، وعلامات واضحات ، أخبر بها الكهان ، وذكرها الأحبار والرهبان ، فنى عام ولادته كسر الله أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم فى تضليل ، وأهلكهم بالطير الأبابيل ، وذهبت عن قريش الأزمات ، وتوالت عليهم الخيرات ، وحلت بولادته البركات ، وتصدع إيوان كسرى أنو شروان ، واستحوذ اليأس على الشيطان ، وخمد ما كان يعبده الفرس من النيران ، وما كانت قد خمدت من ألف عام ، كرامة لولادته عليه الصلاة والسلام ، ولم تجد أمه لحمله وهناً ولا تعباً ، ولم تر لوضعه كرهاً ولا نصباً ، ولد طاهراً نظيفاً ، كاملا جميلا ، مقطوع السرة مختوناً ، يتلألأ ضياء ونوراً ، ولم يستهل صارخا كالأطفال ، اطمئناناً بربه ذى العزة والجلال ، وقد أجاب الله بولادته دعوة إبراهيم إذ دعا فقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) وصدق الله به بشارة عيسى إذ قال : (يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ، سماه جده محمداً . وقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض والسموات ، وأرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب ، فلم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، قالت حليمة كان يشب

شباباً لا يشبه الغلمـان ، وعادت به بعد سنتين ثم رغبت إلى أمه آمنة أن تبقيه لديها فرضيت ، ثم ردته إليها بعد خمس سنين وشهر ، فكان مع أمه آمنة حتى توفيت وسنه ست سنين ، فبقي في كفالة جده عبد المطلب ، فكان يجلس على فراش جده فيؤخرونه تعظيما لجده فيقول لهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه عليه بجانبه ، ويمسح ظهره بيده . ولما بلغ ثماني سنين توفي جده عبد المطلب ، فكفله عمه أبو طالب ، وعني بأمره كل العناية ، فأكرمه الله بسعة الرزق ، وكثرة الخير ، ولما بلغ تسع سنين خرج به عمه إلى الشام فرآه بحيرا الراهب ، فقال لأبي طالب : سيكون لابن أخيك شأن عظيم ، هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين . ولما اشتد عليه الصلاة والسلام لم يأكل إلا من عمل يده ، فكان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة ، وما من نبي إلا وقد رعى الغنم ، ليكون ذلك تدريباً لرعاية الأمم ، ولقد شب عليه الصلاة والسلام ، والله يكلؤه ويحفظه ، من أقذار الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته ، وقد قال ﷺ : أدبني ربي فأحسن تأديبي . فنشأ عنوان الشرف والكمال ، واشتد وهو مثال الفضل وكريم الخلال ، فلم يروا منه إلا نبلا وفضلا ، ولا عرفوا عنه إلا حكمة وعقلا ، ولم يشاهدوا فيه إلا إحساناً وعدلا ، فكان أفضلهم خَلقاً وخُلقاً ، وأكرمهم نسباً وحسباً ، وأحسنهم أدباً ، وأعظمهم رزانة وحلماً ، وأصدقهم وعداً ، وأوفاهم عهداً ، وأجلهم قدراً ، وأكثرهم شكراً ، وأولهم أمانة ، وأظهرهم فطانة ، وأحبته السيدة خديجة ، لما رأت فيه من شرف الخلال ، وكرم الأخلاق ، فرغبت إليه أن يتاجر في مالها فتاجر وربح كثيراً ، فدعته إلى زواجها فأخبر أعمامه وتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين سنة . وكان يعبد ربه على ملة إبراهيم عليه السلام حتى حبب الله إليه الخلوة للعبادة ، فجعل يخلو في غار حراء حتى بلغ الأربعين فبعثه الله رحمة للعالمين ، وهدى وبشرى للمؤمنين ، ونزل عليه جبريل بآيات الكتاب المبين ، أرسله الله على فترة من الرسل ، والناس في ظلمات الجاهلية ، والإشراك والوثنية

وقبيح العادات ، وسيئ المعتقدات ، فدعاهم إلى توحيد الله سراً ، ومكث يدعو كذلك ثلاث سنين ، لما رأى من شدة تمسك قريش بباطلها ، وتمكن الفساد منها ، ثم أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة فجهر بها ، ودعاهم إلى الاسلام ، فقابلوه بالسخرية والاستهزاء ، والبغى والاعتداء ، والقسوة والإيذاء ، هو والذين آمنوا معه ، وتلك عاقبة المبطلين ، وشيمة الجاحدين ، مع الأنبياء والمرسلين ، والهداة والمرشدين ، فى كل عصر وفى كل حين . فعلت قريش ذلك ، وهى تعلم أنه الأمين المأمون ، الصادق المصون ، صاحب الخلق العظيم ، والرأى الحكيم ، والقلب السليم ، وعلمت ورأت من آيات ولادته ، وأمارات نبوته ، مالا يترك مجالا للشك فى رسالته ، ولا يدع ريبة لمرتاب ، ولكنها الأغراض والأهواء ، والكبر والعناد ، تصد عن الحق ، وتغرى بالباطل ، فلم يعبأ بهم عليه الصلاة والسلام ، ومضى لشأنه وجد فى دعوته ، وجاهد فى خطته ، واشتد فى تبليغ رسالته ، غير هياب ولا وان ، متدرعا بالحجة والبرهان ، داعياً بالقرآن الكريم ، إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحكيم . والله يؤيده بالمعجزات ، ويشد أزره بخوارق العادات ، وهم يقولون هذا سحر مبين ، هذا أساطير الأولين ، ولما رأوه جاداً فى دعوته ، ولم يفد فيه أذى ولا كيد ، شكوه إلى عمه فقال له عمه : يا بن أخى أبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فقال له : والله ياعم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ما تركته ! وما زال يدعو ، والأذى يشتد به وبمن آمن به ، حتى أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهجروا إليها مرتين ، ثم أمرهم بالهجرة إلى المدينة ، لأن الاسلام كان قد دخلها من جماعة من الأنصار آمنوا به ﷺ فى موسم الحج . ولما أعيت قريشاً الحيل أجمعوا على قتله ، فأمره الله بالهجرة إلى المدينة ، فهاجر إليها بصحبة أبو بكر الصديق ، ودخلا المدينة بعد تعب وألم شديد سنة ٦٢٢ الميلاد ، فاشتد غضب قريش على من بمكة من مستضعفي المسلمين ، وإذا رأوا مسلماً من المهاجرين عذبوه وفتنوه ،

وقد أعادوا إلى الكفر بالتعذيب فريقاً ممن فى قلوبهم مرض ، وآثر فريق القتل على الكفر ، فأمر الله نبيه بقتالهم ، فكانت الغزوات ، ولقى فيها الرسول وأصحابه أشد أنواع الفتن والتعب والألم والضرر ، حتى نصر الله حزب المؤمنين ، وخزل حزب الكافرين ، ولينصُرَنَّ اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز . عند ذلك هدأت القلوب، وعمرت بالإيمان ، وظهرت معالم الاسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ونزل على النبى ﷺ قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) ثم مرض الرسول وانتقل إلى جوار ربه الكريم فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة و سنة ٦٣٢ الميلاد ، ففزع المسلمون لوفاته ، وجزع أصحابه لانتقاله وضجت المدينة بالبكاء ، وعلاها الكآبة والحزن ، ودفن بالمدينة المنورة ، بعد أن أدى رسالته على وجهها ، ووفى أمانته حقها ، فلم تنجب الدنيا بعده ولا قبله مثله عليه الصلاة والسلام . فاقتد أيها الحكيم ، بمن هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وأخرج العالم من ظلمات بعضها فوق بعض إلى نور على نور ، واجعل من تاريخه أسوة حسنة فى التضحية والاقدام ، وخلوص النية ، وطهارة الطوية والعمل لذات الله ، لا لرياء ولا سمعة ، ولا منفعة شخصية ، حتى تصل أنت ومن ينهج نهجك بأمتكم وبلادكم إلى الدرجة الرفيعة من الحرية والاستقلال ، والعزة والكمال .

٣ — مصر

مصر العزيزة ، مصر المباركة ، مصر الجميلة ، هى جنة الدنيا وزهرتها ، هى روضة البلاد وبهجتها ، هى تاج الأقطار وخير الديار ، هى حمانا المحفوظ ، وسكننا المحمود ، فى الشمال الشرقى من أفريقية . تتصل شمالا ببحر الروم ، وجنوباً بالسودان ، وشرقا بالشام والبحر الأحمر ، وغرباً بالصحراء الليبية وطرابلس ، ولها الواحات الغربية التى أكبرها واحة سيوه : وإلى الشرق قناة السويس التى تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . تلك القناة التى من أجلها حسنت مصر موقعاً ، وعظمت مكاناً ، وزادت ثروة ،

وصارت معبراً بين الغرب والشرق . أما وسطها فيخطه نهر النيل الذى يُغدِق على جانبيه الخصب والنماء والحياة والهناء ، والخير والبركة ، ويُكوِّن هذا الوادى الخصيب الجميل : الذى تكتنفه جبال العرب شرقا ، وجبال ليبيا غرباً . ذلك الوادى الذى هو من أخصب البلاد أرضاً وأعذبها ماء وأجودها هواء ، وأصفاها سماء ، وأحمدها مسكناً ، وأجملها وطناً ، وأغزرها سكاناً وقطاناً ، وأكثرها حركة ونشاطاً . هذا الوادى الذى أصبح ملجأ لمن يريد الغنى والثروة ، والكسب والربح ، يقصده الناس من كل ناحية ، ويؤمونه من كل صوب ، وقلَّ أن يخرج منه من دخله ، أو يفارقه من استوطنه ، أو يرحل عنه من حل فيه ، أو يتركه من ذاق حلاوة عيشه . ولقد اشتملت مصر على أبهج المناظر ، وأبدع المساكن ، وأجمل القصور ، وأحسن الدور ، وأنضر الحقول فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وتدعو إليه الحياة . مما جعل فرعون يطغى ويتجبر ، ويفتخر ويتكبر . ويقول كما حكى الله عنه : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) وقال فيه وفى قومه : (كم تركوا من جناتٍ وعيون وزُرُوع ومقام كريم ، ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين) . بها آثار من دخلوها متعاقبين ، وعاديات من ملكوها متتابعين . كالأهرام والتماثيل ، والصور والأصنام ، والجثث المحنطة ، والكنوز الكثيرة التى ظهرت ، والتى لا تزال مخبوءة . مما يدل على حضارة الفراعنة وتمدينهم ، وبأسهم وقوتهم ، وفيها القليل من عاديات الفرس واليونان والرومان ، وكثير من مخلفات العرب والترك كالقبور والمساجد ، والمبانى والمعابد ، والدور والمنازل ، والمدارس والمعاهد . والمدن والشوارع . وقد أخذت الآن زخرفها وازَّينت ؛ وارتقت وتقدمت . وأُنشئت فيها القناطر والجسور . وحفرت الترع والمصارف . ومدت السكك الحديدية ، والأسلاك البرقية . وسار الترام بالقاهرة والاسكندرية ، وزادت المدارس والمعاهد ، وراجت سوق العلم . وكثر طلابه . غير أنهم لا يستغنون عن السفر إلى أوربا لإتمام علومهم ، والحصول على ما يفيدهم . واللغات السائدة بمصر هى اللغة العربية ، ثم الإنجليزية ثم الفرنسية

ثم بقية اللغات تتبع النزلاء كثرة وقلة . (وليس لمصر جيش وأسطول يناسبان مساحتها . وسواحلها . فالأسطول معدوم ، والجيش محصور محدود ، وهو موزع هنا وهناك) ولعلنا فى عهد الاستقلال ، نصل به إلى أرقى درجات الكمال ، كما جاء فى خطبة العرش يوم افتتاح الدورة النيابية « ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٣٦ » . وتنقسم مصر إداريا إلى أربع عشرة مديرية . ست بالوجه البحرى ، وثمانية بالوجه القبلى وحاضرتها القاهرة . الجميلة الزاهرة . وسكانها يزيدون عن أربعة عشر ألف ألف . أغلبهم زراع ومنهم التجار . وقد أخذ المصريون يستحوذون على الصناعة والتجارة شيئاً فشيئاً من أيدى الأجانب بما يبشر باستقلال المصريين بهافى المستقبل القريب ، ولا يزال كثير من المصنوعات يرد من الخارج . (ولو شئنا معشر المصريين لغنينا بمصرنا عن غيرها كما كان الآباء والأجداد . ففيها كل المواد . ولا ينقصها إلا العمل) وقد دخلها كثير من الأنبياء والعلماء . والفلاسفة والحكماء . والكبراء والعظماء ، والملوك والسلاطين . والطغاة والجبارين وولد بها سيدنا موسى . ووفد إليها جمع عظيم من أصحاب سيدنا محمد . فهى بلاد مقدسة . وأرض مباركة وتربة طاهرة . لازالت بفضل الله محروسة . وبرعايته محوطة ومحفوظة . دار عدل وإحسان . وإسلام وإيمان .

٤ — القاهرة

القاهرة مدينة صافية السماء . جيدة الهواء . على الشاطىء الشرقى للنيل . بناها جوهر الصَّقِّلى . سنة ثمان وخمسين وثلثمائة للهجرة . وتسع وستين وتسعمائة للميلاد . وهو أكبر قواد وموالى المعز لدين الله رابع خلفاء الفواطم ، الذين كانوا يحكمون شمالى إفريقية من برقة إلى مراكش وأكثر جزر البحر الأبيض المتوسط . وكانت القاهرة وقتئذ هى « خان الخليلى » و « الأزهر » ثم أخذت تتسع حتى صارت كما هى الآن ، ولم يقف نموها واتساعها لكثرة سكانها . ورغبة الناس فى استيطانها . وهى حاضرة القطر المصري وإحدى محافظاته . ومقر الجيش ووزارات الحكومة ، وأعظم مدينة فى القارة الإفريقية بها آثار قديمة . ومبان حديثة . . ومساجد مباركة : كقلعة الجبل التى بناها صلاح الدين

الأيوبى : كما بنى سور القاهرة . وبهذه القلعة مسجد جميل بناه (محمد على باشا الكبير) ومن مساجدها المباركة ، مسجد الإمام الحسين بن سيدنا على رضى الله عنهما ، ومساجد أخرى كثيرة لآل البيت والجامع الأزهر . وهو تلك الجامعة الاسلامية ، التى هي أعظم جامعة انبعث منها النور إلى الأقطار الاسلامية قريبة وبعيدة ، منذ أسست للآن وكذلك مسجد الرفاعى ، والسلطان حسن . والحاكم بأمر الله ، وغيرهم من الملوك والسلاطين . وفيها متحف جميل ، يدل على ما كان للمصريين من المجد الأثيل ، والرقى العظيم ، وبها دار للآثار العربية التى تدل على مهارة العرب المسلمين فى النقش والتصوير والدقة فى الصناعة والزخرفة وجمال الذوق ، وبها دار كتب كبيرة ، حوت جليل المؤلفات ، ونفيس الكتب ، وبها الجامعة المصرية التى أصبحت تضارع جامعات أوربا فى علومها وكثرة كلياتها ، وبها مدارس كثيرة ، للمعارف وأهلية : إلزامية . وأولية وابتدائية . وثانوية . وللبنين والبنات . وللفنون والصناعات ، وبها مستشفيات عظيمة للحكومة والجمعيات يؤمها كثير من المرضى : وهي منتظمة الطرق ، جميلة المسالك ولا سيما الاحياء الغنية . وتمتد فيها قضبان الترام فتربطها ربطاً . وتصلها وصلا . والناس وأصواتهم . والمارة وجلبتهم . والباعة وصياحهم . والترام وضجيجه . والعجلات ووقعها . كل هذه وغيرها لا تكاد تنقطع لحظة ولا تنفك تزعج الناس . آناء الليل وأطراف النهار . فى أغلب الطرقات الوطنية القديمة . غير أنها بالليل أهدأ حالا . وأقل إزعاجا . حتى إذا انتصف الليل ساد السكون وعم الهدوء . إلى ما بعد الفجر . فتعود الأمور سيرتها الأولى . والمبانى الحديثة بها فاخرة ضخمة تسر الناظرين. وتدل على براعة العاملين . وحوانيتها ومحالها التجارية ملأى بالبضائع المختلفة والمصنوعات الجميلة ما بين مصرية وأجنبية . وبساتينها قليلة . ولكنها تكثر فى الضواحى وليس فى داخلها حدائق تذكر سوى حديقة أزبك التى تقام بها الزينات فى المواسم والأعياد. وحديقة المنشية وبالقاهرة كثير من الفنادق والملاهي . والمشارب والنوادى . وهى مركز عظيم للطرق

الحديدية تمتد منها قضبانها إلى أهم مدن مصر . وكذلك الأسلاك البرقية . فإذا أردت السفر إلى أى بلد من بلاد مصر سافرت وإذا رغبت فى تكليم أحد فى غير القاهرة استطعت . مع السهولة واليسر ، والآن تجرى بها حركة إصلاح عظيمة لاتساع طرقها وازدياد ميادينها . وقد عم المذيع (الراديو) مساكنها ومحالها العامة ومحال التجارة . حتى لا يكاد ينقطع صوته فى كل جهة قصدتها . فى أوقات الإذاعة المنظمة . ويقطنها قوم قد اختلفت أممهم ، وتباينت لغاتهم . وتعددت دياناتهم . وتغايرت عاداتهم ، فمنهم المسلم والقبطى وهم المصريون . ومنهم اليهودى والسورى . واليونانى والطليانى والانجليزى والفرنسى وغيرهم من الأجناس وعدد سكانها ألف ألف ومائتا ألف وأغلبهم مسلمون . وفقهم الله جميعاً لنفع البلاد .

٥ — النيل

هو هذا النهر المبارك الروحات . الميمون الغدوات . أطول أنهار إفريقية . ومن أشهر أنهار العالم . به حياة مصر وسودانها وكل أرض يمر بها . ولولاه لكانت تلك الأراضى قاحلة جرداء كأرض الصحراء . فهى هبة منه . وهو روحها . وهو الذى أكسب مصر هذا الغنى . وتلك الثروة . وذلك المقام العظيم بين بلاد الدنيا . وهو ينبع فى أواسط إفريقية . حيث تكون الجبال العالية التى تنزل عليها الأمطار . فتجرى منها الأنهار : وتتجمع مياهها فى بحيرات فكتوريا وألبرت . ثم تجرى منها إلى النيل . فتتلاقى مع مياه النهر الأزرق (النابع فى بلاد الحبشة التى أصبحت تحت حكم إيطاليا) عند مدينة الخرطوم . ثم تتلاقى تلك جميعها بمياه نهر عطبرة عند مدينة عطبره . ثم تنساب كلها فى مجرى يختلف اتساعه واتجاهه حتى ترد إلينا باليمن والبركة . والخير والمسرة . فإذا وصلت شمالى القاهرة قليلاً سارت فى فرعين بينهما دال خصبة عظيمة . أحدهما وهو الشرقى يسمى فرع دمياط . والثانى وهو الغربى يسمى فرع رشيد . ومن هذين الفرعين تنصب فى البحر الأبيض المتوسط وقت الفيضان . ثم تحجز المياه بقناطر السودان وخزان أسوان وقناطر إسنا وأسيوط

والقناطر الخيرية ، فبينا تكون الأرض درة بيضاء . إذا هى عنبرة سوداء . فاذا هى زبرجدة خضراء . فتبارك الله الفعال لما يشاء . والحكومة تعمل على ألا يضيع من هذا الماء شيء فى البحر ، لتجد منه ماروى الموات من الأراضى ، فيعود ذلك بالفائدة عليها وعلى الأمة ، وقد عملت على تعلية خزان اسوان لهذا الغرض . وفى النية إحياء مساحة واسعة من الأرض الموات، كما جاء فى خطبة العرش هذا العام (١٩٣٦). وللنيل شهرة عظيمة فى التاريخ قديماً وحديثاً . وقد عنى به الملوك والحكام : من عهد الفراعنة إلى الآن . فمنهم من حول مجراه . ومنهم من بنى عليه القناطر والجسور . ومنهم من جعله مسبحاً للسفن التجارية وغيرها . ومنهم من بنى فيه المقاييس . لضبط زيادة الماء ونقصه : إلى غير ذلك . مما يدل على عظم شأنه . و إكبار مقامه (ولا يزال أهل مصر يقيمون المحافل لوفائه . لعظم مايجنونه من مائه) وهو زمن الفيضان (فى سبتمبر إلى يناير) يمرّ مرّ السحاب الذى تراكم واكفهر ، أو كالحية الرقطاء تهوى من جبل ، وفيما عدا ذلك يكون كالمرآة فى كف الأشل ، يمشى بين القرى والبلدان ، وعن يمينه ويساره الأشجار والجنان، كأنه ملك وسط جند، تنظر إليه بعين الإكبار والإجلال. والتعظيم والاحترام

ماأحسن النيل ماأبهى شمائله فى حافتيه من الأشجار أدواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنما هى أرزاق وأرباح

ويفكرون فى توليد الكهرباء عند شلالات أسوان ، وفى غير ذلك مما يعود على مصر والمصريين بالنفع والخير العظيم.

٦ — الاهرام

الأهرام — معجزة الفن ، وآية الصنعة والدقة، تدل على قدرة السابقين ، وقوة الماضين، ومهارة الغابرين ، من فراعنة مصر الأقدمين ،بناء معجز ومنظر غريب، ووضع عجيب ، وشكل بديع ، فلا شيء أغرب ولا أعجب بعد مقدورات الله تعالى ومصنوعاته من القدرة على بناء ضخم جسيم : هائل عظيم ، من الحجارة والصخور الكبيرة ، التى قد ركبت تركيباً دقيقاً ، بديع الإلصاق ، دون أن يتخللها مايعين على إلصاقها من المواد المعدة لذلك

وهى مربعة القاعدة . مخروطة الشكل تحيط به مثلثات أربعة ، أضلاعها متساوية ، وأطرافها محددة ، تنتهى بنقطة واحدة ، وهى على هـذا العظم من أحـكام الصنعة ، وإتقان البناء ، وحسن الوضع لاتتأثر بهبوب الرياح ، وهَطلِ الأمطار ، وزعزعة الزلازل ، وستظل كذلك إلى ما شاء الله ، وأن هـذا لما يدل على أن مصر كانت مهد العلوم والمعارف ، وموطن الحضارة والتمدين ،فى ذلك الحين الذى مضى عليه آلاف السنين ، فما أقل وفاءنا إن لم نُعد لمصر مجدها ، ونرجع إليها عهدها ، إنا إذاً لظالمون ، إنا إذا لجاهلون ، وقد فتح الله أبواب العمل والجهاد وإعادة المجـد العظيم بتلك المعاهدة التى أقرها مجلسا النواب والشيوخ،فهل نحن عاملون . ذلك ماسيحققه الزمان ، وتقوم به سواعد الشبان وعقول الشبان

وكانت الأهرام بمصر كثيرة بين الفيوم والجيزة ، فنقض الملوك بعضها ، ومالم يقدروا على نقضه تركوه ، فمن ذلك الهرمان العظيمان بالجيزة ، تتتابع عليهما العصور ، وتتوالى الدهور ، وهما كما هما لم يؤثر ذلك فيهما ، حتى لقد قال بعضهم ، ليس من شىء إلا وأنا أرحمه من الدهر ، إلا الهرمان فإنى أرحم الدهر منهما

أطافا بأعنان السماء وأشرفا على الجو إشراف السماك[1] أو النسر

وقد وُجد مكتوباً عليهما إنى بنيتهما . فمن يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما . فان الهدم أيسر من البناء . ولـكن الملوك قدروا بعد الجهد الجهيد . والتعب الشديد . على فتح مدخليهما فوجدوا ممراً طويلاً . لايقطعه الإنسان إلا منحنياً تعظيما للملك فى قبره وهو ميت . كما كان يُعظم فى عرشـه وهو حى . وفى منتهى الممر مرقى إلى حجرتين فى اليمنى منهما الآن حوض عظيم هو قبر الملك كما يقولون . وعليه كثير من النقوش والتصاوير . وكان بالحجرتين تماثيل من ذهب وفضة وغير ذلك من الـكنوز الثمينة . احتملها المغيرون وزينوا بها متاحفهم . ونقلوها إلى أوربا . وقد فتحت مصر أعينها ، وسهرت على آثارها ، وتنبهت لتلك الأيدى السارقة فقطعتها فى هذا العهد المبارك.

---

(١) السماك والنسر من النجوم السماوية

وكانت الأهـرام مقابر لملوك مصر وعظمائها . وليس للفقراء مقابر كمقابر الملوك والعظماء . وكانوا يزعمون أن الجسم إذا حفظ كان خليقاً أن يبعث . ولذلك عنوا بتحنيط أجسامهم . ووضعها في هذه الحصون ومعها ماتحتاج إليه من الأكل وأنواع الزينة من ذهب وغيره . فـكانوا يعتقدون بالبعث غير أنه لا يبعث إلا الملوك والعظماء ، متى كانت أجسامهم محفوظة — وعلى مقربة من هرمى الجيزة صورة هائلة ، هى صخرة عظيمة ، رأسها رأس إنسان . وجسمها جسم أسد . وهـذا رمز للعقل والقوة . وأن الملك لا يبقى إلا بهما . وتسمى أبا الهـول . ولا تزال باقية . غير أن الدهر شوه وجهها . وقد عنى الأثريون بإصلاحها وهناك معابد كثيرة أتى عليها الدهر . ومحتها العواصف . فما بقيت إلا الرسوم الثوابت . والبقاء لله وحده .

٧ — الأزهر

الأزهر هو تلك الجامعة الاسلامية العظمى . والمدرسة الدينية الـكبرى . والمسجد المبارك . والجامع المشهور الذى عم صيته . وعلا شأنه . وشاع فى الأقطار اسمـه . تخرج فيه الأكابر العلماء والأئمة الفضلاء . والفقهاء الأذكياء . والنحاة الفصحاء . والشعراء البلغاء . والرياضيون النبهاء . واللغويون الفطناء . من مصريين وغير مصريين من المسلمين — بناه جوهر الصقلى عام ستين وثلاثمائة للهجرة . وسـبعين وتسعمائة الميلاد . لبث الدعوة للفاطميين وتوطيد دعائم دولتهم . ونشر مذهبهم . إذ كان للدين المقام الأول والـكلمة العليا . والنفوذ الفعال . فهو أقدم مسجد بعد جامع عمرو وجامع ابن طولون — وقد عنى الحـكام والخلفاء والسلاطين والأمـراء . والعظماء والـكبراء . بشأنه من يوم بنائه للآن . فمنهم من زاد فيه وجدد . ومنهم من أوقف له ورتب . ومنهم من نظم فيه الدراسة وأتقن وكمل . حتى كان نوراً وهدى المسلمين . . وله تسعة أبواب وخمس مآذن . وعلى يسار الداخل من الباب العباسى دار كتب قيمة . وعلى يمينه باب الرواق العباسى الذي بني في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى . ثم ممر يوصل إلى صحن سماوى

عظيم . حوله إفريز مسقوف على أقبية فوق عمد رخامية . و بعد الصحن شرقاً ردهة فسيحة مسقوفة كذلك ، وفيها القبلة القديمة، و بها يصلى الإمام الشافعى الراتب الصلوات الخمس . و بعدها شرقاً ردهة أخرى مرتفعة عن أختها بنصف متر . ومسقوفة مثلها وفيها القبلة الجديدة . و بها يصلى الإمام المالكى الراتب الصلوات الخمس . و بالأزهر أروقة للطلاب . مصريين وغرباء . وأعظمها الرواق العباسى .

وكانت تدرس به علوم الدين واللغة . والفلسفة والطبيعة والرياضة والفلك . فنبغ النابغون . وألف المؤلفون . وأشرق نور العلم والهدى على ربوع مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية. والآن قد امتدت إليه أيدى التغيير والتبديل فحولته إلى جامعة عصرية ذات كليات وأقسام أولية وثانوية تدرس فيها العلوم الدينية وعلوم اللغة . والرياضة والجغرافية . والعلوم الحديثة .

وللجامعة الأزهرية شيخ ووكيل ومجلس إدارة وسكرتارية وقانون ولوائح وجيش جرار من الموظفين من كتبة وملاحظين ومفتشين ومدرسين وخدمة . وتتبعها المعاهد الدينية باسكندرية وطنطا ودسوق ودمياط والزقازيق وأسيوط وتدرس فيها علوم القسمين الأولى والثانوى. ولكل معهد شيخ ووكيل وإدارة تخضع لقانون الجامعة الأزهرية وقرارات إدارتها . و بالقاهرة . القسم الأولى والقسم الثانوى والكليات يتلقى فيها طلبة النظام علومهم فإن طلبة الأزهر صنفان نظاميون: وأزهريون. وهم من كانوا بالأزهر قبل النظام . وسيؤدون امتحان العالمية بعد إتمام مدتهم ،و بعد قليل يصبح الطلبة كلهم نظاميين . وعدد الطلبة الآن يزيد على اثنى عشر ألف طالب . والمتقدمون منهم لهم مرتبات نقدية قليلة . وعلماء الأزهر فريقان فريق المدرسين وهم زهاء الخمسمائة ويتقاضون المرتبات الشهرية . ويقومون بالتدريس فى المعاهد والأقسام والكليات والأزهر . وغير المدرسين وهم كثيرون ومنهم القضاة الشرعيون . والمحامون الشرعيون وأئمة المساجد والوعاظ والمشتغلون بحرف أخرى .وليس لهؤلاء شىء من مرتبات الجامعة الأزهرية . وعددهم يربو على أربعة آلاف عالم. وهم يزدادون عاما فآخر حتى

قلت قيمة شهاداتهم . ومن العلماء جماعة يدعون هيئة كبار العلماء ، ولاينتظم فى سلك هذه الهيئة ، إلا أكابر العلماء الذين اشتهروا بالتقوى والصلاح · وخدموا العلم وأهله . تدريساً وتأليفاً ، ولهم مرتبات عالية تفوق مرتبات غيرهم ، وفقنا الله و إياهم لخدمة الدين ، و إرشاد المسلمين، وهداية الناس إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

٨ — الأحياء الوطنية

الأحياء الوطنية بالقاهرة وغيرها كالإسكندرية وطنطا . هى تلك الجهات التى لايزال معظمها سيء التنظيم . قديم العهد . غاصاً بالسكان مملوءاً بالقطان . من أبناء البلاد . وأهل الوطن . الذين ألجأتهم الضرورة للاقامة بها . حيثما ينظر المرء . يجد الكبار والصغار . والبنات والأولاد والباعة والسابلة . وقد اختلط الحابل بالنابل والجاهل بالعالم — طرقاتها ضيقة ، وسبلها تموج بمن فيها وما فيها مع مابها من الوسخ والوحل والأقذار . وحوانيتها قد حوت ما كسدت سوقه فحمل ليباع بها . ونقل إليها ليروج فيها . لا تنقطع منها الجلبة طول النهار . ولا تزال الضوضاء . بالغة عنان السماء . من طلوع الشمس إلى غروبها ، هذا يجر عجلته بيده وهو ينادى (يابطاطه) بصوت مزعج فيرد آخر بأشد إزعاجاً من صوته بقوله (حمام يادره النيل) وهكذا يسمع المار من المزعجات مايؤلمه ، ومن المكدرات ما يؤذيه ، فأنى لقوم يقطنون هذه الأحياء . أن يحصلوا على أسباب الراحة والهناء — هناك بائع (الطعمية) تنبعث من دكانه رائحة تضر بالصحة . و يجاوره الحلاق و بعده الاسكاف ، ثم الخباز فى مخبزه الذى يتصاعد منه الدخان . و يلقى أمامه روث البهائم الجاف ، والكناسة وغيرها من القاذورات . فأينما نظر الإنسان يجد على الجانبين باعة مختلفين وأهل حِرَفٍ متباينين . لايعرف أحدهم معنى النظام ، ولا يفقه فائدة الترتيب و بينه و بين النظافة عداء كبير . فما هذا التأخر ونحن فى القرن العشرين . عصر النور والعرفان · عصر التجديد والتبديل وترك القديم والضار ، والأمل عظيم فى هذا العهد المبارك أن تقضي يد الحكومة الرشيدة على تلك

الأحياء ، و إبدالها أو تغييرها بما يلائم الحياة المصرية الجديدة . فلا نزال نرى روث البهائم فى الطرقات . وجنب الجدران تتراكم القاذورات . و إذا نزلت الأمطار ، تكاثرت الأوحال : وعانى الأهلون فيها أشد الأهوال ، ولقد تبقى حتى تجف بالشمس وعمال الكنس عنها مبعدون ، وفى الأحياء الغنية مجدون وبها مشغولون ، ولو عم مشروع المجارى جميع الأحياء — وقد كاد يعم — اسلم الناس من هذه الأدواء . تراها فى الليل إذا غاب القمر فى ظلام حالك لا تكاد تخطو خطوة حتى تصاب نعلك بوجل . أو تصدم بحجر أو ببريزة المياه . و وقتئذ تحين الفرصة للصوص وأهل السوء . فلا بد أن تنال تلك الأحياء العناية والعطف حتى تقل الأمراض التى تفتك بسكانها وتأتى على قطانها : تسمع السفهاء من أهلها لا يفترون عن القول البذىء . ولا يعبئون بالفعل الدنىء أمام الناس و بين الناس ، من غير اكتراث ولا حياء ! تخرج ألفاظ السوء من أفواههم . وتقع القبائح من أعمالهم ، يتسكعون فى الطرقات ، يتعاطون فيها المخدرات ، و يجلسون للعب القمار جنب الجدران وكأنهم لم يقترفوا إثماً ولم يأتوا جرماً . لأنهم اعتادوا ذلك وألفوه . ونشئوا فلم يجدوا من أهلهم رادعا ولا ممن حولهم زاجراً وناهياً . ولا من الحكومة مؤدباً . فكانوا خاسرين . وهذه علل ونقائص يجب على المتعلمين أن يحاربوها و يستأصلوها بكل الوسائل . وجميع الأدوية . وهذا هو السعى الحميد لإعلاء شأن الوطن — ومنازل هذه الأحياء متلاصقة قديمة العهد . غير صحية فى الغالب . مفعمة بالناس . مملوءة بالسكان قد تحوى الحجرة الواحدة خمسة أشخاص فأكثر . يأكلون فيها و ينامون . و يضعون أثاثهم . و يقضون بها أغلب أوقاتهم . وهى مرصوفة بالبلاط . قليلة النوافذ . كثيرة الرطوبة . يغلب عليها الظلام . وسوء النظام .

والآن قد وجهت الحكومة عنايتها لإصلاح الأحياء الوطنية وتنظيمها وتنظيم طرقها فقد رصفت أكثرها بالحجارة و وسعت ما أمكنها توسيعه من طرقها ، ولكن هذا لا يفى بالغرض المطلوب ، فلو أن الحكومة أحسنت صنعا ، وساعدت على بناء المنازل الصحية بتسهيل الوسائل ، كتخفيض ثمن الأرض وترك الضرائب حيناً من الزمن ، إلى غير ذلك

مما يرغب الناس فى بناء البيوت على الطراز الصحى الحديث — لو أنها فعلت ذلك لأنقذت كثيرا من مخالب المرض ،و براثن الموت ، وهذا مما يعود عليها بالفائدة و يساعد على نمو المدن وكثرة السكان، وتلك خطوة كبرى فى سبيل تنظيم طرق القاهرة وتحسين أحيائها و بعد زمن نرجو أن يكون قصيرا تكون جميع أحياء القاهرة وغيرها على أحدث نظام وأتم ترتيب إن شاء الله تعالى ، فى هذا العهد السعيد عهد الملك (فاروق الأول) حفظه الله ،وفى عهد وزارة الأمة المستقلة الرشيدة وفقها الله م؟

٩ — طالب يصف رحلة مدرسية إلى الاهرام

دعتنا المدرسة لرحلة إلى الأهرام ، فقابلنا الأمر بسرور واهتمام ، وانتظرنا يوم الجمعة — وهو يوم الرحلة — انتظار الظمآن للماء ، والمريض للشفاء ، فاجتمعنا صباح الجمعة بالمدرسة ، وكنا زهاء المائة ،غير الناظر والمعلمين ، والضابط والموظفين ، فسرنا مشاة إلى الترام ، وحضرات المعلمين والضباط يحافظون على النظام ، فكان لنا منظر جميل ، وشكل سار جليل ؛ فجعل الناس يصفقون لنا مسرورين ، وينظرون إلينا معجبين حتى وصلنا إلى العتبة الخضراء ، ونحن فى أنس وهناء ، فانتظرنا برهة إلى أن جاء قطار أعد لنا ، فتسابقنا إليه وركبنا كلنا ، ثم سار القطار بنا ،فشعرنا بالسرور يحفناو بالصفاء يحوطنا ، وانطلقنا ننشد الأناشيد ، ونتغنى بالوطنيات ، فكان لذلك أجمل وقع ، وأحسن أثر ، وما زلنا فى أنس وهناء . وسرور وصفاء . وجلبة وضوضاء . إلى أن وصل بنا القطار إلى الأهرام . فنزلنا وسرنا إليها ، فإذا هى أبنية ضخمة هائله ، وإذا نحن أمام تلك العظمة الغابرة ، وتلقاء هذه المدينة الذاهبة وبين يدي هذا الملك العظيم الزائل وذلك الأثر العجيب الخالد، فأدركنا ما كان لمصر من علو فى الحياة، وتقدم فى الحضارة و براعة فنية فى العمارة . وسر غريب لم يكشفه العلماء ،ولم يفهمه الباحثون والخبراء ، أفلا يجب علينا أن ننحو نحوهم ونقتفى أثرهم ، ونعمل عملهم ، ونسعى سعيهم ، ونكون كما قال القائل : —

نبنى كما كانت أوائلنـــــــا تبنى ونفعل مثـــــــل ما فعلوا

قد سبقتنا أمم ليس لها فى المجدمالنا، وتقدمتنا دول كانت وراءنا، و إثم ذلك راجع إلينا ، وما هو إلا منا ، وما هو إلا الـكسل والخمول والجبن والخوف . والحياة السعيدة للعاملين ، والفوز التام للمجاهدين ، والسعادة الحقة للجادين

لا يدرك المجـد إلا سيد فطن لمـــا يشق على السادات فعّال

وقفنا أمام الهرم الأكبر فإذا هو معجزة الفن، ومثال القدرة، ودليل على ما كان للفراعنة من بأس وقوة ، لم تؤثر فيه الأيام، ولم تنل منه الحوادث والأعوام، تراه مربع القاعدة مخروط الشـكل تحيط به مثلثات أربعة ، أضلاعها متساوية وأطرافها محددة، تنتهى إلى نقطة واحدة وقد جاء أحد التراجمة الأعراب وتسلقه حتى صار فوق قمته فبدا كأنه الغراب ، ثم نزل وصعد بنفر منا كنت منهم، لنرى داخل الهرم فاتبعناه هائبين، وكأنا قادمون على أمر خطير، حتى أدركنا المدخل فتقدمنا الدليل وسار بنا فى نفق مظلم ضيق طويل ينتهى إلى ممرين مرتفعين أملسين ضيقين : أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار ، و بينهما هوة سحيقة عليها وعلى الممرين حواجز من حديد، فتعلقنا بالحديد وسرنا من الممرين إلى حجرتين فى الصخر أرضها وسماؤها وجوانبها من الحجارة الصلد الشديدة الصلابة على جدرانها نقوش وخطوط منقورة، وفى الحجرة اليمنى تابوت عظيم من الجرانيت يكاد يملأ فراغها، وليس له غطاء، و بكل منهما كوة صغيرة يدخل منها نور ضئيل، فشعرت كأنى خرجت من الدنيا إلى عالم جديد ، ثم عدنا خارجين، فكأنا بعثنا إلى الدنيا بعد انقطاع، و رجعنا إلى الحياة بعد غيبة، فنزلنا إلى سفح الهرم فإذا يجاوره هيكل ضخم من الحجر الصلد رأسه رأس إنسان وجسمه جسم أسد . فسألنا عن حكمة ذلك فقالوا : إنهم يشيرون بذلك إلى أن الملك لا يقوم إلا على العقل والقوة . وعلى مقربة منه معبد تحت الأرض جدره من الرخام وشكله يدل على ما كان له من المقام والاهتمام، ثم سرنا إلى هرمي خفرع ومنقرع فى تلك الساحة الواسعة فإذا هما أقل حجما وعظمة من الهرم الأكبر، ورأينا آثار البحث والتنقيب الذي تقوم به

الحكومة على يد أستاذ الفن البحاثة الأستاذ سليم حسن بك، الذى عثر على كنوز قيمة ، بتلك الجهة وغيرها من الأماكن الأثرية القديمة ، مما دل على أن المصرى لايقل عن أخيه الغربى ، بل قد يسبقه ويفيد أكثر منه ، وحلت الساعة الأولى بعد الظهر ، فجلسنا صفوفا على الرمل ، لتناول الغداء ، وأكلنا وشربنا فى سرور وهناء ، ثم استرحنا بعض الراحة ثم قمنا ولعبنا الكرة ماشاء الله أن نلعب ، بعد ذلك تفرقنا نمرح ونلهو ، فمنا من ركب الحمير ، ومنا من ركب الهجان ، نجرى بها إلى هنا وإلى هناك ، حتى حان وقت الغروب فأذن المؤذن بالرحيل ، فأقبلنا طائعين ، وجئنا كارهين ، ووددنا لو طال المقام ، فى ظل تلك الاهرام ، فى هذا السرور وذلك الأنس ، ولكن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجرى الرياح بمالا تشتهى السفن

وقد نلنا فوائد جمة من هذه الرحلة ، فى العلم والصحة ، وشاهدنا ما كنا نسمع عنه فى الكتب ، ونرى صوره فى الصحف ، وكان للرؤية تأثيرها الفعال ، وللمشاهدة عملها المثمر ، فقد مال كل منا للجد والاجتهاد ، والعمل لرفعة شأن البلاد ، حين عرفنا أن هذه آثار السابقين من المصريين ، وأعمال السالفين من سكان هذا الوطن العزيز ، ولقد رأينا من حضرات الناظر والمعلمين ، عطفا أبويا ، وشفقة عالية ، وحرصا على إفادتنا ونفعنا ، فشكراً لهم وثناء ، وتقديرا واحتراما .

١٠ — ساعة جيب تقص تاريخها

أشكر لمن صنعونى وأبدعونى . صنعونى من معادن مختلفة . وكونونى من آلات كثيرة . ظهرت فىّ معجزة الفن . وبانت بى آية الاتقان والصنع . تركيب دقيق . وتكوين عجيب . وتأليف غريب ، يدل على مهارة الإنسان . وذكاء الصانع الفنان ، لى ظرف من الفضة جليل جميل ، فيه نقش متقن بديع . له بريق وضياء ، يتألق كأنه كوكب سماء . ولى سلسلة من الذهب نهاية فى الجمال . وغاية فى الدقة والكمال ، صرت ساعة ولى ظرف وسلسلة . تعرف بى الأوقات والأزمنة . بى وبأخواتى الساعات تسير

حركة الأعمال فى البيوت والمدارس . والدواوين والمتاجر والمصانع . وتقام الشعائر . وتطلق المدافع وتدق النواقيس . ويذهب المسافر . ويغدو الصانع والطالب . فما أعظم نفعى . وما أكمل فائدتى . صنعت فى سويسرا وجئت إلى مصر مع ساعات كثيرة . بعد أن وضعونا فى صناديق محكمة . وأركبونا الباخرة والقطار . وجابوا بنا الأراضى . والبحار . وانتهى بنا المطاف إلى حانوت أحد التجار . فنسقنا ونظمنا . وتحت أقبية من الزجاج وضعنا . وللبيع عرضنا ، فكنت من نصيب شاب كريم الخلال والشيم ، طيب الأعراق كبير الهمم . أديب ظريف ، أصيل شريف ، أعزنى كل الإعزاز . واحتفظ بى أتم احتفاظ ، أحبنى وأحببته . وأكرمنى وأكرمته لا أنى عن السير الدقيق ، ولا أفتر عن الدق النظيم ، فاشتد بى تعلقاً وحباً ، وازددت به سروراً وأنسا ، وبالغ فى صيانتى وحفظى ، وبالغت فى خدمتى وعملى ، والدهر باسم ، والسعد خادم ، والأيام مقبلة ، والحياة ناضرة زاهرة ، والصفاء كامل ، والهناء شامل ، ولكن الدهر حُوَّل قُلَّب ، والدنيا غرارة ختالة ، ولكل شىء أجل ونهاية ، فقد مرض سيدى على حين غرة ، وذهبت تلك الهناءة وهاتيك المسرة ، وأصبح طريح الفراش سقيا عليلا ، ولم يمهله المرض إلا قليلا ، فقضى نحبه ، ولقى حتفه ، وهو فى شرخ الشباب ، ونضارة الحياة ،

أعزز على بأن يفارق ناظرى . لمعان ذاك الكوكب الوضَّاء

فلم أرض به بديلا ، ولا بغيره صاحبا وخليلا ، وقد كان ماأردت ، ووقع ماأحببت ، إذ أنهم أهملونى ، ونسونى وتركونى ، فعلانى الغبار ، ودخل أحشائى التراب ، ووقفت حركتى ، وبطل عملى ، وسكنت دقات قلبى ، وأخيراً تذكرونى ، وعبثا حاولوا تسييرى ، فأرسلونى إلى مصلح الساعات ، ليزيل مابى من الآفات ، فإذا هو قابع فى دكان فاسد الهواء ، ضيق الفضاء ، قليل الضياء ، مسدود المنافذ ، قذر الجدران ، نسج العنكبوت سقفه ، وعادت النظافة أرضه ، وحوله الآلات والأدوات ؛ ومختلف الساعات ، مبعثرة منثورة ، ملقاة مهجورة ، فقص الرسول عليه خبرى ، وحدثه بتاريخى ونبئى ، وساومه فى تسييرى وإصلاحى ، فاشتط فى الطلب ، وغالى فى الأجر ، وادعى أن ترسى محطم ،

وقلبي مهشم ، وتقوّل وافترى ، وكذب واختلق ، ونفسى تحدثنى عن عهد سعيد مضى ، وزمن هنيء ذهب وانقضى ، فيشتد كربى ، ويتفاقم خطبى ، وتزيد لوعتى ، ويعظم وجدى

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

انتهت المساومة وتم الاتفاق ، وأخذ عشرة قروش وأبقى مثلها إلى مابعد الاصلاح ثم تناولنى الساعاتى ورمانى بين ساعات محطمة . وأخرى مهملة مشوهة ، حتى انقضى الأجل الموعود . وانتهى الميعاد المحدود ، فأقبل الرسول طلق المحيا ، باسم الثغر ، بادى البشر ، فلقينى جثة هامدة ، ووجدنى ساكتة ساكنة ، ورآنى كما تركنى ، فوجم واغتاظ ، وحزن وغضب ، فوعده الساعاتى وأخلف ، ثم وعد وأخلف ، وأطال وقصر وماطل وراوغ ، حتى سئم الرسول والمرسل ، ومل الخادم والمخدوم ، واختلفوا واشتجروا وتنازعوا واختصموا ، وجمعوا عليه الناس ، وأشهدوا عليه المارة ، واتفقوا على ثلاثة أيام يكون بعدها التمام ، فأرسلنى الساعاتى لغبى من أغبيائه ، وجاهل من جهلائه ، جعل يبدى ويعيد ، ويتخبط ويخلط ، حتى مضت الأيام ، وأنا كاليتيم فى مأدبة اللئام ، فجاء الرسول وأرعد ، وأرغى وأزبد ، فرجاه الساعاتى فى ثلاثة أخرى ؛ ليكون الاصلاح أكمل وأجدى ، ثم قام إلى غبيه وأشبعه لوما وتعنيفا ، وشتما وتوبيخاً ، وتناولنى وجمع شتاتى ، ورتب أدواتى ، وبدل وغير ، وجمع ووفق ، فسرت على فساد ، ودُرْتُ على غير أساس . وجاء الرسول مكفهرا ، وأقبل غاضبا مشمئزاً ، فتلقاه الساعاتى بالترحاب ، وتبادلا ألفاظ العتاب ، وتناول منه العشرة الباقية ، وأخذنى الرسول دائرة سائرة ، ووضعنى على أذنه مختبرا ؛ ومضى لسبيله فرحاً مستبشراً ، فتسابق أهل الفقيد يروننى ؛ ويأنسون بى ، وجعلوا ينقدوننى ، ليعلموا ماذا تم لى ، وحل بى ، ولكن سرعان ماوقف سيرى ، وبطلت حركتى ، فبعثونى إلى هذا الفظ الغليظ ، فأبى إصلاحى ، وامتنع وسب وشتم وادعى أن يدا تناولتنى بالافساد ، والعبث والإيقاف ، فعاد الرسول مخذولا ، وآب خائباً ، وأرسلونى إلى مصلح جديد ، فأظهر مابى من اللعب والتبديد ، ورمى القديم

بالنصب والاحتيال ، والزور والبهتان ، وأن الساعة لايرجى إصلاحها ، ولا يمكن لمخلوق إبراؤها ، فعدت إلى بيت المرحوم سيدى و وضعت مع مخلفاته ، وجُعِلت فى آثاره وما زلت فى هدوء وسكون ، واطمئنان وسكوت ، حتى عدا لص علينا ، وأخذنا وباعنا بثمن بخس ، وقيمة زهيدة ، فأوقعنى سوء حظى فى يد جهول أساء إلى ، وأوقع أنواع العقاب علي ، إذ لم يستطع إصلاحى ؛ ولم يقدر على جبرى ، فرمانى بكل قواه ، مغضباً مما لاقاه ، فساء منظرى ، وقبح شكلى ، وأخذتنى زوجه الحريصة ، ووضعتنى فوق منضدة الزينة ، وأنا الآن عليها كئيبة حزينة ، أنتظر المرحلة الأخيرة من حياتى ، وهى تفريق وشتاتى ، واضمحلالى وزوالى ، وموتى وفنائى

سبيل الموت غاية كل حى   فما نيل الخلود بمستطاع

١١ — حبة قمح تحكي أدوار حياتها

خلقنى الله قمحة صغيرة ، يرانى من يرانى حقيرة ، لا أسد خلة [١] ، ولا أمنع مسغبة [٢] ، لايقام لى وزن ، ولا يذكر لى شأن ، لا أسمن ولا أغنى من جوع ، ولكن فىَّ تتمثل قدرة الحكيم العليم ، وبى تظهر نعم المولى الكريم ، بى قد تتغذى أسرة ، بل قد تعيش أمة ، بل قد تحيا أمم ، أليس الله بقادر على أن يضع البركة فىَّ فأنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، وهذه تنبت مثل ما أنبت ، وتلك كذلك ، حتى يكون منى غذاء الأسرة والأسر ، وعيش الأمة والأمم ، ليس ذلك على الله بعزيز ، وما هو على القادر المقتدر ببعيد .

الآن أقص عليك خبرى ، وأحدثك عن تاريخ حياتى : أوجدنى الله من سنبلة كثير حبها ، عزيز قمحها ، جيد برها ، فعنى الفلاح بشأنى ؛ واحتفظ بى وبأخواتى ، وبحب السنابل النابتة فى مكانى الخصيب ، ووضعنا فى مخزنه أكداساً وأكواماً ، ومكثنا فيه ليالى وأياماً ، حتى آن أوان بذر القمح ، فباع منا ماباع ، وبذر الباقى فى

---

(١) خلة — حاجة (٢) مسغبة — جوع

أرضه بعد إصلاحها ، وفلحها وحرثها ، فكنت من نصيب هذا الفلاح الجاد المجد ، الدائب المجتهد ، فأبقاني مع كثير من أخواتي وجاراتي ؛ في بقعة جيدة التربة ، كثيرة الخصب ، ورووانا بالماء الفينة [١] بعد الفينة ، والفترة بعد الفترة ، والحين بعد الحين ، حتى نجمت [٢] لنا السيقان ، واخضرت بنا القيعان [٣] ، فكان مرآنا يسر الناظرين ، ومنظرنا يبهج الرائين ، ثم استغلظت السوق واشتدت ، وقويت وامتدت ، وحملت السنابل مفعمة [٤] بالحب ، مملوءة بالقمح ؛ واصفرت الأرض بعد اخضرارها ، وآن أوان جناها [٥] وجنيها [٦] ، فأقبل الفلاح وأولاده يحصدوننا مبالغين ، ويجمعوننا مستأصلين ، وجعلوا منا أكداساً وأكواماً ، زَرافات [٧] ووحدانا ، جماعات وفرادى ، ثم حملونا إلى الأجران ، وجاءوا بالنوارج والثيران ، ودرسونا درساً ذريعاً ، وعركونا عركاً شنيعاً ، فكنا حلقات حلقات ، تمر علينا العجلات ، فتفصل الحب من السنابل ، وتقطع السيقان قطع المناجل [٨] ، ثم أتوا بالمذارى [٩] ينثروننا بها في الهواء ، ويرمون بنا في هذا الفضاء ، فيسقط الحب لثقله ، ويطير التبن ويقع بعيداً لخفته ، وبعد فراغهم من التذرية ؛ وضعونا في الغرائر بمقدار ، وحملونا إلى المخازن والأسواق ، فكنت ممن حملن إلى السوق للبيع والشراء ، ورأين العذاب الأليم من المشترين ، في الفحص والعرك والتكسير ، ليستبينوا حظنا من الجودة ، ونوعنا في الغلة ، فباعونا هانئين ، وتناولوا ثمننا مسرورين ، وبذلك تفرقنا [١٠] شذر مذر ، ومزقنا كل ممزق ،

---

(١) الفينة — الوقت (٢) نجمت طلعت وظهرت (٣) القيعان جمع قيعة وهي الأرض المستوية (٤) مفعمة على صيغة اسم المفعول بمعنى مملوءة (٥) جناها — الجنى كالعصا ما يجنى ويجمع (٦) جنيها — الجني كالقتل مصدر جنى (٧) زرافات — بفتح الزاى — بمعنى جماعات (٨) المناجل جمع منجل — بكسر الميم وهو حديدة حادة يقطع بها (٩) المذارى جمع مذرى بكسر الميم وألف مقصورة وهى الخشبة ذات الاصابع التى يذرى بها الفلاح القمح (١٠) شذر مذر ، يقال تفرقوا شذر مذر بفتح أولها وكسره ، أى ذهبوا فى كل وجه ، ويقال كذلك تفرقوا شغر بغر بفتح أولها وكسره

فتذكرت أيام المزرعة الهنيئة ، ولياليها السارة الجميلة ، وأسفت على ما كان لى من عز وسعادة . ذهبت بهما الأيام، وقضى عليهما الزمن .

ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى   من العيش مايصفو وما يتكدر

والحق أقول : إن الفلاح وذويه ، وزوجه وبنيه ؛ رأوا من أجلنا صنوف المشاق وصادفوا فى سبيلنا أنواع المتاعب ، فمن سهر فى العراء ، تحت ظل السماء ، إلى مكث طويل تحت ذكاء[1] ، وهم فى عمل ناصب ، وشغل دائب ، وحركة دائمة ، وأعمال شاقة فأعظم بما يعملون ، ولشد مايلاقون ، فليكن لهم حظ من التربية والتعليم ، ونصيب من العناية بالصحة والتنظيم ، وأعود فأحدث بما بقى من تاريخ حياتى ، وما لاقيته فى روحاتى وغدواتى ، فأقول : لما اشترانا الناس ، أمعنوا فينا نقاوة وغربلة ، وهرساً وعركا ، وكيلا ووزنا ، ودشاً وطحنا ونخلا وعجنا ، وطهيا وخبزاً ، فكان منا الخبز الجميل ، والكعك اللذيذ ، والفطير الشبيع[2] ، والأطعمة الحديثة ، المصرية العديدة ، مما يقدم فى الأفراح والولائم ، والمآدب والمواسم ، وما يراه الإنسان فى غدوه ورواحه ، من صنع مصر والشام وبلاد الغرب ، هذا كله من دقيقنا ، وأما النخالة والتبن فلهما أثر فعال فى فائدة الإنسان ، وغذاء الحيوان ، ولا أعلم ماذا كان من نصيب ماتفرع منى ، ونشأ عنى ، فقد تناولتنا أيد كثيرة ، وبعثرتنا فى جهات مختلفة . وإنما علم ذلك عند ربى ، تلك أدوار حياتى ، كنت فى حب ظريف ، نتمتع فى المزرعة بالهواء العليل ، والنسيم البليل ، فعدت علينا أيدى الزارعين ، ومناجل الحاصدين ، حتى تحولنا إلى دقيق أبيض جميل ، ثم إلى طعام مختلف لذيذ ، ثم إلى أكل ذريع ، ثم إلى فناء عميق ، نفعنا الفلاح والتاجر ، والطحان والعجان ، والخباز والطباخ ، وتغذى بنا هؤلاء وغيرهم ، وكان مصيرنا إلى الفناء والزوال ، والبقاء لله الكبير المتعال

ألا كل شىء ماخلا الله باطل   وكل نعيم لامحالة زائل

---

(١) ذكاء بضم الذال اسم للشمس (٢) الشبيع الكثير دهنه اللذيذ طعمه

١٢ — هب أنك صادفت أسداً فى الصحراء ونجوت منه بعد اليأس

فاكتب ما جال بنفسك وحدث لك

ولولا رحمة ربى لكنت من الهالكين ، ولحسبت اليوم فى الذاهبين، فأحمده حمد الشاكرين : خرجت فى رفقة من أصحابى، نبتغى رؤية الصحراء، ونتمتع بما بها من براح وفضاء ، ونلهو بالنظر إلى هذا الخلاء ، لنرى جديداً ، ونبصر طريفاً حديثاً ، فقد مللنا الحدائق والأنهار ، وسئمنا الرياض والبحار : وقد أعددنا عدتنا واتخذنا أهبتنا ، من ماء وزاد ، ومتاع وأدوات ، وخدم وأعوان ، حتى أغرقنا فى البيداء وأمعنا فى التيهاء ، وقد أدركنا التعب ؛ وحل بنا الوصب[١] فجلسنا للغداء ، وقد نشرنا ظُلة تقينا حر ذكاء[٢] وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، ثم جعلنا نرتع ونلعب ، ونلهو ؛ ونمرح ؛ فرأيت على بعد كثبان الرمل بشكلها البديع ، ومنظرها البهيج ،فطوعت[٣] لى نفسى ؛ أن أطأها بقدمى،فسرتُ وسرتُ ثم سرتُ وجد بى المسير ،وكلما اقتربت منها بعدت عنى،حتى غيبت عن أصحابى واختفوا منى ، فركبت رأسى ولم أحفل بهذا النذير ،وأنا لا أدرى كيف المصير وأطلقت لنفسى العنان،لأصل إلى هذه الكثبان ، ولكن دبيب الخوف جعل يملك قلبى حين وجدتنى وحيداً فريدا لا أرى ديارا ولا عريباً[٤] ، ولا إنساً ولا وحشا ، فذهلت عن نفسى ، وأنا أسير وأمشى ، حتى صادفت كثيباً مرتفعا على امتداد عظيم ؛ فأسرعت إليه ، وجلست فى ظلاله ، وإذا أسد قد اتخذ سبيله فى الرمل سربا[٥] . رأيته ولم يرنى رأيته ضخم الشوى[٦] شديد القوى . ذا منظر مفزع . وشكل مخيف . قد تكاثف شعره . وعظم جسمه . تقدح عيناه بالشرر ، ويسبقه الويل والخطر ، له لبدٌ[٧] أظفاره لم تقلَّم ، هالنى مرآه ، وراعنى منظره ، فاضطربت جد الاضطراب ، وخارت منى القوى

---

(١) الوصب الوجع من مرض وغيره (٢) ذكاء اسم للشمس (٣) طوعت : سولت ويسرت (٤) يقال مابالمكان ديار ولا عريب أى مابها أحد (٥) السرب الشق الطويل أى اتخذ مابين الرمال طريقا له (٦) الشوى الاطراف من اليدين الى الرجلين

(٧) اللبد الشعر المجتمع بين كتفى الاسد

واشتد العذاب ، واستيقنت الموت ، وتحققت الهلاك ، وكدت أصعق من شدة الوجل ، وأقضى الحياة قبل الأجل ،فانزويت فى أحد الأحقاف [١] واختفيت في غضون الرمل، وفرائصى ترتعد وقلبي يضطرب ، وتذكرت أمى وأبى،وأهلى وصحبى،وأمانىَّ وآمالى، و وطنى و بلادى فزاد كربى و بلائى وصبت على المخاوف والآلام ، ونفسى تحدثنى أن قد حان الحين [٢] وحُمَّ [٣] القضاء ، ولا مفر من الموت،وكأن الأسد قد أحس بى ، فجعل يجىء ويذهب ويروح ويغدو ، يختال عجباً ويتيه كبراً ، يستهزىء بما يرى ، ويحتقر ما يجد ، ينتظر فريسة يتركها هشيما ، ويرتقب صيداً يذره رميما ، فساق الله إليه حماراً وحشياً مليئاً شغله عنى ، وأبعده منى ، انقض عليه كالصاعقة ، وغادر أشلاءه [٤] متفرقة ، وأنا فى أثناء ذلك أقاسى أهوالا تشيب النواصى ، وأعانى آلاما تذيب الرواسى ، أنتظر نوبتى ، وأرتقب مرتى ، ولكن الله وهب لى على الكرب نجاة وحفظاً ، ورزقنى فى شدة اليأس سلاما وأمناً .

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

فقد أقبل ظبى رآه الأسد فهم به ، واشتاق إلى لحمه ودمه ، ففر الظبى وعدا خلفه الأسد حتى توار يا عنى ، فهدأ روعى [٥] وأطمأن قلبى ، وأسرعت أمشى فى غير سبيل الأسد والظبى على غير هدى ، لعلى أجد مرشدا ، حتى أذنت الشمس بالغروب ، فعاودتنى الكروب ، وقلت متى تجنَّ [٦] الليل ؛ فما هو إلا الهلاك والويل ، فالبرد قارس ، والريح عاصف ، وليس معى غطاء ولا وقاء ؛ ولا أكل ولا ماء ؛ فتابعت السير ، وواليت المشى ، والرجاء يسوقنى ، واليأس يمنعنى ، والليل يسرع بالظلام ؛ والسحب تتكاثف بالغمام ، فأسلمت نفسى للموت ، وصممت على السير ، حتى أصل فأطمئن ، أو أموت فأستريح .

---

(١) الاحقاف جمع حقف بكسر الحاء وهو المستطيل المشرف من الرمل (٢) الحين بفتح الحاء الهلاك (٣) حم القضاء أى نزل ووقع (٤) أشلاءه جمع شلو بكسر الشين وهو العضو (٥) الروع بضم الراء محل القلب والغرض القلب وبفتح الراء وسكون الواو بمعنى الفزع (٦) جن بفتح الجيم دخل

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية [١] ناجى

ثم مضيت غير هياب ولا وجل ، ومازلت أسير وأتابع السير حتى بدا لى نور فاطمأننت ، ونحوه قصدت ، وبعد لأى وصلت ، فإذا هو بأطراف المدينة ، فعمت قلبى السكينة ، فدخلتها وقد هجع الناس ، وخلت منهم السبل ، فرآنى من رآنى ، وأخبر أهلى وخلانى ، فجاءوا إلى سراعا ؛ وأقبلوا خفافا ، أما أنا فلم أطق حراكا ولا كلاما ، ولم أستطع بيانا ولا خطابا ، فأركبونى السيارة وركبوا ، فماهى إلا لمحة حتى كنا فى المنزل ، فقابلنى أبى وأمى ، وكانا على أحر من الجمر لبعدها عنى ، فبكيا بكاء السرور ، وتتابع الناس فى فرح وحبور ؛ وأنا طريح الفراش من الألم ؛ وفى سكرة من شدة التعب ثم صحوت بعد نوم عميق فقصصت قصتى ، ورويت للناس خبرى ، ولمت نفسى على ترك أصحابى الذين أمعنوا فى البحث عنى ، فعادوا بعد اليأس منى ، ولكن الله سلم ، إنه خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

١٣ — ضال فى الصحراء يذكر ما حدث له بعد نجاته

خرجت أبغى حج بيت الله الحرام ، وزيارة رسوله عليه السلام ، فأعددت مع الحجيج العدة واتخذنا الأهبة ، وركبنا القطار إلى السويس ، ومنها أبحرنا إلى جدة ، ومن جدة ركبنا السيارات إلى مكة المكرمة ، وطفنا بالكعبة المشرفة ، وأدينا الشعائر ، وأتممنا المناسك ثم قصدنا مدينة الرسول ، ليتم لنا المقصود ، ونظفر بالمأمول ، فركبنا الجمال ، وأمعنا فى الرمال والجبال ، والقافلة تسير وترتاح ، ونحن فى سرور وانشراح . ولكن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فقد حطت القافلة الرحال ، وانتشر الناس يتفيئون [٢] ظلال الجبال ، ويتمتعون برؤية الكثبان والرمال ، طلباً للراحة ، ورغبة فى تجديد القوى ، كعادتهم فى كل مرة فذهبت اطلع كغيرى ، وأستبين كسواى ، فبعدت كثيراً ، ونأيت شديداً ، وأنا

---

(١) المنية الموت (٢) يتفيئون يدخلون فى الظل

مشغول بما أرى ، مسحور مما أجد ، فرحٌ بالذى أشاهد ، وقد نسيت القافلة ، وشغلت عن الركب والمسافرة . . . وانتهيت إلى غار سرتنى رؤيته ، وأعجبتنى هيئته ، فجعلت أتفقد ما فيه ، وأنا فرح بما ألاقيه ، ثم خرجت أبغى القافلة ، فإذا هى ذاهبة زائلة ، وإذا بى وحيد فريد ، تائه بعيد ، تظلنى السماء ، وتقلنى الصحراء ، لا رفيق ولا أنيس ، إلا حشائش مبعثرة لا قيمة لها ، وشجيرات مفرقة لا خير فيها ، وهضاب مرتفعة ، وكثبان [١] ممتدة ، وأخرى منقطعة ، وجبال عالية ، وقيعان [٢] خاوية خالية ، ورمال تسوخ فيها الأقدام ، ومهامه [٣] يَفْرَق [٤] من هولها المقدام ... لا أرزاق ولا أقوات ولا ماء ولا نبات ، رياح تخفق ، وصدى يرعب ، وبعدها هدوء وسكون ، وصمت وخشوع ، فلم أحفل ولم أيئس ، وجعلت أتتبع آثار القافلة ، وأترسم مواضع أقدام السابلة وأسترشد بمواقع أخفاف الإبل ، وأهتدى بمواطن حوافر الخيل ، وكلما قطعت علماً بدا علم ، وكلما اجتزت مسلكا ظهر آخر ، حتى اختلط علىّ الأمر ، وتشابهت المسالك ، واختلفت الطرق ، واشتبكت السبل ، وأغلقت المعالم ، وعُمِّيت علىّ المناهج ، وصرت فى حيرة وارتباك ، واختلاط واضطراب ، أعيد الذى أمشيه ، وأمشى الذى أعيده ، فخارت قواى ، وبطلت حيلتى ، وبان عجزى ، وظهر ضعفى ، وأقبل الليل بظلامه الأسود الحالك المخيف ، وسكونه المهيب الرهيب ، فانتابتنى الوساوس ، وتقاذفتنى المخاوف والهواجس ، ففزعت إلى الله الكريم ، وسألته النجاة من هذا العذاب الأليم ، ثم تيممت وصليت ، فاطمأن قلبى ، وبذكر الله تطمئن القلوب ، وغلبنى النوم من شدة التعب فنمت ، وما لبثت أن صحوت ، وكيف ينام من تساوره [٥] الهموم ، وتعاوده الأحزان ويؤلمه برد الصحراء القارس . وريحها العاصف . كيف ينام من ترك وراءه أمه وأباه وأخته وأخاه ، والأهل والأصحاب ، والجيرة والأحباب .

---

(١) كثبان جمع كثيب وهو المرتفع من الرمل (٢) قيعان جمع قيعة وهى الأرض المستوية (٣) مهامه جمع مهمة وهى الصحراء (٤) يفرق — يخاف (٥) تساور — تغالبه

أرقت وما هذا السهاد[١] المؤرق وما بى من سـقم وما بى تَعشُّق

فجعلت أرتعد وأرتعش ، وأتوقع الهلاك وأنتفض ، وقد ذهبت نفسى شَعَاعا[٢] ، وطار فؤادى فرقا ، واستحكم الضيق ، واشتد الخطب ، أخشى وحوش البيداء ، وأهاب ضوارى[٣] الصحراء ، والجوع يهددنى ، والعطش يوعدنى ، والرعب يتملكنى ، وكدت أقضى الحياة مما أرى ، وأوشك أن أموت مما أجد ، ولكن الأمور إذا انسدت مسالكها واستحكمت مغالقها ؛ فعند الله مفاتحها ، و إن مع العسر يسرا ، و مع الضيق فرجا .

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان[٤] ويأتى أهله النائى الغريب

و بينا أنا أعانى ما أعانى ، إذا الصباح ينسخ[٥] آية الليل ، و النور يمحو حالك[٦] الظلام ، فتيممت وصليت الصبح ، وصبرت حتى مطلع الشمس ، وجال بنفسى أن أنحو جهة الغرب ، وأسير مع سيف[٧] البحر ، لعلى أجد مرشدا ، أو أصادف هاديا ، فسرت وجدّ بى المسير ، وأنا أجتاز عقبات من الجبال والهضاب ، وأقطع مسافات فى الرمال والقفار ، حتى دميت قدماى ، وخارت قواى ، ولم أظفر ببحر ولا ماء ، ولا شاطىء ولا سيف ، فوقعت مغشيا علىّ من التعب ، وأغمى علىّ من الوصب . فرآنى جماعة من المارة احتملونى إلى المدينة المنورة ، ولم يكن بينى وبينها إلا القليل ، ولكنى ضللت السبيل ، وصحوت فاذا بى بين المرضين والأطباء ، فتناولت الدواء ، وتم الشفاء ، وعادت إلىّ القوى ، وانبعثت فىّ الحياة ، ووجدت متاعى مع صديقى الذى تخلف ينتظرنى ، ويرتقب وجودى ، وهو على أحر من الجمر ، ومن رحمة الله لقينى ففرح بى ، وزال عنى الأسى ، وسرى عنى الأسف ، وقصدت الروضة الشريفة ، وتمتعت بزيارة سيد الأنام

---

(١) السهاد — الأرق وعدم النوم (٢) شعاعا — يقال ذهبت شعاعا يعنى تفرقت تفرقا لكثرة مابها من الهموم (٣) الضوارى المفترسة (٤) عان — أسير (٥) ينسخ يزيل (٦) حالك — شديد السواد (٧) سيف البحر — جانب البحر

عليه الصلاة والسلام ، وأنا أبكى فرحا ، وأمتلىء هدى ونوراً و بشراً وسروراً ، ثم قصدنا ينبع وركبنا الباخرة إلى السويس واستقلنا القطار إلى القاهرة وعدنا بسلام آمنين . والحمد لله رب العالمين .

١٤ — دور التمثيل الهزلى

تلك هى أماكن اللهو ، ومواطن الضحك ، وبؤر الفساد ، ومذابح الفضيلة ، وحصون الرذيلة ، هنالك تجد الأئمة مجتمعين ، وجنود الشر مجندين ، ينتزعون المكارم من نفوس الحاضرين ، ويملئونها بالخبائث دائبين ، لا يراعون الآداب ، ولا يعرفون الصواب ، ولا يخشون العزيز الوهاب ، تلك هى دور التمثيل الهزلى ، أعشاش الشيطان وأوكار الخسران ، تعلن إدارة الملهى عن تمثيل الروايات المخزية ، وعرض المناظر الصاخبة الساخرة ، التى تمثل الفحش واللصوصية ، والغدر والخيانة ، والفسوق والعصيان ، وطرق الغش والاحتيال وتقتلع حب الخير من الصدور اقتلاعا ، وتنتزع الآداب من القلوب انتزاعا ، تعلن عنها فتلصق بجدران أهم الشوارع المعمورة ، والأحياء الآهلة ، أوراقا مطبوعة مكتوبة بالخط العريض . وفيها اسم الرواية أو المناظر ، وقد يوزعون أوراقا أخرى على المارة والمحال التجارية وراكبى الترام وغيره ، وفيها بيان للناس عمن سيقوم بأهم الأدوار ، ومن سيطرب الحاضرين ، ومن ومَنْ ، من نساء ورجال ، وعلى الذاهب إليها أن يشترى تذكرة الدخول من شباك الملهى ، أو محال أخرى تبين فى الصحف اليومية والتذاكر لدرجات ثلاث الأماكن المخصوصة (اللوجات) وهى للاغنياء ، وتكون فى الدائرة الوسطى للملهى مرفوعة عن الأرض نحو مترين ، وأعلى الملهى فوق اللوجات وهو للفقراء المختلطين من نساء ورجال وأطفال وطفلات ، والكراسى الأرضية وهى للمتوسطين ، وكلها تشرف على منصة التمثيل المرتفعة عن الأرض قدر متر ، وعليها ستر يرفع عند حضور الممثلين والممثلات ويسدل عند ذهابهم وذهابهن ، ويرى هناك ثريات الكهرباء ، كأنها قطع من شمس السماء ؛ والناس قد

اختلفوا فى الأزياء ، مابين فتيان مغرورين ، ورجال مخدوعين ، وفتيات ناقصات ، ونساء سيئات ، لهم جلبة وضوضاء ، وصياح وصراخ ولغط وتهويش حتى إذا رفع الستار ، حافظوا على النظام ، وامتنعوا عن الكلام ، فيظهر الممثلون والممثلات ، أو تعرض المناظر باشكال غير مألوفة وأزياء مخصوصة ، وألوان نادرة ، تلفت الأنظار برونقها وبهائها ، وتجتذب الأبصار ببريقها ولمعانها ، تبرج ممقوت ، وعمل مرذول ، وانتهاك لحرمة الأدب بلا وجل ، وطغيان على الفضائل بلا خوف ، وفتنة وفساد كبير ، ولغة ساقطة ، وألفاظ منحطة ، ونغمات مخنثة ، وحركات سافلة ، فيتلقى الحاضرون والحاضرات صغاراً وكباراً هذه الدروس السيئة فيتأثرون بما يرون ويبصرون ، ويسمعون ويدركون ، مما يحول بينهم وبين الفضيلة ، ويسوقهم سوقا إلى ارتكاب الرذيلة ، فيدخل أحدهم طيباً ويخرج خبيثاً يدخل إنساناً ويخرج شيطاناً ، ويدخل وهو من المهتدين ، ويخرج وهو من الضالين المفسدين الضارين الخاسرين ، ومع هذا فالعامة (لنقص إدراكهم ، وعدم من يرشدهم) يأنسون بهذه المناظر ، ويسرون بتلك القبائح والمعايب ، ويبدون انشراحا عظيما واغتباطاً كبيراً . ورضاً تاماً ، حتى إذا أسدل الستار ، أكثروا من الصفير والمكاء ، والتهويش والعواء ، وضربوا بعصيهم وأرجلهم على الأرض حتى يرفع الستار ، ويعود الأمر كما كان ، وفوق ما كان ، ألا ساء مايعملون ، وقبح ما يفعلون يعملون على فساد آدابهم ، ويفعلون ما يضرهم ويضر أمتهم ووطنهم وهم لا يشعرون ، فهل لأنصار الفضيلة ودعاة الوطنية أن يردوا القوم (وما أكثرهم) عن طغيانهم ، ويصدونهم عن ضلالهم ، ويرشدونهم إلى ما يعلى شأنهم وشأن بلادهم ، (ذلك ما نرجوه) ، فما هذه الفئة الطاغية القائمة بالتمثيل الهزلى ، وما هذه المناظر الشنيعة ، إلا سيل جارف للفضائل ، حامل معه كل النقائص ، وما سعادتنا بغير مكارم الأخلاق ، والسير فى طرق الأدب والكمال ، فمن أراد أن يحفظ نفسه ، ودينه ووطنه ، وخلقه وأدبه ، وماله وزمنه ، فليهجر هذه المواطن المهلكة ، وليحرمها على نفسه ، وليقصد

دور التمثيل الصالح والخيال المفيد ، حيث يرى هناك أعمال المخترعين وما لاقوا ، والعصاميين وكيف عظموا ، والفاتحين وما صنعوا ، والذائدين عن أوطانهم وما فعلوا والسياسيين وحيلهم ، والملوك وسيرهم ، إلى غير ذاك مما يحبب فى الفضيلة و يعين على مكارم الأخلاق ، فمالنا نبغى الكمال ولا نسعى إليه ، ونطلب السعادة ونعمل ما يباعد بيننا و بينها ، إن كنا نريد الكمال ونحب السعادة فلنعمل لها ، والله لايضيع أجر العاملين ولنا فى يقظة الحكومة ، وسهرها على خير الأمة ، أمل كبير فى توجيه هذا الدور إلى أن تكون باعثة للسرور ، داعية لاجتناب الشرور عاملة على بث الفضيلة فى النفوس .

١٥ — الخيالة (السيما)

شاعت الخيالة بمصر وكثرت دورها ، وذاعت بالبلاد و زاد قصادها ، فجعل الناس يؤمونها ، ويذهبون إليها ، صغاراً وكباراً نساء ورجالا ، طلباً للتسلية ، ورغبة فى السرور وسعياً وراء الأنس حتى لقد حسبوا لها حساباً ، واختصوها بجزء من نفقات المنزل ، ذلك لقوة تأثيرها ، وشديد فعلها ، وكثير مناظرها ، وتنوع ما يعرض فيها ، من رآها أحبها ، ومن شاهدها عشقها ، ومن أبصرها تاق إليها ، وحرص عليها ، فقلما يسلوها من قصدها ، أو يرغب عنها من دخلها ، وإنك لترى المغرمين بها يقدمونها حتى على غذائهم ، و يقدسونها حتى على فرضهم ، ويهجرون من أجلها ما ينفعهم ويفيدهم ، وذلك خطأ كبير ، فانها إنما تقصد للاستعانة بها على الحياة والعمل ، لا لتكون هادمة للمستقبل ، جالبة للكسل وضياع الأمل

تذهب فترى مكانا فسيحا قد صفت فيه المقاعد على الأرض صفا ونسقت تنسيقاً . وفى الجوانب حجرات خاصة تشرف على المقاعد على شكل قوسين متقابلين ، وفوق ذلك موضع خاص بعامة الناس . أما المسرح فهو فى صدر المكان ، يغطيه ستر جميل ، وثريات الكهرباء منتشرة فوق وذات اليمين وذات الشمال ، فتزيد المسرح جمالا على جمال ، فإذا جاء دور العمل حبس النور ، وتحركت الستور وظهر ستر كتب فيه الجزء الذى سيراه الناس من

الرواية ثم يرفع فتظهر الصور المتحركة ، الخاصة بهذا الجزء . وإذا انتهت ظهر الستر ، وقد كتب فيه الجزء الثانى من الرواية ، ثم يرفع وتظهر الصور الخاصة به ، وهكذا حتى يتم الفصل، فيطلق النور وتعلو الأصوات ، ويكثر الصخب والكلام ، وتعزف الموسيقى إلى أن يحبس النور ، ويتم الفصل الثانى كسابقه ، وهكذا حتى تتم الرواية فيخرج الناس فى زحام وكلام وكل مسرور بما شاهد . مغتبط بما رأى وإن الخيالة خير معلم . وأفضل مهذب . وأكبر مؤثر وأعظم مرشد إن عرض فيها ما يحبب فى المكارم والمعالى . ويحث على الفضيلة والكمال كمناظر الحرب والنضال والجرأة والشجاعة . والإقدام والبسالة ، والمروءة والشهامة . وحب الأوطان . ومعاونة الإخوان . والصدق والإخلاص وجميع الخلال . وخير الخصال . فهى أقوى أثراً من الكلام والكتابة . وأعظم بياناً من الشرح والخطابة . وأشد فعلا من الرسم والتصوير . هى الدرس العملى الذى يفهم الناس حقائق الأمور . وكنه الحقائق . مع السهولة واليسر . والراحة والسرور . لذلك أدخلوها بالمدارس ، واستعانوا بها على تفهيم العلوم والمعارف . ومشاهدة المناظر التى يتعذر على الطلبة أن يدركوها بالكلام أو يفقهوها بالقول مهما يكن قائله من البلاغة والفصاحة وقد استعان بها الخطباء والمحاضرون على بث معلوماتهم ، وأغراضهم . ومناظرهم .

تقع الحادثة فى الجهات القاصية . والبلاد النائية ، فسرعان ما نشاهدها ببلادنا . ونراها ونحن فى ديارنا كأنا كنا شاهدين ، وعندها واقفين . كحوادث الحرب الكبرى والمظاهرات والاجتماعات . والمؤتمرات والاحتفالات والمواكب وغيرها ، وبالخيالة تمكن كثير من السائحين من عرض ما شهدوه أثناء رحلاتهم . وفى غضون سياحاتهم . فربحوا مالاً وفيراً وخيراً كثيراً .

وبمصر خيالات سيئة تعرض فيها المناظر الفاسدة . والمرئيات المؤلمة والمشاهد المخزية التى تبعث على الفساد ، وترشد إلى الشرور والآثام ، كمناظر اللصوص وما يفعلون ، والمحتالين وما يصنعون ، والآثمين وما يرتكبون . والمعتدين وما يعملون . فلنأخذ حذرنا

منها ولنقاطعها فإنها فتحت للاضرار بنا . و بقصد النيل منا . والغرض منها محار بتنا حتى نبقى فى تأخر وجهل وموت ، وهذه أكبر معوان على انتشار الجرائم ، واختلال الامن وشيوع المفاسد . فيجب علينا أن نهجرها وعلى الحكومة أن تصادرها بجهد المستطيع . نحن نريد الحياة سعيدة . والبلاد مستقلة . فلنشترك نحن والحكومة بكل الوسائل في منع هذا النوع الضار فالحكومة تقدح الضريبة وتسن القوانين الضارمة . والأهلون يقاطعون . و بذلك تنسد الطرق فى وجوه من يريدون بنا الأذى . و يضمرون لنا كل سوء وضرر . فلا يدركون غرضهم . ولا ينالون بغيتهم : فتغلق أبواب الشر . وتفتح أبواب المنفعة والخير . ولا يبقى من الخيالات إلا الصالح المفيد : وما ذلك بعزيز ولا عسير على من يودون السعادة و يرغبون في طيب الحياة : وقد فتح الله لهم أبوابها على مصاريعها والفوز للعاملين . والظفر للمجاهدين .

١٦ — ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم بالقاهرة

هناك فى صحراء العباسية فى ساحة الخفير . يقام مهرجان فخم ومحفل ضخم ، ومجتمع عظيم ، يحضره سكان القاهرة وضواحيها ، من مصريين وأجانب ، إكباراً لميلاد المصطفى ﷺ ، فى الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول من كل سنة . تلك الليلة التى وُلد فيها خير نبى أرسل رحمة للعالمين . وأفضل رسول بُعث هاديا للناس أجمعين . هناك تضرب الخيام وتحط الرحال وتبنى السرادقات ، وتنشر الأعلام . وترفع الرايات . وتضاء الثريات . وتقاد مصابيح الكهرباء ، وتقام الأفراح ، ففى كل خيمة جمع ، وفى كل سرادق رهط ، وفى كل مكان قوم . فلأرباب الطرق خيام ، وللعظماء خيام . وللحكومة خيام . وكل فريق يقوم بنفقة خيامه . وتلك عادتهم كل سنة . ولوزارة الحربية سرادق تعرض فيه السيوف والرماح والدروع وغيرها من الآلات الحربية . وأعظم ما يشاهده الناس موكب أرباب الطرق الذى يمر أمام نائب الملك حفظه الله . ثم ما تقوم به الحكومة من الألاعيب . بعد العشاء حيث تطلق الأسهم النارية فتنفجر

في الجو وتتبعثر فقاقيع بألوان مختلفة ومقادير متفاوتة تنزل إلى الأرض . خامدة هامدة . وهذه يراها المجتمعون ويراها الناس من سطوح منازلهم فيقابلونها بالتصفيق والضوضاء والصفير . ومن الألاعيب تلك الصور المختلفة والأشكال العجيبة التي يصنعونها من الخشب ويجعلونها تحتوى على تلك المادة التي توقد فتشتعل وتتلون كما يشاءون . فمن ذلك (البوابه) الكبيرة والساقية وراكب الدراجة وهذا منظره يضحك الناس ويسرهم كثيراً ، فانه يجرى وهو يحترق مشتعلاً مضيئاً ملونا بألوان عديدة منتظمة ، حتى يخمد ويصير فحما ، وكذلك بقية الصور

وبعد إتمام هذه الألاعيب يتفرق الناس أفواجاً أفواجاً ، فمنهم من يذهب إلى بيته ومنهم من يتوجه إلى السرداقات والخيام لسماع المغنين ، والقراء والملحنين ولمشاهدة أرباب الطرق الذين يذكرون الله قياما وقعوداً ، أرشدهم الله وهداهم إلى السنة النبوية ، والآداب الاسلامية ، ولا يزال الناس ساهرين حتى مطلع الفجر ، وترى باعة الحلوى قد نصبوا دكاكين من الخيش والخشب وأحضروا بها أنواعا وصورا من الحلوى كثيرة وكذلك غيرهم من باعة الأغذية فتربح تجارتهم ويكسبون فوق العادة : واليوم التالى لهذه الليلة يوم عطلة رسمية ، وفى هذه الليلة ترى الطغام ، يقترفون الآثام ويأتون المنكرات ويفعلون الموبقات ، ويعيثون فى الأرض الفساد ، ويجاهرون بأن تلك عادتهم يفعلونها كل عام ، ومن العجب أنهم يتزيون بأزياء المتعلمين وطلبة المدارس وهم من أحط الناس وأدناهم ، وفيها يشتد الزحام ويكثر العوام ، ويختلط الحابل بالنابل ، والصالح بالفاسد ، والطائع بالعاصى ، والخبيث بالطيب ، والصحيح بالمريض ، والرجال بالنساء ، والكبار بالصغار فتروج سوق اللصوص والخونة وفاسدى الأخلاق وبخاصة عند أمكنة اللهو التى تقام فى ساحة المولد فعندها يكثر الزحام ، ويتفاقم أمر الطغام اللئام . فمتى نعرف النظام ، وفى أى زمان يكون النفوذ للآداب ، وتكون السيطرة والسيادة لمكارم الأخلاق ، نحن بهذه المعاهدة التى وافق عليها مجلسا النواب والشيوخ بمصر ، ومجلس العموم بانجلترا قد نلنا الحرية والاستقلال والسعادة ، فكيف نحتفظ بها ، وكثير منا يرسف فى أغلال

وسلاسل غليظة من الأخلاق الذميمة ، وكيف نحرسها وأغلبنا على كاهله عبء ثقيل من الجهالة السافلة المريعة ، فلنعمل على تكسير هذه الأغلال ، ولنرفع عن كاهل الجاهلين هذه الأعباء بتعميم التربية والتعليم والوعظ والارشاد، حتى نحصل على مانبغى من سعادة وصفاء ، وتتبوأ مصر مقعدها اللائق بها بين الأمم .

فهذا زمان أرضه وسماؤه مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم فى السماء وأنشئوا بوارج فى الأبراج ممتنعات

فعلينا أن نساميهم بأعمالنا ، وأن نسابقهم بجهادنا ، والحياة السعيدة للدائبين على خير العمل .

١٧ — الجنائز فى مصر

ما هذا الضجيج والبكاء ، والعويل والضوضاء التى بلغت عنان السماء ، ماهذا الذى يراه الناظر إلى جنائز مصر ، أمام النعش وخلفه ، وحوله وتحته ، كأن القوم قد جنوا ، وطارت عقولهم فتاهوا وضلوا ، وكأن الميت خلق للخلود ، لا للموت واللحود ، ذلك وغيره هو ما يشعر به ويراه كل من يشهد الجنائز المصرية ، ذلك هو الخزى الذى يسجله علينا الأجانب ، فينقلون صورته مشوهة بشعة إلى بلادهم ، وهنا وهناك يصدرون علينا حكمهم بأننا متأخرون متوحشون ، وهم ينتهزون الفرص للتشهير بنا ويبالغون فى الحط من أعمالنا واحتقار كل شىء ينسب الينا ، ونحن بفعالنا نمكنهم من القدح فينا والنيل من كرامتنا وتسوىء سمعتنا

حقاً إنك ترى مايضحك العدو ويبكى الصديق ، ترى رجالا قد اختلفت أسنانهم ، وتغايرت أشكالهم ، وقد لبسوا الأسمال الدنسة ، والأطمار القذرة ، وبأيديهم عصى مشوهة يتوكئون عليها وقد يتوكأ بعضهم على بعض · لأنهم عمى أو عرج أو كهول طال عليهم الأمد فضعفت عقولهم وخارت عزائمهم . وانحنت ظهورهم . هؤلاء جميعاً طلائع الجنازة وهم مقدمتها ينطقون بألفاظ توارثوها . وعبارات ألفوها . تخرج من أفواههم بعد

أن تتحشرج فى حلوقهم بتصنع ممقوت وشكل مرذول . وهم لايفقهون مايقولون ولا يدرون مايلفظون . ولبئس ما يصنعون . إنهم قد اتخذوا هذا العمل حرفة منها يرزقون وعليها يعتمدون . فساء حالهم وساء منظرهم ومخبرهم ، ونكد عيشهم . ووصموا الأمة بعارهم . ثم ترى جماعة الجباب الخضر والحُمر البيض يسيرون واحداً واحداً وراء بعضهم بعضا يكونون صفين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار لاينطقون ولا يتكلمون وبجبابهم يعبثون وهم بله لايفهمون ولا يعقلون

فما للناس مع احتقارهم لهذه الطوائف . واستهزائهم بتلك الفئات . يرجون الميت منهم خيراً . ويأملون له بهم مغفرة من الله ورحمة ، وهم للصلاة تاركون . وعن الآداب الدينية غافلون . إنما هى العادة ألفوها . ونشئوا فوجدوها . والرياء قادهم إلى ما يفعلون وإلى غير ذلك مما يصنعون . والدين من أعمالهم برىء . والشرع عليها ساخط . فما شرع تشييع الجنازة إلا للخشوع والاتعاظ . والتذكر والاعتبار . وما شرع ليكون حرفة للكسالى . ومرتزقاً للبلداء . ومرتعاً للجبناء . ثم ترى ولبئس ماترى ترى المشيعين غير خاشعين . وعن التذكرة معرضين . فهم بأمور الدنيا مشغولون . وبأحوالها يتحادثون . وعما حضروا لأجله لاهون . وعن الوقار بعيدون . وفى السير مهرولون . وبعدهم شرذمة تحمل المجامر وآنية العطر وصحاف الزهور . يلبسون الطربوش ويأتزرون بملاءات ملونة . ويمشون أمام النعش صفين على يمينه ويساره . لاينطقون ولايتكلمون ولبئس مابه يحترفون ، وبعدهم النعش محمولا على الأعناق ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ويهتز كأنه سفينة فوق بحر لجى ، يقلبها كيف يشاء . وقد زينت بكل أنواع الزينة بالدمقس وبالحرير ، وبالزهر وبالورد ، وبالحلل . والنساء حول النعش وخلفه كقطع الليل المظلم . يبكين ويصرخن ويندبن ، ويضربن بأيديهن وأرجلهن . ويعصين الله ورسوله . ويخالفن السنة المشروعة . والطريقة المشكورة ، قد لبسن السواد وأزعجن العباد . وصبغن الأيدى والوجوه بالنيلة . وأتين كل ثقيلة ورذيلة . تراهن خاسرات حافيات . مأزورات غير مأجورات . وبعضهن قد يركب عجلات (الكارو) ،

بلا نظام ولا ترتيب . كأنهن بضاعة مشحونة . وسلعة منقولة ، قد رصصن رصاً ، وتكدسن فوقها تكدساً . وهى ترجهن رجا ، حتى تصل إلى المقبرة ، هناك تكون الطامة الكبرى والداهية الدهياء . فإن هؤلاء النسوة يقمن المنادب والمناحات . ويأتين الفظائع والمنكرات ، حتى يدفن الميت ويطمئن فى لحده بعيداً عن هذه المزعجات الموبقات المؤذيات .

وهناك وقت الدفن ترى اللحادين (التربية) والملقنين (الحنوتية) والسقائين (الحملية) قد احتشدوا يتهافتون ويتسابقون ويذهبون ويجيئون . ويقولون ويفعلون . كأنهم على القصاع يتزاحمون ، مما يدل على فشو الجهل . وسيادة الخرافة وكثرة العاطلين . ونحن فى القرن العشرين — لم هذا ؟ ! والحلال بين والحرام بين . والدين ما فرط فى شىء ، ولا ترك لنا من حاجة فقد هدانا سبلنا فى كل المواقف وفى جميع الأمور ودلنا على الواجب المحمود في أمر الجنازة من حين أن يموت الميت إلى أن يوارى التراب فكان السابقون المهتدون يحملون النعش برفق وكمال . ويسيرون خلفه خاشعين صامتين ولأحوال القبر وما بعده من الحساب ذاكرين . اللهم إلا أن يجهر أحد المشيعين بذكر الله . ولم يكن شىء من هذه المخازى يصحب الجنازة . والحمد لله الذى هدى الكملة من المصريين إلى هذا الأدب العظيم . والمنهج القويم فى الجنائز . حتى أخذ يشيع فى الطبقات العليا والوسطى . حتى غالى بعضهم فجعل يحمل ميته فى سيارة الموتى بعد الصلاة عليه وتشييعه إلى مسافة قريبة ، فينفض المشيعون عقب صلاة الجنازة ، وتذهب السيارة به إلى المقبرة ، يتبعها سيارات تحمل من تربطهم بالميت صلة وثيقة . وهذه العادة حديثة وهى محمودة إذا بعدت الشقة بين منزل الميت والمقبرة ، ولا كذلك إن كانت قريبة . وبذلك قد زالت عادات سيئة قبيحة . وبطل ما كانوا يعملون من الطبل والزمر وأولاد الكتاب ، وما كانوا يحملونه على الجمال خلف النعش ويسمونه الكفارة . ويسوقونه من الجاموس الممتلىء ، إلى غير ذلك من أمارات الترف . وفق الله الأمة للصواب فى كل أمورها

١٨ — المعرض الزراعى الصناعى المصرى الخامس عشر

فكرة جميلة ، ورأى صائب ، وتوجيه مثمر ، هذا الذى انتهى بفتح المعارض فى مصر ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المغفور له (السلطان حسين كامل) مؤسس (الجمعية الزراعية المصرية) سنة ١٨٩٨ ، فإنه أول من أنشأ المعارض بمصر ، فجاءت بالغرض المقصود منها ، وعادت على مصر والمصريين بأحسن الثمرات ، وأفيد النتائج ، فقد بعثت فى المصريين روح الجد والنشاط ، والعمل والاجتهاد ، والتنافس والاتقان ، والاعتداد بالنفس ، والنزوع إلى الحرية والاستقلال ، وأكسبت البلاد مالا وشهرة ، ومدنية وحضارة ، وأظهرت الأمة المصرية أمة حية عاملة راقية ، يجب أن يكون لها مكانها اللائق بها بين الأمم العصرية النافعة ، وحببت إلى المصريين الصناعة المصرية ، وأرشدت الفلاحين والقائمين بالشئون الزراعية إلى طرق اتقان الزراعة وحمايتها من الآفات ، والوصول إلى وافر الغلات ، وحسن القيام على تربية الحيوانات ، فهى مدرسة عملية ، ومرشد أمين ، وهذا هو المعرض الخامس عشر من نوعه ، وهو أفخمها وأجملها ، وأعظمها وأروعها ، وأحسنها وأكملها ، لما ناله من عناية الحكومة ومساعدتها ، وإقبال الأمة وتشجيعها ، فلم يقل عن أعظم معارض أوربا فى كل شىء ، أقيم هذا المعرض كسوابقه على شاطىء النيل الغربى بأرض الجزيرة أمام جسر قصر النيل ، على أرض مساحتها فوق الأربعين فدانا ، داخل سور محكم له أبواب فخمة ، أجملها وأفخمها وأعظمها الباب الذى يطل على قنطرة قصر النيل ، فقد حاز من الفخامة والضخامة وإحكام الصناعة ماهو خليق بعظمة مصر القديمة والحديثة ، والسور وأبوابه كل أولئك قد رفعت عليها الأعلام ، ونشرت فوقها الرايات ، وزينت بالمصابيح والثريات ، على أكمل تنسيق وأحسن ترتيب ، وأحدث نظام ، فكان منظره فى الليل وفى النهار يبهر العقول ، ويشرح الصدور ، ويسر الناظرين ، ويجلب الزائرين ، ولم يكن باطنه أقل من ظاهره نظاما وترتيبا ، ودقة وإتقانا ، وحسناً وجمالا ، فى كل ما كان به ، وعرض فيه ، طرق

منظمة ، وشوارع متسعة ، وأماكن مرتبة ، ومحال منسقة ، وآلات للزراعة حديثة ، وأدوات جديدة ، ومنتجات صناعية فائقة حديثة ، وزروع جيدة ، وثمار نضرة ، وطيور جميلة غريبة ، وحيوانات قوية سليمة ، مستأنسة ومتوحشة ، وتجارات رابحة ، ووسائل للهو والراحة وافرة ، وأسباب للسرور والأنس طاغية ، وأبواب للاستفادة مفتحة ، ومدارس للتعليم ميسرة ، وإن شئت فقل هو مدينة زراعية صناعية تجارية عامرة ، لاينقصها شيء من وسائل الحياة ، ودواعي المعيشة ، فقد كان هناك فرع لمصرف (بنك مصر) لسهولة التعامل ، ومحال البريد والبرق والشرطة والإسعاف وإطفاء الحريق ، وهناك المتاجر والمطاعم والمشارب ، وأعجبني المذيع (الراديو) يخبر ويستخبر عن الأطفال التائهين ويذكر أسماءهم وصفاتهم ، وقد أنشئت فيه سكة حديد ضيقة لنقل الزائرين ليروا ما به وهم راكبون ، وعلى الأرائك متكئون ، ومبانيـه على أحدث طراز ، كأنها بالطوب وهي بالخشب المخيش المطلي بالجص الملون ؛ مما يدل على تقدم مصر وبراعتها في الهندسة والعمارة ، وقد عرض فيه من كل ماتزرعه وتصنعه مصر من أقصاها إلى أقصاها من بدو وحضر ، وريف ومدن ، ولم يكن به أجنبي إلا ما كان به من آلات الزراعة التي زاحمهم فيها المصريون ، فقدموا منها أنواعا حديثة كثيرة تبشر مصر بحسن المستقبل ، وقد قسم إلى أقسام كثيرة : قسم للصـناعة الوطنية في مساحة واسعة ممتدة ذات طرق على جانبيها الحوانيت مملوءة بالبضاعات الجيدة في كل نوع : من أقمشة وغيرها . وكان أظهرها ماعرض فيه مصنوعات شركات بنك مصر التي صادفت قبولا وإقبـالا ، وأطلقت الألسن بالثناء على زعيم الاقتصاد صاحب السعادة (محمد طلعت باشا حرب) ومن معه من رجالات مصر العاملين . وقسم للآلات الزاراعية ، وقسم لوزارة الزراعة وقسم لوزارة المعارف . وقسم للحيوانات والطيور . وقسم للبدو يمثل حياتهم ويصور معيشتهم ، فمن دخله كان كأنه في أرض بدوية ، ضاربة في قلب الصحراء ، وأعماق البادية ، وقسم لمصلحة السجون ، وكل قسم من هذه الأقسام جمع فأوعى ، مما يدل على

تقدم فائق ، ورقي عظيم ، ويحتاج لشرح طويل ، وقد ألحق به ملهى عظيم ، أسموه حديقة الملاهي ، أو مدينة الملاهى . وكانت بحق مدينة الملاهي ، فقد نالت تهافت الزائرين والزائرات ، وتزاحم القاصدين والقاصدات ، وتدافع المستطلعين والمستطلعات ، لما جمعته في طياتها من كل مغر مغو ، محبب مرغب ، يستهوى العـابد ، ويبسط يد البخيل ، ومديرها مصري اسمه على أفنـدى حسن ، ولم يعرض فيها إلا كل غريب مدهش ، فمن ذلك القطار الشبح وسكة الحديد البهلوانية ، وميدان سباق السيارات ، والبغال البهلوانية ، وعربة الانزلاق والأرجوحة ، فرقة ماتر (فرقة الموت) وفرقة راكبي الموتوسيكلات ، وسباع البحر المدربة ، والسيارات المنزلقة ، وغرفة الدوشة ، ومدينة الأقزام ، والجبل الأبيض ، إلى آخر ما بهذه المدينة اللاهية الماجنة الهازلة التى ابتزت أموال الزائرين والزائرات ، عن طيب نفس وقرة عين ، فكأن شياطين الانس والجن اجتمعوا وكونوا جبهة واحدة لإغراء الناس وإغوائهم وإرغامهم على دخول هذه المدينة أو تلك الحديقة التى من دخلها كان من الآثمين بالرغم منه

وعلى الجملة فقد كان هذا المعرض أحسن معرض أقيم بمصر . وكان افتتاحه من صباح السبت ١٥ فبراير سنة ١٩٣٦ تحت رعاية صاحب الجلالة المغفور له الملك (فؤاد الأول) رحمه الله وبرياسة حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر باشا طوسون حفظه الله.

ولتعلم قيمة هـذا المعرض فاعلم أن ما أنفقته الجمعية الزراعية الملكية من مالها الخاص خلاف ما أقامته من الإنشاءات فى المعارض السابقة بلغ مائة ألف جنيه ، وقد أمه هذه المرة خلق كثير وزاره عدد وفير يربو على ثلثمائة ألف زائر وزائرة ، ولاشتداد الزحام كان للرجال أيام وللسيدات أيام ، ، وإن نجاح هذا المعرض ذلك النجاح العظيم لما يدل على عناية المصريين بأمور الحياة واهتمامهم بشئون المدنية ، وعلى أن المصرى قوة لا يستهان بها ، وأنه لايقل عن أرقى الناس حذقا ومهارة ، ودقة واتقانا ؛ ونشاطاً وسعياً ، ونباهة وعقلا ، متى وجد باب العمل مفتوحا ، وطريق النبوغ ممهداً ، وميدان التنافس

فسيحاً. لك الله يامصر! كم فيك من أهل الجد والنشاط والسعي والاجتهاد ، كم فيك من القوة الكامنة : كم فيك من الأيدى العاملة ، كم فيك من النبوغ المدفون ، والحذق المخزون ، كم فيك من العقول الكبيرة والأفئدة المفكرة ، كم فيك وكم فيك مما لو أطلق له العنان لدرّ على البلاد خيراً وبركة ، ونعمة وسعادة ، فليتقدم كل مصرى وكل مصرية بشجاعة وإقدام ، وليظهر كل ما استطاع من فكر وعمل ، حتى ننتفع بهذه القوى ونستفيد من تلك الكنوز ، فنصل وتصل بنا مصر إلى ما يليق بناويها من السؤدد والفخار والعزة والكمال .

١٩ — جماعة فى باخرة أشرفت على الغرق

دعانى حبى لأمتى وبلادى . أن أنال من العلم ما بها رقيها وإسعادى ، فلبيت الدعوة ، وأجبت الطلبة ، وركبت القطار من القاهرة إلى الاسكندرية ، وتوجهت إلى البحر الأبيض قاصداً ديار العلم ، ومواطن الحكمة ، فرأيت باخرة عظيمة كأنها مدينة رفعت عليها الأعلام ، بدقة ونظام ، فسيحة الأرجاء ، مترامية الأنحاء ، ثلاثية الطبقات كثيرة الشرفات ؛ (١) فلما ركبتها وجدت بها نفراً من الأصفياء ، وأهل الود والوفاء . فخف علىّ أمر السفر ، وهان ما كنت أتوقعه من الخطر ، ثم سارت باسم الله مجريها ومرساها ، وعلى بركة الله مَصبحها ومَمساها ، تميل وتضطرب ، وتعلو وتسفل ، فى أمن واطمئنان ، وهدوء وسلام ، وبينما نحن كذلك والبحر رهو (٢) والجو صحو ، إذ هبت علينا ريح عاصف يتبعها موج جارف ، فصار يأخذ كل سفينة غصباً ، وينهبها نهباً ، وصرنا نخال الفقاعة قبراً ، والقطرة بحراً ، ونحسب الزبد (٣) كفناً واللجة الصغيرة نعشاً : وأخذت الباخرة تعلو بنا تارة إلى مجرى الفلك ، وتنزل بنا أخرى إلى مسبح السمك . وقد حنق (٤) عليها الماء ، حتى ملت البقاء ، ونحن فى أثناء ذلك نعانى دواراً أخذ منا مأخذه ونال منا غرضه ، وبينا نحن كذلك ، نعتقد أن كلا منا لا محالة هالك ، إذ هجم على

(١) الشرفات المنافذ التى يشرف منها الانسان (٢) رهو هادىء (٣) الزبد البياض (٤) حنق غضب

الباخرة جيش من الهواء ، فعلا بها إلى السماء ، ثم هوت بنا فغمرتنا المياه ، وكدنا نفارق الحياة ، وأسلمنا للقدر ، وأيقنا بالخطر ، ولم ينفعنامال ولا جاه ، لولا أن تدار كتنا نعمة الله ، بعد أن رفعنا الأكف بالدعاء ، وولينا الوجوه شطر [١] السماء ، وتوسلنا إلى الله بأصفيائه ، وتقربنا إليه بأوليائه ، وقد طارت نفسى فرقا ، وكاد يذوب قلبى كمداً ، على آمال ستنتهى بغرقى ، وأمانى ستذهب بموتى ، وأهل يتمنون لقائى بعد نجاحى ورجوعى ، ووطن فى أشد الحاجة لى ولأمثالى ، فمنّ الله علينا ، وصادفتنا جزيرة خضراء قد انحسر [٢] عنها الماء فرست عليها الباخرة

وألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عيناً بالإياب المسافر

فهرولنا إليها ، وترامينا عليها ، وأخذنا نتمتع بأزهارها ، ونأكل من ثمارها ، حتى مرت بنا باخرة أخرى ، فشكرنا الله شكراً ، ولما أن رآنا ربانها كفكف [٣] من عنانها ، ورسا بها كأنها الجبل فقصدناها مسرعين ، ونحوناها متهافتين ، فقال اركبوا غير خائفين وتعالوا مكرمين ، فسمعنا قوله ، وأطعنا أمره ، وسارت بنا إلى البر ، فغادرنا البحر ، ووصلنا إلى أرض فرنسا ، ومنها ركبنا القطار إلى بحر المنش ، فعبرنا إلى انجلترا ، فأخذ كل يهنىء أخاه ، على الفوز بالحياة ، ويشكر الله على نعمه ، ويحمده على عظيم مننه فقد نجانا من الغرق وأوصلنا بفضله إلى دور العلم ، وبلاد الجد والعمل .

٢٠ — الامتحان

تناولت صحيفة من صحفنا اليومية ، فرأيت فى حوادثها المحلية أنه سيعقد امتحان القسم الأول للشهادة الثانوية ، فى أواخر السنة المكتبية يوم . . . من شهر يونيه ، فاعترتنى الهموم وانتابتنى الوساوس . وتمكن منى الذهول . وأخذ مأخذه . ولكنى لم ألبث حتى رد الله إلىّ قوتى . وأذهب عنى ما ألم بى ، فقلت لنفسى قد مضى ما مضى . وهو الكثير ، وبقى ما بقى وهو القليل ، فعلىّ أن أتدارك ما فاتنى وأسترد ما ذهب منى .

(١) شطر جهة (٢) انحسر انحاز (٣) كفكف منع وكف عنانها لجامها

وأعدّ للامتحان عدته ، واتخذ له أهبته (١) فصرت أبكر إلى المدرسة لأستفيد فيها علوماً ومعارف تنفعني يوم لا يكون غيرها شفيعاً : ثم أعود إلى البيت فأريح نفسي . حتى إذا شعرت باسترداد قوتى . ووجدتني قادراً على العمل ، أديت واجبات المدرسة ، وزودت نفسى بما أقدر على اقتنائه من العلوم ، واكتسابه من المعارف ، وصارت تلك حالى حتى جاء اليوم المعهود ، فحملت مسطرتى وأقلامى ، وذهبت إلى موضع الامتحان . فاذا سرادق فخم . كأنه جبل ضخم ، قد صفت فيه الكراسى صفاً ورتبت المناضد (٢) ترتيباً وأحكم وضعها إحكاماً ، فلما جاءت الساعة دقت الأجراس ، وازدحم الناس ، واستولى على العقول الوساس ، فصرت لا أسمع إلا هينمة (٣) ولا أجد غير همهمة (٤) ثم نادى المنادى بالسكون ، فكثرت الظنون ، وذهبت المعارف ، وكثرت المخاوف ، وأمرنا بالدخول ، فعم الذهول ، ولما اتخذنا مقاعدنا ، وجلسنا مجالسنا ، حصل ضجيج وجلبة ، ثم نادى المنادى بصوت رنان أن اسكنوا واكتبوا البيان ، فوق ورقة الامتحان ، وردد صوته مناد آخر ليسمع من لم يسمع ، وليفهم من لم يفهم : فلبينا النداء وسمعنا الدعاء ، ثم وزعت الأسئلة . فاضطربت الأفئدة : واشتدت المراقبة وعظمت المحاسبة ، وظهر البشر على وجوه وعم الحزن أخرى ، فكنت لا تسمع غير صرير (٥) الأقلام ، وقعقعة (٦) الأوراق ، ولا ترى إلا رءوساً منحنية ، وأيادى متحركة ، فجعل كل منا يفرغ كل ما فى كنانته (٧) ويخرج ما فى جعبته (٨) فمنا المحسن ، ومنا المسىء ، ومنا المخطىء : ومنا المصيب ، ومنا من جمل الطروس . ومنا من سوّد الصحائف ، وقد كنت فى هذا الميدان ، ممن حازوا غاية الرهان ، فخرجت مع من خرجوا قبل الميعاد ، وأصابوا باجابتهم عين المراد ، ولما انقضى الوقت المعين ، ومضى الزمن المقدر ، دقت الأجراس ، وانقض المراقبون لجمع الأوراق

---

(١) الأهبة الاستعداد (٢) المناضد جمع منضدة وهى ما يوضع فوقها الأدوات والأوراق ويكتب عليها (٣) الهينمة القراءة بصوت خفى بحيث يسمعه السامع ولا يدركه (٤) الهمهمة الكلام الخفى (٥) صرير الأقلام صوتها عند الكتابة (٦) قعقعة الأوراق صوتها فى يد محركها (٧) الكنانة ما يضع فيه الرامى سهامه والجندى رصاصاته (٨) الجعبة الكنانة

من الباقين ، فخرجوا واجمين ، وقد ارتفعت أصواتنا ، وكثر صخبنا [١] وعلت لنا ضوضاء بلغت عنان السماء ، وما زلنا كذلك حتى دقت الأجراس للمرة الثالثة ، فتسابقنا حتى وقفنا أمام السرادق ، ثم دخلنا بانتظام ، راجين العون من العليم العلام ، فلما انتهينا دق الجرس وخرجنا فرأيناهم نشروا أرقام جلوس الذين يحضرون للامتحان الشفهى ، في اللغتين العربية والانجليزية ؛ فحضروا بعد الظهر وامتحنوا ، وهكذا انقضت أيام الامتحان ونال المجتهد غاية الرهان ، والله نصير العاملين ، ولا يضيع أجر المجتهدين

٢١ — ليلة أنس

دعانى عزيز على من أصحابى ، لأن أشهد خير أحبابى ، فى ليلة كشفت عن بدرها النقاب ، وأخذ حسنها بالألباب ، قد سطع نورها ، وتم بهاؤها ، فقمت ملبياً ومضيت مسرعا ، فرأيت أعلاما منشورة ، وثريات منثورة ، يميلها الفرح طرباً . ويعدلها الأنس سروراً ، وكرات الزجاج تتخللها ما بين خضراء وحمراء ، وصفراء وبيضاء ، مما زادها حسناً وبهاء ، ورونقاً وصفاء ؛ ولما انتهى بى المجلس ، واستقر المكان رأيتنى فى رحبة فسيحة ، أرضها مفروشة بالرمل ، وفى جوانبها أنواع الرياحين وأصناف الزهر ، فوقها الكراسى والأرائك قد صفت صفاً محكما ، ووضعت وضعاً جميلا . وسماؤها حمراء ، نجومها مصابيح الغاز ، وثرياتها فقاقيع الكهرباء ، وجدرانها مستورة بالمنسوجات المزركشة ، والحلل الملونة ، والصور البديعة مما أعجبنى ؛ وزاد سرورى وفرحى ، ثم شاهدت ما سرنى . شاهدت هناك إخوان الصفاء ، وأهل الود والوفاء ، وكرام الأحباب وخيار الأصحاب ، فكدت أطير فرحاً بأحبابى ، وأنساً بأصحابى ، وبعد أن مكثنا برهة من الزمن ، دعينا إلى الطعام ، فإذا هو ألوان وأصناف ، وأشكال وأنواع ، قدمت إلينا صنفاً صنفاً ، ونوعا نوعا ، من لحم ومرق ، وشواء وسمك ، ومحشو وخضر ، وختموا بالحلوى المنوعة ، الكثيرة ، فأكلنا فى هناءة وسلام ، ثم قمنا فغسلنا أيدينا ، ثم جلسنا

---

(١) الصخب صوت المناقشة والمناظرة

واتخذنا مقاعدنا، وقد امتلأت النفوس فرحا ، وأفعمت (١) القلوب أنساً وطرباً ثم شربنا القهوة . وقد لقى كل منا أكبر حظوة ، من صاحب الدعوة الكريم، ثم وعظنا القارىء بحسن تلاوته وجميل قراءته : ثم أطربنا المغنى ببديع صوته وبارع إلقائه ، فكنا ننتقل من فرح إلى سرور ، ومن سرور إلى فرح ، حتى طلع الفجر ، وأصبح النهار ، فخرجنا مسرورين ، وسرنا فرحين مستبشرين ، وما رأيت ليلة مثلها حسناً وبهاء ، ولا شاهدت نظيرها رونقاً وجمالا ، فهى حلية الدهر ، وزينة الليالى ، ومجمع الأنس والسرور ، والفرح والطرب ، أعاد الله علينا أمثالها وعلى القائمين بها بالخير والهناء والسعادة ، والصفاء ، انه سميع الدعاء ، فعال لما يشاء .

٢٢ – جولة فى حديقة

دعانى عناء الأشغال ، والكد فى الأعمال ، إلى أن أطلب خالص الهواء لأزيل عن نفسى العناء ، فذهبت إلى حديقة غناء ، قد رق نسيمها ، وراق ماؤها ، وفاح طيبها ، وتحركت عيدانها ، وتمايلت أغصانها ، وأضاء نورها وزها حسنها . تجرى بين أشجارها جداول صافية ، مياهها جارية ، فأطربنى خريرها ، وعجبت من صليلها . فأنشدت قول الشاعر :

إيه (٢) ياماء نهرها العذب صلصل   حبذا يا زلال منك الصليل

ثم سرت على بساطها الأخضر ، الذى حوى من النقش والتصوير ، ما يكل دون وصفه يراع التحرير ، وجعلت أجيل النظر فى الأشجار ، وأسر نفسى برؤية الأزهار .

والورد فى أعلى الغصون كأنه   ملك تحف به سراة جنوده

فجلست لأمتع النظر فإذا نساء ورجال ؛ وفتيات وأطفال ، وحشد عظيم ، وخلق كثير ، فمنهم من يمشى ، ومنهم من يلعب ، ومنهم الجالس ، ومنهم الواقف ، وكلهم فى سرور وغبطة وحبور ، وما زلت كذلك أنظر فيما هنالك ، وأرى هذا الجمال ، وأشاهد ذلك

---

(١) أفعمت ملئت حتى زاد عنها (٢) إيه اسم فعل أمر لطلب الزيادة

الحسن والكمال ، فرأيت الغصون تمايل ، وفروع الأشجار تتعانق ، والجداول تنعطف وتعتدل وتمشى بين الرياض مشية المختال والسماء صافية الاديم [١] والجو عليل النسيم ، إذا هب الهواء . تعطرت الأرجاء بعرف [٢] شذى [٣] وريح ذكى

وأطلق الطير فيهـا سـجع منطقه مابين مختـلف فيهـــا ومتفق

قطوفها دانية ، ورياضها زاهية ، فيها فاكهة وموز ونخيل وخـير كثير ، فسيحة الأرجاء ، رحبة الفناء ، فلم يهدأ لي البال على ترك التجوال ؛ فقمت أتمشى بين أزهارها ، وأسير فى ظـلال أشجارها ، ونفسى قد ملئت سروراً ، وأفعمت فرحاً وحبوراً ، حتى توارت [٤] الشمس بالحجاب ، ونادى المؤذن بغلق الأبواب ، فانصرفت وما رأيت روضة مثلها رونقاً وجمالا ، وبهاء وجلالا (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) (إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب)

٢٣ — المطر فى القاهرة

خرجت أبغى سرور النفس برؤية الحدائق وأزهارها ، وأطلب راحة البال بمشاهدة البساتين ورياضها ، فى يوم صفت سماؤه ، وطاب هواؤه ، فألقيت عصا التسيار ، فى بستان كثير الرياض والأزهار ؛ فما لبثت أن جاءت غيوم متراكمة ، وسحب متكاثفة يسبقها برق يخطف الأبصار ، وقتام [٥] يغشى الأنظار ، ورعد يرعب الجيش الجرار ، وعواصف تنذر بالويل ، وظلمات كقطع الليل ، ثم بكت السماء ، ولا بكاء الخنساء [٦] لاتجف جفونها ، ولا يخف أنينها ، فاحتميت فى شجرة ملتفة الأغصان ، كثيرة الأفنان [٧] ذات ظل ظليل ، ومنظر جميل ؛ فتظللت بسماوة أفنانها ، وتسترت بستر أوراقها ، وأخذ البرد يدب فى جسمى ، فترتعد أعضائى وما أنسانيه إلا تمايل الأغصان ، وانعطاف

---

(١) أديم السماء وجهها (٢) العرف الرائحة الطيبة (٣) الشذى من الشذاء وهو كسر العود الذكي الرائحة (٤) توارت غابت (٥) قتام غبـار (٦) الخنساء شاعرة من شواعر العرب مات أخوها صخر فبكت عليه كثيراً وقالت فيه القصائد الكثيرة (٧) الأفنان الأغصان

الأفنان ، وتفتح الزهور ؛ وتغريد الطيور ، وحفيف الشجر وصوت المطر ، الذى كان يسرنى ثم يفرحنى

أرى .واقعه فى الأرض لا محة   مثل الدراهم تبدو ثم تستتر

ولقد مكث يهطل حتى أروى أديم الثرى ، ونبه النور من الكرى.وسقى الرياض والأزهار ، وجلى للنواظر بدائع الأشجار . ودبت الروح فى أجساد النبات ، وحييت الأوراق والأغصان ، ثم كشفت الشمس عن وجهها النقاب ، وألقت بالحجاب ، فجعلت أجيل النظر ، وأتأمل محاسن الروض بعد المطر ، وقد ازدهت الأرض بجميل خضرتها، وازدانت بحسن رونقها، ثم خرجت فركبت الترام، وإذا الشمس قد توارت بالغمام ، وعاد المطر ينزل كأفواه القرب ، فما حفظ الناس من شره انزواء ولا هرب وقد نشر الظلل خوفا من البلل ، وجعلوا يجرون إلى هنا وإلى هناك ، وما يفيدهم هذا ولا ذاك ، وصار الماء يجرى فى الشوارع جرى الأنهار ويقف فى المنخفضات وقوف البحار ، والوحل فى الطرقات والأزقة قد تراكم ، وتعاظم خطبه وتفاقم ، مع مابذله عمال الكنس من الهمة ، حيث لا مصرف ، لهذه الغمة ، كما فى البلاد الأخرى ،فان ذلك أولى وأحرى ، من عذاب العمال ، فى نقل هذه الأوحال التى تتطاير من وقع الأقدام والعجلات والحوافر ، فقلما ينجو منها جالس فى الطريق أو سائر ؛ ثم قل المطر وخف وقعه ، فقلت لابد مما لا يمكن دفعه ، ومضيت إلى منزلى حتى دخلته ، فحمدت الله وشكرته ، وسألته عز وجل أن يدفع عنا كل بلاء ، وأن يمن علينا بالمسرة والصفاء .

٢٤ — القلم

القلم عود من العيدان ، ينوب عن اللسان ، إذا تباعدت الأوطان ، وافترقت الأحباب والخلان ؛ يُتخذ من نوع مخصوص يسمى بالبوص ، وقد يتخذ من المعدن ليكون أقوى وأمتن ،أجوده ما كان معتدل القامة ، متوسط الطول ، صلب الجسم ، ليس بهش [1] نحيف ، ولا بفظ غليظ ، لونه الحمرة ، تميل إلى السمرة ينتهى ، بثلث

(١) الهش الذى لاصلابة فيه

متساوى الساقين ، مشقوق إلى نصفين ، رأسه محرف وباطنه مجوف ؛ وهو نصف الفصاحة ، وشطر البلاغه ، تحتاج إليه الملوك والأمراء ، والشعراء والخطباء ، والعلماء والحكماء ، لينشروا به أفكارهم ، وآراءهم وعلومهم وآدابهم ، ومطالبهم وأغراضهم ، وبه سعادة الأمة وحياتها ، وتقدمها ورقيها ، ولو اجتمع مع السيف فى يدها ، نالت عزها ، وأدركت غرضها ، وخشيت الأمم بأسها على أن القلم والسيف لو تسابقا فى ميدان ، حاز القلم غاية الرهان وسبق إلى الغرض (سبق الجواد إذا استولى على الأمد.)

بذا قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها مذ أرهفت (١) خدم

وقد قيدت به جميع الأخبار وسائر الكتب والأسفار ، وعلمنا به أخبار الماضين ، وتاريخ الغابرين ، أعجم (٢) يعرف اللغات كلها ، ويعبر عن الألسنة جميعها ، وبه أقيمت أعلام الهدى ونشرت رايات السعادة ، وخرج به الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة والفضل ، وكفاه فخراً أن الله أقسم به فى محكم كتابه فقال : « ن . والقلم وما يسطرون »

كفى قلم الكتاب فخراً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

فهو الذى بلغ من العز منتهاه ، ومن الشرف أعلاه ، نحمد الله على أن جعلنا من حملته ، وذويه وعترته ، أنه خير كفيل ، وهو نعم الوكيل

٢٥ — حريق بالليل فى بيت جارى

ضجة وضوضاء ، صراخ وبكاء . جلبة وعويل ، ولولة وأنين ، أيقظتنى فزعا ، فصحوت مضطربا هلعاً ، سألت ما الخبر ؟ وقلت ماذا حصل ؟ فإذا قائل يقول النار النار ، فى دار الجار ، كادت تتركه رماداً ، وتدعه يبابا (٣) ، فاختطفت معطفى ولبسته مسرعا ، ونزلت مهرولا ، فرأيت الناس فى حيرة وارتباك ، ودهش واضطراب ، وخوف وهلع ، وجوه شاحبة ، وأبصار حائرة ، وقلوب وجلة (٤) واجفة ، وأفئدة ناصبة (٥) ذاهلة ، ونار

(١) أرهفت رققت (٢) أعجم لاينطق (٣) يبابا أى خرابا (٤) واجفة شديدة الاضطراب (٥) ناصبة بها النصب وهو التعب

موقدة حامية تطلع على الأمتعة والجدر ، فلا تبقى ولا تذر ، وهى تقذف بالشرر ، وقوم يحملون الدلاء ، ويلقون على تلك النار بالماء ، وما هم ببالغين منها غرضاً ، ولا بمدركين فيها أربا ، ولا بتطفئين لها لهباً . فراعنى الأمر : وهالنى الخطب ، وكاد يذهلنى ما أرى من كرب ، عما يلزم لهذا الموقف ، وما يجب لدرء ذلك الخطر ، ولكنى تجلدت ، وإلى المسرة أسرعت ، ولرجال الإطفاء طلبت ، وبينا أنا منتظر مجىء القوم ، إذ سمعت ربة الدار ، وقد حاصرتها وأطفالها النار ، وهى تستنجد ولا منجد ، وتستغيث ولا مغيث ، وتستعين ولا معين ، وتُعول وتصيح ، ولا من مجيب ، فانتابنى الأسى ، واشتد بى الكرب والأذى ، وأنا والناس ننظر إليها نظر المغشى عليه من الموت ، لا نستطيع لها إنقاذاً ، ولا نملك لها عوناً ولا غوثاً ، ولا نجد لها مفراً ، فكدنا نحترق غيظاً ، ونقضى الحياة كمداً وغماً . وكلما اقتربت النار من ربة الدار ، ازدادت صراخا وعويلا ، وازددنا صخباً وضجيجاً ، وكرباً وبلاء ، فعم الحزن ، واشتد الخطب ، وعظم الكرب : واستولى على النفوس اليأس ، وضاع الأمل ، وحُمَّ الأجل ، واستسلمنا للقضاء والقدر ، ولكننا تضرعنا إلى الله : وسألناه النجاة ، فإذا رجال الإطفاء قد أقبلوا بقضهم وقضيضهم ، وعُدتهم وعُددهم ، ينهبون بسيارتهم الأرض نهباً ، ويسابقون الريح جرياوعدواً ، فانحاز الناس إلى الجانبين وأفسحوا الطريق ، حتى انتهت السيارة إلى مقربة من الحريق : فماذا رأيت ؟ رأيت رجالا كالأسود الكاسرة ، على رءوسهم خوذ من النحاس صفراء ناضرة ، أجسامهم كأجسام العمالقة ، لا يهابون حالقة ولا حارقة ، بأسهم شديد ، وعزمهم أمضى من الحديد ، نزلوا بسرعة ونظام ، ووَالى كلٌّ عمله باهتمام ، فإذا سلاليم النجاة منصوبة ، وأنابيب المياه ممدودة ، والماء يتدفق حول النار تدفق السيل ، فذهب عن الناس الويل : ونجت ربة الدار وأطفالها ، وحُصرت النار مكانها ، وأمن الجيران شرها وبعد جولة منهم وصولة ، قضوا عليها القضاءَ التام ، وأخمدوا ما كان لها من لظى وضرام ؛ وأنقذوا ما أمكن إنقاذه ، وحفظوا ما استطاعوا حفظه ، فهدأت النفوس ، واطمأنت القلوب،

وزال الخطب وانكشف الكرب ، ثم جمعوا أشياءهم مسرورين ، وركبوا سيارتهم فرحين مستبشرين ، ورجعوا أدراجهم ظافرين ، وعادوا إلى ثكناتهم سالمين غانمين ، وفى الحق أنهم كانوا على جانب من النظام والدقة ، والنشاط والهمة ، قائدهم ذو تجربة وفطنة ، ومهارة وخبرة

لهم حنـــان المشفق الودود كما لهم جرأة الأســود

ولقد سررت لنجاة جارى وذويه ، وزوجه وبنيه ، وأخذت أعزيه عما فقد من المتاع وأساثه . أما ربة الدار فدامت ذاهلة ، وعن الدنيا غافلة ، وفى غشيتها غائبة ، وعما نابها غير واعية ، وكنت أخليت لها ولزوجها وأطفالها إحدى الحجر ، فمكثت فيها بعد ما سلمت من الخطر ، حتى انتهينا من تلك المأساة ، وفرغنا من هذه الكارثة وعاد إليها زوجها ، فجعلت تملك صوابها ، إلى أن تم رشدها : فكان لهذه الحادثة أثر بنفسى لا يزال يعاودنى حين أذكر ما كان فيها من شدائد وكروب ؛ وآلام وخطوب : وكل شىء بقضاء وقدر ، ولكن الاحتياط من النار لازم ، والتحصن من الحريق واجب ، حتى يؤمن شرها ، ولا يعظم ضررها ، فلا يترك الثقاب للأطفال ، ولا توقد النار بجوار ما هو قريب الاشتعال ، إلى غير ذلك مما تنشأ عنه الحرائق ، وتقع به تلك الكوارث : وينبغى أن نعتبر بغيرنا ونأخذ من النار كامل حذرنا : والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

٢٦ — أبناء وبنات الشوارع

حقاً إنهم علة العلل ، ومبعث الشرور والقلق ، ومنبع الآثام والفتن ، بهم ساءت سمعة البلاد ، وحاق الضرر بالعباد ؛ واختل الأمن ؛ وفسد النظام ، تراهم بنين وبنات حفاة الأقدام ، عراة الرءوس وبعض الأجسام ، بأطمار بالية دنسة ، وأثواب خلقة قذرة ، وصورة سيئة بشعة مؤلمة ، وما هم بالقليل ولكنهم جم غفير وجيوش جرارة ، وجنود مجندة يتسكعون فى الطرقات ، ويغشون المقاهى والحانات ، وينامون فى الأزقة والحارات

يشمئز منهم من رآهم ، ويتأذى بهم من صادفهم ، يجرون هنا وهناك ، يجمعون بقايا لفائف التبغ ، ويقتاتون فتات المطاعم ، أو يحملون صناديق مسح الأحذية ، أو يبيعون الجرائد أو حقائر الأشياء التي لا يحتاج إليها الناس ، أو يسألون الناس إلحافا ، أو ينشلون ويسرقون ، وهم فى كل ذلك ينطقون بأفحش الألفاظ ، وأقبح الشتائم ، وأشنع الأقوال ، فيؤلمون المارة ، ويؤثرون فى الأطفال ، أسوأ الآثار : وإنهم بكل أسف على ذكاء ، وفيهم نباهة وفطنة ولكنها تنفق فى الشر ، وتوجه إلى الشر ، وتصرف للشر ، فهم قوة من قوى الأمة غير أنها للأذى والفساد ، والقول مهما يكن لا يصور لك حقيقة أمرهم ، ولا يوقفك على خفية حالهم ، تراهم بنين وبنات وقد اختلطوا وامتزجوا فى غدوهم ورواحهم وأكلهم وشربهم وجلوسهم ونومهم ، وأغلبهم لا يعرف له أبا ولا أما ، ولا خالا ولا عماً إلا الشوارع والطرقات ، والأزقة والحارات ؛ فتنمو فيهم الرذيلة ، وتنشر بهم كل منكرة ونقيصة ، يسخرهم ذوو الضمائر الفاسدة فى أغراضهم السافلة ، ويصل بهم أولو القلوب القاسية إلى مآربهم الخاطئة ، فيكون منهم شر خطير ، وضرر مستطير وفساد كبير ، وفتنة تأتى على الآداب والأخلاق : وليس عليهم جناح ولا إثم ، فهم أطفال صغار لا يدركون ما يراد بهم ، ولا يفقهون ما يضرهم وما ينفعهم ، وقعوا فريسة فى يد من لا يرحمهم ، وراحوا ضحية عند من لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة ، ولا شفقة ولا رحمة ، ولا وطناً ولا ديناً ولا ضميراً ، فصاروا قوة هائلة للرذيلة ، وأعداء ألداء للفضيلة وعوناً للضالين ، وردْءا للخاسرين ، وكلنا على ذلك محاسبون ، وعما يحيق بهؤلاء مسئولون ؛ وليس الإثم على الحكومة وحدها ، وإن كان عليها جانب كبير منه ، ولكن الأمر أمرنا جميعاً ، وعلينا من المسئولية قسط وفير ، والعلاج العملى للنجاة من داء هؤلاء ، أن تسن القوانين الصارمة لمنعهم من الشوارع والطرقات ، وإرهاب من يتجرون بهم ، ويتخذونهم غرضاً لمآربهم ، وأن يحشروا إلى أمكنة العمل والصناعة ، ومعاهد التهذيب والتربية ، فتكثر الحكومة والأمة من الاصلاحيات ، وإنشاء دور

الصناعات ؛ و بناء الملاجىء والمدارس ، وفتح أبواب العمل المغلقة وأنها عندنا لكثيرة ، متى أقدم الأغنياء بقلوب جريئة ، وطرحوا عن أنفسهم رداء الوجل والخوف من كساد الأعمال ، وذهاب الأموال ، بذلك تتحول هذه النباهات ، وتلك القوى إلى طريق الصلاح والإصلاح ، بذلك يُرحمون مما حاق ويحيق بهم ، ويغاثون وتغاث الأمة من شرهم ، بذلك نقيم للفضيلة صرحا مشيداً ، ولكمال الأمة مناراً رفيعاً ، ونبنى أقوى عماد لبقاء الحرية والاستقلال ، إن غيرنا من الأمم الراقية لم تترك أحداً من أفرادها هملا ، بل فتحت أبواب العمل حتى للعميان والعجزة ، فوجد كل راغب فى العمل والحياة مايصل به إلى غرضه وهو آمن مستريح ، هذا توماس أديسون الأمريكى كان فقيراً مُعدِما يبيع الصحف أول نشأته ، ولكنه رأى سبيل التعلم ميسراً فتعلم ونهض بالعلم باختراعاته العظيمة ، وكثير غيره كانوا فقراء معدمين ، فلما وجدوا سبيل التعلم ميسرة كانوا قادة ماهرين وفى مقدمه المخترعين والكاشفين والنافعين

وكم قد رأينا من أولاد الفقراء فى كل الأمم من وصلوا إلى ذروة الزعامة فى قومهم ، وسارت لهم الذكرى فى جميع الأقطار ، فمن أكبر الخسائر ترك هؤلاء بدون رقابة وتربية ، و بغير رعاية وتهذيب ، و بلا عناية وتعليم ، إن الأمة لو أنفقت فيهم قرشاً فستكسب بهم آلاف القروش ، إنهم أقلقوا بال الأمة والحكومة ، وشغلوا الناس ، وأضروا الحياة المصرية ، وصوروا البلاد للسائحين بأنها بلاد التأخر والانحطاط ، والجهل والفساد ، ولهم بعض الحق فهم يرون هؤلاء وقد ضيقوا عليهم السبل ، يطالبون (البقشيش) و يتبرعون لخدمتهم وهم فى غير حاجة إليهم ، فعلى الأمة أن تعنى بانشاء المعامل فإنها خير من تلك المدارس التى تكثر من سواد العاطلين ، وتزيد فى عداد الفاسدين ، و إن معملا يفتح خير من كل هذه المدارس التى يتخرج فيها أبناؤنا وهم لا يستطيعون عملا ، ولا يجدون لهم مرتزقا ، إن مصر فى فقر شديد إلى التعليم العملى المفيد ، وعلى أغنيائنا كما يتبرعون لبناء المدارس والمستشفيات أن يتبرعوا لبناء المعامل ودور الصناعات ، فكم

من أيد عاطلة ، ومن قوى مهملة ، وعقول متقدة ، فى خمود وخمول ، لأنها لا تجد إلى العمل سبيلا ولو تحركت لأدرت على البلاد خيراً وبركة ، وسعادة وهناءة والله الحمد قد أنشأ أهل الخير من ملاجىء أبناء السبيل مارحم منهم عددا غير قليل ونرجو أن تكثر هذه الملاجىء حتى تجمع هؤلاء المساكين ، فينفعوا وينتفعوا ويفيدوا الأمة والبلاد .

٢٧ - المتعطلون بمصر

قوم ساء حالهم ، وضاق عيشهم ، وفسد عملهم ، وقبح أثرهم ، وثقل على الأمة وجودهم ، فلا خير فيهم ، ولا فائدة منهم ، يضرون ولا ينفعون ، ويسيئون ولا يحسنون يجابون الشر ويأتونه ، ويعملون السوء ويشيعونه ، فهم العبء الثقيل ، والحمل المرذول ، والعضو الأشل : والخطر الأكبر ، بهم يختل النظام ، وتكثر الشرور والآثام ، ولا يهنأ للناس المقام ، ومنهم الغاصب والسالب ، والمنافق والمحتال ، والمرائى والكذاب ، والنمام والغشاش ، والسائل والمحتاج ، واللص والسارق ، ومنهم حليف الفسق ، والعاكف على الأثم والساعى بين الناس بالفساد ، ومن لاعمل له سوى الأكل والشرب ، واللذة والنوم ، هؤلاء هم المتعطلون الذين قد غمرهم الشقاء ، وعمهم البلاء ، فلا يهنأ لهم بال ، ولا يطيب لهم عيش ، يقضى أحدهم حياته فى بؤس وعناء ، وكرب وعذاب ، وجهل وفساد ، ثم يموت غير مأسوف عليه ، ويذهب فتنقشع بذهابه ظلمة كثيفة كانت تغشى جو مصر ، وتلك جناية الآباء الجاهين ، وأولياء الأمور الباغين ، الذين طوحوا بهؤلاء المساكين فى مَهمه مغبرةٍ أرجاؤه ذاهبةٍ معالمة ، من غير أهبة ولا عُدة من علم نافع ، أو حرفة شريفة ، فتخبطوا فى سيرهم ، وحاروا فى أمرهم ، فكانوا متعطلين ، فويل للآباء الجاهلين ، وويل لأولياء الأمور الطاغين ، فقد بغوا على أنفسهم وأمتهم وبلادهم بتكوين فرق المفسدين ، لذلك كان أكثرهم من أبناء الفقراء والمساكين ، أو الأغنياء الجاهلين أو من اليتامى المهملين الذين لم يجدوا مرشداً يرشدهم ، ولم يصادفوا هاديا يهديهم ، فضلوا وأضلوا وكانوا سافلين ، آدابهم ساقطة ، وأخلاقهم سيئة ، وآثامهم كثيرة ، وجرائمهم عديدة ، وفظائعهم لا تعد ولا تحصى . وهم فى بلادنا جنود مجندة ، وجيوش محتشدة ،

وكتائب متجمعة ومتفرقة ، فهم كالجراد المنتشر ، فى كل بلد ، وفى كل جهة ، وفى كل مكان ، وفى كل ناحية ، تراهم وقد سدت فى وجوههم طرق الكسب الشريف يلجئون إلى غش الناس بطرق مختلفة ، وأنواع متعددة ، فمنهم ذو و اللحا الكثيفة ، والعمائم الكبيرة ، والملابس الفسيحة ، الذين يدعون الصلاح والتقوى ، و يضربون الضرائب على الناس لأنهم من الأشراف ، ومن نسل السادات ، فيأكلون أموال الناس بالباطل ، ومنهم المنجمون الذين يدعون معرفة الغيب ، (وما يعلم الغيب إلا الله)

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ماالله صانع

ومنهم أولئك الأقوياء الأشداء الذين ملئوا (التكايا) فكانوا أشقى البرايا ، تجرى عليهم الأرزاق من غير عمل يعملونه أو فعل يفعلونه ، إلا اللهو واللعب ، والأكل والشرب والنوم ، ومنهم السائلون القادرون الذين ضاقت بهم الأرض ، وغصت بجموعهم السبل ، من رجال ونساء ، و بنات وأولاد ، يقابلونك بوجوه عليها غبرة ، ترهقها قترة ، بأيد بشعةوأرجل دنسة ؛ وأطمار بالية ، ولا يفارقونك أو تعطيهم ، يترامون على أبواب المساجد ، و يتهافتون على المنازل ، و يتسابقون إلى المارة بأصواتهم المنكرة وحالتهم المستهجنة ، فيجمعون ما يجمعونه ، و يذهبون لتعاطى المخدرات ، وارتكاب المو بقات ، واقتراف المنكرات ، فاحذرهم قاتلهم الله ، ولا تتصدق عليهم ، وأنفق مالك للفقراء والمساكين ،والضعفاء البائسين . ومن هم فى حاجة شديدة إليه .و إنما أنشئت الملاجىء لليتامى والأحداث فى مصر وغيرها لتقليل عدد المتعطلين، ولكنها لم تفد بمصر كثيراً لجهل الآباء . الذين يفضلون أن يعيش الولد فى أحضانهم يباشر أرذل الحرف . و يزاول أحقر الأعمال ، كمسح الأحذية . وجمع أعقاب لفائف الدخان . وخدمة فلانة وفلان . ولا يدفعون به إلى هذه الأماكن لينتفع و ينتفع ، والدوا. الناجع . هو تعميم التعليم . حتى يعرف كل واحد ماله وما عليه . فيقل الكاسدون . و يكثر العاملون وأخطر فئة على الأمة والبلاد . فئة المتعلمين المتعطلين . الذين تقذف بهم المدارس كل

سـنة . والذين أتموا دراساتهم . وحصلوا على شهاداتهم . وسدت أبواب الأعمال فى وجوههم هؤلاء جيوش جرارة . وجموع كثيفة . سيوقعون بالأمة والبلاد أشد البلاء وأسوأ أنواع الشقاء . إن لم تتدارك الأمة والحكومة أمرهم قبل تفاقمه . وتعمل على مقاومة شرهم قبل استفحاله . بفتح أبواب العمل لهم ، واضطرار الشركات الأجنبية إلى توظيفهم . وفتح الشركات المصرية لتشغيلهم . وإعداد الناشئين من الآن إعدادا يمكنهم من مزاولة الأعمال الحرة لا للوظيفة فحسب . بذلك و بذلك وحده تنال الأمة ماترجو من سعادة وصفاء . وأمن ورخاء . وتقدم وارتقاء وعز وسلام .

٢٨ — المتنزهات

المتنزهات هى البساتين النضرة والحدائق الخضرة . ذات النظام البديع . والمنظر الجميل . والشكل الحسن . بها تتم الزينة وتقوى الصحة . وتنشرح الصدور . ويكمل السرور . ويطيب الهواء . ويصفو الجو . وتسر الأنفس . وتلذ الأعين . وتذكو العقول . وهى تحبب إلى الناس النظافة . والعناية بالنظام . والميل إلى الجمال والكمال . ولو خلت مدينة منها ساء منظرها . وقبح شكلها وفسد هواؤها . وضاع نظامها . وذهب حسنها . فهى المدينة كالروح للانسان . بها تكون الأشجار البديعة، والأزهار الجميلة . والثمار اللذيذة . والنبات المختلف الألوان ، والحب ذو [١] العصف والريحان ، تجرى فيها الأنهار،وتغرد فوق أشجارها الطيور ، مما يراه الأطفال فيشبون على حب الجمال ، والميل إلى الكمال ، ويبصره الكبار فترتاح نفوسهم ، ويتم سرورهم ويستعيدون نشاطهم ، ويجددون قواهم ، ويؤمنون بالله الذى أخرج من الأرض السوداء . أزهاراً بيضاء ، وأخرى حمراء ،وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا [٢] فتبارك الله الفعال لما يشاء . وفى القاهرة من أمهات مدن القطر أقيمت البساتين ، وأنشئت الحدائق ، وغرست الجنائن . وأسست المتنزهات ، لشدة الاحتياج إليها . والاعتماد فى تقوية الصحة عليها . فيقصدها الناس

---

(١) العصف ورق الزرع (٢) الأب المرعى

طلباً للراحة . ورغبة فى الهواء . وحباً فى حسن المناظر . وسعياً وراء ما يكسبهم الصحة والقوة والنشاط ، ولقد عرف ذلك السراة والأغنياء . فأنشئوا فى دورهم الحدائق الغناء والجنائن الخضراء ،فهى عندهم أهم شىء فى المنزل ، فكما يطلبون الهواء الجيد . يتشددون فى طلب الحدائق والبساتين فى بيوتهم . التى يأوون إليها . ويعيشون أغلب حياتهم المنزلية فيها . ويجعلونها فى مهب الريح . حتى يمر عليها ويدخل الحجرات حاملا من عرفها الذكي . وشذاها الطيب ما ينعش النفوس . ويزيل البئوس ، ويحفظ الصحة ، ويساعد على النشاط والقوة ، هذه مصر الجـــــديدة ، قد تم نظامها ، وكمل جمالهـا ، وأقبل عليها الناس وعاشوا بها واستوطنوها . ورغبوا فيهـا وأحبوها . لما بها من الجنائن الخضرة النضرة . يميناً وشمالا . مما جعلها آية فى الحسن والجمال . وكمال النظام . وبالقاهرة متنزهات عامة . كحديقة السمك . وحديقة الحيوان وحديقة الجزيرة . وحدائق أخرى كحديقة أزبك . وحديقة المنشية . وحـديقة المنيرة وغيرها . يؤمها الناس ترويحاً للنفس . وبعداً عن مواطن الأعمال . ولقد ترى فيها من أهل الفساد جماعة يقلقون راحة العباد . طهر الله منهم أرض البلاد . وفى غير القاهرة كالاسكندرية وطنطا ودمنهور وغيرها متنزهات أنشئت لينتفع الناس بها . وإليها يذهبون . فهى حلية المدن وزينتها . وبهاؤها ورونقها . والهمة مبذولة فى أن تتمتع القاهرة وغيرها بمتنزهات أخرى تنشأ فى قلبها لتستوفى زينتها . وتتم شروط الصحة فيها . وكاد ذلك يكون ولله الحمد والمنة .

٢٩ — الوطن ومايجب له

الوطن مجموعة من البلاد ذات حدود معلومة ، وحكومة مخصوصة ، وسكان معروفين ، يمتازون بلغتهم وأزيائهم . وعاداتهم ودينهم . يستظلون بسمائه ؛ ويعيشون فوق أرضـه . ويأكلون من نباته وحيوانه . ويرتوون بمائه . وينتفعون بهوائه . فهو حياتهم الحقة وحماهم الأمين . وحصنهم المنيع . يفدونه بأرواحهم ، ويحفظونه بأنفسهم

وأموالهم ، ويحمونه بأعز عزيز لديهم ، ويسعون لرفعته ، ويعملون لإعلاء شأنه ، ويسهرون على تقدمه ورقيه ، قد استوطنه آباؤهم من قبلهم ، وعاش فيه أجدادهم جيلاً بعد جيل ، ودافعوا عنه بدمائهم الزكية ، وحافظوا عليه بأرواحهم الطاهرة ، وأنفقوا فيه أموالهم الطائلة ؛ باذلين فى سبيل سعادته كل شىء سواه ، مقدمين لفدائه كل من عداه وما عداه ، بارين به أكثر من الأب والأم والخال والعم ، والأهل والولد ، راضين بكل شدة فى صفائه ، مسرورين من العذات فى حفظه وبقائه ، محبين لأهله وإن ضنوا ، مخلصين لقومه وإن أساءوا ، ساعين فى خيرهم وإن أخطئوا ، عاملين على تقدمهم وإن لم يحسنوا ذلك هو الوطن ، وهؤلاء هم أهله ، ووطننا المحبوب المحروس هو مصر العزيزة ، ذات الخيرات الوفيرة ، والبركات العظيمة ، والخصب التام ، والبر العام ، والنعيم المقيم ، مصر كنانة الله فى أرضه ، مصر الأمينة ، مصر الجميلة مصر التى صفت سماؤها ، وطاب هواؤها ، وعزب ماؤها ، وجاد نباتها ، وحسن حيوانها ، مصر التى رحل إليها الناس من كل فج ، وقل أن يخرج منها من دخلها ، أو ينأى عنها من مستوطنها أو يفارقها من لجأ إليها ، مصر التى لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سور لغنى بها أهلها من سواها ، ولا ستقلوا بخيرها عما عداها ، مصر التى تعاقبت عليها الأمم تحكمها ، والملوك تأخذها ، والغزاة تفتحها ، طمعاً فى خيرها ، وحباً فى حسن موقعها ورغبة فيها ، مصر جنة الأرض وروضة الممالك ، وزهرة البلاد ؛ ونعمة الله الكبرى ، هذه هى مصر وتلك هى بلادنا المباركة ، أفلا يجب على كل مصرى ومصرية أن يفديها بما يملك من نفس ومال ، ويحفظها بكل عزيز وغال ، حتى تنال من السعادة والعز أعلى منال ، نعم ذلك من الواجبات المقدسة ، والفروض المحتمة ، فكل مصرى عليه قسط من ذلك بقدر ماله فى الأمة من المكانة ، وبقدر ما يستطيع بالطرق المشروعة ، والأعمال المعقولة ، والأفعال المحمودة ، على التلميذ والتلميذة ، والطالب والطالبة ، الصانع والزارع ، والتاجر والسرى والعالم والجاهل ، وكل مصرى ومصرية ، أن يعملوا لخير مصر ، وأن يكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ، ونفساً واحدة لخير الوطن ، وحفظ الوطن ، وبقاء الوطن ، أن الأشخاص

زائلة فانية زاهبة والوطن باق دائم خالد ، والمنفعة الشخصية لاتبقى ، والعمل للمصلحة العامة لايفنى ، والذى يعمله لذاته يضربها و بغيرها ، والذى يسعى لأمته ينال من السعادة بقدر ما تنال أو أكثر ، ويحظى بكل عطف واحترام ، و إقبال و إعظام ، والاتحاد قوة لا تقهر ، والتفرق خزلان كبير ، وضياع مؤكد ؛ والحمد لله قد فتح الله للمصريين أبواب العمل لرقى مصر بتلك المعاهدة التى وافق عليها المصريون الانجليز ، فلنبرهن للأمم ولنظهر للعالم أننا أمة مجيدة حقيقة بكل حرية واستقلال ، أننا بحق نسل الغزاة الفاتحين ، وذرية أولئك الذين علموا الأمم فى الغابرين ، إن الوطن ينبوع الخير ومصدر السعادة ، ومنشأ النعمة ، فجدير بنا أن نتفانى فى خدمته ، ونزول فى بقائه ، ونموت فى حياته ، وأهل الوطن هم أعز الناس ، وأفضل الناس ، وأحق بالخير من جميع الناس ، إن كنت بينهم فأنت عضو منهم ، و إن سافرت عنهم فأنت رافع رايتهم ، وفى صورتك الصغيرة ، تمثل هذا الجمع العظيم ، فأنت مصرى فى الهند ، مصرى فى الشام ، مصرى أينما حللت ، وأينما كنت ، وأنت ابنه فى كل مكان و زمان ، فلتكن مثال الأدب البارع ؛ والعمل الصالح ، والخلق الفاضل ، والنفس الشريفة ، والكمال المطلق ، ولتعمل لرفعته و رفعة بلادك وقومك ، ولتكن لوطنك ولا تكن عليه ، ودافع الشر عنه ولا تجلبه إليه ، وافخر بمواطنيك ولا تتبرأ منهم ، ومل إليهم ولا تبتعد عنهم ، وعاملهم ولا تقاطعهم ، وناضل عنهم ولا تحاربهم ، وأنس بهم ولا تنفر منهم ، إنك إن فعلت ذلك كنت لوطنك من المحبين ولبلادك من الحارسين ، وكنت كمن قالت ، ولنعم ماقالت

فما أبغى سوى وطنى بديلاً . فحسبى ذاك من وطن شريف

٣٠ - الأمة

الأمة جمع من الناس تربطهم روابط الدين والوطن والجنس تقلهم أرض واحدة ، وتظلهم سماء واحدة ، وتجمعهم مصالح واحدة ، ولهم حدود معينة ، وحكومة معينة ، ونظام مخصوص وقانون معلوم ، ومميزات معروفة ، وعادات عليهم مقصورة ، ولا تكون

الأمة أمة إذا تساهلت فى شىء من ذلك ، فى دينها أو وطنها أو جنسها أو أرضها أو سمائها أو مصالحها أو حدودها أو حكومتها أو نظامها أو قانونها أو مميزاتها أو عاداتها أو فى أى شىء من حقوقها ما دامت تلك الأمة صالحة طيبة عاملة تعرف معنى الحياة ، لا ترضى الذل ، ولا تقر الهوان ، وتأبى كل ضيم ، وتدفع عن نفسها كل سوء وشر ، وإن الأمة بأفرادها فإن صلحوا صلحت ، وإن فسدوا فسدت ؛ فهم أعضاؤها ، وبهم حركتها وسكونها ، وعليهم سعادتها وعزها ومنهم شقاؤها وضياعها ، الأمة برجالها العاملين ؛ وسيداتها ذوات اليقين ، وفتيانها المجدين ، وفتياتها أولاد العلم والدين ، بهم جميعاً تتكون الأمة وتسمو بهم جميعاً تتقدم وتعلو ، وكل من ينتمى لأمة عليه لها بقدر مقامه فيها ، واستفادته منها عليه أن يقدمها على كل شىء ، وأن يقدسها قبل كل شىء ، عليه أن يهب لها سمعه وبصره وعقله وماله ولذته وعزه ، وعمله وحياته ، فهى المقصود ، وهى المطلوب ، وهى الغرض ، وهى المراد فى هذه الحياة .

وإنه لا حياة لأمة بغير الأخلاق الفاضلة التى تسوقها إلى الخير ، وتبعدها عن الشر وتطهرها من القبائح والمعايب . والمفاسد والمعاصى ، وكل الآفات الخلقية ، فلا نفاق ولا غش ، ولا خيانة ولا غدر ، ولا فسوق ولا عصيان ولا بهتان ، ولا شقاق ولا خلاف ولا تفرق ولا عناد ، ولا تجسس ولا تنابز ، ولكنه الكمال فى كل شىء ، والجمال فى جميع الأعمال ، وإنما هو الأخوة والائتلاف ، والمحبة والاتفاق ، والاتحاد والوداد والصدق والإخلاص ، والعمل والاجتهاد ، والهدى والنور ؛ وكل يقوم بما عهد إليه خير قيام ، ويؤدى عمله بحذق وإتقان ، بذلك تحيا الأمة وتبقى فلا تغلب ولا تقهر ؛ ولا تهان ولا تجبر ، ولو كانت صغيرة قليلة العدد .

والأمة بعلومها النافعة ، ومعارفها الناجعة ، وبالفنون الحية والصناعات العصرية ، التى لها أثر ظاهر ، ونتيجة واضحة ، التى تنفع عارفها فى أى بلد ، وفى كل قطر ، وفى أية أرض ، التى بغيرها تكون الأمة فى ظلام دامس ، وضلال مبين ، وبها تكون فى

ساطع ، وخير عميم فلا حياة إلا بالعلم ، ولا قوة إلا بالعلم ، ولا تقدم بغير العلم ، إن العلم ليغنى عن كثرة الجيوش ، والعلم يفتح كل باب مغلق ، ويكسر كل جبار عنيد ، ويرد كل معتد أثيم ، إن الجندى فى جهاده ، والصانع فى عمله ، والتاجر فى تجارته والزارع فى حقله ، كل أولئك وغيرهم لاينفعون ولا يرجي خيرهم إلا إذا كانوا من ذوى العلم والخبرة والتجربة والمعرفة ، فتعساً لهذه العلوم التى لا تعمر بك النادى ، ولا تعبر معك الوادى ، تلك العلوم التى تؤهل حاملها أن يكون من حقراء الكتبة ، وجهلاء المعلمين ، وحمقى الموظفين ، تلك العلوم التى لا تغنى حاملها عن أن يكون عبداً ذليلاً أسيراً طول عمره . تلك العلوم التى لاتحمى حاملها من مواقف الهوان ، والتزلف والتملق ليسبق غيره من أمثاله المتعطلين ، ونظرائه المعوزين ، وخلطائه المحتاجين ، إنما العلم ما يكون لك منه سلاح تغالب به حتى تنتصر فى ميدان العاملين ، وساحة المجاهدين ، وحلبة المتنافسين

ولا أمة بغير مال ، فبالمال تدرك الآمال ، وتنقضى جميع المطالب والأعمال ، بالمال تسد الثغور ، وتجهز الجيوش ، وتطمئن الأمة ، ويكون الأمن والسلام ، بالمال تحيا العلوم والمعارف وتتقدم الفنون والصناعات ، بالمال ينفتح باب العمل على مصراعيه لجميع أفراد الأمة ، وبه تمد السكك الحديدية ، وتقام القناطر والجسور ، وتبنى للعلم المعاهد والدور ، ويكون كل شيء وراءه سعادتها وهناءتها ، وعزها وخيرها ، فكل واحد فى الأمة مكلف بالسعى وراء المال بالاقتصاد والادخار ، والعمل الشريف مكلف أن يثمر ماله وينمى ثمرته ، مكلف ألا يتركه فى الكنز فيجمد ، بل عليه أن يقذف به فى جلائل الأعمال فيزيد ويفيد ، مكلف ألا يعطيه لغير بنى وطنه ، وأن يقدمهم فى المعاملة على غيرهم ، حتى يخرج المال من يده ، ومنه إلى أخيه ، فيرجع ماله إليه ، ويعود الخير عليه ، وتحفظ ثروة الأمة ، ولا يخرج المال من يدها ، فتدوم لها السعادة وتتم الهناءة ، وتعز الحياة .

ونحن بنى مصر ، نحن معشر أبناء النيل ، نحن الأمة ذات المجد الأثيل ، والمدنية الخالدة ؛ والآثار الباقية ، والتاريخ المجيد ، نحن بنو الفراعنة الشداد، و بنو العرب الأمجاد و بنو العلم والحضارة ، والقوة والعزة ، والملك والسلطان ، أمتنا خير الأمم ؛ و بلادنا خير البلاد ، أفلا ننظر إلى هذه المعالم الشامخة ، وتلك الأصول العالية ، وهذا الإرث العظيم ، وذلك التراث العزيز ، أفلا ننظر إلى تلك السطور الواضحة ، والآيات الظاهرة ، التى تنطق بمدنيتنا الخالدة ، ومجدنا التليد ، نعم يجب علينا ، يجب علينا أن نسترجع ماضاع وما كاد يضيع من هذا التراث الكريم والملك العظيم ، يجب علينا أن نقتدى بأجدادنا السابقين ، وآبائنا الأولين ، فنسير سيرهم ، ونقتفى أثرهم ، ونعمل عملهم ، ونتبع طريقهم ولا نقول :

تغيرت البــلاد ومن عليهـا ووجـه الأرض مغـبر قبيح

بل نقول إن فى ميدان العمل متسعاً لمن يريد الحياة السعيدة فلا ندع للجهل بيننا مجالا ، ولا للفرقة أثرا ، ولا للاختلاف مكانا ، ولا للفساد مجالا ، وأن نكون يداً واحداً فى الخير وعلى الشر وأن يحترم صغيرنا كبيرنا ، و يعدل كبيرنا مع صغيرنا ، وأن يجد عاملنا ، و يقوم بالواجب عليه عالمنا ، وأن يطيع مرءوسنا ، و يجتهد رئيسنا، وأن يباشر كل عمله بذمة وطهارة ، وعفة و إخلاص ، وأن نكون جميعاً للأمة عاملين ، ولخيرها فاعلين ، ولسعادتها قاصدين ، وأن يكون شعارنا (الأمة قبل نفسى ، نفسى هى الأمة وأنا الأمة ، والأمة أنا) بذلك ننال مانريد من سعادة وخير عظيم (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

٣١ — الأمهات

الأمهات عماد الأمة الذى عليه تعتمد . وسندها الذى عليه تستند ، ونورها الذى تستضىء به ، وهديها الذى تسير عليه ، وهن مصدر الخير ، وأصل السعادة، ومنبع الرشد والعرفان ، هن المعلمات المرشدات ، والمؤدبات المؤثرات ، والمربيات الحكيمات ، بهن

تقتدى الوليدة والولد ، وينشأ آن على حب الفضيلة والأدب ويتعودان كل جميل وحسن فهن المكونات للأبناء الأبرار ، والرجال الأخيار ، والفتيات الفضليات ، والسيدات الكاملات ، وهن القائمات بأعباء المنازل ، والمباشرات لأثقال التربية ، قبل وجود الطفل أو الطفلة ، ومن بعد وجودهما ، حتى يصيرا نافعين مفيدين فى هذه الحياة ، فهن مبعث الأخلاق الحميدة ، والأراء السديدة والحمية الوطنية ، والعزة القومية ،والغيرة الأهلية بهن نقوى ؛ وبهن نعتز ، وعليهن نحافظ ومن أجلهن نجاهدو نكافح ، فهن مناط الأعمال ومعقد الآمال ، وهن الأمة ، ولولاهن ما كانت الأمة ، ينلن المشاق ، ويصادفن المصاعب والمتاعب ، ويرين الأهوال ، حتى يشتد الأطفال ، ويقدرون على مزاولة الأعمال ، ثم لايتركنهم بل يرشدنهم ، ويشفقن عليهم ، ويوددن لهم كل سعادة وهناءة ، فهن من أجلهم دائما فى شغل وعناء ، وهم وبلاء ، فما أعظم مايقمن به للأمة ، وما أشق مايحملنه فى سبيل الأمة ، فعليهن مقدار كبير ، وواجب عظيم ، يعملنه لسعادة بلادهن ، وخير أمتهن ، إن كان الولد شجاعا مقداما ذا نفس أبيه ، وقلب طاهر ، وخلق فاضل ، فمن أمه والفضل لأمه ، لأنه بها يقتدى ، ومن أخلاقها يقتبس ، فهى إمامه المتبع ، وهى له القدوة الحسنة ، وإن كان غرا جبانا ، هيوبا مكسالا ، ذا نفس خبيثة ، وقلب مظلم ، وأخلاق ناقصة ، فمن أمه ، والعيب على أمه ، فصلاح الأولاد وفسادهم بالأم ومن الأم وإن كان لغيرها تأثير غير أنه قليل .

لذلك يجب أن تكون الأمهات على درجة راقية ومقدار عظيم فى العلوم والآداب والمعارف والتربيه ، حتى يستطعن القيام بمهمتهن الشاقة وأعمالهن المتعبة التى تتطلب قدرة فائقة وهمة عاليه ، ونفساً وثابة ، وحتى يستطعن أن يؤدين للأمة جميع مايطلب منهن بوفاء وإخلاص وأمانة ، وأساس ذلك الدين ، والتربية المنزلية ، وعلم تربية الأطفال ، ومعرفة الاسعاف الوقتى ، فليس من الحكمة شغل أدمغتهن بعلوم اللغات المختلفة ، وأنواع العلوم العقلية والرياضية ، مما يعوقهن عما يطلب منهن ويلزمهن ، تخرج الفتاة من

المدارس أو الـكليات ، وهى هى لاتعرف دينها ، ولا تفقه ترتيب منزلهـا ، ولا تدرى كيف تنظم بيتها ، و إذا حدثت أقل حادثة تقتضى أقل عـلاج ، تقف أمامها موقف الحائرة العاجزة ، وتعتقد أنها أرفع من أن تتناول يدها مثل هـذه الأعمال ، التى هى عندها من أعمال الخادمين والخادمات ، والممرضين والممرضات ، وأهـل الطب ؛ وليست من أعمال الفتيات والمتعلمات ، ولو عهد اليها بطهى أقل غـذاء ، لاتدرى ماذا تفعل . ولو تشجعت وأقدمت على عمله ظهر ناقصا مخزيا . وكذلك بقية أعمال المنزل لأنها صرفت حياتها فى تعليم لايفى بالغرض المطلوب من التربية المنزلية الناجعة : المدرسة تعلمها كيف تقرأ وتـكتب ؛ ولـكنها لاتعلمها جيدا كيف تدبر منزلها ، وترتب بيتها ، وتجلب لأسرتها سعادة العيش ونعيم الحياة : فعلى أمها وأبيها أن يحملاها على مباشرة الأعمال المنزلية فى كل الفرص الممكنه ، أيام الدراسة . وأيام العطلة . وفى كل وقت مناسب . حتى تقدر أن يستقل بمنزلها تمام الاستقلال . فى جميع الأعمال . وتعيش فى رخاء وسلام : فمنزل الأب والأم هو المدرسة المنتجة وهو المعهد المفيد . وهو الذى تتربى فيه التربية الاستقلالية . وتعرف العلوم العملية . فجناية عليها أن تحرم منه . ومن العمل فيه فى كل فرصة . ومن الواجب أن يعهد اليهـا بأعمال المنزل شيئا فشيئا حتى تعرف مايجب عليها قبل كل شىء . وكل فتاة مطالبة بالتسلح للحياة المقبلة . لتلك الحيـاة التى خلقت لأجلها . ألا وهى الحياة المنزلية . سواء أكانت غنية أم فقيرة . فغناها إنما هو علمها النافع . وعملها المفيـــــــد ، ومـكانتها المنزلية ومقامها البيتى . هـذه هى الغنى . هذه هى سلاح الفتاة . و بدونها تـكون متعطلة عرضة للذل والهوان . ولو أوتيت خزائن الأموال : عندئذ لاينفعها الغنى . ويتحـكم فيها الخدم . وتسوء حالتها فى المنزل وغيره والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة . و يجب أن تعود الاقتصار . وتدبير المعيشة . وحسن العشرة . وحب النظافة . وكل خلق جميل ؛ وأن تنفر من الإغراق فى الترف . والتغالى فى اللبوس والأكل والسكنى وأدوات الزينة . ومن التبـذير والإسراف ومن كل

مايضيرها فى المستقبل حتى تكون على بصيرة وخبرة ، فتجتاز كل عقبة تعرضها فى هذه الحياة ، هى الآن فتاة صغيرة ، وغداً ستكون أماً كبيرة وربة دار يسعد ويرقى بيتها بقدر ما لها من المهارة المعاشية ، والحذق المنزلى ، والتدبير العظيم .

وإن يفتها التحلى وهى فى صغر   بالعلم ذاقت عذاب الجهل فى الكبر

فبالعلم العملى لهذه الحياة تعيش الفتاة عيشة مرضية ، وتكون أماً نافعة ترسل للأمة الأبناء العاملين ، والبنات الصالحات ، وتسعد بها أسرتها ، ويغنى بها أهلها ، ويهنأ بها ذووها ، ويرتاح لها معاشروها ، هؤلاء هن الأمهات ذوات الأثر الصالح ، والفعل الحسن ، أكثر الله منهن فى الأمة والبلاد ، حتى تصل بهن إلى مقصدها الأسمى ، وحياتها السعيدة ، والله ولى الصالحين المجاهدين .

٣٢ — العمال

العمال هم الأمة ، ولا أمة بغير العمال ، هم اليد العاملة ، والقوة الفاعلة ، والحركة المباركة ، والمؤثر النافع والحياة الحية ، هم ذوو النشاط والجد ، والسعى والعمل ، لارخاء بغيرهم ، ولا نعيم إلا بهم ، على كواهلهم قامت وتقوم الحضارة والتمدين ، وشيدت وتشاد الرفاهة والعز ، ورفعت وترفع ألوية المجد والفخر ، وبهم القوة والمنعة ، والاستقلال والحرية وكل خير ، هم بناة الدور والقصور ، والقناطر والجسور ، والمصانع والمعامل ، والحصون والمعاقل ، والمستشفيات والملاجىء ، والسجون والمدارس ، هم الزارعون والحاصدون ، والحماة والمدافعون ، ومن أعمالهم جميع الأدوات والآلات ، والملابس والمنسوجات ، وكل مرافق الحياة فجزاؤهم عند أمتهم أن ينالوا حقهم كاملاً ، وأن يأخذوا أجرهم مضاعفاً ، وأن يتناولوا نصيبهم وافراً ، فلا يحرمون المراكز السامية ، والدرجات العالية ، والمقام الرفيع ، جزاؤهم أن يعيشوا كما يحبون فى رخاء وصفاء ، وسعادة وعز ، وأمن وسلام ، جزاؤهم أن يشكروا على عملهم بتقديم الترضية المقبولة ، والمحبة الخالصة والاحترام الكبير ، وليس من العدل أن يعاملوا معاملة سيئة فإنهم أناس يشعرون

ويتألمون ، ويحسون ويدركون ، ويحزنون ويتأثرون ، ولهم على الأمة الفضل العظيم ، ولو أنصفوا لأخلصوا فى الأعمال ، ولصدقوا فى الأقوال ، وأتقنوا ما يصنعون ، وكانوا للأمة خيراً عظيما ، وعوناً كبيراً .

ومن الظلم البين أن يترك العمال فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يقرءون ولا يكتبون ، ولا يعرفون مايحيط بهم ، ولا ماوقع ويقع فى بلادهم ، وفى غير بلادهم ، ولا يفقهون مايجب عليهم ، وما يجب لهم ، فيكونون آلات صماء يحركهم غيرهم كيف يشاء ، ويسخرون كالأنعام ، ويستخدمون كالحيوان الأعجم ، إن الأرض وما فيها وما عليها لم يخلقه الله لطائفة مخصوصة ، ولا لفئة معلومة ، بل خلقه الله لجميع الناس ، وأولاهم بالانتفاع هؤلاء العمال الذين يستخرجون كنوز الأرض وثمراتها وخيراتها وبركاتها ، إنهم أولى بالانتفاع بأعمالهم من كل مخلوق ، وأحق بالتعليم والتربية ، والهداية والإرشاد من كل إنسان . وإن الاضطهاد الشديد الذى لاقاه العمال زمن القيصر فى الروسيا هو السبب فى الانقلاب الخطير الذى أوجد الشيوعية والاشتراكية فيها وفى غيرها من البلاد ، وهبَّ العمال يطالبون بأن يكونوا كغيرهم فى الانتفاع بما خلقه الله ، وألا يكونوا عبيداً مسخرين لأرباب رءوس الأموال . ولن ينال العمال حظهم من هذه الدنيا ، ويحصلون على نصيبهم فى هذه الحياة ، وهم على تلك الحال من سوء التربية ، وسيادة الجهل ونقص التعليم ، وفساد الأخلاق وسوء الآداب ، ونبذ الدين وترك تعاليمه الرشيدة المفيدة ، هؤلاء التاعسون المساكين ينشئون على الجهل وفى أحضان الجاهلين ، فيرسفون فى سلاسله وأغلاله إلى الممات ، وتلك جناية الأمة التى تركتهم من غير تربية ولا تهذيب ، يبقى الجاهل منهم فى عيشة سيئة ، وحياة نكدة ، وبؤس وشقاء ، يتناول أجره ، بعد العناء والعذاب ، فيذهب إلى المواخير وبيوت الهلاك ليقضي شهواته البهيمية ، ولذاته الحيوانية ، ويتعاطى السموم الفتاكة ، ويترك زوجه وأولاده فى الضنك الشديد ، والبؤس القاتل : أو ينهجوا نهجه لكسب العيش من طرق الفساد

فيعظم الخطب ، ويشتد الكرب ، هذا وأمثاله من شياطين الإنس إنما يشترون بأجورهم وكسبهم الخزى والعار ، والذل والصغار ، والأمراض والأوباء وصنوف العذاب ،لهم ولمن نكبوا بهم من ذويهم وبنيهم ، وما ساقهم إلى هذه الرذائل المقوتة إلاجهلهم الكبير، وضلالهم البعيد ، فلتسرع الأمة الرشيدة ، التى ترغب فى الحياة السعيدة إلى هؤلاء الجاهلين ، وتثقف عقولهم بالتربية والتعليم ، وتطهر قلوبهم بالدين ومبادىء الدين . وتنير أفكارهم بالتهذيب والعلم الصحيح : أيها العمال المصريون إنى أرى من أغلبكم ماتنبو عنه الآداب وتأباه الشرائع . ولا يرضى به الوطن ، الذى يتطلب منكم نفوساً طاهرة ، وعقولا كبيرة ، وآدابا عالية وأفكاراً صائبة ، واستقامة تامة ، الوطن يناديكم لتأخذوا بيده إلى شاطىء السلامة حيث الهناءة والنعيم ، والسعادة الحقة ، فان كنتم مرضى وبقيتم مرضى فلا تستطيعون نصره ، ولا تقدرون أن تأخذوا بيده . فداووا أنفسكم من عللكم المميتة ، وأمراضكم الخبيثة ، تعلموا وتهذبوا ، وبالدين تمسكوا واعتصموا ؟ ولا تكذبوا ولا تخونوا ، ولا تغدروا ولا تغصبوا ، ولا ترتكبوا الآثام ، ولا تقترفوا الموبقات ، ولا تفعلوا ماحرم الله ، كالزنا وشرب الخمر وتعاطى المخدرات ولعب القمار وكل نقيصة نهاكم الله عنها ، بذلك أيها الاخوان تنالون وننال معكم وينال بنا الوطن كل عز وفخر وسؤدد ومجد ، وسعادة وسيادة وتلجئون الناس إلى معاملتكم وتقهرونهم على حبكم والميل إليكم والاقبال عليكم وتقديمكم على غيركم ممن يزاحمونكم من الأجانب النازلين بوطنكم فتزدادون ثروة وغنى . وتزداد البلاد رفعة وعلواً .

وإن الحركة المباركة القائمة الآن لتعليم العمال ،وتأليف النقابات لهم ، واتحاد جماعاتهم . ولم شعثهم — لتبشر بمستقبل حسن . ونجاح عظيم ،متى أدى القائمون بأمر هذه النقابات الواجب عليهم ، بعمل كل مابه وفيه تقدم العمال وصلاحهم فى الدين والدنيا . والعلم والأدب من غير اتخاذهم للفوضى والشغب والقلق . حتى لا نسمع هذه الأغانى المنحطة . ولا نرى هذه الأخلاق السيئة ، ولا نشاهد تلك الآثار المخزية ،فلتسرع النقابات إلى تهذيب العمال

وتعليمهم كي تتسع خطانا نحو السعادة التامة ، والحياة الطيبة ، ويكون منهم النائب والخطيب ، والكاتب والمفكر ، في هذا العهد السعيد عهد الحكم الشوري ، والملك الدستوري ، الملك فاروق الأول ، صاحب القلب الطاهر ، والنفس الوثابة لخير البلاد وأهلها ، ومصر وذويها حفظه الله ونصره .

٢٣ — علماء الدين

علماء الدين هم ورثة الأنبياء والمرسلين ، وحفظة الشرع والأمناء على العلم ، هم التائبون العابدون ، السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ؛ هم الذين لايقولون بغير ماأنزل الله ، ولايفعلون مايخالف أمر الله ، ولايحكمون إلابما حكم به الله ، هم الذين لايخشون في الحق لومة لائم ، ولايهابون أحداً إلا الله ؛ وكفى بالله حسيباً . هم الذين يجاهدون في الله حق جهاده ، ويدافعون عن دينه بكل ماوهبهم الله من قوة وإيمان ، وأعطاهم من قدرة ويقين ، ويمنعونه من عدوان المعتدين ، ويحفظونه من تدليس المدلسين ! هم هداة الأمة وقادتها ، وهم نورها المرسل من عندالله ، الذين يعلمون أن الدنيا لاتزن عنده عز وجل جناح بعوضة ، وأن الآخرة هي دار القرار ! هم الذين يستعذبون كل مكروه في سبيل الله ، ويتقبلون أنواع الشدائد في دين الله ، ويمقتون كل شيء يصدهم عن إعلاء كلمة الله ، لايلهيهم شيء عما أرسلوا له من إرشاد الناس ، وهداية العباد ؛ وهم الذين يفدون دينهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ورخائهم وسرورهم ، وسعادتهم ونعيمهم ؛ ومناصبهم ورتبهم ، فهم لله ولايخشون إلاالله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فهم حراس الدين ، ولايعملون لغير الدين (شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) هؤلاء هم العلماء وكذلك كانوا في عهد رسول الله والخلف الصالح من بعده ، فكانت كلمة الله هي العليا ، وبلغوا ماأرادوا من نصر عزيز وفتح مبين ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأتم الله نعمته عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة ، ورضي عنهم ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وذلك جزاء المتقين ، كانوا شجعاناً جريئين ، ولهم في تدبير الملك شأن عظيم ، وفي السياسة نصيب

وفير ، تصدر بهم وعنهم الأحكام ، ومنهم القاضى والامام ، والواعظ والمرشد ، والوزير الخطير ، والمدير الكبير ، ذلك بأنهم نصروا الله فنصرهم ، وأطاعوه فأعزهم ، وآثروه على كل شىء فقدمهم ، وجعل الكلمة لهم ، (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما)

كان لكل منهم عمل يحترف به ، ويستفيد منه ، ويغنيه عن ذل السؤال ، ويحفظه من مواقف المهانة والصغار ، وإن كان له رزق من أوقاف المسلمين أخذه بإباء وقناعة ، وتعفف وشمم ، متى كان محتاجا إليه ، غير قادر على الكسب إلا منه . فكانوا يطلبون العلم لذات العلم ، ويتعلمون أحكام الدين رغبة فى إرشاد المسلمين ، وعملا بقوله عز وجل : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وقوله : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) هذه مهمة العلماء ، وهذا واجبهم المقدس ، لا يصدهم عنه صاد ، ولا يحول بينهم وبينه حائل من دنيا فانية ، أو عرض زائل ، أو مستبد قاهر ، أو ظالم غشوم . كانوا قدوة الناس فى عبادة الله ، وذكر الله ، وتعظيم الله ، وتمجيد الله ، وخشية الله ، وأداء فرائض الله ، وتنفيذ أوامر الله ، والعمل لله ، ولوجه الله . يقرءون القرآن ويعقلونه ، ويدرسون الشرع ويفهمونه ، لا يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، ولا يحكمون بأهوائهم ، ويعدلون ولو على أنفسهم ؛ فلم يكونوا لعبة فى يد غيرهم . ولقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، فما آتاهم الرسول أخذوه وعملوا به ، وما نهاهم عنه اجتنبوه ونفروا منه . كانوا فى منازلهم وبين أسرهم رحمة ونوراً . ورأفة ورفقاً . وبين الناس أقماراً وبدوراً . يسيرون على ضوئهم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت المتقين . لم يطرقوا أبواب الحكام طلباً للرزق ، وإنما كانوا يدعون إليها لإرشاد هؤلاء الحكام إلى الهدى وإبعادهم عن الضلال ، بما آتاهم الله من حكمة وعلم . وخبرة وحذق . ودربة وعقل . ومقام عظيم . وفضل كبير . وسيرة حسنة . وكانوا يعطون ذوى الحقوق حقوقهم . غير ناظرين لوساطة فلان . أو جاه

فلان. أو خشية فلان . أو لأى غرض كان . فكانوا على خوف عظيم من الله وحده فى جميع أعمالهم وأحكامهم وأقوالهم . لايصدهم عن نصرة الحق منصب يخشون زواله أو مال يخافون فواته . أو عز يضيع عليهم . أو جاه يخرج من أيديهم . حتى ولا نفس الموت . وكثير منهم قتل صبراً . وأهين سجناً وضربا . وأوذى تجويعاً وتعذيباً . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وكانوا هم الفائزين . وما زال العلماء أصحاب القول الفصل ، وذوى الكلمة العليا ، حتى آثروا الدنيا واطمأنوا إليها ، وخافوا الحكام واستكانوا لهم، فصاروا بيدهم يسخرونهم فى شهواتهم ، ويسيرونهم على أهوائهم فانفض الناس من حولهم وألحوا بالائمة عليهم ، وقالوا فيهم مالا ينبغى، ونسبوا إليهم مالا يليق ، وحب الدنيا رأس الخطايا (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وأصبح الناس لايعبئون بالعلماء، ولا يعظمون العلماء ، كما كانوا فى عهدهم الذهبى، عهد التوقير والتعظيم والإجلال والاحترام ، عهد العمل لوجه الله ، والسعى لإعلاء كلمة الله .

ولعل علماء زمننا هذا يعودون بالعلم وأهله ، إلى سيرته الأولى ، ومكانه السامى ، وقدره الرفيع ، فى هذا العهد السعيد فتكون الكلمة العليا للدين، والقول الفصل لكتاب الله الحكيم ، والغرض من العلماء الآن كل من لهم صفة فى الدين من علماء الأزهر وكلياته ومعاهده ودار العلوم، كل أولئك مسئولون بين يدى الله عن عمرهم فيما صرفوه : وعن علمهم هل بلغوه ، ومطالبون جميعاً بالسير على نهج السلف الصالح من علماء الدين حتى يعود لهم ما كان من الحقوق ، وما ضاع من السؤدد والمجد ، ويسيروا بالناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم ،والله ولى المتقين ، وإنه لمع المحسنين .

٣٤ — الشرطة

أولئك هم حماة البلاد من غائلة الشريرين ، والحافظون العباد من سطوة المعتدين أولئك هم أنصار العدل والإنصاف ، ورسل الأمن والسلام ، ومخيفو المجرمين ، ورادعو

المتشردين ، ووازعو السافلين ، وهم الذين بيدهم الراحة والهناء ، والسعادة والصفاء . يسهرون ليحفظوا الأنفس والأموال ، ويتعبون لتنتظم الأمور والأعمال ، ويتكبدون المشاق لتحسن الأحوال . وهم أهل النجدة والبأس . والشهامة والبطش ، والمروءة والشجاعة ، والعفة والنزاهة والشفقة والرحمة . هؤلاء هم الشرطة الذين يقومون بواجبهم خير قيام ، ويؤدون ماعليهم حق الأداء وينفذون القانون جيد التنفيذ ، هؤلاء نصيرو المظلومين ، وأعداء الظالمين . ورافعو راية العدل والأمان على رءوس الناس ، فما أهنأ أمة كان شرطتها من هذا الصنف ، والقائمون على الأمن فيها من هذا النوع . تلك أمة لاتفشو فيها اللصوصية ، ولا يكثر فيها النشل . ولا يظهر فيها الفتك والقتل ، ولا يزداد المجرمون ، ولا ذوو الفساد الغادرون ، ولا الغاشون الخائنون ، ولا الفاسقون الفاسدون . ولا الظالمون المعتدون . ولا الأعداء المسيطرون ، ولا الذين يخيفون الناس ويبطشون بالناس ويزعزعون أمن الناس ويستذلون الناس ، ويستعبدون الأحرار ، ويملكون الأشرار ، ويبغون ويظلمون بغير الحق ، ولا تكون الشرطة كذلك تحب العدل وتنصره ، وتكره الظلم وتخذله ، وتعين الضعيف وترحمه ، وتحارب الشرير وتقهره وتحترم القانون وتنفذه ، وتتعشق الكمال وتحسنه ، وتقيم منار الأمن وترفعه ، حتى تكون قد حازت القسط الأوفر ديناً وأدباً وعلماً ودرساً . وذكاء وفطنة ، ودراية وخبرة ، ووطنية وشرفاً وإنسانية وذوقاً ، أما لو فقدت الشرطة هذه التربية الكاملة فانهم يكونون كما نرى فى البلاد المتأخرة أجساماً مظلمة ، وأشباحاً صامتة ، وأشكالاً بشعة ؛ لانفس ولا حياة ، ولا شرف ولا دين . ويكونون الطامة الكبرى ، والداهية الدهياء على رءوس الأمة والبلاد . وحينئذ تقوى شكيمة اللصوص ، وتزداد شوكة المجرمين ويعظم خطر المتشردين ، ويشتد أذى الشريرين ، ويفشو الكرب والبلاء ؛ ويزداد العناء والشقاء ، ويصبح الناس فريسة للشرطة والمفسدين ، وسلعة بين أيديهم وأيدى الفاسقين ، فيضطرب حبل الأمن ، ويفسد نظام الحياة ، وتتوالى الجرائم ،

وتكثر الفظائع ، وتتعدد حوادث السرقة والغصب ، والنهب والسلب ، والقتل والفتك ويخشى الناس على أنفسهم وأموالهم وثمراتهم فى كل وقت وحين ، إذا ناموا ناموا مذعورين ، وإذا ذهبوا إلى أعمالهم ذهبوا خائفين غير آمنين ، هذا ماحصل ويحصل فى البلاد التى فسدت أخلاق شرطتها ، وساءت تربية القابضين على زمام الأمن فيها يتعمدون الوقيعة بالناس ، ويسعون بالفساد بين العباد ، ويكذبون ويخونون ، ويغشون ويغدرون ، ويلفقون ويدبرون ، ويبيتون ويتقولون ، لايعبئون بما ينجم عن أعمالهم من الفتك بالأبرياء ، والإيقاع بالضعفاء ، وإزهاق الأرواح ، وضياع الأموال ، وامتلاء السجون بأهل الخير والصلاح ، وإخلاء السبيل لأهل الشرور والآثام ، ولقد يقع الواحد منهم فى سوء أعماله ، فيفتضح أمره ويظهر افتراؤه وكذبه، وخداعه وغشه. وغدره وخيانته فيقتص منه القضاء ، ويلقيه فى غيابات السجون ، وتلك عاقبة من لا دين له ولا ذمة ولا شرف ولا أمانة ، وهذه خاتمة من غرته الأمانى وزين له الشيطان سوء عمله ، وصده عن سبيل الهدى والفلاح ، ذلك جزاؤه فى الدنيا ، وفى الآخرة عذاب شديد وخزى كبير ، ونار تشوى وجهه ، وتكوى جسمه ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ولقد ترى أحدهم غارقا إلى قمة رأسه فى الجهل ، ويكاد يتمزق كبراً ، وينفجر بغياً وعتواً ، فعلام هذا الكبر وتلك الفظاظة ، ولم هذا الظلم وتلك النطاعة ، والأمر سهل ، والبطن شبر ، وليس للانسان إلا ماسعى ، والله بكل شىء عليم ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

يجب أن يكون الشرطة مختارين من ذوى العلم والتربية والشرف والعفة والقناعة ، والخبرة والتجربة ، واليقظة والانتباه ، وأن يكافئوا بما يليق بعملهم ، ويقابلون بالشكر على حسن صنيعهم ، ويعطوا ما يحملهم على التنافس والتسابق فى ضبط النظام ، والجد والاجتهاد فى المحافظة على الأمن العام ، ويعاملوا على قدر فعلهم ، ويجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، بذلك يطمئن الناس وينشر لواء العدل ، وترفع راية السلام ، ويعيشون جميعاً مع الأمة على الصفاء والوفاء ، والوفاق والوئام ، وهو مايرجى وينتظر فى هذا العهد المبارك عهد رجوع الأمر إلى الأمة فى كل أحوالها وأعمالها وبالله الهداية ، وهو ولى التوفيق .

٣٥ — الأطفال

الأطفال هم رجال الغد،وقادة المستقبل ، وهم حياة الأمة ، وقرة العين ، وثمرة الدنيا، وهم المعينون على أثقال الدهر ؛ والمساعدون على أحداث الزمان . متى حصلوا على نصيب وافر من التربية والتهذيب كانوا للبلاد أمناً وسلاماً ، وخيراً عظيماً ، فمن الواجب المقدس توجيه أقصى الهمة إلى تربيتهم ، والعناية بهم ، ليكونوا رسل خير وسعادة لأسرتهم وأمتهم و بلادهم، فالخير معقود بنواصيهم إن كملوا ، والشر عليهم وعلينا إن نقصوا، يولد الطفل بعد تعب أمه الشديد ، وقلق أبيه العظيم ، وصرف المال الكثير ، فاهمال شأنه جناية عظمى ، وجريمة كبرى ، وخطر عظيم ، والعناية به من أفضل القربات ، وأجمل الأعمال ، وهى أول الواجبات ؛ يظهر الطفل فى هذه الحياة فيحتاج لهمة كبرى حين الرضاع و بعده حتى يشتد ساعده ، و يقوى على مقابلة الحياة بصحة كاملة ونشاط كبير ولا يزال يحتاج إلى العناية التامة حتى يكبر و يصبح من أعضاء الأمة فى هذه الحياة،ولكن الإحصاء فى مصر المباركة ، دل على أن الذين يتوفون من الأطفال أكثر من الذين يعيشون ولا عجب ففى الأمة أقوام لا يزالون يعتدون على أنفسهم وأولادهم و بلادهم . ويهملون فى تربية أطفالهم ، يدعونهم للوسخ يؤذيهم والذباب يضرهم ، والأمراض تفتك بهم ، ولا ينظفونهم خشية الحسد ، ولا يعرضونهم ، على الطبيب ضناً بالمال ، أو خوفا من الموت ، أو اعتماداً على ورقة خطتها يد منافق خائن غاش كاذب ، يدعى أنه بما كتب يمحو المرض محواً ، و يبعد عن الطفل آلامه أيما إبعاد ، وهو بما يعمل يسوق الطفل إلى الموت المحقق ، والضرر المؤكد ، ولكنه الجهل حمل الأب والأم على رمى طفلها فى يد هذا الأثيم الظالم ، وهذا خطر عظيم يجب تلافيه ، بالضرب على أيدى هؤلاء الدجالين، وقطع دابر أولئك المحتالين، و ببذل العناية الكبرى فى إرشاد الأمهات والآباء وحثهم بكل الوسائل على الاهتمام بشأن الأطفال ورعايتهم والإحسان فى تربيتهم ، على المصرى الذى يريد الخير لبلاده ، وعلى المصرية التى تحب وطنها ، أن يبذل كل

وسعه للوصول إلى تربية الطفل تربية كاملة . ولو لم يكن هذا الطفل من ذوى القربى أو كان من اليتامى والمساكين، فعيبٌ على المصرى أن ينسى ما كان لسلفه الصالح من الاهتمام العظيم بشأن الأطفال والعناية بهم والنظر فى شئونهم وأحوالهم ، عيبٌ عليه أن يرى الطفل الفرنجى نظيفا جميلا جيد الصحة . ويرى طفل وطنه المحبوب وسخاً قبيحاً. ضعيف الصحة بين مخالب الأمراض وأنياب الموت . ثم يكتفى بالألم القلبى . ولا يعمل لإغاثة هذا الضعيف المعذب الذى لاذنب له ولا وزر عليه . ياويح مصر من الباعة الذين يقدمون للأطفال السم فى صور شتى ، ويدسون له الموت فيما يقدمون . وهم بما يعملون لايشعرون . هذه الهريسة والبسبوسة والبسيسة والفطير والكعك والأرواح والبليلة والطعمية والسلطة والملوحه والسجق والكشرى والمكرونة والفاكهة البائرة والبلح الأخضر والحرش وما يشبه : كل هذه يقدمها الباعة للأطفال وأمهات الأطفال وآباء الأطفال . على مرأى ومسمع من الأطباء والحكام والرؤساء والمتعلمين ، فواجب علينا أن ننقذ هؤلاء المساكين، من أيدى أولئك الضارين، ولقد تنبهت الحكومة لهذه الطائفة الجاهلة العابثة، طائفة الباعة فراقبتها وقللت من ضررها وأذاها، مما سينتهى بمحو هذه الخبائث، واستئصال تلك المعايب، إن الأوبئة والأمراض وفساد الأخلاق . كلها جنود مجندة يتولى قيادتها الباعة الجهلاء ، فلنستأصل شأفتهم ونُرِحْ مصر من مضارهم ، وما ذلك علينا بعظيم ، فما هو إلا مقاطعتهم والإعراض عنهم ومصادرتهم وإرشادهم والسعى فى تطهير نفوسهم ، والهمة العالية لايقف فى طريقها شىء ، ولا مستحيل على الشجاع الحكيم . العناية بالأطفال تكون بتربية أجسامهم ونفوسهم . والتربية الجسمية تتطلب شديد الاهتمام بهم حين الرضاع وفى مهد الطفولة، فلا يترك الطفل هملا يرضع كما يشاء . وينام كما يشاء . بل يجب تنظيم تغذيته . وتنظيف جسمه وملابسه . وكل شىء يلتصق به ، وتمتعه بالهواء الخالص فى بيته وفى غير بيته ، والمربى الحاذق بعلمه وحكمته وتجاربه يستطيع أن يصل بالطفل إلى أعلى درجة فى التربية الجسيمة ، ويمكنه أن يرى ثمرة تربيتـــه فى هناءة الطفل

وسعادته بصحته الجيدة . والتربية النفسية تتطلب أكبر عناية وأعظم اهتمام بالأطفال فإن الطفل سريع التقليد ، لين العريكة ، سهل القياد لا إرادة له ، فيجب ألا يرى ولا يسمع ولا يحس بسوى مافيه تهذيبه وكماله ، حتى ينطبع على الخير ويشب على الفطرة وينمو على الفضائل ، فالطفل كما يشاء والداه ، وكما يريد أبواه .

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

فعلى أبيه أن يختار له البيئة الصالحة الطيبة التى لاتجمع غير أهل الصلاح والتقوى والعمل المحمود . ولا يدعه يلعب إلا مع أنداد أخيار . وأصحاب أطهار ، ليقتبس منهم الفضائل . ويشب معهم على الكمال ، وعليه أن يعوده الطاعة والصدق والشجاعة والإقدام وخلال الخير عملا وقولا : وأن يرشد مربيته إلى ذلك فينشأ الطفل وقد اكتسب ثقة أبيه وأمه ، ومن يتولى تربيته . فيبث ما بنفسه وينطق بما يريد . وبذلك يتمكن مربيه من إرشاده إلى الخير ، وإبعاده عن الشر . ويصل به إلى مراقى السؤدد والكمال ، وإن هذا لهو الواجب للأطفال ، حتى تنال الأمة بهم ماترجو من الكمال ، وتدرك ماتبغى من العز والسلام والخير الكثير .

٣٦ – الأطباء وحاجة الأمة إليهم

الأطباء هم غياث المرضى وعون الضعفاء ، إليهم يفزع العليل، وبأيديهم يبرأ السقيم، هم للخير فاعلون ، ولبقاء الأمة عاملون ، ولهنائها يشتغلون ، وإنهم لنعم العون فى الحرب ، ولنعم الظهير فى السلم ، يصاب الجندى فى ميدان القتال فلا يخفف آلامه ، ولا يزيل عذابه . غير الأطباء . الذين يتلقونه بالبشر والرحمة ، والإيناس والشفقة ، والطلاقة واللطف . والبشاشة والرفق ، فما هى إلا اسويعات معدودة ، ولحظات معلومة ، حتى تعود للرجل قواه ، ويسرع لملاقاة عداه ، كما كان منهم فى الحرب الكبرى ، وحرب الحبشة وغيرها ، وفى السلم يصاب الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، بما ينغص عيشه . ويكدر

صفوه ، من العلل والأمراض ، وإن أنواعها لكثيرة ، فيدركه الطبيب بمهارته ، ويسعفه بعلاجه ، ويسقيه ماء الحياة غدقا . ويبعد عنه الآلام إبعاداً ، الأطباء الذين يفيدون الأمة بنشراتهم الصحية . وينفعونها بمؤلفاتهم الطبية ، فتقل الأمراض . وتزول العلل ، ويعرف الناس مابه يحفظون صحتهم ، وتزداد عافيتهم ، ويقوون على الحياة ، هم الذين يرشدون الناس إلى الواجبات الصحية بسيرتهم وسيرهم . وفعلهم وعملهم ، فى منازلهم وعياداتهم ، فى غدوهم ورواحهم وجميع ما يتعلق بهم ، فيعرف الناس بهم النظافة والنظام ، والتدبير المطلوب للعيشة المرضية ، والحياة السعيدة ، هم رسل الخير والسلام والراحة للعباد ، فلا هناءة لأمة تفشو فيها الأوباء ، والخير كله لأمة قويت صحة أفرادها ، ونمت أجسامهم ، فكملت عقولهم . وارتقت أفكارهم . فإن العقل السليم فى الجسم السليم

لذلك كانت حاجة الأمة إلى الأطباء شديدة ، وافتقار البلاد إليهم عظيما . فهم من الأمة بمنزلة الروح من الجسد ، متى كانوا من أولى الشفقة والرحمة ، والحنان والعطف ، والقلب الطاهر والنفس العالية . والدين والإيمان ، والفضل والإحسان

لذلك عنيت الأمم الراقية بالطب والأطباء ، فأنشئوا مدارس الطب ، وبنوا المستشفيات ، وأقاموا المصحات . ولم يدعوا أحداً يتخذ مهنة الطب إلا إن كان عارفا به ، ماهراً فيه موثوقا بعلمه ، حائزاً شهادة تدل على معرفته واقتداره وتدربه ، فليس للجهلاء سوق يربحون فيه . ولا سبيل يصلون به إلى ابتزاز أموال الناس ، ولا طريق للغاشين الدجالين ينفذون منه إلى نفوس الغافلين ، لأن الحكومة الرشيدة قدسدت فى وجوههم المنافذ . وأغلقت دون حيلهم ومكرهم وخداعهم وغشهم المسالك ، وأما الأمم الجاهلة فالفوضى بها سائدة ، والإهمال ضارب أطنابه ، فهناك تدع الحكومة الناس يقتل بعضهم بعضا . فتروج سوق المحتالين ، وتربح تجارة الدجالين ، فيدعى الطب من لايعرفه . ويضر الناس باتخاذه هذه المهنة من لايحسنها ، فيسفك الدماء ويتقاضى الأجر ، ويقتل الأنفس ويأخذ العوض . وشر من هذا من يعلن عن نفسه بأنه طبيب روحانى يداوي

مس الشيطان . و يبرىء المجانين . و يشفى من كل مرض ، فيفترى على الناس الكذب بالترهات والأباطيل ، والتحاويط والتعاويذ ، ويسلبهم أموالهم ، و ياليته يتركهم بل يذيقهم العذاب بما يصفه من الأدوية الضارة والأعمال العقيمة كاطلاق البخور بمواد مخصوصة . وشرب المواد المهلكة ، والأعمال المنكرة ، فويل له ما أظلمه . هؤلاء الغاشون الكاذبون هم اللصوص ، أهل الغدر والخيانة ، والمكر والخداع ، والبؤس لأمة ظهروا فيها وطابت معها حياتهم ، وحلا مقامهم ، ليس لهم إلا قانون صارم يردعهم ومطاردة عنيفة تقضى على شرورهم ، وتحفظ الناس من سيئاتهم ، فعلى الأهلين ألا يسلموا أرواحهم للأطباء الجهلاء ، وأن يتخيروا الماهرين ، ولو طلبوا الأجر الكبير ، فأجر كبير خير من عذاب المريض وشقائه ، و إضافة آلام إلى آلامه ، وعلى الحكومة أن تراقب جميع الأطباء من غير استثناء ، فقد يهمل الطبيب الحاذق (وقد حصل) اعتماداً على شهادته وعظيم مقامه ، وإن الأطباء هم الأساة أهل الإغاثة والنجدة فلا يرجى خيرهم . ولا تنتفع البلاد بهم إلا إن كانوا على خلق عظيم ، واختبار طويل ، ودراية تامة ، ومهارة ومعرفة ، وعلم وتجربة ، يدعوهم الداعى ، فسرعان مايلبون الدعوة ويرون المريض فينقذونه من مخالب المرض ، و براثن الموت : ويذيقونه حلاوة الصحة ، وطعم الحياة الطيبة ، لايتعللون عند الدعوة ؛ ولا يتثاقلون عن الاغاثة ، ولا يأبون إسعاف المريض ، مهما يكن حاله ، وكيفما يكن أمره ، وفى أي وقت يكون ، يتقاضون أجوراً عادلة ، ولا يثقلون كاهل المريض بالنفقات الباهظة ، وهو من المرض فى شقاء وعناء ، والأطباء حقاً هم الذين يوالون السعى فى تطهير بلادهم من الأمراض ، بنشر الرسائل والمؤلفات ، ومعالجة الفقراء والفقيرات . وفتح المستشفيات والمصحات ويؤدون للأمة ماعليهم لها ، ولا يدعون فرصة تمر حتى ينفعوها وينتفعوا بها ، هؤلاء هم الأطباء الذين تسعد بهم الأمة وتأمن عاديات الأمراض ، وفتكات الأدواء ، وصولات

الوباء ، وأولئك هم رسل السلام، وأولئك هم المفلحون ، من الله علينا بهم ، وأكثر فى الأمة من أمثالهم . و إنا لنحمد للحكومة عنايتها بالطب والأطباء ، واهتمامها بالقضاء على الأدعياء الذين يدعون الطب وهم منجهلة الحلاقين، أو من حمقى المشعوذين ، جزاها الله عن الأمة والمرضى خير الجزاء .

٣٧ — جماعة الاسعاف

أولئك قوم ملأ الله قلوبهم حنانا وشفقة ، و رأفة ومحبة ، لاخوانهم فى النوع ومشاركيهم فى الحياة ، فأعانوهم فى بؤسهم ، وخففوا عليهم آلامهم ، وأزاحوا عنهم ما أثقلهم من الكوارث والمصاعب ، ونوازل الأيام ، وفجائعها التى تكثر كلما ازداد التعامل ، وعم التشارك ، وكثر الاختلاط ، هذهقطر الترام وقطرات الحديد ، والسيارات والعجلات تداهم الصغار والكبار فتفقدهم شعورهم ، وتنغص عيشهم ، وتتركهم صرعى ، فما هى إلا أن يذهب الخبر إلى هذه الجماعة ، حتى يسرع أعوانها إلى مكان الحادثة كالبرق ، ويحملوا المصاب إلى حيث يستبدل الاصابة بالسلامة ، والموت بالحياة ، اللهم إلا أن يكون الخطب شديداً والكارثة عظيمة ، فانهم إذاً لايقدرون ، وأجل لله إذا جاء لا يؤخر ، ولكنهم على عملهم مشكورون ، وفى طريق الخير سائرون ، دع عنك الترام ومداهمته ، والقطار ومباغتته ، والسيارات ومفاجآتها والعجلات وكارثاتها . وانظر إلى البناء وهو يتدلى من شاهق ، أو يسقط من حالق ، أو إلى الذين انهال عليهم التراب ، أو انهار بهم المسكن ، أو أدركتهم الأمراض وهم سائرون ، إلى غير ذلك من المصائب ، تجد منظراً فظيعاً وأمراً مريعاً ، وشيئاً محزناً ، فما هى إلا أن تحول بصرك حتى ترى رجال هذه الجماعة ، جاءوا سراعاً على دراجاتهم وسياراتهم فيحملون المصابين بكل هوادة وتؤدة إلى حيث يذيقونهم حلاوة الحياة ، و يزيحون عنهم مرارة الموت ؛ و يبدلونهم من خوفهم أمنا ، ومن شقائهم سعداً ، ولولا هذه الجماعة لمات كثير منهم ، ولاقى الشدائد أغلبهم ، وفي ذلك مافيه من ضياع قسم كبير من الأمة ، لأن كل واحد من هؤلاء رئيس أسرة وعميد بيت ، ومما يسر أن جماعات الاسعاف انتشرت

فى أغلب المدن الهامة التى تحتاج إليهم و إلى عملهم الانسانى العظيم . ولقد بان فضل الاسعافيين فى حوادث مصر سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢١ وسنة ١٩٣٥ حيث كانوا ينقلون جرحى المظاهرات وقتلاها بسرعة وهمة،فى وقت ذهب فيه النصير، وفقد الظهير ،وفاضت الأرواح شاكية إلى ربها قسوة الجبارين ، وظلم الظالمين ، وطغيان المعتدين

والحكومة لا تقدر على القيام بجميع حاجات الأمة ومطالبها ، بل تحتاج إلى من يساعدها ، و يشد أزرها ، لذلك ترى فى كل أمة جماعات تقوم بكثير من حاجاتها ومطالبها ، بدون مساعدة الحكومة أو الاعتماد عليها ، وهذه الجماعات تكثر وتقل تبعاً لرقى الأمة و انحطاطها ، فكلما ارتقت الأمة ظهر فيها أقوام عاملون يرفعون شأنها و يعلون قدرها ، ولو لم تساعدهم حكوماتهم ، وكلما تأخرت قل فيها أمثال هؤلاء العاملين ، و إن حكومتنا وفقها الله للخير تساعد كثيراً فيما ينفع الأمة والبلاد ، فقد أعانت هذه الجماعة بالمال و بالإكثار من فتح المستشفيات والملاجىء الخيرية ، والتصريح للأطباء بمزاولة أعمالهم ، وللصيادلة بفتح صيدلاتهم ، وتلك مساعدة كبرى ، وهمة مشكورة .

وكنا نرجو ونأمل أن يكون كل القائمين بهذه الخدمة الكبرى والمساعدة العظمى من الوطنيين ليس غير ، فهل يقوم الوطنيون مستقلين بما ينفع بلادهم ، و يعلى شأنهم ، كمثل هذه الأعمال المفيدة والمساعدات الجليلة ، ذلك ما نرجوه و إنا لنشكر لهذه الجماعات عملها ، ونطلب من الأمة مساعدتها ، حتى يقوى ساعدها ، و يشتد عضدها ، وتبقى قائمة بخير الأعمال للأمة والبلاد .

٣٨ — جماعات إطفاء الحريق

كان الناس فيما مضى من الأزمان ، يقاسون الأهوال ، و يعانون الصعاب ، يوم أن تشتعل النار ، بمنزل من المنازل ، أو حانوت من الحوانيت ، أو مصنع من المصانع ، أو أي مكان ، فيسعون فى إخمادها ، و يبذلون غاية جهدهم فى إطفائها، ولكنهم عن إخمادها عاجزون ، وعلى إخبائها لا يقدرون ، حتى يتفاقم الخطب ، و يشتد الكرب ، وتأكل النار ما تعلق به ، وتنتهى إليه ، من أثاث ومنزل و إنسان وحيوان ، و يصبح المصابون

وقد فقدوا العزيز وغير العزيز ، لايجدون مأوى يأوون إليه ، ولا ماينفقون منه ، فراشهم الغبراء ، وغطاؤهم أديم السماء ، فلما من الله على عباده بجماعات الإطفاء التى أبدلت الناس من بعد خوفهم أمناً ، ومن بعد شقائهم سعداً ، ومن بعد ضررهم نفعاً ، خف شر النار ، وقل مصابها ، وضعف تأثيرها ، فلا تهب حتى يخبيها رجال الإطفاء ، ولا تشتعل فى جهة حتى يخمدها هؤلاء الأبطال ، وهم من رجال الشرطة الأشداء ، النافعين فى البأساء والضراء ، وحين اشتداد الكرب وجسامة الخطب .

لهم حنان المشفق الودود كما لهم جراءة الأسود

فيحصرونها فى مكانها ، ويسدون المنافذ فى وجهها ، فلا تتجاوز ما عاقت به ، ولا تنتقل مما اشتعلت فيه ، حتى تخمد وتطفأ ويزول أثرها ، فى أسرع وقت ، وأيسر زمن ، فيحفظون بعملهم المجيد ، أرواح الناس وأموالهم، فكم من أناس دهمتهم النار ، وأحاطت بهم من كل جانب ، ولولا هؤلاء الشجعان لالتهمتهم وكانوا لها حطباً ، كما أن كثيراً من الأموال والأثاث كان يذهب طعمة النار ويضيع سدى لولا أولئك الشجعان البسل ، وقد أعدت الحكومة لكل بلد كبير فى القطر نفراً من رجال الإطفاء بعدتهم وعددهم ، وما يحتاجون إليه ، فعاش الناس آمنين مطمئنين ، ولم يقع من حوادث النار المفجعة ما كان يقع من قبل مما أهلك مئات المساكن وما فيها والمنازل وما حوته ، كل جهة تحتاج إلى الجند يحرسونها تحتاج إلى رجال الإطفاء يحفظونها، ولا يتركونها لهذا العدو الشديد البأس ، ألا وهو النار ، ويجب فى هؤلاء الرجال أن يكونوا من ذوى المروءة والنجدة ، والشجاعة والإقدام ، والشفقة والمحبة للأمة والبلاد ، حتى يألموا لألمها ويبذلوا جهدهم فى راحتها وأمنها .ولقد حاز رجال الإطفاء عندنا هذه الأوصاف، فهم من أشجع الناس وأقدرهم على مكافحة النار ، وملاقاة الأهوال ، وآلاتهم وعددهم وما يحتاجون إليه من أحسن نوع ، وأحدث طراز ، والمخابرات معهم ولهم سريعة ، وهم إلى محل النار أسرع، فترى سياراتهم تطوى الطريق طياً، وتنهب الأرض نهباً ، ولهم قترات

(حنفيات) منصوبة فى الطرقات والمدارس والمصانع ودور الحكومة ، لأخذ الماء منها عند إحداق الخطر ، وهم مكلفون زيادة على مكافحة النار وإطفائها ، انقاذ من سقطت بهم المنازل . أو انهالت عليهم الأتربة ، أو من وقع فى بئر ونحوه ، فهم راحة العباد وخير البلاد ، وحماة الأمة ، وهم أولو النجدة والشهامة ، والمروءة والفعل الحميد ، فياحبذا الأمر لو عم نفعهم جميع البلدان ، وشمل عملهم سائر السكان ، بتيسير طرق الوصول لهم والإكثار منهم ، والقيام بإعداد العدد التى تلزم لهم ، فعلى الحكومة ومجالس المديريات والمجالس البلدية ، توجيه العناية وبذل الوسع فى تعميم النفع بهم ، وبثهم فى أمهات المدن وكبريات القرى ، بما يحتاجون إليه من العدد والآلات والأدوات ، حتى لا نرى مثل هذه الكوارث التى تقع تباعا ، فى القرى والبلدان ، وتلك الفاجعات المؤلمة التى تذهب بمئات المنازل فيقف أصحابها حيارى هم ومن يعاونهم لا يستطيعون كفاحا ، ولا يقدرون على مقاومة ، حتى تقضى النار على ماتقضى ، وتأتى على ما تجد ، وتأكل كل ما تصادف ، ولواتخذت العدة لمثل هذه المصائب لما حدثت ولا وقعت ، ولعاش الناس جميعاً فى أمن وسلام .

٣٩ — الأصدقاء

المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، ضعيف وحده ، قوى بأصدقائه ، بهم يقوى ويشتد ويحفظ ويعتز ، فهم عون فى الشدة وملجأ عند الكروب ، والحصن الحصين وقت اشتداد الخطوب وهم المسرة في الرخاء ، والهناءة حين الصفاء ، والصادقون فى البأساء والنافعون فى الضراء ، والجالبون للسراء ، أولئك هم الإخوان الأوفياء ، والأصدقاء الكرماء ، الذين يرفعون عن الصديق آلامه ، ويدفعون عن أخيهم أحزانه ، ويرون سعادتهم فى سعادته ، وراحتهم فى راحته ، وشقاءهم وتعبهم فى تعبه ، وكل إنسان محتاج لإخوانه يعاونهم ويعاونونه ، ويساعدهم ويساعدونه ، ويحفظهم ويحفظونه ، لا يطيب عيشه إلا بهم ، ولا يهنأ مقامه بغيرهم . ولا تنال مطالبه إلا معهم ، فهم مادة الحياة ونعيمها ، ونورها وجمالها ، فمن ذا الذى يستغنى عنهم ، أم من هذا الذى يرتاح باعتزالهم

ولو أوتى أوفى نصيب من العلم والمعرفة والقوة والقدرة . والذكاء والفطنة . أولى له ثم أولى أن يعيش فى الجبال والقفار ، والصوامع والكهوف ، بعيداً عن الإنسان والإخوان والأحباب والخلان ، وكيف ينفرد بالمعيشة من يحتاج لمن يأنس له ويسليه، ولمن يشاركه فى أعماله ومساعيه ، ولمن يأخذ عنه المعلومات ويناجيه ، ولمن يعاونه ويصافيه ، (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وما خلقنا ليعتزل بعضنا بعضاً ، وينقطع أحدنا عن إخوانه ، والناس بعضهم لبعض خدم وأعوان .

حقيقة قل المنصفون ، وكثر الغادرون ، وندر الصادقون ، وازداد الكاذبون ، وكسدت سوق الوفاء ؛ وراجت تجارة الملق والرياء ، وضاع الخير ، وساد الشر ، ولكن العاقل من يلبس لكل حالة لبوسها ، ويتزيا لكل زمان بما يناسبه ، ويلقى دلوه فى الدلاء، ويتخير الأصدقاء ، وينتخب أهل الوفاء ، فهم عون على الدهر ، ومعين على حوادث الزمان ، ووقاية من صروف الحدثان ، ولا ينتظر منهم الوفاء على أكمل وجه ، ولا يرتقب منهم كل الإخلاص ، فذلك محال ؛ وهو مما لا ينال ، فيجب التغاضى عن زلات الإخوان ، والتغافل عن فارطات الأصدقاء ، فمن ذا الذى حاز مطلق الكمال ، وكان محسناً فى جميع الأحوال ، وأى الناس ليس له عيوب .

وإذا الصديق أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

أغمض للصديق عن المساوى   مخافة أن أعيش بلا صديق

فلم ينزعج الصديق من هفوة صديقه ، وتضيق به الدنيا لزلة أخيه ، ليست العصمة واجبة لغير الأنبياء ، والخطأ يقع من أوفى الأوفياء ، حنانيك بعض الشر أهون من بعض

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

اختر قرينك واصطفيه ، وانتخبه واجتبيه ، ولا تعاشره حتى تختبره وتجربه ، وتتعرف موارده ومصادره ، اختر من إذا صحبته زانك ، ومن إذا عاشرته صانك ، ومن إذا آخيته أوفى لك ، ولا تصاحب من يعدك بالنسبة له صغيراً ، أو من يعده الناس

بالنسبة لك حقيراً ، وإذا اخترت الأصدقاء ، واصطفيت الأوفياء — وجب عليك أن تعاملهم باللين والرفق ، والاستقامة والعدل ، والإخلاص والصدق ، والوفاء وحفظ العهد ، فلا تنافق ولا تراء ، ولا تداهن ولا تخادع ، فقطع الصداقة خير من الغش والاحتيال ، والصديق الحق من إذا قال صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا اؤتمن أوفى ، وإذا نادته المروءة لبى ، هو الذى يكون لصديقه ولا يكون عليه ، ولو عانى المشاق والمتاعب ، ولاقى الشدائد والمصاعب .

إن أخاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت شمل نفسه ليجمعك

وإن الصداقة التامة والأخوة الباقية ، والمودة الخالدة ، هى التى تكون فى الله ولا يكون لقصد الانتفاع بها أثر ، ولا تكون لعلة ولا سبب ، إنما تكون للمحبة المحضة ، والوداد الصريح ، والميل المجرد عن المطامع ، هذه هى الصداقة التى لا تزعزعها الأيام ، ولا تؤثر فيها الحوادث ، ولا تضعفها الوشايات ، ولا تنال منها السعايات ، وهى التى من ورائها كل خير وسعادة وسرور وسلام .

٤٠ — فوائد الاحصاء العام

ما الأمة فى وطنها إلا كأسرة فى بيتها ، إن عرفت مالها وما عليها ، وما تحتاج إليه وما عندها ، وما ينقص وما يزيد ، وما يقل وما يكثر ، ووقفت على دخائلها ، وعلمت مواردها ومصادرها ، عاشت هنيئة البال ، مطمئنة فى كل حال ؛ فلا تكون هدفاً للأزمات ، ولا غرضاً للحادثات ، ولا دريئة للارتباكات ، ولا غاية المطامع والآفات .

ولا يكون ذلك بغير الإحصاء العام الذى يبين لها حياتها الحاضرة والماضية ، وما تستغنى عنه وما تحتاج إليه ، وما يضرها وما ينفعها ، فتسير على هدى ، وتبتعد عن كل شر وأذى ؛ بالإحصاء يتبين لها عدد السكان الرجال والنساء ، الأعزاب وأولى الأزواج الأطفال والشيوخ ، الشبان والكهول ، والعاملين والكاسدين ، والخادمين والمخدومين ،

والموظفين وغير الموظفين ، والزارعين والصناع ، والفلاحين والتجار ، والمصريين والنزلاء ، والمتعلمين والجهلاء ، والمرضى والأصحاء ، والمسلمين وغير المسلمين ، فبالإحصاء تظهر للأمة حقيقة أفرادها واضحة جلية . لا لبس فيها ولا خفاء .

وبه تعرف مقدار ماوصلت إليه الزراعة والتجارة والصناعة ، ونصيب الوطنى منها والأجنبى ، وتعلم مقدار الثروة وكيف تأتى وكيف توزع ، والأيدى التى تكد وتعمل والتى تأخذ وتنتفع ، وترى مقـــدار مايستغل من الأراضى الزراعية والمعدنية ، وما هى وجوه الإيراد براً وبحراً وجوّاً ، وماتستهلكه الأمة وما تكسبه ، وما تبيعه وما تشتريه ، وما توررده وما تصدره ، فتقف على الصورة الحقيقية للأمة فى كل أنواع حياتها ، فتسير بدقة وحساب ، لاتخفى عليها خافية ، ولا يغيب عنها شىء مما عليها ولها ، فتتصرف بتدبير وتعمل بتفكير ، وتقطع لجج الحياة آمنة مطمئنة ، عارفة ما يضرها وما ينفعها ، فتجتث أصول الضرر ، وتثبت دعائم المنفعة والخير ، وكذلك تعمل كل أمة حية راقية راغبة فى السعادة والحياة المطمئنة ، تعرف قيمة الدقة والنظام .

أما إذا تركت الأمور بلا حساب ، وأهملت الاحصاء ، وسارت على غير هدى ، كانت فى ظلمات بعضها فوق بعض درجات ، وأصبحت غرضاً للآفات والمهلكات ، لا تدرى ما يراد بها ، ولا تعى ما يكاد لها ، ولا تفقه ما يضرها وما ينفعها ، فترتبك الأعمال ؛ وتسوء الحال ، ويضيع المال والرجال ، ويكثر المتعطلون وتقل العمال ، ويفشو الجهل ويقبر العلم ، وتكون هذه الأمة المهملة عرضة لأن يتمكن منها عدوها ، ويستغلها قاهرها ، ويستعبدها من كان بالأمس دونها وعبداً لها ، ولا تحفل بزراعة أو تجارة ، ولا تعليم أو صناعة ، وتصبح آلة صماء يحركها غيرها كيف شاء .

لذلك عنيت الأمم بالإحصاء منــذ آلاف السنين ، وكان لمصر من ذلك قديماً وحديثاً نصيب عظيم ، فقد قامت به قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، وقامت به حديثاً سنة ١٨٠٠ الميلادية فكان عددها ثلاثة عشر ألف ألف . وكان آخر إحصاء لها سنة ١٩٢٧ فظهر عددها أربعة عشر ألف ألف . فبان بذلك أن سكان مصر فى إزدياد

وأنها تسير إلى الخطر مسرعة لكثرة عددها وقلة ثروتها ، فجاهدت وناضلت لتتبوأ المقعد اللائق بها بعيدة عن الأخطار ؛ نائية عما يحيق بها من الاضرار ، حتى نالت مبتغاها وأدركت مرادها ومناها ، بفضل ماضحت من مال وقوة ، وأنفس وثمرات وتحملت من ضروب الأذى ، وأنواع الآلام ، فلنحرص على ما نلنا من استقلال ، ببذل كل رخيص وغال وشجاعة وهمة ، و إقدام وعزمه .

ولنتدرع بالثبات والصبر ، ولنثابر على الجهاد والنضال ، ولنبعث بحرارة الحياة الذاكية فى قلوبنا وقلوب أبنائنا وأحفادنا ، فأمامنا وأمامهم جهاد طويل ، وصبر شاق ، ونضال متعب ، وصراع مؤلم ، حتى ننتفع بقوانا ونستفيد من عقولنا ، ونجنى ثمار استقلالنا ليست الحياة هزواً ولعباً ، وأكلا وشرباً ، وكلاما ونوما ، و رقصاً ولهواً ، إنما هى جهاد ومنافسة ، وعراك ومناضلة ، وسعى دائم ، وعمل قائم ، ومعارضة للباطل غير وانية ، ونصرة للحق غير فاترة ، و بخاصة لمن نالوا مقاصدهم ، وأدركوا رغائبهم ، وأصبحوا والأمر لهم .

فلا تتوانوا فالبدار غنيمة والمدلج السارى صفاء المناهل

وستقوم الحكومة بعمل إحصاء فى مارس سنة ١٩٣٧ ، ترجو أن تكون نتيجته سارة دالة على أن الأمة فى قوة ونماء وزيادة إن شاء الله تعالى .

٤١ — الحكم النيابى وآثاره

وأمرهم شورى بينهم ، قالها الله عز وجل ليبين للناس أن الانفراد بالرأى ضار ، والاستبداد بالأمر كله سوء وشر ، وأن الخير كله فى أن تقوم الأمة على شئونها ، وتدير أمورها بنفسها ، وتقبض زمام بلادها بيدها ، بين الله بقوله أن الحكم النيابى خير حكم ، وأحسن حكم ، وأفضل حكم ، وهذا هو الحق الذى لاريب فيه ، فإن الدستور يجعل الأمة على علم تام بما يفيدها و ينفعها ، و يرقيها و يقدمها ، و يطلق يدها فتسير إلى العلا سيراً حثيثاً ، و يمكنها مما تريد فتخطو إلى المجد خطوات واسعة ، موصلة .

لما رأت الأمم مزايا الحكم النيابى سعت لإدراكه ، وجاهدت للحصول عليه ، فنالته أمم ، وحرمته أخرى ، نالته الأمم الجادة المجاهدة وتمسكت به ، وحافظت عليه ، وبذلت ما تستطيع لصيانته وبقائه ؛ وحرمته الأمم اليائسة الضعيفة الهمة ، ولا يزال العراك محتدماً بين الشورى والاستبداد ، وسيأتى يوم يزول فيه الاستبداد المشئوم ، وتسود الشورى الميمونة ، وإنه لقريب ، فقد تنبهت الأمم المستعبدة فى آسيا وأفريقية من غفوتها ، وقامت تطالب بحكم نفسها واستقلال بلادها ، فناله بعضها ، ولم ينله آخرون لا يزالون يجاهدون ، وإنهم لواصلون كما وصلت مصر والعراق بقوة الإيمان والثبات على الجهاد ، والتضحية بالنفس والمال ، والإخلاص فى القول والعمل .

الحكم النيابى هو الذى يضمن الحرية لجميع أفراد الأمة ، لافرق بين موسر ومعدم ، وشريف ووضيع ، وعامل ومدير ، وصانع وأمير ، كل أمام القانون سواء ، له ما كسب من الخير ، وعليه ما اكتسب من الشر ، فلا يعاقب هذا لأنه وضيع ، ويترك ذاك لأنه شريف ، وإثمهما واحد ، وجنايتهما واحدة ، ولا يستفيد شخص لأنه أمير ، ويحرم آخر لأنه حقير . كلا بل أهل الوطن كافة يعاملون معاملة واحدة بلا فرق ولا تمييز . وتلك نعمة كبرى بها يسود العدل والأمن ، ويزول القهر والظلم ، وتطمئن النفوس .

الحاكم يخشى بأس القانون ، ويخاف صولة النواب ، ويفعل مالا يوقفه موقف المناقشة والحساب ، فلا يظلم ولا يقهر ؛ ولا يفرط ولا يهمل : والمحكوم يجد من حاكمه العدل ، ويراه نصيراً للحق ، فيسمع ويطيع ، ولا يعاكس ولا يشاكس ، ولا يقف منه موقف العدو العنيد ، والخصم الشديد ، وينصرف كل إلى ما فيه خير البلاد ونفع الأمة ، فترقى وتسعد ، وتقوى وتتقدم . وتنال حظها ومكانتها بين الأمم .

بالحكم النيابى تقف الأمة على ما يدور ببلادها ، وتعرف ما يراد بها ، وتعلم ما يجرى فى وطنها ، فترضى عما ينفع ويفيد ، وترفض ما يسوء ويضر ، فلا تكون كقطعان الغنم يتصرف فيها القصاب وهى خانعة خاشعة ، مهينة ذليلة ؛ بل تسن القوانين الصالحة ، وتشرع الشرائع النافعة ، وتفرض ما ترى فيه خير البلاد وفائدة الأمة .

بالحكم النيابى يعم التعليم ، وترقى المعارف والفنون ، وتتقدم الصناعة والتجارة ؛ وينتفع أهل الوطن بخيرات الوطن ، سمائه وأرضه ، بحاره وأنهاره ، جباله ووديانه ، ظاهره وباطنه ، فيكثر فى الأمة المخترعون البارعون فى كل أنواع الحياة ، وتلك هى السعادة ، وذلك هو النعيم المقيم .

الحكم النيابى هو الذى يوجد فى الأمة الأحزاب التى تتنافس وتتناقش ، وتتجادل وتتعارض ، تريد الحق والصواب ، وتبغى الخير والرشاد ، فلا تقطع أمراً إلا بعد النقاش والبحث ، ولا ينفذ رأى إلا بعد الأخذ والرد ، فيدلى كل بحجته ، ويأتى ببرهانه ، ويقترح المقترحون ، ويرشد المرشدون ، فيظهر النابهون والزعماء ، والمدافعون والخطباء ، الذين يدافعون عن الحمى ، ويجاهدون عن الوطن ، ويقودون الأمة إلى حيث العز والمجد والكمال ، والسعادة الخالدة .

أما الحكم الفردى الذى لا يستمد سلطته من الأمة فهو أسوأ أنواع الحكم . يسير بالأمة القهقرى : ويضعها تحت أقدام الأمم ، وينتهى بها إلى الاضمحلال والزوال فإن الأمة تكون فى يد الحاكم يتصرف فيها كيف شاء ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء يعطى ويمنع ، يصل ويقطع ، يشرد وينفى ، يظلم ويبغى ، يسجن ويقتل ، فتقوم العداوة والبغضاء ، والخصام والشحناء ، وتستعر الحرب الأهلية ، أو تموت الأمة جهلا وعمى ، وتيهاً وضلالا ، كالحكومات الاستبدادية التى قضى عليها الاستبداد ، وأهلكها الظلم والبغى ، فراحت غير مأسوف عليها : ومصر لم تنل الحكم النيابى الذى كان لها من قبل وسلبته إلا بعد أن ذاقت مرارة النفى والاعتقال ، وبعد الجهاد والنضال ، وبذل الأنفس والأموال ، نالت هذا الحكم واستردته بقوة اتحادها وصبرها سنة ١٩٢٣ وفتحت دار النيابة فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان زعيمها الأوحد ، وقائدها الموفق المرحوم « سعد باشا زغلول » الذى نال فى هذا السبيل من الأذى ما لم ينله سواه ، فلم تلن له قناة ولم يفتر له عزم ، حتى أدرك بالأمة بغيته وحصل بمؤازرتها على طلبته ، وصار رئيس

المجلسين مجلسى النواب والشيوخ ، وإليه ترجع الأمة فى كل الشئون ، وما زال زعيما مخلصاً ، قائمـاً على حماية الدستور ، وهم يكيدون له كيداً ، ويدسون له دساً ، فلم ينالوا منه منالا ، حتى لقى ربه راضياً مرضياً . فرحمه الله رحمة واسعة .

وخلفه صاحب الدولة (مصطفى النحاس باشا) فسار سيرة سعد . وقام بأعباء الأمر وفياً مخلصاً . حتى أُقيلت وزارته وخلفتها وزارة محمد محمود باشا . وأوقف الدستور يوم ١٩ يوليه سنة ١٩٢٨ . فما زال يناضل ويكافح . ويجاهد وينافح ، ومعه صحبه وأمته . فاحتملوا جميعـاً ألوان الأذى ، وقابلوها بالصبر والرضا . والتضحية تتلوها التضحية . وأروى دم الشباب أرض مصر . حتى عاد دستور الأمة . واجتمع البرلمان يوم الجمعة ٨ مايو سنة ١٩٣٦ . وانتهى من دورته . ثم افتتح دورة غير عادية « لنظر المعاهدة بين مصر وانجلترا » فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ . ثم افتتح دورته العادية يوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٦ . وهو الآن بمجلسيه يجـد ويعمل . ويسعى ويدأب . لخير الأمة والبلاد . وسعادة مصر والمصريين فى هـــــذا العهد المبارك . عهد الحرية الحقة . والاستقلال الصحيح . عهد الملك المحبوب التقى الصالح . العامل العادل . الملك « فاروق الأول » . حفظه الله . وأناله ما يتمناه . من رقى مصر وإسعادها . وارتقائها إلى المكان اللائق بها . وبتاريخها ومجدها . فى حكمه السعيد . وعهده المجيد . بمشيئة الله الذى نسأله أن يأخذ بيد نوابنا وشيوخنا . وكل عامل لإسعادنا وخيرنا . وأن يحفظ للأمة دستورها وحريتها واستقلالها . حتى تعيد مجداً قد سلف . وتاريخاً مجيداً قد مضى إنه سميع قريب .

٤٢ — البخار

البخار قوة شديدة أودعها الله فى الدخان المتصاعد من ماء يغلى . لما عثر الإنسان عليه . واهتدى إليه . وعرف كيف يسخره ويستخدمه . وينتفع به ويستفيد منه . انتقل به من ظلمات الوحشية والتأخر . إلى نور الحضارة والتقدم . وسار به فى طريق

الخير والسعادة . فقد كان الناس من قبل البخار . فى تباعد وانقطاع وتناء وافتراق. لاتعرف الأمة ماتعمله الأخرى ، ولا تدرى مايكون من الحوادث ، لاتبادل ولا تعارف ، ولا تعاون ولا تآلف ، تعانى الأهوال وتقاسى الشدائد ، وتضعف من قوتها وقوة الحيوان معها . وتنفق من أوقاتها وأموالها ، إن أرادت حرث أرض ، أو إرواء زرع ، أو نقل متاع ، أو سفرا من بلد إلى آخر . أو أحبت ترويج تجارتها ، أو نشر صناعتها أو توسيع نفوذها وملكها . إلى غير ذلك مما تحتاج له الأمة ، وتفتقر إليه ، فلما ظهرت قوة البخار تلك القوة التى غيرت الأرض ومن عليها . وانتقلت بالناس من حال إلى أحسن منها ، ارتبطت البلاد ، واتصلت الممالك، وتقدمت العلوم والمعارف ، وتم التآلف والتعارف ، والتعاون والتعامل ، وحصل التنافس واستضاءت الأمم بآراء العلماء وأفكار الحكماء ، وتوطدت دعائم الأمن ، وساد النظام ، وتوفرت الأزمان والأموال ، وارتاح الإنسان والحيوان ، وأصبح القطار يطوى الأرض طياً ، والباخرة تشق البحر شقاً ، فاجتمع الشرقى بالغربى ، والمصرى بالهندى ، والأمريكى بالصينى ، والفرنسي باليابانى ، فما أعظم هذه النعمة، وما أجل هذه المنة التى جاءت من فكرة عرضت لصاحبها وهو أمام موقد لصنع الشاى ، وهكذا ترى الأعمال العظيمة قد نشأت عن فكرة يسيرة ، وخاطر عارض .

عثر الإنسان على قوة البخار فسخرها فى حرث الأرض وإروائها والانتفاع بنباتها ، واستعملها فى رفع المياه من مجاريها العميقة ، ونقل المصنوعات من بلدانها البعيدة وإدارة المعامل والمصانع مما أراح العباد ، ورقى البلاد كما أنه وطد [1] بها سلطته ، وزاد قوته ، وحفظ بلاده ، وانتفع بها فى مأكله وملبسه ومسكنه وأغلب أموره ، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة ؛ والمنافع الكثيرة التى غيرت مدنية الإنسان ، وأكسبته مدنية حديثة وحضارة جديدة ، هى بلا ريب خير من الأولى وأحسن منها، فسبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين [2] (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء

---

(١) وطد . ثبت ، هذا هو البخار الناشىء من عمل الانسان بواسطة النار ، أما البخار الناشىء من حرارة الشمس التى تسخن مياه البحار والانهار ، فيحدث البخار ويرتفع إلى الطبقات الباردة فيتكاثف وينزل أمطاراً ؛ تفيض بها الانهار ؛ وتحيا بها الزروع والرياض (٢) مقرنين مطيقين .

كيف يشاء ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) .

٤٣ — الكهرباء

إن الكهرباء أكسبت الأنسان خيراً وسعادة . ورقياً وحضارة . الكهرباء هى تلك القوة العظيمة ، تلك القوة الشديدة . تلك القوة التى كانت كامنة مستورة فأظهرتها أفكار المخترعين وعقول المفكرين . فأفادت العالم بأسره زينة وجمالاً . ورونقاً وكمالا . وقدمت إليه غير ذلك أجل الخدم . وأحسن الأثر ، فهى تدير المعامل الكبرى . والمصانع العظمى . فى أيسر زمن . وأوجز وقت وقليل كلفة . مع السرعة الزائدة . والقوة الهائلة . فأخرجت للناس المصنوعات على اختلاف أشكالها . وتباين أنواعها ، زاهية زاهرة بديعة الصنع جميلة الإتقان ، ولا تنس خدمتها للأطباء ؛ الذين اتخذوا منها وسيلة للرأفة بالضعفاء ، فانتفعوا بحرارتها فى إزاحة أمراض كثيرة فى باطن الجسم وظاهره ، وانتفعوا بضوئها فى كشف ماسترته كثافة الأجسام ، فأزالوا عن المرضى عناء الآلام ، وتعب الحياة ، كما لا يغيب عنا استعمالها فى قطع الأشجار الضخمة ، والأخشاب العظيمة ، وقضبان الحديد ، مما أراح الإنسان والحيوان ، وخفف عنهما مئونة الأشغال ونصب الأعمال ، وصرف الأزمان والأموال ، ولا تنس هذه المدافع الكهربائية الضخمة التى تدق المعاقل دكاً ، وتخر لها الجبال هداً ، ومن أعظم آثارها نقل الأخبار من بلد إلى بلد ، ومن قارة إلى قارة ، فى وقت وجيز ، وزمن قصير ، فأصبح الشرقى فى شرقه يسمع كلام الغربى فى غربه ، وسهل على سكان الأرض كلها أن يخاطب بعضهم بعضاً من غير مفارقة أوطانهم ومبارحة بلادهم فى ساعات معدودات . ودقائق معلومات ، فكأن الناس كلهم أسرة واحدة ، فى بيت واحد يعرف كل ماعند الآخر فى حينه ومن فوره

ولقد محا ضوء الكهرباء آية الليل ، ونسخ معالم الظلام فى المدن العظيمة ، والبلدان الكبيرة ، فإذا سار الإنسان فيها بالليل يجد الناس يروحون ويغدون ؛ وفوق رءوسهم

ثريات الكهرباء كأنها نجوم زاهية وسط السماء ، ولصفاء ضوئها ، وجمال شعاعها أستبدل أكثر الناس البترول بها ، واستعاضوا ضوءه بضوئها ، فى المنازل والمحال التجارية والمعابد والمساجد فأمنوا الحريق ، وحفظوا أماكنهم من دخان البترول ، وما يجره من الخسائر و يتطلبه من النفقات ، فأنت ترى الأماكن التجارية العظيمة مزدانة بثريات الكهرباء بأشكال بديعة و رسوم جميلة وتنسيق عجيب ، و يظهر لك ذلك واضحاً جلياً ، فى ليالى الأعياد ، والاحتفالات الكبيرة ، مما لم يكن فى الحسبان ، ولا يتصوره من قبل ذلك إنسان ، وترى الليل بضوئه قد فاق النهار بشمسه ، وقد كنا قبل ظهور الترام بيننا نتكبد المشاق ونتعب أنفسنا ونتعب الحيوان معنا ، فإذا أردنا الذهاب إلى أعمالنا نلاقى المصاعب . مع صرف الأموال والأزمان وسماع القيل والقال ، من الحوذى والحمار فلما سار الترام فى البلد ، وامتدت قضبانه فى الطرقات ، أصبح الوصول سهلا هيناً ، بثمن بخس ، و راحة تامة ، ونشرت العمارة لواءها فى الجهات التى كانت من قبل الترام فى عزلة ، فما أجل هذه الفوائد ، و ياليت لمصر والمصريين يداً فى أن تنفع وتنتفع بهذه القوة وغيرها ، ولا تبقى بمعزل عن فهم تلك الأسرار ، وما أودعه الله من المنافع الهامة فى المخلوقات فى الماء والهواء والأرض والسماء حتى نكون من السعداء ، وحتى يكون لمصر حظ فى حضارة الناس وتقدمهم كما كانت من قبل ، أسبق البلاد وأرقى الممالك .

وهذا زمان أرضه وسماؤه مجال لمقدام كبير حياة

وقد اتجهت الفكر إلى توليد الكهرباء من جنادل أسوان ، و بفتح بحيرة تتصل بالبحر الأبيض ، وتهوى فى منخفض فى صحراء البحيرة ، ولو تم أحد هذين أو هما معا بأيد مصرية و رءوس مصرية وأموال مصرية ، لكان منه خير عميم ، ونفع عظيم ، لمصر والمصريين

٤٤ — الطرق الحديدية

كان الناس فيما مضى من الأزمان ، يلاقون أنواع الصعوبات و يرون صنوف الشدائد ، إذا أرادوا الانتقال من بلد إلى بلد ، والسفر من جهة إلى أخرى ، فكانوا

يصرفون الأموال و ينفقون الأزمان ، و يضعفون من قوتهم وقوة الحيوان ، لا أمن ولا راحة ولا اطمئنان ، إن ساروا فى البر فياويلهم من صعوبة الأرض وضلال المسلك ، وفتك الفاتك وغصب الغاصب ، فيكونون هم وأولادهم وما معهم عرضة للضياع والهلاك ، و إن ساروا فى البحر فياويحهم من موج يغشاه موج ، يطوح بالسفينة كيف يريد ، فتارة يرون الموت ، وأخرى يرجون الحياة وهم مع ذلك يخشون فتك الفاتكين ، و يخافون صولة الغاصبين ، وأن صعوبة كهذه ، تقف بالإنسان دون أن يخرج من بلده ، أو يرتحل عن وطنه ، فكان الناس فى انقطاع وافتراق ، وتباعد وانفصام ، لا تعارف ولا تآلف ، ولا تبادل ولا تعامل ، حتى أن أهل الوطن الواحد لايعرف بعضهم بعضاً ، فلما مدت قضبان الحديد فى البلاد ، وتفرعت فروعها فى الجهات ، سهل الوصول ، وعم الأمن ، وازداد الرخاء ، وكمل الخير ، فارتبطت البلاد ، وقربت المسافات ، وذللت الصعوبات وانتشرت التجارة ، وارتقت الصناعة ، ووجد التعارف والتآلف والتحاب والتحالف ، والتبادل والتعامل ، وصارت المصنوعات والغلات تنقل من البلاد الغربية ، إلى البلاد الشرقية ، وما كنا لنبلغ ذلك إلا بشق الأنفس ، وصرف الأموال والأزمان واستخدام قوتنا وقوة الحيوان ، فزال ذلك كله و بدل الشقاء سعادة ، والتعب راحة وتنافس فى الصناعة المتنافسون ، وتسابق فى الزراعة المتسابقون ، وتبارى فى التجارة التاجرون ، لأنهم وجدوا من الطرق الحديدية عوناً لهم على نقل مصنوعاتهم ومزروعاتهم و بضاعاتهم وتوزيعها ، وإن هذا لمن أعظم الفوائد ، ومتى سارت القطرات فى جهة عمرتها وزادت فى رخائها ، وعادت بالفائدة على قطانها ، وأكسبت أهلها الثروة والغنى ، وزادت فى مال حكومتها ، وقطر الحديد المصرية ، قد ربطت بلادها وقراها ، وهى تسير فى مواعيد مضبوطة ونظام دقيق وسرعة تامة ، ولها شأن عظيم فى الأعياد والمواسم ، وفى زمن الصيف ، حيث تنقل الركاب إلى المصايف بأجور أقل منها فى غير هذه الأوقات ، و إيراد سكة الحديد عندنا له أثر عظيم فى خير البلاد وسعادة الأمة ، و بفضل الطرق

الحديدية أصبح سكان الأرض كلها كأنهم أسرة واحدة يتزاورون ويتعارفون ويتآلفون ، حتى كثرت المعارف ، واتسعت العوارف وانتشرت رايات السعد فى سائر الأنحاء ، وانبسط الأمن فى أغلب الأرجاء وعاش الناس فى سعة ورخاء .

٤٥ — الحديد

الحديد أكثر المعادن نفعاً وأشدها بأساً ، وأعظمها قوة ، له منافع كثيرة ، وفوائد عديدة ، قال الله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ولا ريب فى ذلك . فعليه تؤسس الدور وتبنى القصور وترفع القناطر فوق الأنهار ، وتقام الحواجز فى عرضها ، ومنها تكون الأسلحة والدروع ، والآلات الحربية المختلفة الكثيرة التى يذود بها الإنسان عن نفسه ، ويمنع عن حوزته ، وتحفظ الممالك وتقيها عاديات الهوالك والعدد البخارية التى تدير المعامل الكبرى ، والمصانع العظمى ، وتطحن الحبوب ، وترفع المياه ، وتحرث الأرض ، ومنه المدية والمبراة ، والمقص والمنشار ، والقفل والمسمار وأغلب آلات الصناع والعمال ، التى لولاها ماتم لهم عمل ، ولا ارتقت صناعة ، كما أن منه معظم أدوات السفن البخارية التى تشق البحار وتجوب أطرافها ، وتلاطم أمواجها فتحمل الإنسان والبضائع من بلد إلى آخر . وكذلك القطر الحديدية التى أزالت عن المسافر كل عناء ، ورفعت عن الحيوان كل شقاء ، وارتبطت بها البلاد ؛ واتصلت الممالك ومنه عجلات النقل على اختلاف أشكالها ، وتباين أصنافها ، والأسلاك المتنوعة ، إلى غير ذلك مما أخذ بيد الإنسان إلى ذروة الحضارة ، وأكسبه الخير والسعادة ، وإذا وجد الحديد فى مملكة كثر فيها العاملون وقل المتعطلون ، وتقدمت صناعتها ، وزادت ثروتها ، وعز شأنها ، ولاحتياج الناس إليه خلق الله منه مقداراً وفيرا ، وقسما كبيرا ، يفوق كل المعادن ، فهو أنفعها وأفيدها ، وبالعثور عليه انتقل الإنسان من عصر الوحشية إلى عصر الحضارة والمدنية ، واستخدمه بدل الحجارة والعظم والخشب ، وسمى عصر وجوده بالعصر الحديدى ، فخفف على الناس المتاعب ، وأزال عنهم كثيرا من الآلام . وفى هذا

العصر عصر النور والعرفان ، والحضارة والتقدم العظيم ترى للحديد أكبر أثر فى حياة الناس وخيرهم وراحتهم وهناءتهم ، فى جميع أعمالهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم ، فهذه المبانى الضخمة المسلحة مقامة على الحديد ولولا الحديد ما ارتفعت هذا الارتفاع ، ولا كانت من ثمانى طبقات الى تسع طبقات تناطح السماء ، وتسامى الجوزاء ، فالحديد من المعادن المفيدة ذات الأثر العظيم ، وهو من نعم الله العلى الكريم ، وفضله الكبير

٤٦ — الورق

كانت الأمم فى الأزمان الخالية ، والعصور الماضية تلاقى صعوبات جمة ،ومشقات كثيرة ، إذا أرادت تقييد علم ، أو حفظ تاريخ أو مخاطبة بعيد ، فكانت تستعمل لذلك جلد الحيوان وعظمه ، والقحاف والعسب[1] وشظايا[2] الحجارة وكل هذا لايقوم بالمقصود ، ولا يفى بالغرض المطلوب ، من تدوين العلوم والمعارف وتقييد الأخبار والاشعار والكتب والأسفار ، وتواريخ الغابرين ، وآثار السالفين ، ولقد كان العرب فى جاهليتهم يعتمدون على ذاكرتهم ، ويتكلون على حافظتهم ، فى صيانة علومهم ومعارفهم ، وأشعارهم وأنسابهم ، فكثرت الرواية والتلقى ، وصارت العلوم تؤخذ عن العلماء بالمشافهة دون الكتاب ، فضاعت علوم وذهبت معارف ، واندثرت آثار كثيرة ممن أدركهم الفناء فماتت علومهم بموتهم ، ومحيت آثارهم من بعدهم .

فلما جاء الاسلام ، واتسعت الحضارة ، وكثرت العلوم وتعددت الفنون . وظهر الحكماء والخطباء ، والعلماء والشعراء ، اضطروا إلى شىء يدونون فيه أفكارهم وأخبارهم وعلومهم وأشعارهم ، فأدخلوا صناعة الورق فى ممالكهم ، وكانت قبل ذلك شائعة فى بلاد الصين ، ومن نظر إلى زمن المأمون علم ما للورق من الفوائد التى عادت على الإسلام والمسلمين ، والعلم وأهله بالسعادة والخير ، فقد ترجمت فيه كتب قيمة نفيسة ، وألفت مؤلفات كثيرة مفيدة ، وراجت سوق المعارف والعلوم .

---

(١) العسب جمع عسيب وهو الجريدة المستقيمة من النخل يزال عنها الخوص فاذا أريد أن يكتب عليها شقت شقوقا متوازية ليست سميكة ثم تجفف ويكتب عليها بعد ذلك
(٢) شظايا الحجارة مايتطاير منها رقيقا

ولما انتقلت صناعته المفيدة إلى أوربا دخله التحسين وكثرت أنواعه ، وتعددت أصنافه ؛ وأصبح غير قاصر على أن تقيد فيه العلوم والأخبار ، وتكتب فيه التواريخ والأشعار ، وترسم فيه الرسوم والأشكال ، بل دخل فى كثير من المصنوعات وأفاد فى تحسينها وجمالها، واستعمله الانسان فى كثير من الأشياء ، كلف البضائع وتزيين الحوانيت وعمل الصناديق المختلفة الأشكال والمقادير ، لحفظ المصنوعات النفيسة ، وصيانة البضائع الجليلة ، وتجليد الكتب والنقش والرسم والتصوير . وإن أجل الفوائد قدراً وأعظمها نفعاً ، استعماله فى تقييد العلوم والمعارف ، وتدوين الكتب والمؤلفات والمراسلات والمخاطبات ، ونشر الآراء والأفكار والحوادث والأخبار ؛ وعمل الصحف والمجلات ، فيقف على ذلك كله الغنى والفقير ، ويعرفه كل فرد فى الأمة ، ولولاه ماعرفنا تاريخ سلفنا ، ولا علمنا أحوال من سبقنا من الأمم جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، ولا كثرت الصحف على اختلاف أنواعها ، والمجلات على تباين أصنافها ، إلى غير ذلك مما يقدم الأمم ويرفع شأنها ، ويزيدها رقياً على رقيها ، وحضارة على حضارتها

وكفاه فائدة احتياج الناس إليه ، واعتمادهم عليه فى كثير من الأمور والأحوال ، فالتاجر محتاج إليه والصانع محتاج إليه والعالم والحكيم ، والشاعر والخطيب ، والمعلم والتلميذ ، والكاتب والخطاط ، والنقاش والمصور ؛ كل أولئك محتاجون إليه ويعولون فى أمورهم عليه ، وإن وزارة المعارف ومدارسها وكلياتها ودور العلم على اختلافها والمطبعة الأميرية وغيرها لتستنفد من الورق القناطير المقنطرة ، والمقادير العظيمة . وهو يرد إلينا ولا يصنع فى بلادنا إلا ورق اللف فله مصنع بالاسكندرية مع وفرة المواد التى يصنع منها لدينا ، ونحن نستنفد منه مقداراً ليس بالهين ، يستفيد بثمنه التجار الأجانب ، الذين يربحون فى تجارته الأرباح الطائلة ، فلو صنع بمصر لأغناها وأفادها ، وشغل كثيراً من الأيدى المتعطلة ، ورءوس الأموال المكنوزة ، وكان من ذلك الخير لمصر وأهلها ، وهو ما ينتظر من مصرف مصر (بنك مصر) الذى فكر فى كثير من الأمور الهامة المفيدة التى تعود على مصر والمصريين بالخير ، والنفع العظيم ، ومنها صنع الورق ، ونرجو

أن يقوم به كما قام بغيره من جلائل الأعمال ، ومختلف الصناعات زاد الله فى قوته وجعله المصرف الأول بين مصارف الدنيا ، وليس ذلك بعزيز على من يريدون السعادة والكمال ، والانتفاع بالحرية والاستقلال .

٤٧ — الشجر

يبذر الزراع بذرة ضئيلة ضعيفة . صغيرة حقيرة ، ثم يتعهدها بالسقى والتربية ، حينا من الدهر . فلا يلبث حتى يراها شجرة ملتفة الأغصان ، مورقة الأفنان ، ينتفع من ثمارها إن كانت من ذوات الثمار ، ويستفيد من أزهارها إن كانت من ذوات الأزهار ، فيستخرج الروائح الزكية ؛ والمواد العطرية ، التى تكسب النفس سروراً وانشراحاً ، ثم يجد فيها الأدوية المفيدة لكثير من الأمراض ؛ النافعة فى أغلب الأدواء ، كما أنها تنقى الهواء ، ويستظل بها الإنسان ، ويتغذى بورقها الحيوان ، ويأوى إليها الطير . فيتخذ منها سكناً ومن ثمارها وأزهارها غذاء ولا يغيب عنا مايقدمه الطير لنا من الخدم . فإنه يأكل الحشرات . التى تفتك بالنبات . ويطربنا بصوته ويسر أنفسنا بحسن منظره . وإنا لنتخذ من الشجر تلك الخشب التى نصنع منها السفن البخارية . والمراكب الشراعية . والنوافذ والأبواب وسقف المنازل مما يقينا عادية اللصوص . وطوارىء الجو . كما أننا نصنع منها قماطر الكتب، ومقاعد الجلوس، وموائد الأكل وسلاليم الصعود . ووقايات من رطوبة الأرض . وأغلب الآلات والأدوات . وننتفع بما كمن فيها من النار . فى كثير من الأحوال . والخشب مما لا يستغنى عنه الإنسان فى الحرب والسلم . والخوف والأمن . حيث يتخذ منه الأكنان والمساكن . وينتفع به فى كثير من الحاجات . والخشب أنواع وأصناف تختلف باختلاف الأشجار فمنه ماله قيمة مرتفعة كالذى يستعمل فى صناعة العصى وأيدى السكاكين وغيرها . ومنه ذو القيمة الوسطى كالذى يصنع منه المناضد والأرائك والكراسى ومنه الخشب الشائع الذى يستعمل فى السقوف والجدران والصناديق العادية وغيرها . فهو من المواد التى لها أثر حميد فى سعادة الإنسان وهناءته فى هذه الحياة . وهو كغيره من المواد التى ترد إلينا

و ينتفع بثمنها التجار الأجانب . فلو أنا عرفنا كيف ننتفع بما عندنا بمصر والسودان من خشب الأشجار لكان لنا من ذلك موارد ثروة لايستهان بها . وقد رأينا بالمعرض المصرى الخامس عشر أنواعاً جيدة من الخشب المصرى من شجر مصرى يستعمل فى أفخر الأثاث . فامل الجهود تتجه إلى هذه الناحية حتى يكون منها مورد عظيم للثروة المصرية .

٤٨ — المياه

إن المياه من العناصر التى لا يحيا الإنسان إلا بها . ولا يعيش إلا بسببها . وهى على اختلاف أنواعها . وتباين أصنافها مفيدة للانسان والحيوان . والشجر والنبات . يرتوى منها الإنسان ويشرب الحيوان . و يسقى الشجر والنبات . و يعتدل الجو . وتتلطف الحرارة و ينقى الهواء . وتطهر الثياب . وتسير فوقها السفن البخارية والشراعية . وتدار بها المعامل الصناعية . وتتولد الكهرباء إن كانت ذات تيار عظيم . وموج لجى . ولا يغيب عنا تلك المخلوقات العديدة والخلائق المختلفة . التى تعيش داخل البحار . وفى بطن الأنهار . ومانأكله من السمك . ونستخرجه من اللؤلؤ والمرجان والملح والأصداف . وتلك نعمة كبرى . ومنة عظمى ، ومصر بفضل الله لها سواحل تدر عليها الخير والبركة فالأهلون ينتفعون : والحكومة تستفيد . من مصايد السمك . ومستخرجات اللؤلؤ والمرجان (وابنك مصر) كل الفخر فى توجيه المصريين إلى هذه الكنوز الملأى بالخيرات فقد كون شركات صيد السمك والانتفاع بأصدافه و بيعه فى محال مصرية بأيد مصرية تنفع وتنتفع .

نحن محتاجون إلى المياه فى الأكل والشرب . والمسكن والملبس . والتنظيف والتطهير . وأغلب الأمور . إذا أردنا البناء احتجنا إلى الماء . و إن طلبنا الغذاء . وجدناه فى الماء . و إن قصدنا نقى الهواء . رأيناه عند الماء . نطفىء به الحريق . ونصد به عاديات الزوابع . ونخفف به عنا حرارة الصيف . بلادنا تحيط بها الصحارى تكتنفها الرمال . فلولا الماء الذى يبخر ويحمله الهواء ثم ينزل أمطاراً على تلك الجهات لثار علينا ثائر

الغبار . وهجمت جيوش الأتربة . فتكدر الصفو وتعكر الجو . وتجلب الأمراض . فوقانا الله شر ذلك بالماء . ولولا الماء لما كانت بلادنا زراعية ذات خصب ونماء . فهو لا ريب حياة النفوس . وبه تزول البئوس . ومنه كل خير ونفع . قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فكل شيء فيه الحياة . من إنسان وحيوان ونبات . فإنما حياته بالماء . ونماؤه بالماء : وبقاؤه بالماء فسبحان من أنعم وتفضل .

٤٩ — المطابع

كانت العلوم فى الأزمان الغابرة ، والعصور الخالية ، قبل ظهور المطابع ، وطلوع نجمها بعيدة المطلب ، صعبة المنال ، لا يمكن لغنى فضلا عن فقير أن يحوزها إلا بعد تجشم الأسفار ، وصرف الدرهم والدينار . فلما منّ الله تعالى على عباده بظهور المطابع واختراعها أصبح نيل العلم سهلا هيناً ، فاستوى الغنى والفقير ، والعظيم والحقير ، فى اقتناء الكتب والمؤلفات وانتشرت العلوم والمعارف . وظهرت الأفكار والآراء ، ونبغ النابغون ، وسبق السابقون ، وتقدم الفاضلون ، وبانت بلاغة البلغاء وفصاحة الفصحاء ؛ فاتسعت دائرة العرفان ، وراجت سوق العلم وعز أهله وعظمت أنصاره ، ووضعت الكتب وألفت المؤلفات ، ونقلت من لغة إلى لغة ومن لسان إلى لسان . وبزغت أنوار الصحف اليومية ، والمجلات العلمية والصناعية والسياسية والدينية ، فاستضاء العالم بنورها ، واستنار بضوئها ، وسهل على الناس تبادل الأفكار ، وتناول الآراء ، مع السرعة الزائدة والزمن اليسير . ولست ترى أمة من الأمم غنية عن المطابع ، غير مفتقرة اليها ، بل كل الأمم الآن تنتفع بها ، وتستفيد منها ، فعليها مدار دور الحكومة ، وبها إنجاز الأعمال وتمام الأمور . وإنها لمختلفة الأشكال عديدة الأنواع وهى على اختلاف أشكالها ، وتباين أنواعها . تخرج للناس المئات من المؤلفات النفيسة ، والآلاف من الكتب المفيدة فى أيسر زمن وأقل كلفة . وأسرع سرعة . وقد تقدمت تقدما لم يكن فى الحسبان ، حتى اخترعوا منها نوعاً يسمى الروتيتيف تخرج فى الساعة عشرين ألف نسخة من ست عشرة

صفحة وأحدث وأسرع آلة للطباعة هى (اللينوتيب) . وهذه لاتحتاج للعمال إلا فى جمع الحروف بطريقة ليست كالطريقة القديمة بل كطريقة الآلة الكاتبة « علم الإنسان ما لم يعلم »

ولقد أصبح الكتاب المطبوع يباهى بحسن منظره اللؤلؤ النظيم . والعقد النضير . مع ظهوره فى مظاهر كثيرة حازت كلها من الرفعة أعلاها . ومن المكانة أسماها : ترى الكتاب المطبوع . فتميل إليه نفسك . ويتمتع به نظرك . لحسن تنسيقه وترتيبه . ورونقه وجماله . فإذا قرأت فيه قرأت بنفس مرتاحة . وبال مطمئن . وعين قريرة . وميل تام . وشوق عظيم . وإذا نظرت إلى المؤلف المكتوب باليد . رأيت غالباً ماتشمئز منه النفس . ولا يقبله الطبع . ولو حوى بين دفتيه حكمة الحكماء . وبلاغة البلغاء . وفصاحة الفصحاء . وفوق ذلك ما يقع فيه من التصحيف والتحريف . والتغيير والتبديل مما يضيق له صدر الحليم . ويأنفه صاحب الذوق السليم . يريد التاجر الإعلان فسرعان مايصل غرضه إلى الناس بكتابته وطبعه ثم توزيعه أو إلصاقه بالجدران . بشكل يجذب الأبصار . ومثل التاجر كل من يريد الإعلان عن أى شىء : وآلة الطباعة المنتشرة تتكون من حروف مسبوكة من حديد الزهر . منها المستقل بنفسه . ومنها ما يتصل بغيره . فتجتمع الكلمات المقصود طبعها من الحروف وتضم بعضها إلى بعض ثم توضع ثمانى صفحات أو ست عشرة فى لوح آلة الطباعة التى يقوم عليها اثنان واحد يديرها والآخر يضع رقعة الورق . فتأخذها الآلة بأصابعها وتمر على الحروف التى يغمرها المداد حين الدوران فتطبع الحروف فى الرقعة وتصعد الرقعة حتى تتركها الأصابع فتنزل في مستودع الورق الذى طُبِع : ومنها ما تدار بالكهرباء . فلا تحتاج لعامل التدوير ولا لعامل وضع الورق بل تحتاج لمباشر يباشر حركتها وسيرها ليس غير . ومنها ما تدار باليدين . ومنها ما تدار بالرجلين . وبعد طبع المقدار المطلوب تعاد تلك العملية فى الوجه الثاني من الورق ، وقد شاعت الآلة الكاتبة فى دور الحكومة والمحال التجارية غير أن خطها ردىء ولا تزال تحتاج لتحسين ، وهنالك أنواع أخرى تستعمل فى المدارس وغيرها لطبع الأسئلة مما جعل

أمر الطبع من أيسر الأمور . والطباعة فى مصر بلغت أرقى درجة وصلت إليها الأمم المتمدينة . وأهم دور الطباعة عندنا . المطبعة الأميرية . ومطبعة دار الكتب الملكية ومطبعة مصر . «التابعة لبنك مصر» تلك المطابع الثلاث تخرج لمصر وغيرها آلاف الكتب والمؤلفات العربية القيمة . وهى وغيرها من المطابع كانت سبباً فى ازدياد حركة الطبع والتأليف وجعل مصر فى مصاف أرقى الأمم فى هذه الناحية .

٥٠ – دور الكتب

مما يدل على تمدين الأمة وحضارتها ، وتقدمها ورقيها وجود دور الكتب فى أكابر مدنها ، ليقصدها طلاب العلم ، وينتفع منها أهل الأدب ، لأن أفراد الأمة ، فيهم الفقير العاقل ، والمعدم الفطن ، والغنى الذى إن سهل عليه اقتناء بعض الكتب تعاصى عليه الآخر ، على أن من الكتب مالا يسهل نشره بين الناس لكثرة أجزائه وصحفه فكان من الحكمة أن تنشأ دور الكتب تجمع فيها مؤلفات الحكماء والعلماء . والشعراء والأدباء ، العصريين منهم والقدماء ، وتكون مباحة لجميع الأفراد ينتفعون بها ، لافرق بين الغنى منهم والفقير ، والعظيم والصغير ، حتى يسهل عليهم اقتناء الفنون والآداب والعلوم والمعارف ، ولقد كان بالأسكندرية زمن البطالسة دار كتب عظيمة حوت أنفس الكتب وأحسن المؤلفات ، وأول من قام بإنشاء دور الكتب من أهل الإسلام العباسيون. فقد أنشئوا ببغداد داراً جمعت كثيراً من كتب الحكماء، والفلاسفة والعلماء . وسموها « بيت الحكمة » وأنشأ الفاطميون بالقاهرة « خزانة الكتب » ومكاتب الأندلس كانت مشحونة بالكتب القيمة ، مملوءة بالمؤلفات التى تكسب الإنسان حكمة وتورثه عقلاً وفضلاً ، ودراية ، وعلماً ، تلك الكتب التى استولى عليها الغربيون فأورثتهم المدنية الراقية والحضارة الحقة ، والآن بالقاهرة دار الكتب الملكية العظيمة ، فيها من الكتب أنفسها ، ومن المؤلفات أنفعها ، ويختلف إليها الناس للافادة والاستفادة ، والكشف والاطلاع ، مما نفع كثيراً منا ، وأفادهم فائدة تامة ، أغنتهم

عن تلقى الدروس والأخـذ عن العلماء ، وشراء الـكتب التى لايستطيع كثير شراءها ، وهناك دور خاصة فى كل معهد ومدرسة ، وعند عظماء الأمة وكبرائها وعلمائها .

وإن لهذه الدور زيادة على ذلك فائدة جليـلة عظيمة ، وهى حفظ كثير من العلوم والفنون بحفظ مؤلفاتها وصيانة كتبها ولولاها لتلاعبت بهـا أيدى الضياع ، وأصبحت نسياً منسياً ، فـكثيراً ماسمعنا أن « فلاناً » العظيم ، كان عنده مكتبة من أجل المـكاتب فيها أنفس الـكتب وأنفع المؤلفات ، ولما مات استولت عليها ورثته ، ولم تعرف قيمتها ، فعرضتها للبيع وباعتها بثمن بخس دراهم معدودة ، ولربما كان المشترى أجنبياً فيحملها إلى بلاده ، ويحرم منها قوماً هم أحوج الناس إليها . وأشدهم نفعاً بها، ولو كانت هذه الـكتب فى دار عامة للأمة ماخرجت عن أوطانها ، ولا فارقت بلادها ، فدور الـكتب مما يعود على الأمـة بالنفع العميم والخير الجزيل ، وهى من أسباب ارتقاء العـلوم وتقدمها وصون الفنون ورقيها ، وفيها كل خير وسعادة للأمة والبلاد .

٥١ — السياحة

إن العـلا حدثتنى وهى صـادقة فـيما تحـدث أن العز فى النقل
لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارةَ الحمَل

حقا إن شرف الإنسان ، وبلوغه الـكمال ، ونهاية المجد والرفعة ، لايـكون بغير الأسفار ، وركوب الأخطار ، ومفارقة الأهل والأوطان ، والأحبة والخلان ، ليقف على آثار الأمم وأعمـالهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ويستفيد من مجتمعاتهم ومنتدياتهم وكل مايشاهده من أحوالهم ، ويتعـلم بمدارسهم ومعاهدهم ، ويأخذ عن علمائهم وحكمائهم ، فيقتدى بهم فيما يراه حسناً ، ويتجنب كل قبيح ، الإنسان قادر على معرفة أحوال الأمم وعاداتهم من طريق النقل والسمع ، ولـكن الرؤية والمشاهدة أقوى أثراً وأشد فعلا فى النفس ، من النقل والسمع ، فليس الرائى كالسامع ، ولا المشاهد كالمحـكى له ، يقول الله تعالى « قل سـيروا فى الأرض » ويقول « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » إلى

غير ذلك من الحجج الباهرات ، والآيات الواضحات ، التى يأمرنا الله تعالى بهـا لنرى خلقه ، ونشاهد صنعه ، فنعرف أن قـدرته فوق كل قدرة ، و إرادته فوق كل إرادة ، ونفيد ونستفيد ونحيا ونسعد ، إن الماء إذا مكث فى موضعه ، تغير لونه ، وتبدل طعمه ، وخبث ريحه ، وكذلك الإنسان إذا تمسك بأذيال وطنه ، وجبن عن مفارقة أهله ، جمدت نفسه ، وأظلم فـكره ، فلا يقبل غير عادات أخذها عن آبائه وأجداده . ولو كان بها حياته و رقيه ، و بلوغه الغاية القصوى وحد الـكمال ، و ربما أعمـاه التقليد فلا يقف على أسرار وطنه وآثار من سلف من أمته ، فيمر بها وعلى بصره غشاوة ، و يطوف حولها وعلى عينيه سحب من الجهل بعضها فوق بعض فلا يستنتج نتيجة ، ولا يحصل على فائدة ، وهو يرى الأجنبى ، يجىء من بلاده ، و يتحمل كل مشقة ، و يرى كل صعب ، ليقف على هذه الأسرار ، و يبصر هاتيك الآثار ، و يحرر مايصل إليه فـكره ، و يكتب مايدركه عقله ، و يصور مايراه بصره ، ثم ينشر ذلك بين أمته وأهـــل وطنه ، فيفيدهم بتلك المعلومات ، وهذه الأخبار ، و يوقفهم على مبلغ علم الإنسان فى الأزمان السالفة والقرون الخالية ، من عهد الفراعنة إلى عهد الرومان ، إلى عهـد اليونان ، إلى عهد العرب ، إلى عهدنا هذا ، ولا ريب أن من يقف على آثار غيره و يعرف أحوال الماضين من قبـله ، يجد من نفسه نزوعاً إلى تقليدهم ، والاقتداء بهم ، وهذا هو السبب فى تمدين الغربيين وارتقائهم إلى ذروة الحضارة ، ونهاية الرفعـة ، وقفوا على صناعات الأقدمين ، وعرفوا أخبار الغابرين فزادوا وحسنوا حتى وصلوا إلى أحسن الغايات ، وأجمل العواقب ، وذلك جزاء العاملين ، أقول مع الأسف إن كثيراً من أهل مصر لم يفارقوا البـلدة التى ولدوا بها ، ودرجوا فيها ، و بينهم و بين القاهرة أو غيرها من مدن مصر الهامة مسافة قصيرة ، وترى بعض المتنورين يفارق وطنه إلى غيره وهو لم يقف على مافى بلاده ، ولم يرما بوطنه من مدن الآثار ، والبلاد التاريخية الجميلة ، ولم يبحث فى كنوز وطنه القيمة ، وخيراته الدفينة ، وآثاره المستورة . التى جذبت إليها السائحين من أقصى الممالك . وأبعد البلاد

عرفنا ويجدر بنا أن نعمل بما عرفنا ، أن الهجرة هى السبب فى انتشار الإسلام ، وظهوره فى الأقطار النائية ، والأصقاع الشاسعة ، مثل الكونغو وموزنبيق والترنسفال وأقصى الهند والصين وروسيا وغيرها ، وقد كان مشرقه جزيرة العرب ، فما زال يبدو ويظهر ، حتى وصل نوره إلى تلك الجهات ، بهمة ونشاط السياحين والرحالة المسلمين ، الذين بذلوا وسعهم وفارقوا أوطانهم ، حتى نالوا مطالبهم ، وأدركوا رغائبهم . وكتب اسمهم فى سجل أهل الخير والإحسان ، لولا السياحة ماعرفت أمريكا التى هى أخصب البلاد أرضاً ، وأكثرها خيراً ، ولولا السفر ماتعارف الناس . ولا رقت تجارة ولا صناعة ولا نما علم ولا ظهر اختراع ؛ ولا تنافس المتنافسون ولا تسابق المتسابقون ، ولكن ياللأسف ، بعض الناس يسيحون يقصدون ترويح النفس ، وقطع زمن الصيف بين الرياض والأزهار وفوق سطوح البحار والأنهار ، والجبال والهضاب ، وما لهذا تسيح العقلاء ولا تسافر الحكماء ، وإنا لنحمد فى شبابنا تلك الهمة الوثابة التى اتجهت إلى كثير من الأعمال النافعة ومنها الرحلات العلمية ، ورحلات البحث والكشف ، فى بلادهم وغير بلادهم ، مما أوجد فى مصر نهضة مباركة ، وطموحاً إلى العمل المثمر ، حتى لقد أصبحت مصر فى عهدها السعيد ، وعصرها الحالى ، من الأمم التى لها الأثر الحميد فى رقى الإنسانية .

٥٢ — الشركات

إن للشركات على اختلاف أنواعها ، وتباين مقاصدها ، أثراً حسناً ، وفعلا طيباً ، وعملا جليلا ، فى ارتقاء الأمة وتقدمها ، وسعادتها وثرائها ، وبخاصة من قاموا بإنشائها ، وعنوا بتأسيسها ، فإنها تبعث فيهم النشاط وحب العمل ، والميل إلى التعاون والمساعدة ، وتزيد فى أموالهم وثروتهم . فالواحد لايقوم بما تقوم به الجماعة من بذل الأموال ، وسرعة الحركة والنشاط ، والجد والاجتهاد ، وحسن المراقبة والملاحظة والتيقظ والانتباه ، فوجب أن يستعين بغيره ، ويقوى به ، لتجتمع منهما قوة تعود عليهما بالنفع العميم والخير

الجزيل . لذلك أسست الشركات التى لولاها ما ظهرت الأعمال العظيمة . والأفعال الجسيمة والأمور الكبيرة المحتاجة إلى المال والقوة، والعقل والفكر، كشركات مد السكك الحديدية . و إحياء الأراضى الزراعية ، واستخراج المواد المعدنية ، وحفر الترع والآبار ، والسير فى البحار ، و إدارة المعامل الكبرى ، والمصانع العظمى ، والتجارة الواسعة والماء والنور والترام . والسيارات . إلى غير ذلك مما لا يمكن لفرد أن يقوم به، أو يقدر على عمله . فهذه شركة الترام تكسب الكسب العظيم ، وتجنى أينع الثمار ، وتفيد آلافا مؤلفة من العمال والصناع ، وذلك بفضل تعاون أفرادها واجتماعهم . والشركات تساعد على تنمية الصناعات، وارتقاء المعارف وتقدم التجارة والزراعة، واختراع المخترعات وشغل الأيدى المتعطلة، و إيجاد العمل لمن يميل إليه و يحبه . ولكنه لا يجد سبيلا يوصله، إلى غير ذلك ، مما يفيد الأمة والبلاد ، ما سمعنا بأن شركة أفلست . ولقد سمعنا بأن محل (كذا) بان عجز صاحبه فأفلس وصار نسياً منسياً ، كأن لم يكن موجوداً من قبل . فعمرُ الشركة طويل ، وعمر الفرد قصير ، والفوائد التى تنتج من الشركة ، لا يظهر عشر معشارها من الفرد ، لأن الفرد قوة واحدة . والشركة قوى مجتمعة ، ولو أن بمصر شركات تعاون كثيرة لخف على الناس جميعاً ولا سيما الفقراء عبء هذه الحياة وثقل تلك المعيشة ، ولرحمتهم من عذاب المرابين ، وقهر المموِّلين ، وطغيان المصارف ، التى لا تعرف معنى الرحمة والشفقة . فالشركات تعود على البلاد والأمة ، بكل خير ونعمة ، وتقدم وسعادة ، وقد قام مصرف مصر الوطنى بإنشاء شركات منوعة قد عادت على مصر والمصريين بالفائدة والنفع العظيم ولو أقدم الماليون المصريون على إنشاء الشركات بصدق و إخلاص وأمانة لكان لنا ولهم منها ربح عظيم وخير جزيل ، ولكن مع الأسف نرى الشركات الغنية مؤسسة وقائمة بأموال أجنبية وأرباحها لأيد أجنبية ، و إنها بمصر كثيرة جداً ، فلعل المصريين فى عهدهم الجديد ، عهد الحرية والاستقلال ، ينافسون الأجانب فى تكوين الشركات لمن استطاع منهم ذلك ، ومن لم يستطع فليساعد فى شركات (بنك مصر) بشراء ما يستطيع من الأسهم ، والسعادة والنصر للمجاهدين المتعاونين الصابرين .

٥٣ — الصحف (الجرائد)

الصحف هى لسان الأمة المعبر عن أغراضها ، الناشر لآرائها وأفكارها ، فهى عنوان رقيها ، ودليل حضارتها ، تنبىء عن أحوال البلاد الداخلية ، وحوادثها المحلية ، وبين جداولها متسع لأقلام الشعراء والخطباء ، والعلماء والحكماء ، والأدباء والشعراء وأهل الخبرة والسياسة ، والدربة والكياسة . فهى روضة النفس ونزهة الطرف ، والناصح الأمين ، والمرشد الحكيم ، والمنبىء العليم ، والعالم الذى يطوف البلاد شرقاً وغرباً ، فيعلم الناس وما يكدر لهم صفواً ، ويوقفهم على أفكار غيرهم وما يتعب لهم نفساً ، وإنها عون الأمة فى الملمات ، وعضدها فى النازلات . بها يستغيث المستغيثون ، ويطلب النصفة المغبونون ، ويعرف العاملون والقاعدون ، والمجدون والخاملون ، وفيها تكتب الحكومة أوامرها ، وتنشر مطالبها ، وتدعو إلى ما ترى وتريد ، ويقف الإنسان على حوادث الأرض كلها وهو فى بلده وكسر بيته ، فيعرف ما يجرى بين الدول من عهود جديدة ، وشروط حديثة ، ونزاع وخصام ، وجدال وقتال ، إلى غير ذلك من الأحوال . وهى العضد القوى في تأليف جمعيات الخير ، والمساعد الأكبر على عمل البر ، مما يسير بالأمة فى سبيل الهدى وطريق العلا ، لو وُجد من يسمع ويعمل ويرى ويفعل ، ويكتب فيحسن ، ويقصد الخير من تحريره ، ويريد فائدة الوطن بكتابته ، ولا ينوى النكاية بغيره ، والنيل من سواه ، وأن تكون الوجهة كلها للوطن وخيره ، والبلاد وفائدتها . وقد كثرت الصحف بمصر غير أن الشائع منها ثلاث أو أربع ، ولغتها الآن قد بلغت من الجودة مبلغاً لم يكن لها من قبل : ولا تزال سائرة فى طريق الرقى والكمال . بفضل القائمين عليها من نخبة الرجال المفكرين .

وقد أصبحت الصحف المصرية تضارع نظيراتها من الصحف الأوربية في الذيوع والانتشار وذكر الحوادث والأخبار ، والإتقان فى الصنعة وحسن الاختيار ، وجودة التقسيم والتنسيق ، وجمال الحروف والصور ، وكثرة الصفحات ، وقلة الثمن ، وقد

قامت بواجباتها فى الأزمات التى سبقت إمضاء المعاهدة بين مصر وانجترا ، ولا تزال تقوم بتوجيه الأمة إلى مافيه سعادتها ورقيها ، والانتفاع من هذا العهد المبارك ، فالصحف هى المعلم الماهر الذى يستفيد منه الصانع والتاجر ، والكاتب والشاعر ، والسياسى والخطيب والمتأدب والأديب ، والمتعلم والعالم ، والمحكوم والحاكم ، فهى نموذج لجيد التحرير ، وبليغ التعبير ، وكفاها ذلك فخراً وعلواً ، ورفعة وسمواً ، هدى الله القائمين بها إلى السداد ، ووفقهم لنفع الأمة والبلاد .

٥٤ — سرور النفس فى أداء الواجب

من الناس قوم يحبون العمل حبا جما ، ويكرهون الكسل كرها شديدا، ويعملون ويجتهدون ، ويدأبون الليل والنهار لايفترون ، يفضلون الشغل ولو أدى إلى الموت ، على الحياة الدنيئة التى لايرضى بها عزيز ، ولايقيم عليها إلا كل ذليل مهين، أولئك هم الذين أدوا ماوجب عليهم ، وقاموا بعمل ماطلب منهم ، فاكتسبوا سروراً لايعدله سرور ، إن أتعب الأعمال مفعم باللذة النفسية ، وبه حياة الانسان الأبدية ، كل واحد فى أى عمل لايقوم بما وجب عليه ، ولا يعمل مايطلب منه وهو ملزم به يعرض نفسه للمذلة ويسعى وراء مايكسبه الضرر والامتهان ، لأنه يصبح مبغضا عند رؤسائه ، مكروها بين خلطائه ، ثقيل الظل جامد النسيم ، بل ربما أدى ذلك إلى عزله من عمله ، فتضيق عليه الأرض ، وتنسد فى وجهه أبواب الرزق ، وهذا جزاء المتهاون فى واجباته المتثاقل عن أعماله ، أما من أدى واجبه فانه يكون حراخالصاً لاسلطان لأحد عليه من رئيس ومرءوس وينال سرورا يعادل أضعاف التعب الذى صادفه فى طريق أداء الواجب ، ذلك هو الذى أفاد أمته وقومه ، فكان عضوا عاملا على نجاح بلاده ساعيا فى رفعة أمته ، وهل يستطيع كاتب أن يصف سرور رجل خدم وطنه وأنقذه من مهواة الذل ، إلى سعة من العزة والنعيم ، وأصبحت الأمة كلها ناطقة بالثناء عليه ، وقد ارتسم شخصه على صفحات قلوبها ، تستفتح الثناء باسمه ، وتضرب الأمثال بهمته ، وجليل عمله . وما هو إلا واجب

أداه ، فاستحق عليه ذلك الاجلال وهذا الإعظام ، كسعد زغلول رحمه الله ، ومصطفى النحاس وفقه الله ، وطاعت حرب أعانه الله ، وغيرهم من رجالات مصر وغيرها .

إن الانسان إذا تهاون بواجباته ، وتثاقل عن عمل مايجب عليه ، تراكمت عليه الأعمال ، وأصبحت عبئا ثقيلا على كاهله . وانفتح أمامه باب اليأس ، فيعيش عيشة الشقاء ، ويحيا حياة الموت خير منها ، فلا يفيد ولايستفيد ، ولايعمل عملا يوجب له الشكر والاحترام ، فأداء الواجب مرتبط بحياة الانسان السعيدة التى يعيش بها مسرورا قرير العين ، مثلوج الفؤاد ، مرتاح الخاطر مطمئن البال

وما كان الزعيم زعيما ، ولا العظيم عظيما ، ولا النابه نابها ، ولا الكبير كبيرا إلا بواجبات أكمل أداءها ، وحقوق أحسن القيام عليها ، فبوأته الأمة منها مكانا عاليا ، وأسلمت اليه قيادها ، وجعلته موضع سمعها و بصرها ، وتعظيمها وتقديرها .

والواجبات أنواع منوعة ، وأصناف كثيرة ، فواجب المعلم غير واجب التلميذ ، وواجب المهندس غير واجب الطبيب ، وواجب الصانع غير واجب الزارع ، وواجب الولد لأبيه غير واجب الأب لابنه : فمن أدى واجبه على الوجه الأكمل (عاش وهو قرير العين جذلان) وإن الأمة لو قامت بواجباتها ، وأدت مافرض عليها ، يعز شأنها ، ويقوى سلطانها ، وتعيش فى صفاء دائم ، ونعيم مقيم ، والله لايضيع أجر العاملين

وواجب الامة فى هذا العهد المبارك ، هو أن توحد كلمتها ، وتجمع قوتها ، وتزيد ألفتها ، وتسير فى سبيل المجد غير وانية ولا متثاقلة ، حتى تعيش آمنة على نفسها و بلادها محتفظة بحريتها واستقلالها .

ولا يعيب عنا ماالله سبحانه وتعالى من الواجبات المفروضة التى تكفل للانسان الخيروالسعادة فى الدنيا والآخرة ، وللوطن واجبات تى أقدس شىء بعد واجبات الله تعالى ، وإن شخصا يجمع بين واجبات الحياة الدنيا والحياة الآخرة لهو حقيق بكل خير وسعادة وسرور وهناءة .

٥٥ — إتقان الأعمال

إن الناس على اختلافهم وتباين آرائهم يحبون العمل المتقن والصنيع الحسن . لأن الاتقان يكسب العمل رفعة وعلوا وذكرا وقدراً . وإنا لنرى بعض المصنوعات فاق غيره وتقدم عليه فى الأسواق ، ونال رضا الناس وحبهم إياه ، ولم يكسبه ذلك الاقبال سوى إتقان فى عمله ، وجودة فى صنعه ، حتى ظهر بمظهر القبول ، يسر منه من ينظر إليه ، وينشرح له صدر من يطلع عليه ، ويسعى فى اقتنائه من يراه ، إن إتقان العمل يقدم صاحبه ، ويجعله محبوبا بين الناس ويكسبه الشرف والتقدم والشهرة ، فالصانع والتاجر والمتعلم والعالم : والزارع وغيره ، كل أولئك ، لو أتقنوا عملهم ، وأحسنوا صنعهم كانوا من الساعين فى خير أمتهم ، العاملين على تقدم بلادهم ، الحافظين وطنهم من حادثات الدهر وكوارث الايام ، وإتقان العمل هو الذى يأخذ بيد صاحبه ، ويقدمه على إخوانه ، ويرفعه عن أقرانه ، ويظهره أمام قومه بمظهر الرجل العارف والانسان الكامل ، فيحظى بالدرجة الرفيعة والمنزلة الشريفة ، وينال محبة الرؤساء والكبراء ، والاخوان والاصدقاء وجميع الأمة ، وما هو إلا عمل أتقنه ، وصنع أحسنه . الناس لاينظرون فى مدة العمل وإنما ينظرون فى جودته ، فعمل مفيد فى كثير من الوقت ، خير من عمل لايفيد ولا يغنى فى زمن قصير ، ووقت وجيز .

ترى الغربى فاق الشرقى فى الحياة ، وسبقه فى الأسواق ، وامتلك ناصية التجارة فى كثير من البلدان ، لأنه يعنى بعمله أكثر ، ويفكر فيه أزيد ، ويبذل كل مااستطاع فى إتقانه ، فيبدو جميلا جليلا يأخذ بمجامع القلوب ، فيضطر المشترى ولو كان شرقياً أن يفضل كل شىء غربى على كل شىء شرقى ، ولكنى أقول مغتبطاً إن الشرقيين أخذوا يزاحمون الغربيين فى إتقان الأعمال ، فتلك أمة اليابان ، قد ملأت الأسواق بمصنوعاتها المتقنة الجميلة ، الزهيدة الثمن ، ونريد ونرجو أن يكون الشرقيون جميعاً متقنين محسنين ، حتى نخلص من استعباد الغربيين ، ونعيش ببلادنا آمنين ، وندرك سعادة الحياة ، ونعيم العيش .

ليس المهمل فى عمله ، المتعجل فى شغله ، كالذى أتقنه وأحسنه إنما هو ساع فى ضرره ، عامل على تأخره ، وتأخر بلاده وأمته ، وربما نشأ عن العجلة الخطأ ، فيذهب عليه عمله سدى ، ويضيع تعبه بلا فائدة ، ولا ينال غير الندم وشقاء البدن ، وذاك جزاء المهملين ، ونتيجة عمل المتهاونين .

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

فإتقان العمل فيه الخير والسعادة للأمة والبلاد ، وهو المانع لصاحبه عن التأخر ، الكفيل له حسن التقدم وكفاه ذلك فائدة ونفعاً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؟

٥٦ — وأعظم آفات الرجال ثقاتها وأهون من عاديته من تحارب

أغلب الناس يتخذون الأصدقاء ، لا يخشونهم ولا يخافون انقلابهم ، ويحلونهم محل أنفسهم ، ويبوحون لهم بأسرارهم ، ويوقفونهم على جميع دخائلهم ، لا يتركون من ذلك شيئاً ، ولا يغادرون منه أمراً إلا أعلموهم إياه ، وأظهروه لهم ، ولكنهم مخطئون فأى الرجال المهذب ، وأى صديق يؤمن ألا ينقلب عدواً حميا فيكون عالما بالأسرار ، واقفاً على الدخائل ، عارفاً بأماكن الضعف التى يقصدها ، ليوقع بذلك الصديق الذى أصبح عدواً ، وهذا الحبيب الذى صار مبغضاً ، لذلك كان الصديق آفة من الآفات والثقة نكبة من النكبات ، فلئن أخذنا حذرنا من العدو مرة ، لنأخذنه من الثقة ألف مرة .

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وإن أهون الأعداء من كاشف بالعداوة ، وأظهر البغضاء لعدوه فأخذ يحاربه ، ويسعى فى الإيقاع به ، لا يألو جهداً ، ولا يدخر وسعاً فإن تلك المكاشفة . وهذه المحاربة أعظم مرشد يرشد من عودى إلى أن يأخذ حذره ، ويخاف ضرر عدوه ، فيتخذ لذلك أهبته ، ويعد له عدته ، أما العدو الذى أضمر العداوة ، وستر لعدوه البغضاء وحاربه

بالمكر والدهاء فضرره لو وقع يكون شديداً أليماً ، لأنه يسعى في الإيقاع بعدوه وهو عنه غافل ، فلا يلبث حتى تنزل عليه المصائب ، وتحل به النوائب ، وهو لم يتخذ لها حاجزاً ، أو يعد لها مانعاً ولا واقياً ، فتكون النازلة عظمى ، والمكيدة ضارة ، فأهون الأعداء من كاشفك بالعداوة ، وأضر الأعداء من أظهر لك الصداقة وقلبه يستعر بالغيظ ويحترق بالحقد ، ويضطرم بالكيد ، فالعاقل من يقي نفسه من ثقات الرجال ، ويحفظها من عدو أضمر العداوة ، وأخفى البغضاء ، وقد قيل :

أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما
وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما

فعليك ألا تفرط فى الحب ، ولا فى البغض بل كن وسطاً فيهما ، وخير الأمور الوسط ، والعاقل من اعتبر ، وخشى مواطن الزلل وسار فى الناس على حذر ، حتى يأمن العاقبة ، ويظفر بحسن الخاتمة .

٥٧ — الاعتماد على النفس

اعتمادك على نفسك أن تباشر أعمالك منفردا ، وتنظر فى أحوالك غير محتاج إلى معين يعينك أو مشارك يشاركك ، مالم تكن تلك الأعمال ، وهذه الأحوال ، مما تجب فيها المساعدة والإعانة ، فإنك محتاج إلى التعاون فى أشياء كثيرة ، لاتبعث فيك خلق التواكل ، ولا تجعلك من أهل الكسل إن اعتمدت فيها على غيرك . الاعتماد على النفس أصل النجاح ، وأساس الرقى ، يدعو صاحبه إلى الجد ؛ ويسوقه إلى النشاط ، ويقتل من نفسه خلق التواكل الذى أخر كثيراً من الناس ، ووضع من قدرهم ، وحط من شأنهم فواجب على المرء ألا يعول على غيره وأن يعتمد على نفسه .

فإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

إذا وجد فى الأمة أفراد يعتمدون على أنفسهم ولا يحتاجون إلى مشاركة غيرهم ، سعدوا وتقدموا ، وتقدمت بلادهم ، وارتقوا وارتقت أوطانهم ، وعزوا وعزت أمتهم ،

فرقى البلاد وانحطاطها وتقدمها وتأخرها ، كل ذلك مرتبط بالأفراد ، إن نسبت أمة إلى الجهل فذلك من أبنائها ؛ وإن عرفت بالعلم فهو من أفرادها ، وما الأمة إلى جسم أعضاؤه الأفراد ، فالعامل ينشطه ، والخامل يضعفه ، فلو استؤصلت الجهلاء ، وقطع دابر الكسالى ، نما ذلك الجسم وترعرع : وقوى واشتد ، وقدر على أن يرفع بنفسه إلى ذروة العلا والكمال والحضارة والرقى ، بلا تأخر ولا إبطاء .

كل واحد من أفراد الأمة العاملين ؛ يعمل لنجاحها وتقدمها ورقيها وفلاحها ، ينفعه ما ينفعها ، ويضره ما يضرها ، لا فرق فى ذلك بين الصانع الصغير ، والأمير الكبير ، فلولا الصغير ما كان الأمير ، ولولاها ما كانت الأمة . وإن كثيراً من العظماء والكبراء اكتسبوا عزهم هذا باعتمادهم على أنفسهم وجدهم ونشاطهم ، ولم يكونوا من أبناء الأغنياء ولا من أهل الثراء . ورب فقير عامل معتمد على نفسه ، سبق الغنى الخامل المعتمد على غيره ، وكان نوراً يهتدى به معاصروه ، ومن يخلفهم جيلا بعد جيل . فالغنى ليس شرطاً لنيل السعادة والمجد ، بل قد يكون سبباً فى التأخر وعدم النجاح والسقوط فى مهاوى الجهل . لأن صاحبه قد يعتمد على ثروته ، فلا يعمل لمستقبله حتى إذا ذهبت تلك الثروة . وبددت تلك الأموال ، ساء حاله ، وكان من الخاسرين ، وذلك جزاء من لم يعتمد على نفسه ولم يتخذ للحياة سلاحها من علم ومعرفة : ومما يبعث هذا الخلق فى نفوس الأفراد ، اطلاعهم على أعمال من اجتهدوا وجدوا معتمدين على أنفسهم . غير مبالين بالشدائد ؛ ولا مكترثين بالنوائب ، ونالوا عالى المكان ، واستحقوا إعجاب الأمم فالعاقل من اقتدى بالفضلاء والعظماء ، واعتمد على نفسه حتى يكون مثلهم ، وينال شرفهم . وإن طالبا يقتدى بكبار الرجال ويعتمد على نفسه ويعمل ما وجب عليه وحده لا يلبث أن يصير قادراً على نيل المراتب الرفيعة والدرجات السامية ، وكذلك الصانع والتاجر والزارع وغيرهم ، فنجاح المرء يتوقف على اعتماده على نفسه ، وجده ونشاطه ؛ وسعيه واجتهاده .

كل شيء جناه ممكن أبداً   إلا إذا اعتصم الإنسان بالكسل

والأمة المعتمدة على نفسها ، المستقلة بأعمالها ، حقيقة أن تتبوأ ما يليق بها من المكان وتنال من العزة والمنعة أعلى منال ، وهو ما نرجوه من أمتنا المصرية فى عهدها الجديد ، ذلك العهد السعيد بهمتها وهمة أمرائها ووزرائها وجميع أفرادها ، واعتمادهم على أنفسهم إن شاء الله تعالى .

٥٨ — العمل

العمل من أسباب الكمال ، وهو طريق إلى بلوغ الآمال وسبيل إلى كل خير ونجاح ، وتقدم وفلاح ، وسعادة وعز :

الجد يدنى كل أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق

فالأرض الطيبة بغير العمل لا تنبت شيئاً ، والأرض الجدباء بالعمل تثمر وتنبت ، فمن حاول أن ينال العلا من غير كد وعمل ، فهو كمن حاول ارتقاء السماء ، واصطياد العنقاء ، والمشى على الماء .

وما طالب الحاجات فى كل وجهة   من الناس إلا من أجد وشمرا

فالعاقل من قابل العمل ، بكل صبر وثبات ، وعزم وحزم ، ونزاهة واستقامة ، وصدق وأمانة ، ذلك هو الذى ينال المحامد ، ويكتسب الفضائل ، ويحيا حياة سعيدة ، ويعيش عيشة مرضية . أما من خاف الأعمال وتقهقر أمامها ، فانه يعيش ذليلا مهيناً حقيراً وضيعاً ، ويكون عبئاً ثقيلا ، وعضواً أشل ، ومثل هذا لا ترجى فائدته ، ولا يؤمل نفعه ، ولا خير له فى الحياة .

وما للمرء خير فى حياة   إذا ما عد من سقط المتاع

وإن الفقر لا يصد العامل المجتهد عن نيل المراتب العالية ، والدرجات السامية . كما أن الغنى لا يفيد الخامل الكسلان . فإن كثيراً من الأغنياء الأشراف انحطوا بعد الرفعة ، وذلوا بعد العزة . لميلهم إلى الكسل وإخلادهم إلى الراحة . وكثير من الفقراء نالوا العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر بجدهم واجتهادهم ، وسعيهم ونشاطهم ، فمن جد وجد ، ومن تكاسل ندم ، ولا مستحيل على القلب الشجاع ، ولا بعيد على العاملين .

فواجب علينا أن نباشر أعمالنا بجد ، وأن نترك ذكر لو وليت ولعل وعسى . فإنها لا تجلب ضائعاً ، ولا ترد ذاهباً ، ومباشرة أى عمل ولو حقيراً ، خير من ألف لو وليت ولعل وعسى ، هذه الألفاظ مصدر كل يأس فلنبتعد عنها ، ولنذكر بدلها هذه الألفاظ ، جد واجتهد واسع واشتغل ، حتى نرقى ونسعد . إن التمنى والترجى أضرا بكثير من الناس الذين لو أقدموا على الأعمال وخاضوا غمار الأشغال ، لنجحوا نجاحا عظيما ، ولم يبلغ شأوهم أحد ممن تقدموهم وسبقوهم وصاروا فيما بعد رؤساءهم ، يتصرفون فيهم ويتولون شئونهم ، ويسخرونهم كما يريدون .

على العامل أن يبادر بانجاز أعماله ، وأن يسرع فى إتمامها قبل أن تتكاثر عليه ، فيقف أمامها حائراً عاجزاً ، وإن قدر عليها عملها بغير إتقان ، فلا تنال القبول ، ولا يكسب غير التعب والشقاء .

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل ... إلى غد أن يوم العاجزين غد

وإن العمل مهما يكن وضيعاً لا يحط من شأن صاحبه ما دام قلبه طاهراً وذكره عاطراً ، وسيرته حسنة . قال بعضهم : أنا لو كنت كناساً لا أخجل من حرفتى ، ولكنى أسعى حتى أكون رئيساً . فمن الواجب على العمال ، ألا يخجلوا من الأعمال ، وأن يسعوا الى إدراك غاية الكمال ، حتى ينالوا الإكبار والإجلال . وكل من يأنس من نفسه قدرة على عمل شريف ولو قلت ثمرته عليه أن يتقدم إلى أمته وبلاده ، ولا يحجم خجلا أو تهاوناً ، كما يقع من كثير ، ممن لو عملوا لنالوا ونالت بهم الأمة خيراً كثيراً ، فليتقدم فى هذا العهد المبارك ، كل من يرى من نفسه القدرة على ما يفيده وليبرز نفسه فى ميدان الأعمال حتى ندرك جميعاً ما نصبو إليه من عظيم الآمال وحسن العاقبة وجليل المآل .

٥٩ — الأمل

الأمل هو ذلك الذى قاد الملوك إلى عروشها ، ورفع الأمراء إلى منازلها ، وأظهر العلماء والحكماء ، والعظماء والكبراء ، وأفسح فى العيش لمن كاثرته الهموم ، وتوالت عليه الأحزان .

أعلل النفس بالآمال أرقبهـــا   ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

فهو الذى يبعث فى الإنسان حب العمل ، ويسوقه إلى الجد والاجتهاد ، حتى يصل إلى غرضه ، ويحصل على مطالبه ، فيكتسب رفعة وعلواً : وشرفاً ومجداً ، وثناء وحمداً ، ذلك إن لم يخرج عن حد الاعتدال ، أو يتعلق بشىء دنىء ، فإن كان الأول ، فإن صاحبه لو جد وسعى غير واصل إلى مطلوبه ، وإن كان الثانى فإن صاحبه لو وصل إلى غرضه كانت عاقبته سيئة ، ونتيجته الوبال والخسران والخزى الكبير. وهذا النوع من الأمل هو الأمل الكاذب والأمل الدنىء . ومن الناس من تعلقت آمالهم بالأمور العظيمة الممكنة فوجدوا من أنفسهم همة تساعدهم على نيل مطالبهم ، وإدراك رغائبهم ، فنالوا الرفعة والمجد الأثيل ، وذلك هو الأمل الصادق النافع . ومن الناس من طلبوا المستحيل ، أو الأمر الحقير ، فباءوا بالخسران الكبير ، وما نالوا غير التعب الشديد ، وغضب الله والناس ، وذلك جزاء المعتدين ، وتلك عاقبة الآمال الكاذبة فالأمل الصادق هو الذى يجب أن يعنى به صاحبه ويجعله له إماماً ونوراً ، فهو آية السعادة والهناءة ، وعلامة كل خير وسرور ، وهو الذى جعل الإنسان رجلا يكافح النوائب ، ويقابل المصائب بجأش ثابت ، وقلب جرىء . ينزل فيها من وهدة إلى أخرى : ومن صعب إلى أصعب ، فلا تسأم نفسه ولا تمل . وكيف تسأم أو تمل . وأمامها الأمل ، ذلك الذى هزم الكوارث . وخذل الصعاب . حتى عاد صاحبه ظافراً غانماً ، فرحاً مسروراً . مطمئن القلب . مثلوج الفؤاد . معروفاً بالشجاعة والصبر وبعد النظر ، والجرأة والإقدام واحتمال الآلام ، للوصول إلى أشرف الأغراض ، وخير الآمال .

الأمل هو الذى قوى عضد الزارع والصانع ، ورفع من نفس المتعلم والعالم ، والجندى الصغير ، والأمير الكبير ، حتى أدرك كل غايته ، ونال مطلبه ، فما أعظمه نافعاً ، وما أفضله صاحباً وقريناً ، بعث للناس العلماء والحكماء ، والملوك والأمراء ، وكشف عن الأفئدة ظلمة الجهل . وأضاءها بنور العلم . وقاد الناس إلى ما فيه خير البلاد

والعباد . لولا الأمل ما أصبح نابليون ملكا ، ولا (محمد على باشا) أميراً . فهو الذى أوصل الإنسان إلى أرفع الدرجات . وأعلى المنازل . وهداه إلى الخير والسعادة . وارتقى به إلى ذروة الفضل والكمال فلنعلق آمالنا بالأمور النافعة . والعواقب المحمودة . والنتائج الحسنة ، مع السعى الحثيث إليها . والجد فى الحصول عليها . . وليكن أملك أيها المصرى أن تعيش حراً فى بلادك . لاسبيل لأحد عليك . ولاسيطرة ولا نفوذ لغيرك أنت رب الدار وصاحب البلاد . أنت الحقيق بالوطن وخيراته ، أنت أولى به من كل الناس . فوجه أملك الحق . وإرادتك القوية . لتكون وقومك أحراراً فى بلادكم . متمتعين بوطنكم . مكرمين ضيوفكم . رافعين لواء المجد بأيديكم فى كل صنوف الحياة . وفى كل ضروب المعيشة . وفى كل مرافق الوطن . وكل ما يعلى شأن الوطن فى هذا العهد السعيد الذى استقل فيه الوطن . وصار أمره بيد أبنائه وتحت إشراف قومه وزعمائه . حقق الله لنا خير الآمال ونفعنا بهذه الحرية وذلك الاستقلال .

٦٠ — الأدب

الأدب زينة الإنسان وجماله . وبه رقيه وكماله . يكسبه الشرف الرفيع . والعزة العلياء . ويمهد له طريق الخير والنجاح . ولو كان قليل العلم والثروة . فإن الشرف والرفعة . وكرم الحسب وعزة النسب . ورقى المنصب . وشدة الذكاء . وتمام الفصاحة . وكثرة الأموال . كل هذه وغيرها . لاتفيد الإنسان ولا تنفعه إن لم يصحبها الأدب . وترافقها مكارم الأخلاق . ومحامد الصفات . وإن الفكر القوى إن لم يصحبه الأدب كان معواناً على الشرور والآثام . الأدب هو الذى جعل من فى المناصب العالية . والمراتب السامية . أهلا لأن يوثق بهم . ويعول عليهم . ويرجى منهم كل خير ونفع . فالعاقل من اكتسب الفضائل . وحاز أفضل الأخلاق . وأجمل الآداب . فإن ذلك أجل غايات الحياة . وأعظم فوائد الدنيا . وما للمرء خير فى الحياة من غير خلق فاضل . وعقل كامل . وفكر نافذ حى ، يرشد إلى الخير ويبعد عن السوء والشر .

ما وهب الله لامرىء هبـــة　　أشـرف من عقـله ومن أدبه
هما حيـــاة الفتى فإن عـدما　　فإن فقد الحيـــــاة أجمل به

كل إنسان قادر على ذلك ولو كان أفقر الناس . فواجب علينـا أن نطلب معالى الأمور . من غير أن يصدنا الفقر . أو يمنعنا الغنى . ومن لم يطلب العلا . مال إلى ضدها والمرء حيث يضع نفسه . و يوجه قصده .

وما المـرء إلا حيث يجعـل نفسه　　فـكن طالباً فى الناس أعلى المراتب

ليس الفقير فقير المال . ولا الغنى من يملك الألوف ، بل الفقير فقير النفس ولو ملك مال قارون . وحاز ملك سليمان . فالغنى من أدب نفسه . و وقفها على الخير . وحبسها عن الشر . ولو لم يكن معه درهم ولا دينار .

غنى النفس ما عمِـ - رَتْ غنى　　وفقر النفس ما عمرت شـــقاء

ومن الأدب الصدق فى القول والفعل . والعدالة والأمانة والاستقامة والنزاهة . والبشاشة وحسن اللقاء واحترام آراء الناس . وردها بالحسنى . والتكلم بالحق . وفعل البر . و إكرام الجار وترك الظلم والجور . والمماراة . وكل خلق ذميم . من حاز هـذه الصفات . فهو الإنسان المؤدب . وهو الغنى و إن كان فقيراً . وهو الجميـل و إن كان من الزنوج .

ليس الجمـــــال بأثواب تزينـنا　　إن الجمال جمال العـــلم والأدب

فالعاقل من تناءى بنفسه عن الأخـلاق الفاسدة . وحفظها من الصفات السافلة . ومنعها من فعل القبيح ولو مرة واحدة ، لئلا تعتاده و يتمكن منها ، ولا سيما الصغير، فان العادة تؤثر فيه وتتمكن منه ، أكثر من غيره . فلا تنتزع منه إلا بشق الأنفس .

و إنمـــا مثـل الآداب تجمعها　　فى عنفوان الصبا كالنقش فى الحجر

فلتكن تلك الأخلاق كاملة حتى يشب كاملا . و ينمو مؤدباً و يعيش عيشة مرضية . و يحيا حياة سعيدة . ينفع نفسه وغيره .

وإن مصاحبة الأخيار تكسب المرء آداباً عالية . وأخلاقا فاضلة ، كما أن مصاحبة الأشرار تؤذى من وقع فيها . وتحرقه بشررها ، فوجب أن نتخذ الأصحاب ، ونصطفى القرناء لنكتسب من أدبهم . ونستفيد من أخلاقهم ، وأن نتجنب المعروفين بسوء الأخلاق . وفساد الآداب، حتى نحتفظ بأخلاقنا الطيبة . وآدابنا المرضية .

صلاح نفسك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

٦١ — المال

المال زينة الحياة وبهجتها . ونعيم الدنيا ولذتها . . به تقضى الحاجات . وتنال أعلى الدرجات . يحترمك الناس ويعظمونك ويخشونك ويهابونك . ويميلون إليك ويعرفونك ويأنسون بك ويحبونك . وإن المال أصل لكثير من الفضائل . كما أنه سبب فى أغلب الرذائل ، فبه يستغنى الإنسان عن غيره . ويربى نفسه وأبناءه . ويحفظ أسرته وعشيرته . وبه يكون الكرم والإحسان . ومساعدة الإخوان، واكتساب الثناء . ومواساة الفقراء . وتربية اليتامى . وإعانة المساكين . وبناء دور العلم والمستشفيات التى تنفع الفقراء والضعفاء . وتمنع عنهم عاديات الأمراض . إلى غير ذلك مما يرفع شأن الوطن . ويكسب صاحبه الرفعة والشرف . وبه يكون البذخ والترف . واللهو واللعب . والعجب والكبر والبخل والجشع . وغير ذلك مما يضر الوطن . ويسير بصاحبه إلي مهواة الهلاك . ويقوده إلى الضياع والزوال . فبالمال يكون الخير ويكون الشر . ولكن العاقل من أنفق أمواله فيما يكسبه رفعة وشرفاً . وعلواً ومجداً وعزاً وفخراً . فيؤدب نفسه بكامل الآداب . ويكملها بالعلوم ويزينها بمكارم الأخلاق . ويعمل ذلك مع أولاده إن كان له أولاد ، فلمثل هذا تنفق الأموال . ولمثل هذا تجمع الأموال .

ومن الناس من يجمع المال ، ولا غرض له سوى جمعه ، ليسر برؤيته والنظر إليه ؛ فيتهافت عليه تهافت الفراش [1] على النار . يهب له وقته ، ويملكه رقبته ، ويعدم

(١) الفراش جمع فراشة وهي حيوان ذو جناحين يتهافت على السراج حتى يقع فيه

من أجله كل كمال ، فلا يصل أقاربه ، ولا ينفع أهله ولا وطنه : ولا يساعد فى شىء يفتقر إلى المال . بل ربما ادعى الفقر وزاحم الفقراء فى مدارسهم وملاجئهم ومستشفياتهم وسائر دورهم . فيكثر جشعه . ويزيد حرصه . ويطلب المال . ولو من طريق الغش والاحتيال . والذلة والاحتقار ، لا يجد أخا يصادقه ، ولا يرى رفيقاً يرافقه .

أرى الناس إخوان الكريم وما أرى بخيلا له فى العالمين خليل

وليته بعد ذلك ينتفع بما جمعه ، بل قد يموت وتدركه المنايا فتخرج روحه الخبيثة ، وعيناه تنظران إلى أمواله نظر المتحسر المتوجع الذى ملك نفسه المال ، فلم ينل غير الإذلال وكل تعب ومشقة ولم ينفع إلا غيره ممن يأتى بعده ، ويأخذ أمواله فينفقها فيما يفيده ويعلى شأنه ، وذلك نادر ؛ وقد ينفقها فى لهوه واتباع هواه وذلك كثير ، لأنه لم ينل فى سبيل الحصول عليها تعباً أو مشقة ، وفى ذلك من الضرر ما فيه : الذخر للبنين والأبناء محمود ، والجمع لصد الحوادث مطلوب . ولكن لا يليق أن يصل ذلك إلى درجة البخل والتقتير والعجز والتقصير . وكما أن البخل مذموم ، فالإسراف ممقوت فالعاقل من سما بنفسه عن البخلاء . وارتفع بها عن المسرفين ، وكان من المعتدلين ، وخير الأمور الوسط.

فالمال غير مقصود لذاته ، بل لما يقضيه من الحاجات التى تنفع الأمة والبلاد ، وفيها خير العباد : والأمة لا تقوم إلا بالمال ، ولا ترقى بغير الثراء ، فلنعمل على الحصول عليه ، بفتح أبواب الرزق المقفلة ، وكنوز مصر المغلقة ، وإنها لكبيرة إلا على المجدين العاملين المخلصين .

٦٢ — الاقتصاد

الاقتصاد مطلوب ، وغايته حسنة شريفة حميدة جليلة جميلة ، وهو يكون فى المال والأكل والشرب واللباس والبناء ، وكل الأمور . فأما الاقتصاد فى المال فوراءه كل كمال ، إذ به يجد الإنسان عماداً يعتمد عليه عند الحاجة ونزول الملمة : فهو عرضة لمرض عرضة للكبر ، عرضة للفقر ، عرضة للعزل ، عرضة لكل نائبة ، فواجب عليه أن

يدخر من ماله ما يقيه شر المصائب ويحفظه من نوائب الدهر ، على أن وراءه من الواجبات والحقوق ما يحمله على ادخار المال لأدائها ، والقيام بها ، فواجب عليه تربية نفسه وأولاده ، وصلة ذويه وأقربائه ، ومساعدة الفقراء ، وتربية اليتامى ، وإعانة الضعفاء ، وأهل البؤس والشقاء ، وكيف يؤدى هذه الواجبات من لم يدخر من ماله ، ما يكفل له القيام بها . أم كيف يقوم بهذه الحقوق من أسرف وبذر ، أو بخل وقتر ، إنه لينهزم أمامها ، ويتقهقر عنها دون أن يؤديها ، أو يقوم بواحد منها : ولقد جاءنا من الأنباء أن الأوربيين وبعض الشرقيين ، رجالا ونساء ، صغاراً وكباراً : تنافسوا فى أداء هذه الواجبات ، والقيام بتلك الحقوق ، فلم يُعنوا بجمع المال للهو واللعب ، والتفاخر والتكاثر . بل ادخروه واقتصدوه لتعليم أنفسهم وأولادهم ، وإنشاء المدارس ومكافأة العلماء ، ومساعدة الفقراء ، وإسعاف المصابين ، وإقامة الملاجىء ، وبناء المستشفيات ، وإعداد العدة لتقوية الأمة براً وبحراً ، وكم رأينا من أناس يوصون بأموالهم التى اقتصدوها ، وأعدوها لأعمال الخير ، أن تصرف فى هذا الغرض الشريف ، غرض رقى الأمة وسعادتها بعد موتهم ، ولكن مع الأسف أغلب هؤلاء ليسوا مصريين بل هم من الذين جاءوا إلى مصر طلباً للقوت ، ورغبة فى العيش ، فتمكنوا بجدهم واقتصادهم إلى مساعدة أبناء أوطانهم ، ولم يهملوا بلادهم ، وهم عنها بمنأى ومعزل ، اقتصدوا من خيرات مصر ، وأموال مصر ، لينفعوا قومهم وأوطانهم ، ولمثل هذا فليكن الاقتصاد فى المال ، والاقتصاد فى الأكل والشرب والبناء واللباس وغيره يكون بالاقتصار على ما يسد الخلة ، ويقضى الحاجة . وإن الاقتصاد أمر سهل يسير ، يقدر عليه الكبير والصغير ، متى أنفق كل منهما فيما يجب ؛ مدخراً ما زاد ولو حقيراً . فإنه سيصير عظيما بمرور السنين والأيام ، يفيد المرء وينفعه ويغنيه عن غيره ، ويحفظه من موقف الهوان ؛ وذل السؤال .

وإن الأمة التى تتمسك بالاقتصاد وتعنى بشأنه ، جديرة بالغنى والثراء ، وكل خير وسعادة ، تستطيع أن تفتح المدارس وتبنى المعاقل ، وتدفع الأذى عن بلادها ، وتجلب

الخير لوطنها ، وتعيش فى أمن وسلام : والآن كل الأمم عنيت بالاقتصاد ، فعلمته ناشئيها وصغار بنيها فى المدارس وغيرها ليشبوا على حبه ، ويدرجوا على الميل إليه ، ونجحوا فى ذلك نجاحا عظيما وعندنا صناديق التوفير بالبريد وأسهم شركات مصرف مصر قد عادت على كثير من الناس بالخير والفائدة وجميل المساعدة . فإن كثيراً من الفقراء قاموا بأعمال هامة لايقوون عليها لولا أنهم اقتصدوا بمعاونة صناديق التوفير المصرية والأسهم المصرية وصاحب الإرادة يستطيع أن يصل بها إلى مايبغى ولو كان فقيراً معدماً ، والله مع الصابرين .

٦٣ – الثبات والصبر

وقل من جد فى أمر يحاوله　　واستصحب الصبر إلا فاز بالأمل

إن تمام الأعمال واجتناء ثمارها ، والحصول على الفائدة منها ، إنما يكون بالثبات والصبر ، اللذين أنالا المرء مطالبه ، وأدرك بهما رغائبه ، وإن لم يكن من كبار المفكرين وأهل البسالة والقوة . فإن أكثر الأعمال العظيمة ، قد تم بأقل الوسائل ؛ واستخدام القوى العادية . وكان المعين على تمامه هو الثبات والصبر ، اللذان أخضعا كل صعب وهونا كل شاق . والناس كلهم سواء فى الفطرة ، ولا فضل لبعضهم على بعض إلا بالعمل والصبر ، وكلهم يمكنهم أن يكونوا شعراء وخطباء وعلماء ومخترعين متي عملوا وصبروا وجاهدوا وثبتوا قال ابن الوردى :

لا تقل قد ذهبت أربابه　　كل من سار على الدرب وصل

ما ولد العالم عالماً ، ولا الأمير أميراً ، ولا الملك ملكا ، ولا الحكيم حكيما . ولكنه الصبر الذى أوصل هؤلاء إلى مراتبهم ، وسار بهم إلى مجالسهم ، وأنالهم الرفعة وعز الدهر ، وعظيم الآمال .

التلميذ إذا عمل وصبر نال مراده . وكان من أهل الخير والسعادة . والزارع لايجنى ثمرة تعبه إلا بعد الصبر الطويل . وأفضل الثمار أبطؤها نضجاً . وكل واحد فى هذه الحياة لا يدرك غاية ولا ينال حاجة . ولا يحصل على غرض إلا إذ عمل وصبر .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

أما من استسلم لليأس . وملكه زمامه ، فسيقوده إلى مهواة سحيقة فيسوء حاله وينكد عيشه . ويحيا حياة لا خير فيها ، تراه لا يتم عملا . ولا يدرك مطلباً ، ولا ينال غرضاً . فتضيق عليه الأرض بما رحبت . وذلك جزاء اليائسين . فاليأس أقبح شيمة : والصبر أحسن سجية . وكفاه شرفا : أن الله مع صاحبه ومعينه على إدراك غرضه : وقد أمر به نبيه ﷺ فى مواضع كثيرة من القرآن . قال تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله » . وقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . وقال : « إن الله مع الصابرين » وقالت الحكماء : « من صبر ظفر » قد يحمى وطيس القتال بين جيشين متكافئين ويكون الظفر لأصبرهما وأثبتهما ولو لحظة . وهؤلاء الكبار والعظماء ما وصلوا إلى أغراضهم بغير الصبر والثبات . وصبر ساعة قد يكون فيه عز الدهر ، ونعيم الحياة . ونحن أحوج الناس إلى الصبر والثبات حتى ندرك أملنا ؛ ونصل إلى بغيتنا ، ونتبوأ المكانة اللائقة بتاريخنا المجيد ، وسابق عزنا العتيد .

٦٤ — الصناعة

هى أصل التقدم وسبب السعادة ، وطريق الخير والهناءة . وسبيل إلى الغنى والثراء اللذين عليهما عماد الأمة ، وبهما حياتها . لذلك اتجهت الأمم المتمدينة إلى الصناعة اتجاهاً عظيما ، وعنيت بها عناية كبيرة . لأن عليها تعتمد الدولة . وبها يعظم شأنها ويقوى أمرها . فيكون فيها النجار والبناء . والحداد والفلاح . والنساج والغزال وصانع الآلات والأدوات . وغير أولئك ممن تسعد بهم البلاد . وتتقدم الأمة ، وتنال عز الدهر . والأمة الصناعية لا تفتقر إلى غيرها ممن يبتز أموالها . ويستعبد رجالها ويوقعها فى الضيق والعسر . وذلك جزاء المهملين . فبالصناعة تغنى البلاد وتسعد الأمة وتحيا حرة مستقلة غير مفتقرة لغيرها من الأمم افتقاراً يضع من شأنها : ويحط من قدرها . وإن الصناع والعمال هم الذين ساروا بالأمة فى سبيل السعادة . وأوصلوها إلى ينابيع الغنى

والثروة . وأغلبهم من العامة . وأكثرهم من السوقة . ولكنهم جدوا واجتهدوا حتى أفادوا الناس . وزادوا راحة الخلق ، فالطعام والكسوة ، وأثاث البيوت وكل الحاجات . الضرورى منها والكمالى ، كل هذه نتيجة أعمالهم ، وثمرة حياتهم ، وغاية اجتهادهم : فهم الذين أسسوا أركان التمدين والحضارة ، وأوجدوا للناس أسباب العز والرفاهة . وعملهم لا يعد ضئيلا أمام عمل الجنود . بل هو خير عاقبة ، وأحسن خاتمة ، وأعظم أثراً فى رقى الأمة وتقدم البلاد ، فيجب أن ينالوا من العناية قسطاً وفيراً ، ومن السعادة حظاً عظيما ، ومن الاحترام مقداراً كبيراً ، ولا يليق أن يعاملوا معاملة الحيوان الأعجم الذى لا يعقل ولا يفكر ، أو يقابلوا بالاحتقار والازدراء ، فبحياتهم تحيا الأمة وتسعد . وبشقائهم تضعف وتتأخر . فهم يدها . وهم قوتها . وهم عونها .

والبلاد الصناعية هى التى تكثر فيها المعادن والوقود؛ ويوجد أهل الجد والنشاط ، والسعى والاجتهاد ، والكد والعمل ، ومصر لو وجدت العاملين ، وكفاها الله شر الظالمين ، لكانت من كبريات الدول الصناعية ، كما كانت أيام الفراعنة ، وكما كانت منذ عهد قريب ، عهد محمد على الكبير، عهد الصناعة والعمل المفيد . والحركة الصناعية الآن تبشر بمستقبل باهر ، ونتيجة مرضية ، فالحكومة لها مدارسها الصناعية الكثيرة ، وشركات مصرف مصر لها مصانعها الغاصة بالعمال والأدوات والآلات ، وللأمة معامل ومصانع منتشرة فى بلاد مصر ؛ مما أغناها عن غيرها من الأمم الصناعية ، ولو أن كل مصرى ، وبخاصة الأغنياء شجعوا الصناعات الوطنية ؛ وإن كانت أقل جودة من غيرها لكان للصناعة شأن يذكر ، ولتقدمت وارتقت ، وعادت بالخير على الأمة والبلاد فبالصناعة تقوى الأمة وتسعد ، وتصبح ذات نفوذ عظيم ، وملك كبير ، لاتفتقر إلى غيرها ، ولا تحتاج لسواها ، فتزيد ثروتها ، وتكثر أموالها ، وتعيش آمنة مطمئنة ، والله لايضيع أجر العاملين .

٦٥ — التجارة

هى رُكن من أركان الحضارة ، وأصل من أصول التقدم ، وطريق إلى الغنى والثراء ، وكل خير وصفاء . بها ترتقى الصناعة ، وتتقدم الزراعة ، ويظهر أهل الجد والنشاط والسعى والاجتهاد ، يصنع الصانع فيجد من ينتفع بمصنوعاته شرقاً وغرباً ، ويزرع الزراع فيرى من يستفيد من زروعه فى بلاده وفى غير بلاده ، فيزداد الصانع نشاطاً وقوة ، والزارع جداً وسعياً ، فيعم الخير والسرور جميع الناس ، ليست كل أرض تقوم بحاجات أهلها ، وقلما تتهيأ فيها موارد الحياة ، فمن الواجب أن يتبادل الناس ، فيأخذ كلٌّ مايفتقر إليه من الآخر ، حتى يعيشوا فرحين مسرورين غير محتاجين ، فى يسر ورخاء .

ولقد ازداد التعارف بالتجارة ، وتم التآلف والتعاون ، وانفتح للناس باب أوصلهم إلى كل خير وسعادة ، فلولاها ما أنشئت تلك السفن التى تمخر عباب البحار ، ولا هذه القطر التى تجوب أطراف البـــلاد ، فتنقل البضائع من الغرب إلى الشرق ، والمواد الغذائية من الشرق إلى الغرب ، ولا انتفع حمـال ولا نقال . ولا ارتقت صناعة ، ولا نمت زراعة ، ولعاش كثير من الناس فى بؤس وشقاء ، لايجدون عمـلاً ، ولا يرون مرتزقاً ، كما وجده بعد التجارة وشيوعها وتقدمها ورقيها.

وإن الأمم العظيمة الآن تتنافس وتتسابق فى التجارة بما فى وسعها وبكل قواها ، إن عُقدت عهود فمن أجلها ، وإن أُبرمت شروط فلها ، وإن حصـل خصام أو نزاع فبسببها ، ذلك لأنها أقرب طريق إلى سعادة الأمة ورقيها ، وفتح باب العمل لأبنائها وازدياد ثروتها ، وتقدمها على غيرها ؛ لذلك اهتموا بها ، وفتحوا لها المدارس ، فتخرج فيها أناس ساروا بأمتهم ، إلى ذروة السعادة والخـــير ، والأمانة والنزاهة والاستقامة والعدالة والصدق ، وترك الغش ، كل هـذه أوصاف يجب أن يتحلى بها التاجر ، حتى يكسب ثقة الناس ، فيربح مالاً وصداقة وثروة ومودة ويحسن ذكره ، وتحمد سـيرته وإن ذلك لهو الربح العظيم ، أما أولئك الذين قست قلوبهم ، وزاد جشعهم ، فاندفعوا

يبتزون أموال الناس ، بالربح الفاحش ، وبالوسائل الدنيئة كالاحتكار واعداد مايدعون من نفاد الصنف أو عدم وروده ،وغش الناس بأن هذا أجود نوع،وأحسن بضاعة ليس كمثله شيء ولا يناظره سواه ، إن هؤلاء هم الخاسرون الظالمون الباغون ، الذين سيريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ،ولو غرتهم الدنيا ، وأعماهم الطمع فربحوا وكسبوا ، وسيجزون الجزاء الأوفى فى الدنيا وفى الآخرة ، فى الدنيا بنفاد أموالهم ، وفى الآخرة بحرق أجسامهم اللهم وفق تجارنا للخير ، واكفنا شر من جاءوا يتجرون بيننا فيأخذون أموالنا بكل وسيلة ، لا يرقبون فينا ذمة ولاعهداً ولا وفاء ، ويعاملوننا بكل ضروب الغش والاحتيال ولا تنجو الأمة من الشر إلا بمقاطعة الغاش ، والتوجه إلى من عرف بالاستقامة والأمانة وإن التجارة فى مصر يدير دفتها ويسيطر عليها الأجانب ، وقد تمكنوا منها كل التمكن حتى ما كان من غلات البلاد ، وخيرات القطر ، لأنهم تعلموا وعرفوا كيف ينتفعون بالحياة ، وساعدتهم حكوماتهم وجمعياتهم وجدهم ونشاطهم ، وشجاعتهم ، والحمد الله قد أوجد الله فى مصر شركات مصرف مصر فأغنت المصريين فى كثير من عروض التجارة ، وأوجد فيها المحال التجارية العظيمة لكثير من التجار المصريين فى كل أنواع التجارة ، وفق الله المصريين للاستقلال بمطالبهم فى كل أنواع الحياة ، وضروب المعيشة.

٦٦ — الزراعة

هى الوسيلة العظمى ، والسبب الأقوى فى بقاء الإنسان والحيوان وعيشتهما فى هذه الحياة ، إذ منها يكون الغذاء والسكن واللباس والأثاث والمتاع ، وكل خير وهناءة ، ترى الأرض هامدة (١) لا زرع فيها ولا نبات ، فإذا أرواها الزارع بجده ونشاطه بعد فلحها وإلقاء البذر بها ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج (٢) بهيج (٣) فيجنى منها غذاءه ، وغذاء أهله وحيوانه ، ثم يدخر ما شاء ويبيع ماشاء ، فيفيد نفسه ، ويفيد الناس معه ، ويغنيها ويغنيهم متى كان عاقلاً مدبراً ، لامسرفاً مبذراً ، ولعلو شأن

---

(١) هامدة . يابسة (٢) زوج . صنف (٣) بهيج . حسن

الزراعة وعظم نفعها عنيت الأمم المتحضرة بها ، فأنشأت لهـــا المدارس ، وأقامت لها المعارض ، وكافأت النابغين فيهـا ، وأصلحت طرق الرى ، وبنت القناطر والجسور وحفرت الترع والمصارف ، وغير ذلك مما عاد عليها وعلى الناس بالخير والسعادة ، والغنى والثروة وهذا جزاء العاملين ، وإنها لحقيقة بكل ذلك ، فمنها الأقوات والأدوية والروائح الذكية ، والعيدان العطرية ، والفواكه والملابس ، والوقود وغيره ، والخشب التى تصنع منه السفن ، وتسقف به المساكن ؛ وتعمل منه الأبواب والنوافذ وغـيرها ، كل ذلك من نتائج الزراعة ومن ثمارها ، فهى من أعظم الوسائل لرقى البـلاد وسعادتها ، وتقدمها وعلو شأنها ، متى ادرع القائمون بها بالاقتصاد ، وابتعدوا عن الدين والإسرف ، وجانبوا الربا والرهن ، واعتصموا بالإخلاص والصدق ، وعملوا لخير البـلاد ، ونفع العباد ؛ ولم يؤثروا نفع أنفسهم على نفع الناس ، ولم يـكونوا كالذين اجتثوا القمح قبل كماله وزرعوا بدله القطن ليربحوا المال ويقتلوا الأنفس ، ويوقعوا البلاد فى الضيق والضنك والاحتياج

لولا الزراعة فى بلادنا ما قصدها قاصـد ، ولا اتجه إليها نظر ولا نمت فيها الناس هذا النمو العظيم ، فهى سبب ارتقاء بلادنا ، وفيها خيرنا وسعادتنا ، ومنها نستمد ثروتنا وإننا ننتظر لها الرقى والتقدم بفضل الإصلاحات التى نراها تزداد يوماً فيوماً ، مما يفيدنا ويفيد الناس معنا ، وإنها لإصلاحات قليلة بالنسبة لما يجب أن يكون ، إصلاحات نرجو أن تـكون لفائدة مصر قبل غـيرها ؛ نظر قدماء المصريين إلى بلادهم ، فرأوها زراعية ذات خصب ونماء ، فعنوا بالزراعة جـد العناية ، وحولوا عزمهم إلى النيل ، فمنهم من غير مجراه ، ومنهم من أقام فيه المقاييس وحفر مخازن الماء ، وأقام الحواجز ، وبنى القناطر ، ورفع الجسور ، فـكان النيل شغلهم الشاغل ، وموضع عنايتهم الـكبرى ، من منبعه إلى مصبه ، حتى لقـد قال بعضهم إن مصر هبة من النيل ، وقد جنوا من وراء هذه الأعمال أينع الثمـار ، وأفضل مايجنى ، وإن الزراع بمصر حملوا همهم وغايتهم وشغلهم الشاغل هو القطن وزرعه ، فاعتمدوا عليه كل الاعتماد ، لما رأوه من الربح

الكثير فى بعض السنين ، فتكاثروا على زراعته ، ولم يعنوا بغيره ، وكان من نتائج هذا التهافت أن لعب به التجار ، وكثر العرض على الطلب فانحط الثمن ولم يأت القطن بنفقاته ، وساء الحال . وتداخلت الحكومة مشترية تارة ، ومقرضة أخرى ، خشية أن تقع البلاد فى أزمة مالية . وما هذا بالعلاج إنما العلاج أن تقل مساحة الأراضى التى تزرع قطناً وإشراك غيره معه ، وهذا ما لجأت إليه الحكومة أخيرا ، حتى لا ترى البلاد مثل هذا الكساد مرة أخرى ، وحتى لا يضيع مجهود الفلاحين بلا ثمرة ولا نتيجة

وقد اتجه نظر كثير من أصحاب المزرعات إلى زراعة الفواكه وغيرها فأثمرت وأينعت وعادت عليهم بالربح والخير الكبير ، ولوزارة الزراعة أكبر الفضل بالإرشاد وتوجيه الأفكار إلى التجديد فى الزراعة وعدم الاقتصار على القديم ومن جدوجد ، والله الموفق .

٦٧ — البعوث العلمية

إن البعوث العلمية قد ظهرت آثارها النافعة ، ونتائجها المفيدة ، ولا تزال تظهر فى الأمم التى عنيت بها ، واهتمت بشأنها : فما من أمة نهضت وارتقت ، وبلغت ذروة الفضل والكمال إلا كان للبعوث العلمية إلى البلاد الأجنبية ، الحظ الأكبر فى رقيها ، والنصيب الأوفر فى تقدمها . فهذه الأمة العربية ، بقيت منقطعة عن غيرها من الأمم حيناً من الدهر ، حتى أزاح الله عنها غبار الجهل : وأشرق عليها نور الإسلام ، فانبعثت من مرقدها ، وانتبهت من غفلتها ، وعنيت بالبعوث العلمية عناية كبرى ، حتى اقتدرت على نقل علوم اليونان والرومان والفرس ، فعلا شأنها وارتفع مكانها ، وأصبحت كعبة الذين يطلبون العلم والمعارف والآداب ، ونبغ فيها كثير ممن عرفوا اللغات الأجنبية معرفة تامة . وترجموا كتب الفلاسفة والعظماء وأكابر العلماء من الأجانب ، فأفادوا واستفادوا ، ولنعم ما فعلوا ، وما أحسن ما صنعوا .

وهذا أصل الأسرة المالكة « محمد على باشا » نهضت مصر فى زمنه نهضة علمية وصناعية . وأنشئت فيها من المدارس والمعامل بهذه البعوث التى ذهبت إلى البلاد

الغربية ، فاكتسبت من معارف أهلها وعلومهم . ثم رجعت و بثت ما عرفت فى أفراد الأمة . فظهر فيها الطبيب ، والمهندس والعالم ، وغير أولئك ممن ارتقت بهم الأمةوالبلاد والآن تذهب البعوث من مصر وغيرها إلى بلاد العلم، فتأخذ عن أهلها صنوف المعارف ، وأنواع العلوم ، ثم ترجع إلى بلادها فترقى بها إلى ذروة الفضل . وقنة السؤدد والمجد . كاليابان والصين والهند والترك وغيرهم من الأمم التى نالت السعادة والرقى ، بمن بعثت بهم إلى البلاد الأجنبية ، فهى السبب الأكبر لحياة الأمة حياة طيبة مباركة . وهى الصلةبين الأمم والشعوب ؛ وهى النور الذى ينسخ ظلام العماية والجهل .

نعم بالبعوث ترتبط الأمم ، وتتصل الشعوب ، ويأخذ هذا علم ذاك ، و يعرف كل معارف الآخر وعاداته . فتكون الأمم كأنها أسرة واحدة متآلفة متعارفة متعاونة : ذلك إذا اختارت الأمة من تبعثهم من ذوى الفضل والحسب الشريف . الذين عرفوا بحسن أخلاقهم وكمال آدابهم ، ودلت أعمالهم على سمو عقولهم ، ونباهة شأنهم حتى إذا ذهبوا إلى بلاد العلم ، وسوق المعارف ، عنوا بما أرسلوا إليه ، وصرفوا وقتهم فيما يكسبهم علماً مفيداً ورأياً سديداً ، وفكراً ثاقباً ، وحياة نافعة ، مع المحافظة على عادات أقوامهم الشريفة ، وآداب دينهم الكاملة ، حتى يكونوا عنوان أمتهم ، والمثل الأعلى فيمن يأخذون عنهم . فإذا رجعوا إلى قومهم كانوا لهم خير مثال ، وخير قائد . وخير إمام : ومصرفى نهضتها محتاجة لبعث البعوث إلى مختلف البلدان الراقية شرقاً وغرباً . ويسرنا أن لنا بعوثاً فى كثير من البلاد المتمدينة ، غير أنا نرجو أن يكثر عددها و تتعلم ماينفع بلادنا فى كل مرافق الحياة علماً وصناعة و زراعة وتجارة وإن رغبنا الخير سريعاً فلنكثر من البعوث العلمية ، ولا نكتفى بمن تبعثهم الحكومة ، بل على الأغنياء والجمعيات أن يكون لهم من ذلك حظ عظيم ، ونصيب وفير .

فقد اتسعت أمامنا سبل الحياة ، وفتحت لنا أبواب العمل ، بما نلناه من حرية واستقلال . فعلينا أن ننتفع بما نلناه ، بالإسراع فى إرسال البعوث فى كل نوع و إلى كل

بلد تجيد هذا النوع من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة أو غيرها بذلك ننتفع بما نلنا ونصل إلى ما نريد من سؤدد وكمال .

٦٨ — السجون

عنيت الأمم صغيرها وكبيرها بالسجون ، لينزجر بها ذوو النفوس الدنيئة ، ويرتدع أولو الأخلاق الفاسدة ، ويعيش الناس فى أمن وراحة ، فلولاها لعبث القوى بالضعيف واعتدى القادر على العاجز ، وغصب الغاصب ، وسلب السالب ، وانتقم القادر متى قدر :ما يضعف الأمن بالبلاد ، ويذهب بالثقة فيها فينزوى الأغنياء بأموالهم خشية النهب والسلب ، وتقل حركة التعامل ، ويتبع ذلك ما يتبعه من ضعف الأمة فى ثروتها ، وضياع الثقة بها ، فالسجون تقمع الجاهلين ، وترد عادية المعتدين ، وتكسر شوكة الناهبين والسالبين ، ويأمن بها الناس على أموالهم وأنفسهم وثمراتهم ، ويسعى كل فيما فيه نفعه ونفع أمته وبلاده ، وتصبح الأمة غنية يثق بها غيرها ، ويعاملها سواها ، ووراء ذلك ما وراءه من الفائدة والسعادة ، والربح والخير الكثير .

وقد اهتمت الأمم المتمدينة بإدخال الفنون والصناعات فى السجون ليتعلم المتعطلون ، ويزداد المتعلمون معرفة وخبرة ودراية ودربة ، حتى إذا خرجوا وجدوا مرتزقا يرتزقون منه ، وملجأ يلجئون إليه وبقى لهم ما كانوا يعرفون ، فلا يعودون إلى مثل فعالهم الخبيثة وأعمالهم الدنيئة ، وتلك مصنوعات السجون كانت بالمعرض الخامس عشر سنة ١٩٣٦ ، مما حاز إقبال الزائرين ، وإعجاب الرائين فما بقى منها شىء إلا بيع واشترى ورغب فيه الراغبون وأخذه الآخذون .

ولا غرو فقد كانت تسر الناظرين ، وتشرح صدور المطلعين ، لما حازته من الجمال والإتقان والإحسان ، كما أنهم عنوا بتحسين أخلاق المسجونين ، فكلفوا من يهديهم إلى طريق الخير ، وسبل السعادة ، ويقيم معهم الشعائر الدينية ، ويعظهم بالمواعظ الربانية وقد عاد ذلك بالفوائد المطلوبة ، فقل عدد المتشردين ، ونقص جمع المتعطلين ، ولم تحتج هذه

الأمم إلى فتح سجون أخرى ، بل أقفلت مازاد عن الحاجة ، وفتحت بدله المدارس والمعاهد وبنت دور الصناعة والملاجىء ، وتلك نتيجة العناية بأمر السجون والاهتمام بشأنها ، أما لو أهملت وتركت من غير قانون ولا نظام ، أو كان القائمون عليها من ذوى المآرب والغايات ، الذين يسعون لنفع أنفسهم ، ولا ينظرون إلى إصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج فيعيش المسجون بينهم ، كعيشته في قومه ، لا يدرك ألم السجن ، ولا يذوق مرارة الحبس فيخرج شراً مما كان ، ويطلع على الناس طلوع الوحش الضارى ، والحيوان المفترس ، ويزداد طغياناً وغياً ، وظلماً وبغياً ، ويعيث فى الأرض فساداً ، ويعبث بالأعراض والأرواح والاموال ؛ ولا رادع ولا زاجر ، ويأخذ الناس بالقسوة والشدة والفظاعة والغلظة ، والإرهاب والتخويف ، والوعد والوعيد ، ترتجف منه القلوب عند رؤيته ، وتضطرب الأفئدة إذا شاهدته ؛ وما أوجد له هذه المهابة إلا أولئك الذين لم يقوموا بالواجب عليهم نحوه ، وهو فى السجن ، فأعانوه على الضلال ، وساعدوه على العبث بالأمن ، والفتك بالأعراض والأرواح ، إن هذا لهو العذاب الأكبر للأمة والبلاد ، أما لو أنصف القائمون على السجون وأدوا ما وجب عليهم ، كان للسجن فائدته المطلوبة ، ونتيجته المقصودة من ردع الغاوين ، وزجر المعتدين وصدهم عن ضلالهم ، وردهم عن فسادهم ، فيعيش الناس آمنين مطمئنين ، على أحسن حال ، وأهدإ بال .

٦٩ - المستشفيات

أقرب ما يكون المرء من المرض وهو فقير ، لأن غذاء الفقير ولباسه ومسكنه ، فى الغالب لا تراعى فيها الوسائل الصحية ، فتراه يأكل من الغذاء أرداه ، ويلبس من اللباس أدناه . ويسكن من المنازل ما حوى من المواد العفنة والرائحة الكريهة . وكل هذا يدعوه إلى السير فى طريق المرض فيسلكها مضطراً ويسير فيها مكرهاً ويخترقها متألماً . ولولا ما منحه الله من قوة جسمية من نشأته . ما احتمل هذه الفواتك . والفقراء هم عماد الأمة وعليهم حياتها . وبهم سعادتها ، لأن منهم الزارع والصانع . والقائم بالأعمال الشاقة

من حفر ترع أو بناء مساكن أو مد سكك حديدية . إلى غير ذلك من الأعمال التى يكون وراءها كل خير وسعادة للأمة والبلاد .

و إن الفقراء لعاجزون عن القيام بنفقات الأطباء، و إن قدروا عليها فهم لايقدرون على اتخاذ الوسائل التى يرشدونهم إليها ، من إحضار الأدوية ، وسكنى الأماكن الطلقة الهواء ، الخالية من القاذورات وغيرها مما يؤلم الجسم ويدنفه، ويؤذيه ويضعفه .

لذلك كان من أكبر النعم عليهم وعلى الأمة وجود المستشفيات التى ترشد ضالهم ، وتدل حائرهم ، وتداوى مرضاهم ، مع القيام بكل مايحتاجون إليه من أكل وشرب ولباس وسكنى ، حتى يتمكنوا من مزاولة أعمالهم بكل نشاط وسرور ، ولقد تحدث الحوادث كمداهمة قطار أو ترام ، أو حائط قديم ، أو اعتلال صحة ، أو غير ذلك من الحوادث التى تضر بصحة الإنسان ، فيكون الملجأ والمقصد هو المستشفيات الخيرية ، التى يسرع عمالها باتخاذ الإسعاف الناجع ، والحيطة الواقية ، و إن ذلك لمن أجل المنافع التى تقدمها المستشفيات للأمــة ، وكما أن الفقير محتاج إليها فالغنى كذلك ، لأن النظام التام واختيار الأماكن الصحية ، ووجود المعدات اللازمة ، مع العناية والاهتمام ، كل ذلك لايتيسر إلا فى المستشفيات فإن أطباء المستشفيات يعودون المريض كثيراً ، وهم مهرة عارفون الحقوق والواجبات التى يؤدونها للمريض ؛ ويقدمونها له ، بخلاف غيرهم فإنهم يطلبون باهظ النفقات لرؤية المريض مرة أو مرتين ، و إذا ذهب المريض إليهم فانتقاله صعب ، وربما زاد مرضه من ذلك أو تعاصى شفاؤه ، و بعض الأطباء أعد للمرضى أماكن عنده ليتمكن من مباشرتهم ورؤيتهم ، ولكن ذلك لا يماثل المستشفيات الخيرية ، ففيها بدل الطبيب أطباء ، و بدل المرض عدد ليس بالقليل ، ونفقاتها لاتكاد تذكر لزهادتها والفقير لايكلف إعطاءها ، وبعد هذا وذاك فإن العمال الذين يقومون بأمر المستشفيات من كبيرهم إلى صغيرهم ينتفعون بما ينقدونه من مرتباتهم فيفيدون ويستفيدون .

ولو أنهم كانوا منتقين من أولى الشفقة والرحمة . والحنان والعطف لأفادوا المرضى وأعانوهم على ما أصابهم ، وخففوا عليهم آلامهم . أما هؤلاء القساة القلوب ، الغلاظ الأكباد ، فإنهم يجعلون من المستشفيات سجونا ، ومن المصحات جحيماً وعذاباً أليماً ، فليراع في انتقائهم أن يكونوا من الأذكياء الرحماء ، حتى يقوموا على المرضى خير القيام ، ولا يعاملوهم بالعسف والجور والغلظة .

ولفائدة المستشفيات عنى أغنياء الأمم وسراتها بالتبرع بجزء من أموالهم لإقامتها ، لما لها من جليل النفع وعظيم الفائدة ، وقد ظهر فى الأمة المصرية كرام محسنون بنوا مستشفيات قيمة نافعة مفيدة ، من مالهم الخاص تخلد ذكرهم ، وتحفظ تاريخهم وتكسبهم من الله عظيم الأجر والفظاظة .

وللحكومة مستشفيات كثيرة لها أعظم الأثر فى حفظ الصحة العامة وهى منتشرة فى أهم بلاد القطر ، ولا ننسى تلك المستشفيات المتنقلة التى للحكومة ، وفى البلاد مستشفيات للجمعيات والجماعات كالمستشفى الإسرائيلى والقبطى والإنجليزى والإيطالى ومستشفى المواساة ، والجمعية الخيرية الإسلامية ، مما يدل على تقدم مصر وعنايتها بالشئون الصحية ، فإن الصحة أساس النجاح فى هذه الحياة للفرد والأسرة والأمة ، فهى عماد الأمة فى الحرب ، وعليها المعول وقت القتال والضرب ، فكم من جريح آوته وأسعفته ، وكم من مصاب أغاثته وشفته ، ثم عاد إلى القتال ، والضرب والنضال ، أو عاد لعمله صحيحاً سليماً ، فهى المساعد الأكبر فى الظفر ، والمعين الأعظم فى النصر ، وهى السعادة فى السلم والحرب .

٧٠ — الانتحار

كنا من زمن غير بعيد لا نعرف الانتحار ولا نسمع به حتى أصابنا هذا السيل الجارف ، وهو اختلاط الغربى بنا ، ذلك الذى حمل إلينا مما حمل من العادات تلك العادة السيئة الخبيثة ، والخصلة الذميمة الحقيرة ، وهى الانتحار ، فقوت خلق اليأس فى

نفوس شبابنا ، واستاقت زهرة أمتنا إلى مهواة سحيقة عميقة مالها من قرار ، فأضحوا لأدنى سبب ؛ ولأيسر أمر ، ينتحرون ، أى يقتلون أنفسهم بأيديهم بتعاطى السموم أو إطلاق الرصاص ، أو بقر البطن أو الإغراق أو الإحراق ، إلى غير ذلك من وسائل الإهلاك ؛ يفعل ذلك الرجال والنساء والفتيان والفتيات والكهول والعجزة ، وما قادهم إليه إلا اليأس وخور العزيمة ، وضعف الإيمان ، ونقص التربية .

وإنى لاأجد سبباً يبرر هـذا العمل الوضيع الحقير مهما يكبر فى نفس المنتحرة أو المنتحر ، يرشد الآباء أبناءهم والأولياء مواليهم ويتشددون فى الإرشاد رغبة فى نجاحهم فإذا سقطوا فى امتحان ولم ينالوا رغبة آبائهم ضاقت الدنيـا فى وجوههم ، وسدت المنافذ عليهم فيفرون من الحيـاة ، ويقدمون أنفسهم للموت ، فيغتالهم بهيئة بشعة شنيعة استسلاماً لليأس ، واتباعاً لخور العزائم ، ألا ساء مايفعلون ، وإنه لإثم كبير ، وجرم فظيع ، وجناية على الأمة والبـلاد ، بأبشع شكل ، لايرضى به إنسان ، وإنه ليغضب الرحمن .

ولو فـكروا قليلاً لعرفوا أن تلك الشدة لصالحهم ، وكل ما يظهر من أوليائهم إنما هو لنفعهم ، فإن الأب يحب كثيراً أن يـكون ولده أكبر الناس ، وأعظم الناس ، ولو صرف فى ذلك أعز عزيز عليه ، وأنفس نفيس لديه ، كما أنه يكره كرهاً شديداً أن ينظر ، فلا يجد فلذة كبده ، ويأسف أسفاً عظيماً أن يبصر فلا يرى روضة حياته ، ونعيم وجوده فى هذه الدنيا ، وهو ولده المحبوب المفدى بمـا سواه ، لو عـلم الأبناء ذلك ما أقدموا على الانتحار ولا فعلوه ، ولـكنه اليأس الذى قبحت نتائجه قادهم ورماهم بين مخالب الموت مستسلمين ، ولقد ينتحر المنتحر أو المنتحرة لضيق فى العيش أو يأساً من الشقاء ، أو خوفاً من الإفلاس ، أو فراراً من شماتة الأعـداء ، أو لفقد عزيز ، أو لانفصام عرا المودة والحب ، وما إلى ذلك ، ولـكن هـذا عين الخطأ فإن مع العسر يسراً ومع المرض شفاء ، ومع الضيق فرجاً ، والدنيا لاتدوم على حال ، والأمور بيد الله

يصرفها كيف يشاء. وهو سبحانه وتعالى يقول (لاتيئسوا من روح الله إنه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون) ، وقد قيل (لامعنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة) ينتحر المنتحر فيترك وراءه أماً تبكيه ، وأباً يتحرق شوقاً إليه ، وإخوة تذوب شفقة عليه ، ووطناً فى أشد الحاجة إليه ، وأمة ساء حظها ، وضاع أملها ، وأكبر من هذا وذاك غضب الله ورسوله ، لأنه قد قتل نفسه متعمداً ، ومن يفعل ذلك فجزاؤه جهنم وبئس المصير ، فما أقبح الانتحار وما أشنعه ، وما أحقر فاعله ، وما أشقى أمة شاع فيها مثل هذه العادة السيئة ، الوخيمة العاقبة القبيحة الأثر ، التى رمانا بها الغرب وأهله ، بل رمانا بها ترك الدين ، وخلو القلوب من الإيمان .

ولو فكر المنتحر وقدر ، ونظر فى عاقبة الأمر وتبصر ، لرجع القهقرى ظافراً منصوراً بحياته ، ولألقى باليأس من شاهق ، ولادرع بالثبات والصبر ، حتى يدرك مرغوبه ، وينال مطلوبه ، ويعيش سعيداً ويموت سعيداً ، فكم من ساقط نجح . وكم من خائب فاز . وكم من فقير أصبح غنياً . وكم من شقى صار سعيداً . وكم من مريض نجا ، وكم من بائس أدركه الأمل . ذلك بأنهم صبروا فظفروا . وتركوا بعدهم ذكراً حسناً . وثناء طيباً . وأعمالاً نافعة . وذلك جزاء الصابرين . والنتائج الحسنة لاتأتى إلا بعد العراقيل الكثيرة . فليتجنب العاقلون هذه العادة التى ليست من عاداتنا . وهى من أقبح العادات ومن أخبث الخصال . حملها إلينا ذلك السيل الذى كادت تطوينا أمواجه . وتغطى على شريف أخلاقنا وكامل آدابنا مياهه . نحن الآن نواجه حياة جديدة . ونقابل عهداً ننلنا فيه حريتنا . فلندع كل يأس وخور ، ولنتمسك بكل خلق كريم . من مروءة وشجاعة . وصبر وإقدام . ولنضن بأرواحنا أن تزهق إلا فى سبيل الله . وإعلاء شأن الوطن .

٧١

تدول أحاديث الرجال وتنقضى ويبقى حديث الفضل والحسنات

الحياة ميدان عمل وتنافس . وحلبة جد واجتهاد . وفيها يكون بناء السمعة الحسنة

والسيرة الطيبة . فمن أمضى حياته فى نفع أمته و بلاده وخير الناس . كان ممن حازوا غاية السبق . ونالوا السعادة والخير . وتركوا لأنفسهم ذكرى خالدة . تبقى و إن فنوا . وتحيا ولو ماتوا . تلك هى الذكر الحسن . والحديث الجميل . أما من صرف حياته فى اللهو واللعب والزينة والتفاخر بحق و بغير حق . فهو من الأخسرين أعمالاً . السيئين فعالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم لايشعرون . و يظنون أنهم محسنون.

ننظر فنرى رجال العمل مختلفين ، وأهل الجد متباينين ، ونجد منهم من مات منذ مئات من السنين ، واسمه لايزال تتناقله الكتب و الصحف وتتداوله الألسن ، وتضرب به الأمثال وهو علم على الهدى والنور ، والعلم والعرفان ؛ ومنهم من نراه دون ذلك ، ومنهم من مات فمات معه اسمه ، وانقضى حديثه ، واندثر وذهب ، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وقد كان فى حياته مطلوبا مقصوداً . ذلك بأن الأول عمل لخير الناس ، ونفع الناس ، فجوزى منهم بأن يذكروا اسمه مقروناً بالإعظام ، مصحوبا بالإكرام ، ولم ينسوه على توالى السنين ، وكر الدهور ومضى العصور ، بل اتخذوه إماماً ، وجعلوه قدوة حسنة ؛ والثانى لقى منهم بقدر ماقدم لهم من الأعمال ، أما الثالث فإما أن يكون قضى حياته منزويا عن الناس . ضعيف النفس خامل الذكر يرى امتلاء بطنه خيراً من الدنيا وما فيها ، قد عنى باللذات والشهوات ، فسعى فى قتل نفسه ، ومحو حديثه من الدنيا قبل أن يموت ، فمثل هذا لا خير له فى الحياة .

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ماعد من سقط المتاع

و إذا مات خلف ذكرا سيئاً لا يبقى ، وحديثاً قبيحاً لا يدوم ، لأن الناس إنما تذكر محاسن الموتى وتكف عن مساويهم .

وإما أن يكون من ذوى الجاه والمنصب فى حياته ، ولكنه لم يعن بأمته و بلاده بل حرص كل الحرص على جاهه ومنصبه ، فترى الناس يجاملونه بالألفاظ ، و يقصدونه لمنافعهم الشخصية ، فإذا عزل أومات ذهب مع عزله وموته كل ما كان له ، وكأنه لم يكن ، هذا رسول الله ﷺ حياته كلها هدى ونور ، ومصدر علم وفضل ، ومنبع خير

وكال ، وفكر وتبصر ، وهى لا تزال كذلك إلى ما شاء الله ، وقد جاء بعده رجال عاملون ، وأئمة عادلون ملئوا حياتهم بالخيرات . فنالوا من الله خير الجزاء . ومن الناس جميل الذكر ، وطيب الحديث ، وكذلك نجد من نهج نهجهم ، وسلك طريقهم ، فقدم لأمته وبلاده والناس أجمعين أعمالا بها خيرهم ، وفيها رقيهم . كبناء المدارس والمستشفيات . وإقامة المعاهد والملاجىء ونشر الحكمة والنور ، ونفع الأمة والبلاد . إلى غير ذلك من جليل الأعمال وطيب الفعال . هذا هو الذى يذكر اسمه مقروناً بالإجلال وتعرف حسناته مصحوبة بالإعظام ، ويبقى حديثه على مر الأيام وكر الأعوام . ولقد يبقى حديث السوء بعد موت المسيئين الذين أوقعوا الضرر بأنفسهم وبالناس ، فتنزل عليهم اللعنات . وتذكر لهم السيئات . ولكن الفرق شاسع بين من يذكر اسمه فيذم ويقدح . وبين من يذكر فيثنى عليه ويمدح .

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

أبعدنا الله عن الشر ، ووفقنا لكل صلاح وخير .

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

٧٢ — المحاباة

لتجدن أشد الناس ضرراً بأنفسهم وبالناس . أولئك الذين عرفوا بالمحاباة . وطبعت نفوسهم على حبها . فكانت لهم خلقاً لازما ووصفاً معروفا . أولئك هم الضالون الخائنون الغاشون . فأى ضرر أو خيانة أو غش أبلغ من تقديم غير المستحق على المستحق ، ومن ترجيح الجهلاء على الأكفاء ، وإعانة الأقوياء على الضعفاء ؛ والأعداء على الأصدقاء إلى غير ذلك من جالبات الشر وموجبات البلاء . هذا الخلق إذا وجد فى شخص ألجأه إلى الظلم والظالم ممقوت ، وإلى الكذب والكاذب مكروه ، وإلى الخيانة والخائن مذموم ، وإلى خلف الوعد والمخلف وعده غير محمود ، والمحابى لا يجد ناصراً ولا معيناً . وإن وجد شيئاً من ذلك ، كان من طريق الخوف والنفاق ، والملق والرياء ، ونصر كهذا

وإعانة كهذه لا يدومان ولا يرجى منهما خير : وإن أسباب المحاباة كثيرة كالقرابة أو الصحبة ، أو الدين أو المحبة القلبية ، أو الاتحاد في الوطن أو الرشوة وهي السبب الأكبر لأنها الملجيء القوى إلى المحاباة؛ وبخاصة إذا كان المحابي لا يخاف رقيباً ، ولا يخشى عقاباً ، فإنه يحابي ويكثر من ذلك رغبة في المال ، وحباً في الذهب والفضة ولو ضاعت بلاده أو محقت دولته : نعوذ بالله من ذلك ، يحابي الرجل واحداً من أسرته ، فيختل لذلك نظام الأسرة ، ويوجد بين أفرادها الشقاق والخصام ، والبغض والعداء . ولو أحسن صنعاً لعدل بينهم حتى يعيشوا إخواناً ، ويموتوا أحباباً ، أعرف رجلا قسم أمواله بين أولاده وميز واحداً منهم بشيء قليل لأنه يحبه . فغضب الباقون ، واشتعلت في صدورهم نيران الحسد ، فأهانوا أباهم بالضرب المؤلم ، وأذاقوا أخاهم مرارة الموت ، فزجوا في السجن ، وذاقوا سوء العذاب . وكادت الأسرة تمحى ، ولولا المحاباة لما كان شيء من ذلك ، ومثل الرجل في أسرته ، الرئيس مع مرءوسيه . والحاكم في رعيته ، فلو حابى أحدهما ساءت العاقبة وقبحت الحياة لهم جميعاً . ومن نظر إلى الأمم الراقية السعيدة وجدها طاهرة من هذا الخلق ، بعيدة عنه ، لا تسند المناصب لغير مستحقيها ، ولا تعطى القوس غير باريها ، فما للناس لا يتركون هذا الخلق السيء القبيح . ويقدمون العارف على الجاهل ، والذكى على الغبي ، والمحق على المبطل ، حتى تسير الأعمال في طريق التقدم والارتقاء ، وبذلك يسعدون وتسعد أمتهم ، ويرتقون وترتقى بلادهم ، ومن أحسن حياة وأطيب عيشاً ممن استمسك بالعدل ، واعتصم بالعفة وكان من الذين لا يعرفون المحاباة ، ولا يحبون من وصفوا بها . عصم الله هذه الأمة من المحاباة وضررها حتى تسعد وترقى في هذا العهد المبارك السعيد ، عهد الحرية والاستقلال ، والأمة الجادة التي تبغى الحياة سعيدة لا يعجزها أن تقضى على المحاباة والمحابين وتسمو بالعدل والعادلين .

٧٣ — التنافس

التنافس ذلك الخلق الشريف هو أن يبارى الإنسان إنساناً أو الجماعة جماعة أو تسابق الأمة أمة في عمل مجيد ، وفعل شريف ، ليكون ذلك العمل أرقى ، وهذا الفعل

أعظم من سواه ، أما إذا كان التنافس فى عمل ضار ، وفعل قبيح فهو خلق ذميم ، والتنافس غير الحسد لأن الحسود يحقد ولا يعمل ، والمنافس يغار و يعمل ، والحسود يتمنى أن ينفرد بكل نعمة ، والمنافس يتمنى أن ينال غاية السبق ، ونهاية الطلب ، فهو دائماً يسعى ليسبق غيره ، و يجتهد ليتقدم بحق على من سواه ، فترقى مداركه ، وتزيد معارفه هو ومن ينافسه ، فشتان ما بين التنافس والحسد ، فبالتنافس تنمو العلوم وتكثر المعارف ، وترقى المدارك ، حتى تسعد الأمة بمعارفها ، وتغنى برقى مداركها ، أما الحسد فبئس الخلق صاحبه مبغض والمتصف به مكروه ، يصرف زمنه فى عد النعم ، والحط من قدر الناس فيملأ صدره غلاً وحقداً ، ولا يسعى ليكون رجلاً شريفاً ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأفراد ، وزراءه كل خير للناس إن كان فيما يعلى شأنهم ، و يزيد فى حضارتهم ، كالتنافس فيما به تتقدم العلوم ، أو بسببه ترقى المعارف ، أو فيه حفظ البلاد وسلامتها ، و رقيها وسعادتها ، وتعيش عيشة المحبة والإخاء ، والهناءة والرخاء ، بخلاف التنافس فى اللهو واللعب وكل شيء يكون وراءه ضرر أو فساد للمجتمع الإنسانى ، ولقد عنيت الأمم بنمو هذا الخلق فى نفوس أفرادها ، فوضعت لهم الجوائز ليحظى بها السابق ، و ينالها الفائز ، فينافسه غيره ليسبقه ، فتقوى بذلك مدارك الأمة ، وترقى معارفها و يعتز شأنها ، ويسمو بين الأمم قدرها .

وإن التنافس يلجىء الإنسان إلى اتقان عمله ، وبذل الجهد فى تحسينه حتى يظهر أمام الناس بكل كمال ، و يحوز الرضا والقبول ، وذلك يدعوه إلى كثرة البحث وشدة التنقيب ، حتى يخرج للناس ما أودعه الله فى ملكه ، من الخيرات والمنافع ، هذا هو الطيران تنافس فيه المتنافسون ، وتسابق المتسابقون ، و بذل كل غاية وسعة ، حتى امتلكوا الهواء امتلاكاً ، وانتفعوا به انتفاعاً ، فشاركوا الطائر فى ملكه ، كما شاركوا السمك فى بحره ، وأوجدوا السفن الهوائية ، كما أوجدوا السفن البحرية ، وانتفعوا بالطيارات أكثر من انتفاعهم بالقطرات والسيارات ، ومثل الطيران غيره من المستحدثات المفيدة ، والمبتدعات النافعة ، التى عادت على الناس بالخير العظيم .

وهذه المواد المدمرة والآلات المهلكة كل يوم يظهر منها شيء كثير يخلقه التنافس بين الأمم كانجلترا والمانيا وفرنسا و إيطالياوالولايات المتحدة والروسياواليابان وغيرها ، كل تريدأن تسبق الأخرى ، لتكون سيدةالهواءوالماء فتصرف كل عزيز لديها ، وتوجه كل عنايتها ؛ فى اختراع ما يوصلها إلى غرضها ، وهو تلك المواد المهلكة ؛ والآلات المروعة ، ولو وجهت تلك العناية ، إلى مافيه الرفاهة والخير لعاش الناس آمنين مطمئنين ، وعلى الجملة فالتنافس فى المفيد ، وراءه سعادة الناس ورفعة البلاد وتقدم العلوم والفنون ، فلنعمل بكل قوانا لنوجد التنافس بين شبابنا وفتياتنا ورجالنا ونسائنا فيما فيه رقى البلاد وتقدمها ، وعزها وسعادتها ، بالمكافآت والرحلات ، والبعوث وتكوين الجماعات ، وكل مايحفز بالهمم إلى الجد والعمل وحب البحث والكشف والاختراع (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون)

٧٤ — المحافظة على الوقت

المحافظة على الوقت خلق شريف ، ووصف جميل ، من عرف به كان محبوباً ومحترماً ، تحبه رؤساؤه ، وتحترمه أتباعه ، لأنه فعل الواجب وقام به خير قيام ، ووراء ذلك خيره ونفع غيره ، فإن كان تلميذاً لم يضع له درس فينال الخير لنفسه ، وينفع الأمة بما يعرفه من المعلومات النافعة ، وإن كان طبيباً أغاث مريضه واكتسب الأجر ، وإن كان جندياً أنقذ أمته وحاز الفخر ، وإن كان مسافراً أدرك قطاره ، ونال طلبه ، إلى غير ذلك مما تكون المحافظة على الوقت وسيلة إليه ، أما الذى يهمل فى وقته ولا يحافظ عليه فإنه يضر نفسه ، ويضر غيره ، يضر نفسه بإهماله وكسله فيضيع عليه الوقت من غير فائدة ، وتنحط منزلته عند رؤسائه وبين أتباعه ، ويضر غيره بتركه إسعاف المريض إن كان طبيباً ، وإنقاذ الأمة إن كان جندياً ، وبإضاعة الوقت على التلاميذ إن كان معلماً ، وبالوقوع فى الخطر إن كان سائق قطار ، إلى غير ذلك مما يكون الإهمال فى الوقت سبباً فيه ، وكثيراً ما تأخر المدد عن الجند ، فسقطوا واستولى عليهم العدو لعدم

المحافظة على إرساله فى وقته المطلوب ، و إنه الإهمال يظن صاحبه أنه هين ولكنه فى الحق عظيم ، من ورائه بلاء وفناء وشر كبير .

و إن المحافظة على الوقت نوع من أنواع الصدق ، وعدمها نوع من أنواع الكذب ، فالمحافظ على وقته صادق قوى الإرادة ، والمهمل فى وقته كاذب ضعيف الإرادة ، فواجب عليك إن وعدت أحداً أن تعين زمناً يمكنك الحضور فيه ، ولا يليق أن تعين زمناً يستحيل عليك الحضور فيه أو يصعب ، لئلا تتأخر فتكون من الكاذبين ويكرهك صديقك ، و يذيع بين الناس كذبك ، ولا تكن رهن ساعتك ، أو أسير نفسك ، فمن الناس من يهمل فى وقته ، و يحتج بخلل ساعته ، وهذا ضرب من المخاتلة ، فإن الساعة تحت إرادته ، وليس هو مسوقاً بها ، تأخر أحد عمال نابليون مرة فسأله عن سبب تأخره فقال ساعتى مختلة ، فقال له أبدل ساعتك بأخرى ، و إلا أبدلنك بآخر ، ومنهم من يقول إن النوم أخرنى و ربما يكون صادقاً فى قوله ، ولكنه مهمل فى عمله ، فإنه لو نام مبكراً لقام مبكراً ، ولو تعود القيام فى وقت مخصوص لوجد ذلك من أسهل ما يكون ، شكا تلميذ لأستاذه تأخره فى النوم ، فقال له مر خادمك أن يوقظك من نومك فى الساعة السادسة أسبوعاً واحداً ففعل ، وصار القيام فى هذا الوقت من عاداته ، الإنسان قادر على أن يسير نفسه بقوة إرادته . وقادر أن تسيره نفسه لضعف إرادته . وعلى الجملة فتجب المحافظة على الوقت باتخاذ كل وسيلة لذلك ، فإن وراءها خيراً كثيراً ، ونفعاً عميماً ، والوقت من ذهب ، إن تهمله ضاع وذهب ، ولن يعود منه مامضى ، ولن يرجع ما فات وانقضى ، فاحرص عليه قبل الفوات .

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

٧٥ — الواسطة

تسأل الآن كيف أصل إلى غرضى ، وكيف أدرك مناى وأنال مقصدى ، وتسأل ماذا أسلك من الطرق حتى أجد عملاً أكسب منه عيشى ، و بأى وسيلة أقهر عدوى

وأغلب من ينافسنى ، وأدرك آمالى وما أريد بحق و بغير حق ، فيقولون عليك بالواسطة التى تنفذ إلى القوانين فتفسدها ، و إلى الحقوق فتمحقها ، و إلى الكفايات فتصعقها ، و إلى العوائق والحواجز فتجتثها من أصولها ، فهى الطريق إن أردت وظيفة ، وهى السبيل إن رغبت درجة ، وهى القبس إن أحببت رتبة ؛ وهى الوسيلة العظمى لنيل المطالب ، و إدراك الرغائب ، فليس مع الواسطة مايقف أمامها ، فلا كفاية ولا نبوغ ، ولا نباهة ولا فطانة ، ولا علم ولا معرفة ، ولا خبرة ولا تجربة ، ولا عدل ولا حق ، فإن حزت الكمال كله ، وحصلت على الفضائل جميعها ، ثم أردت عملاً ووجدت من يعارضك و ينازعك والواسطة له ظهير ، فهو الغالب وأنت المغلوب ، وهو الفائز وأنت الخائب ، وهو المحق وأنت المبطل ، فيرجع ظافراً غانماً ولو كان حماراً ، وترجع مذءوماً مخذولاً خائباً ، تقلب كفيك على ما أنفقت من عمر وصحة ، ومال وهناءة ، أنت وأهلك ؛ ولو كنت السابق المُجلِّى .

فالواسطة إذاً لها أسوأ أثر فى الأمة فإنها تقدم الجاهل على العالم ، والغبى على الذكى والغر الأبله على الفطن النبيه ، وتحمل الناس على الملق والرياء ، والكذب والنفاق ، والزور والبهتان ، والغدر والخيانة ، وتفل من غرب العاملين ، وتفت فى عضد المجدين وتلقى بالعداوة والبغضاء ؛ والخصام والشحناء ، بين بنى الوطن الواحد ، والبلد الواحد ، والأسرة الواحدة . وفى هذا ما فيه من الفساد والإفساد والضرر الكبير .

فالويل لأمة كان للواسطة فيها هذا الأثر الخبيث ، القاتل المميت ، الذى يجعل العاقل المجد فى ضيق وعنت ، والأحمق الجاهل فى راحة واطمئنان يتربع على أريكة العمل يهنأ بمرتبها ، و يملأ بطنه بخيراتها ، وهو لايدرك من أمرها شيئاً مذكوراً . فترتبك الأعمال ، وتفسد أمور الدولة ، وتسير بذلك سيراً حثيثاً إلى الفناء والزوال والاضمحلال والموت السريع ، الذى لامفر منه .

و إنما يلجأ الناس إلى الواسطة إذا تمكن داء المحاباة من نفوس أولى الأمر ، وثبت

فى قلوب ذوى الحل والعقد ، فيسيرون بالواسطة وراء مطامع الطامعين ، ويخضعون بها لمطالب الراغبين ،ولا يعبئون بالقوانين ، ولا يأبهون لحق المحقين ، ولا لباطل المبطلين ، فتفشو الواسطة ويتفاقم أمرها ، ويزداد خطرها ، ويعم ضررها ، وكذلك يلجئون إلى الواسطة ، إذا كثر الناس وتهافتوا على عمل واحد ، وتكالبوا على شيء خاص ، أو ضاقت بهم بلادهم ، وسدت فى وجوههم سبل الحياة ، أو لفشو الجهل وسيادة التعطل ، أو لتمكن الأجنبى من البلاد فيستحوذ على مرافق الحياة بها ، وطرق الكسب فيها . ويزاحم أهلها بل يقضى عليهم بعلمه وخبرته وماله وتجربته ، والمهمل فى شقاء ، والمفرط فى بلاء وعناء ، والبقاء والحياة للمصلحين .

وفى مصر فى وادى النيل ، في هذه البلاد الغنيه تجد للواسطة أثراً سيئاً فى كل دور الحكومة ومصالحها ، ذلك لأن الشبان يلجئون إلى الوظيفة ويقدمونها على العمل الحر المفيد ،لفساد تربيتهم المدرسية ، فهم يتخرجون لنوع خاص هو التوظف فى الحكومة وإنهم لمعذورون ، لأنهم لو تربوا تربية تؤهلهم لمنافسة الأجنبى ومنازلته فى ميدان الحياة العملية ، لما تكالبوا على الوظائف ، ولما تكاثروا على دور الحكومة . ولما فشت الواسطة بمصر هذا الفشو المخيف المزعج الذى مكن اليأس من قلوب الشبان المتعلمين ، والأكفاء المنسيين .

والدواء الناجع الذى نتقى به شر الواسطة يكون بتوجيه عنايتنا لإصلاح طرق التعليم حتى يصبح مثمراً ، يخرج للأمة قوماً أولى خبرة وتجربة وقدرة على أن يعيشوا بكدهم وعملهم ، وعلمهم وعقولهم ، فى أى أرض اضطروا المقام بها . وهذه السبل أمامنا واضحة نيرة ، فما علينا إلا أن ننظر فى مناهج الدول الحية ، ونأخذ منها ما يناسب مصر فيتخرج المصرى كالأجنبى يستطيع أن يعتمد على نفسه ، ويستقل بعمله ، ويعيش في أي بلد شاء : أما الجمود والوقوف عند هذه المناهج العتيقة البالية التى كان يقصد منها تخريج آلات لدور الحكومة ، تتحرك كما يشاء كل محرك ، فهذا هو الضلال المبين .

ببلادنا موارد عظيمة للثروة والغنى لاتزال بخيرها ووفرها لم تمسسها يد إنسان . ففيها أرض واسعة صالحة للزراعة ، لو عولجت و زرعت لأنبتت خيراً كثيراً ، ولدرت على القائمين بها ثراء عظيما ، وغنى وفيراً ، وفيها منابع ومناجم مختلفة لم تتناولها أيدى العاملين وهذا ماء النيل يفيض فنهمله يضيع فى البحر سدى و يذهب هباء ، وهـذا السودان بخيراته و بركاته فى حاجة شديدة إلى أيد عاملة مصلحة قوية ، وعندنا موارد خير عظيمة يشغلها الأجانب و يستقلون بفائدتها ، وكنا أحق بها وأهلها ، تلك الموارد تحتاج لعناية وصبر . وجلد ونشاط وعلم وتجربة ، وتضحية حتى نصل إليها ، وننتفع بها ، ولا يكون ذلك بغير التعليم العملى المثمر فى البيت وفى المدرسة ، وفى الحياة العملية .

بهذا و بهذا وحده نقضى على الواسطة ، ونأمن شرها ، ونمحو أثرها ، و يعيش الناس عيشة الرضا والهناءة ، فياذوى الجاه ، و يا أولى النفوذ ، اتقوا الله فى وطنكم ، ولا تقدموا الأعمى على البصير ، والأعرج على الصحيح ، والمريض على السليم ؛ والجاهل على العالم ، والغنى على الذكى ، ودعوا النـاس يتقدم منهم أولو الـكفايات ، فيقوم بالأعمال أربابها ، وتصلح للدولة أمورها ، واعملوا على فتح أبواب الرزق المغلقة فى وجوه الشبان حتى يستطيعوا نفع أنفسهم و بلادهم ، فيحيا الوطن وأهله ، والله عنده خير الجزاء .

٧٦ – الـكبر ومضاره

العظمة لله وحده ، وليست لأحـد من الناس مهما علا مقامه ، وسمت درجته ، وامتد ملـكه وسلطانه . فما هى عظمة من خلق من التراب و إلى التراب يعود ، وما هو كبر من إذا حبس عنه أحقر شىء من مواد الحياة لا يستطيع أن يعيش ، ولا يقدر أن يوجد لنفسه مثله . وأصبح فى ذل ونكد ، و بؤس وشقاء ، ما هى عظمة وما هو كبر من لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها شراً ، من لا يدرأ عن نفسه الموت إذا نزل ، ولا يمنع عنها قضاء الله إذا وقع ، من خُلق من الضعف و إلى الضعف والموت مآله ومنتهاه .

سبحان من انفرد بالـكبرياء والعظمة ، والعز والسلطان ، والقدرة التامة ، سبحانه

وتعالى ، ليس كمثله شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يحاول مخلوق مسكين ضعيف مقهور أمام قدرة الله ، أن يتعالى و يتعاظم و يزهو ويختـال ، و يعجب بنفسه و يفتخر ، فإذا تـكلم تدلّل ، و إذا سكت صعّر خدّه ، و إذا مشى اختال ، و إذا جلس تطاول ، و إذ وقف حسب نفسه الوحيد الذى لا يكافئه أحد ، فلا يعجبه إلا عمله ، ولا يرضيه إلا فعله ، ولا يرى على الأرض غيره ، يؤلمه النسيم ، و يؤثر فى مزاجه الهواء العليل لم هذا العتو ؟ وعلام تلك العظمة ؟ أفلا ينظر هذا المسكين إلى مبـدئه من أى شىء خلق ؟ و إلى منتهاه إلى أى شىء يعود ؟ إنه لمجنون معتوه ، لايدرك بعمله إلا الخزى والنكال ، والمقت الشديد ، و إنه لمن الخاسرين .

أيها المتكبر إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ، (ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) انظر فيما حاق بغيرك من المتـكبرين ، الذين أخذهم الله أخذة رابية . فهل ترى لهم من باقية ؟ كفرعون ذى الأوتاد ، وثمود الذين طغوا فى البلاد ، وكانوا من أهل الـكبر والعناد ، فنزل عليهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأصبحوا أثراً بعد عين ، وامتزجوا بالتراب بعد الترف والنعيم . والتكريم و التعظيم .

ألا و إن للـكبر عواقب سـيئة ، ومضار قاتلة ، فهو يحمل المتـكبر على العناد واللجاج ، و ركوب متن الغى والضلال ، والتجافى عن مواطن الهـدى والرشاد ، فقد صدّ كثيراً من الناس عن اتباع الحق ، وهو واضح وضوح الشمس ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فماتوا على الـكفر ، وقضوا نحبهم على الضلال ، و باءوا بالخسران : والـكبر يسوق المتـكبر إلى التعالى عن قدره ، والتغالى فى الإسراف ، والترفع على نظرائه فينفق فوق طاقته ، ليناظر الأغنياء ، وهو من الفقراء ، و يشارك العظماء ، وهو من الوضعاء و يكون من الـكبراء ، وهو من المساكين ، فيستدين و يقع فى العسر ، وترتبك حاله

المالية . والمتكبر يعمل ما لا يوافق مزاجه ، ويتعاطى ما لا يناسب طباعه ، فيلبس ما يؤذى جسمه ، ويأكل ما لا يشبع بطنه ، ويشرب ما يضر صحته ، ويتصنع فى مشيه وجلوسه ووقوفه وكل حركاته . ويصرف أمام المرآة غالب زمنه ، فيضيع عليه ماله ووقته ، وذلك هو الضرر الكبير عليه وعلى أسرته وقومه وبلاده : والكبر يجلب للمتكبر مقت الناس ونفورهم منه ، وبعدهم عنه ، وقدحهم وذمهم ، وسبهم وشتمهم ، وقيلهم وقالهم ، فيسوء حديثه ، وتقبح سمعته ، وتلك خسارة كبرى ، والكبر يجعل المتكبر مع نفسه ومع الناس فى حرب شعواء ، ونزاع دائم ، وخصام مستمر ، وشقاق كبير ، فهو لعظمته الفارغة لا يرضى عن شىء ، وهو لكبره الأجوف لا يعجبه شىء : والكبر يدعو إلى الظلم والقسوة إن كان المتكبر قادراً ، فإنه حينئذ لا يسمع داعى الرشاد ، ولا يرضخ لنداء الحق ، بل يركب متن الشطط فيظلم ويقسو ، ويَشتط ويفرط ، تباً له ما أشأمه ، سُحقاً له ما أجهله !

هل ترى نفساً أحط مِن نفس مَن يساويك وتساويه ، وأنت مثله وهو مثلك . وقد تكون أنت أحسن منه مقاماً ، وأرفع قدراً . ثم تراه يتكبر عليك ، ويعاملك بكل عظمة وأنفة ، وجهل ونطاعة ، ذلك هو الدنىء الأصل ، الوضيع النسب ، العديم الشرف ، الذى لا يبالِى أن يراه الناس مسيئاً فهو من المغفلين .

ما للناس قد غفلوا وضلوا فأسندوا صفات الله لغير الله . أسندوها لمن يعجز عن إيجاد أحقر الأشياء . مما لم يعمله السلف الصالح الذين كانت مخاطباتهم وكتاباتهم خالية من تلك الصفات ، مجردة عن هذه الألقاب . لقد قام عربى من بين الصفوف . وقال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكان عمر حينئذ من الرفعة بأعلى مكان . قال له ياعمر : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، ولم يقل له تلك الألقاب الجوفاء ، ولا هذه النعوت الفارغة .

الاحترام مطلوب ، وتعظيم الكبراء واجب . ولكن بغير هذا التغالى الذى يدعو

الشخص أن يقول لمخلوق مثله ، أنا عبدك أنا العبد الخاضع ، أنت ولى النعمة ، أنت رب المكارم ، أنت العظيم الكبير ، ذلك التغالى الذى جعل الناس يجترئون على إسناد صفات الله لغير الله « أفمن يخلق كمن لا يخلق » : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) . (قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) . لم لايتمسك الناس بما كان عليه السلف الصالح ، فيعطون ما للأمير للأمير وما لله لله . واللغة واسعة ، والألفاظ كثيرة ، وألقاب التفخيم لا تحصى ، وبالله التوفيق .

٧٧ — أسباب كثرة السكان بمصر

والوسائل التى تقى البلاد شر كثرتهم

مصر بلادنا ليست الآن حربية . وقد كان لجيشها فيما مضى مقام معدود ، وفعل محمود ، ومواقف مشكورة ، ومواقع منصورة ، وقوة بين جيوش الأمم يخشون بأسها ، ويتقون غضبها ، ويرهبون نزالها . فلما أصبحت تحت سيطرة غيرها ، ضعف جيشها ، وقل مقامه ، ونقص عدده ، وزالت هيبته ، ولم يعد له اسم يذكر بين الجيوش . وصارت لا تخوض غمار الحرب ولا ينزل جيشها فى ميادين القتال والضرب ؛ فكثر عددها وزاد سكانها ، وأمنت شر القتال ، وما كان يحصده من أموال ورجال ، وليت ما كان يعود . وإنه سيعود إن شاء الله تعالى

ماء الحياة بذلة كجهنم   وجهنم بالعز أطيب منزل

وسيكون للجيش مقامه الأول ؛ وسيرته الأولى فى هذا العهد المبارك عهد الحرية والاستقلال . وإن الحركة القائمة الآن للتبرع لمشروع الدفاع الوطنى لتبشر بنجاح عظيم يعيد للجيش والطيران ما كان لجيش مصر من المقام والاحترام .

ومما ساعد على وفرة السكان بمصر جودة مناخها ، وطيب هوائها ؛ واعتدال جوها ، واتجاه الحكومة والأمة إلى العناية بالشئون الصحية فيها . فقد كثر الأطباء الماهرون ، والصيادلة العارفون . وأنشئت المستشفيات ؛ وبنيت المصحات ، فقلت الأمراض القتالة

وضعفت الأوباء الفتاكة . ولو أن ذلك لم يأت عليها ، ولم يقض القضاء كله على شرورها إذ لا تزال الأمراض فاشية ، ولا تنفك العلل شائعة . وكذلك زاد السكان لحسن موقع مصر ، وخصب أرضها ، وضخامة ثروتها ، وقبولها على الرُّحب والسعة كل من دخلها ، فقصدها الناس من كل فج ، وهاجروا إليها من كل صوب ، وقل أن يخرج منها من سكنها ، أو يرحل عنها من استوطنها . فكثر عددها بهؤلاء الوافدين والمهاجرين ، وأصبحوا من المصريين لهم مالهم وعليهم ما عليهم . واختلطوا بهم نسباً وصهراً فأكثروا فى عددهم ، وزادوا فى سواد الامة .

ومما زاد السكان سعة البلاد ، فلم يضطر أهلها للهجرة كغيرهم سكان البلاد الأخرى ، بل ذلك مما حبب إلى الناس استيطانها وجعلها دار هجرة لكثير من سكان الأقطار الضعيفة ، فامتلأت بالسكان ، وغصت بالنازحين إليها من كل مكان .

ونشأت كثرة المصريين كذلك من جهلهم وعدم ميلهم إلى الهجرة ، وتشبثهم بالمعيشة فى بلادهم ولو على الذل والهوان والفقر والضيق ، فكثروا كثرة لا فائدة فيها . وكذلك زادوا لإباحة تعدد الزوجات ، وزواج الصغار والصغيرات . مما جعل الواحد منهم يصبح وله أولاد ولأولاده أولاد ولأولاد أولاده أولاد ، وهو على قيد الحياة ، يعانى ما يعانى من العذاب والضيق فى سبيل تربيتهم .

أما المضار الناشئة عن كثرة السكان بمصر فهى كثرة المتعطلين والمتعطلات . والتزاحم على الوظائف ، والتقاتل للحصول على أسباب الحياة . ففشت الشرور والآثام وعمت الفوضى فى الأخلاق والآداب ، وكثر الملق والنفاق ، ولجأ الناس إلى الرشوة والرياء ، وقل الأمن وانتشر الفساد ابتغاء الكسب وسعياً وراء الفائدة ، وهرباً من الضيق والعسر .

والذى يقينا شر هذا المضار (١) هو إحياء الأرض الموات حتى يجد الفلاحون وأبناؤهم متسعاً لعملهم فيشتغلون ، ويفيدون ويستفيدون ، ولا يبقى فيهم المتعطلون . مع

بذل كل الوسائل التى تجعل الفلاح فى أمن على زرعه وعمله وشغله وكده وصحته وحياته (٢) والمحافظة على ماء النيل بإقامة القناطر والجسور ، و بناء الحواجز والسدود ؛ وحفر الترع والمصارف وتنظيم الرى تنظيما يجعل الفلاحين فى أمن على الماء من العطش وقلة الماء ، وبذل كل ما يوصل إلى الانتفاع بجميع مياه النيل فلا تضيع فى البحر سدى . (٣) والإكثار من النقابات التعاونية والمصارف الحكومية والوطنية التى تجعل الفلاحين والعمال فى اطمئنان على زروعهم . فلا يذهب تعبهم المرابين ، ولا يعيشون عبيداً للمصارف الأجنبية (٤) و إنشاء المعامل الأهلية و دور الصناعة الوطنية فتكثر الأيدى العاملة وتقل المتعطلة بشرط أن نُفضل مصنوعات مصر على غيرها ، ونشترى جميع حاجاتنا من إخواننا فى الوطنية ، ولو كانت أقل من غيرها جودة و إتقاناً . فذلك مما يجعل ثروة البلاد فى أيدى أهليها و يضعف من سيطرة الأجانب ، و يخفف من نهمهم ، و يقلل من جشعهم ، فينقص عددهم وترتاح البلاد من عبئهم (٥) والاقتصاد بالاقتصار على الأشياء الضرورية . فلا نصرف الأموال ذات اليمين وذات الشمال فى الأمور الكمالية ، وفى البيوت الأجنبية ، وفى الملاذ الذاهبة ، والشهوات الفانية ، والملاهى والملاعب ، والاسفار والمصايف مما يأكل الثروة و يزيد فى عدد المتعطلين (٦) ومحاربة الشحاذة بكل الطرق الممكنة بإنشاء الملاجىء للأحداث ، وأماكن العمل المتشردين فتنتفع البلاد بأيديهم ، وتستفيد بقواهم . فيقل عددهم . وتنقص شرورهم (٧) ومحاربة الأمية بنشر التعليم الأولى و بث مكارم الأخلاق . و إذاعة التعاليم الدينية . مما يجلب إلى الناس العمل . و ينفرهم من البطالة والكسل (٨) ونشر التعليم العمل المستمر فذلك له أثره الفعال فى حياة الأمم وسعادتها . و رقيها وقوتها . فلنحذ حذو البلاد التي انتفعت بعلومها . ولنقف أثر الأمم التى استفادت بمعارفها . ولا نجمد على ما ورثناه عمن سبقنا من العلوم التى جعلتنا لا نستطيع أن نعيش فى غير دور الحكومة وغلت أيدينا . وأخرتنا وأخرت أبناءنا وصيرتنا جميعاً خدماً وعبيداً لغيرنا . فلنبحث عن العلوم التى

تؤهل من يتعلمها للحياة . وتجعله قادراً على كسب العيش فى أى مكان وزمان . وتفتح أمام عينيه طرائق العمل ممهدة . وسبل الغنى والثروة مذللة . بذلك نأمن شر كثرة السكان . ونصل إلي ما نبغيه من سؤدد وكمال . في هـذا العهد السعيد عهد الحرية والاستقلال .

٧٨ — حقوق الأسرة

الأسرة مجموعة من الناس تربطهم رابطة القرابة ، أو تجمعهم جامعة النسب ، يعيشون عيشة واحدة ، ويسكنون بيتاً واحداً ، قد اشتركوا فى منافع الحياة ومضارها ، وخيراتها وشرورها ، ولهم وعليهم من الحقوق مالا يطيب عيشهم إلا به ، ولا يهنأ مقامهم بغيره ، ولا يطمئنون فى حياتهم من دونه .

وأول هذه الحقوق ، وأحقها بالمراعاة ، هو الإخلاص فى السر والعلانية ، والصدق فى القول والعمل ، فيكونون جميعاً كشخص واحد ، يؤلمه مايولم أى عضو من أعضائه ، ويسره أن تسلم جميع الأعضاء ، فكل فرد من أفراد الأسرة عليه أن يعرف أحوالها ، ويكون على علم بمـــا يحصل لها من الخير والشر ، والضرر والنفع ، فيفرح لدواعى الفرح ، ويحزن لأسباب الحزن ، مجتهداً فى بقاء مايسرها ، مجـداً فى زوال ما يحزنها ، كذلك يلزمه أن يحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره لسواه ما يـكره لنفسه ، ومن الإخلاص والصدق أن يسود الوفاق والحب ، والألفة والوئام ؛ وتتم الحرية والعدل ، فلا يخشى أحد أحداً ، ولا يخاف شخص شخصاً ، ولا يظن به سوءاً ، ولا يريد به مكروهاً ويحافظ كل على أسرار غيره ، ويسعى فيما يحبه ويرضيـه ، إن رأى خيراً جلبه إليه ، وإن وجد شراً دفعه عنه ، وبعد هذا وذاك يرشده إن احتاج إلي الإرشاد ، ويدله على ما فيه الهدى والرشاد ، مع الحزم والعزم والحكمة والحلم ، والأدب واللطف ؛ والابتعاد عن كل مبغض ومنفر وجالب للخصام والشقاق والنفور والنزاع .

ومن الحقوق الجديرة بالعناية والاهتمام المحافظة التـامة علي حسن سمعة الأسرة ،

وطيب سيرتها بين الناس ، وذلك بالتمسك بمعالى الأمور . والبعد عن مقابحها ، وإعلان ما يدل على رفعتها وشرفها ، وعلو قدرها ، قولاً وفعلاً ، فكل واحد عليه أن يكون فى هيئته وجلسته ومشيته وكلامه وجميع أعماله على أكمل وجه ، وأحسن حال ، فإنه عنوان أسرته ، وعلمها المنشور ، وهو الصفحة التى يقرأ الناس فيها مقدار بيته ، ومقام أسرته ، ودخائل منزله ؛ فأى عمل من الخير أو الشر منسوب إليه أولا ، وإلى أسرته ثانياً ، فلتكن أعمال كل فرد فى الأسرة طاهرة نقية خالصة جميلة طيبة ، فالولد عليه أن يقوم بمطالب أبويه خير القيام ، وأن يحبهما أشد الحب ، وأن يسعى فى رضاهما جد السعي ، ولو صادف المشقة والعناء ، والصبر خير فى الأمور عواقباً ، وعليه أن ينصر أخاه وأخته ، ويرضيهما ويودهما ، ويكون لهما ، ولا يكون ضدهما ، ويساعدهما فى كل المواقف ، فالأقربون أولى بالمعروف ، ورب الدار عليه أن يسير فى الأسرة بالعدل ، ويعنى بتربيتها وتهذيبها ، ويوجد أسباب السعادة والراحة لها ، فيكد ويعمل ، ولا يقتر ولا يبخل ، ولا يأتى ما يخالف شرعة الإنصاف ، وربة الدار عليها تدبيره وتنظيمه والقيام بكل ما يعود عليه وعلى ساكنيه بالسرور والسعادة ، ولا تصل إلى هذا بغير العلم والجد والخلق الحسن والإيثار على النفس .

ومن حقوق الأسرة سيادة الحب وترك الأثرة والمحبة الذاتية فذلك يقيها شر التفرق ويحفظها من الضياع ، قدمت امرأة إلى معاوية شاكية فأجابها فقالت ، ألى خاص ؟ أم لقومى عام ؟ فقال ما أنت وقومك ؟ قالت هى والله إذاً اللؤم ! إن لم يكن عدل شامل وإلا فأنا كسائر قومى ! قال اكتبوا لها ولقومها ، فهكذا كل من يريد الخير لنفسه ولأسرته حتى تتوثق المودة ، وتتمكن المحبة ؛ ويعيشوا جميعاً بقلوب خالية من الضغن ، بريئة من الغل ، منطوية على الوفاء والحب ، أما لو ذاع فى الأسرة حب النفس ، وشاع بينهم الميل إلى الاستئثار بالمنفعة ، تفككت عراهم ، وانحلت قواهم ، وعاشوا فى شقاق ونزاع وخصام وجدال ، ينصرون عدوهم ؛ ويعملون على فنائهم . (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)

والتمسك بالدين واجب على كل فرد من أفراد الأسرة ، وحق من حقوقها المقدسة ، فإن خشية الله توقف كلاً عند حده ، وتصده عن إثمه وشره ، وترده عن مكره وكيده فلا يعمل إلا الخير ولا يرضى بغير الحق ، وتلك هى السعادة التى لاينالها إلا الصالحون ويكفى لشقاء الأسرة وجود فرد واحد لا دين له ، فينغص عليها عيشتها ، ويوقعها فى الفتن والاضطراب والتفكك والانقسام .

ولا يليق أبداً أن يتبرأ الإنسان من أسرته لضعتها ، ويأنف أن ينتسب إليها لحقارتها ، ولكن عليه بدل ذلك أن يعمل لرفعتها ، ويسعى فى انتشالها من مهواة الضعة والانحطاط ، بكل ما أتاه الله من مال وقوة وعلم ، حتى تصبح من ذوات الشرف ، وتعد من أولات العز والمجد ، فيفتخر بها . وتفتخر به . ويشرف بها . وتشرف به . ويمتلكها بإحسانه وفضله . وتكون له ولا تكون عليه . والخير يأتى بالخير .

٧٩ — حقوق الأبوين

إن للأبوين من الحقوق والواجبات شيئاً كثيراً . يجب على المرء أن يؤدية . ويقوم به خير قيام . فهما اللذان ربياه صغيراً ورأيا فى سبيل ذلك صنوف العذاب . وأنواع المشاق فياطول ما وقفت به أمه ليلاً . رغبة فى راحته . وطلباً لرضاه . ومحبة فى سروره وكثيراً ما أنفقت من أزمانها . لنيل ما يبغى . والحصول على ما يريد تتكدر لكدره . وتحزن لحزنه . وتتألم لألمه . إذا مرض أسفت عليه . وإذا غضب صرفت جميع ما لديها من الوسائل لرضاه . كما أنها تفرح لفرحه . وتسر لسروره . وينشرح صدرها وقتما تراه متهلل الوجه . باسم الثغر . وكذلك أبوه قد بذل له من أمواله وأنفق عليه من نفيس أزمانه المقدار الوفير . والقسط الكبير . ليكون إنساناً كاملاً . قادراً عالماً فاضلاً . وهما بعد ذلك لا يطلبان منه أجراً ولا يبغيان عوضاً . وإنما هى المحبة القلبية . والشفقة الأبوية . وفقاهما لما يفعلان فرحين مسرورين . حتى إذا كبر كان فخرهما . وموضع سرورهما وأنسهما فى هذه الحياة . يريدان له التقدم . ويرجوان له السعادة . ويسعيان له

فى الخير . ليكونون من عظماء الناس وكبراء الأمة . و يسألان الله بقلب خاضع خاشع أن ينيله الدرجات العلا . والمنازل الرفيعة . أفلا يجب عليه إذاً أن يبذل كل ما لديه . و يصرف جميع جهوده . ليكونا عنه راضيين وله محبين . حتى يلقيا شيئاً صغيراً جزاء تلك الأعمال والخدم الجليلة . فإن مكافأتها . بمثل ما عملاه من ضروب المحال . نعم إن ذلك من أقدس الواجبات . فيلزم أن يبر بهما و يسمع لقولهما . و يطيعهما فيما فيه نفعه وخيره . ومن الأبناء من غضب الله عليه . فأغضب والديه وكدرهما . و إنه لظالم غدار كافر بنعمتهما . وجزاؤه الخزى الشديد . والعذاب الأليم . فى الدنيا والآخرة . فلا يجد من يقبل عمله . و يرضى فعله . بل يرى كل عارف به يمقته و يبغضه ، لأنه قادر أن يرضيهما . وسهل عليه أن يبر بهما ولو أنهما فعلا معه ما يراه قبيحاً ، فإنه ما أقبح أن يأمراه بالشرك ومع ذلك فالله يقول « و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ولم يجز له أن يقاطعهما و يعاملهما معاملة سيئة . بل أمره بحسن عشرتهما . فالولد قادر على أن يعرض عنهما فيما فيه ضرره بكل لطف . وأن يسمع لقولهما فيما فيه خيره بكل بشر ، قال تعالى : (وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

فمن الحكمة والعقل أن يبر المرء بأبويه و يرأف بوالديه و يحسن اليهما ، و يعاملهما بكل أدب و لطف ، وتعظيم وتكريم حتى يكون موضع أنسهما ، وفرحهما وحتى ينال الخير فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة .

وعلى الوالدين أن يراعيا حقوق الأبناء بالشفقة والرفق والعدل والقسط ، والتربية والتهذيب ، ولو وجدا فى ذلك العنت والتعب حتى يجدا من أبنائهم بررة عاملين ، وأولاداً صالحين ، وليخش الوالد والأم أن يركبا متن الشطط والقسوة والظلم فى معاملة الأبناء ، فذلك الذى يزرع الشقاء ، و ينبت فى الأسرة شجرة العداوة والبغضاء ، و يحمل

الأولاد على العقوق ، وإنكار مالوالديهما من الحقوق ، فإذا أحببت أن تنال حقوقك فأدّ ما عليك من حقوق غيرك ، فالخير يأتى بالخير والبر يأتى بالبر ، والله يحب المقسطين .

(٨٠)

وأحزم النـاس من لومات من ظمأٌ لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

من الناس من يعجل فى أمره ، ولا ينظر فى عاقبة عمله ، ، فيقدم عليه غير عالم به ، ولا عارف بموارده ومصادره ، فيقع فى أشراك نصبها لنفسه ، ومآزق دخلها بقدمه ، فلا يخرج منها ، ولا يتخلص من أسرها ، إلا وقد خسر شيئاً كثيراً ، من ماله ووقته وصحته ، لحمقه وجهله ، وعدم تبصره فى عواقب فعله .

ومن الناس من يتبصر فى العواقب ، ويفكر فى خواتيم الأمور ، ويعرف مواردها ومصادرها ، قبل الاقدام عليها ، والدخول فيها ، حتى إذا أراد الخروج منها ، والبعد عنها وجد الأبواب مفتحة ، والسبل ممهدة وطريق المصدر نيرة واضحة .

وإذا هممت بورد أمر فالتمس من قبل مورده طريق المصدر

ذلك هو الحازم المدبر ، الذى فكر فى الأمر قبل وروده وأبصر الخطب قبل وقوعه ، وعرفه قبل نزوله .

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الخطب إلا وهو للخطب مبصر

ولنضرب لكلا هذين مثلا بقائد عجل طائش ، وآخر عاقل حازم . أما الأول فانه يقتحم غمار الحروب ، ويرمى بنفسه وجنده فى مواطن الهلاك ، وهو غير عالم بقوة أعدائه ، وأماكنهم ومعاقلهم ، ومكامنهم وحصونهم ، وعدتهم وعددهم ، وغير عارف بطرق النجاة منهم ، هذا القائد إذا اشتد الخطب ، ووقعت الواقعة ، هزمته الأعداء وأذاقته وجيشه سوء العذاب ، وإنه لأحمق جاهل طائش مخذول ، مدحور مهما تكن قوته وقوة جنده ، الذين أسلمهم إلى الموت بحمقه وجهله ، ومثل هذا القائد الأحمق كل إنسان يباشر من الأعمال ما لم يعلم عاقبته ويعرف خاتمته ، ويلتمس مصادره . أما الثانى

وهو القائد الحازم المدبر فانه يعلم أواخر الأمور قبل اقتحامها، ويعرف أعقابها قبل اجتيازها، ويلتمس لنفسه طرق النجاة قبل النزال، ومقارعة الأبطال، وإنه لمنتصر بحزمه، ولو قلت جنده وضعفت قوته، ومثله كل واحد يتدبر فى أموره، ويفكر فى أعماله قبل مباشرتها والدخول فيها. وإن الأمة كالفرد فى ذلك، فالأمة الطائشة العجلة فى أمورها التى لا تتدبر عواقب فعالها لا تلبث أن تذهب بها الأيام، وتنتابها الحوادث، وتؤلمها المصائب، حتى تضمحل وتتلاشى، والأمة العارفة بعواقب الأمور وخواتيم الأعمال يعز شأنها ويقوى سلطانها، وتعيش آمنة مطمئنة، فى سعد دائم وخير عميم، وهذا ما عناه الشاعر بقوله:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

٨١ — النظام

النظام وراءه كل خير وسعادة لمن عرف به وكان من أوصافه وخلاله، وهو يكون فى كل شىء فى الطعام والملبوس والمنازل والمدارس والحوانيت والمصانع، وكل الأمور. فالذى ينظم مواعيد أكله يعيش قوياً قادراً بعيداً عن الأمراض، والذى ينظم ملابسه يكون معظماً محترماً موسوماً بالكمال. والمنزل المنظم ترتاح له النفس، ويطمئن إليه البال، والمدرسة المنظمة لا يتعب عمالها ولا يسأم تلاميذها. والحانوت الذى نظمه صاحبه، وأعد لكل نوع موضعه، تقصده الناس ويربح ربحاً كثيراً، كذلك الجيش المنظم مصحوب بالظفر والنصر. والمعلم الحريص على النظام يفيد تلاميذه، ويعيش فيهم محترماً. والتلميذ المعروف بالنظام مبشر بالفوز والنجاح، لأن نظامه يوفر عليه زمناً عظيما، يصرفه فى القراءة والتحصيل. فالنظام فى كل شىء من وسائل رقيه وتقدمه، وعلوه وارتفاع قدره. أما عدم النظام فهو طريق إلى الانحطاط، وسبيل إلى التأخر. فطالما رأينا ولا نزال نرى أن قوماً ممن تركوا النظام، ولم يعبئوا به نفر منهم الناس وتركوهم، مللا منهم ومن سوء إدارتهم، وعدم ترتيبهم، وضعف نظامهم. إنك لو

نظرت إلى حانوتين ، أحدهما منظم مرتب . والآخر مهمل غير منظم ، تجد نفسك ميالة إلى الأول راغبة فيـه ، ولو كان قليل البضاعة ، كارهة للثانى منقبضة منه ، ولو كان غزير البضاعة ، وذلك مما يقدم الأول ويؤخر الثاني . كذلك ترى التلميذ الذى لا يعرف النظام يضيع الوقت على نفسه وعلى إخوانه فى المدرسة وعلى نفسه خارج المدرسة فيتأخر وينحط قدره بين إخوانه ، وعنـد رؤسائه وأهله ؛ والذى يسير بغير انتظام فإنه يسير مروع القلب ؛ حتى إنه ليخاف من ظل نفسه ، ويـكون عرضة لمصادمة العجلات والسائرين ، والعثور والزلل ، إلى غير ذلك مما يراه المبعدون عن النظام ، فى سيرهم ، وفى غدوهم ورواحهم ، والمـكاتب المنظمة لا تؤخر أعمالهـا . والحـكومة المنظمة لا ترى ما يؤلمها ، والرجل المنظم يعيش آمناً ، مطمئناً محبوباً محترماً . فالنظام سبيل إلى القصد فى الزمن والمال ، وظهور الأمور على أحسن حال . ومما يقوى حب النظـام فى النفوس رؤية الأشياء المنظمة من جيوش ، ومبان ورسم ونقش وخط حسن ، والاختلاط بالذين يحافظون على النظام فى كل أحوالهم .

﴿ ٨٢ ﴾

البنت مـدرسة إذا أعـددتها أعـددت شعباً طيب الأعراق

لقد كتب الـكتاب ، وخطب الخطباء ، وقال الشعراء فى تربية البنت ووجوب تعليمها ، وجاد كل بما عنده ، وأبرز ما لديه من الأفـكار السديدة ، والآراء النافعة المفيدة . ولـكنهم اختلفوا فى كيفية تربيتها ، وتباينت آراؤهم فى طرائق تعليمها ، وعلام هذا الاختلاف ولأى شىء هـذا التباين ، ولدينا تاريخ يدلنا على ما كانت عليه بنات العرب ، فى صدر الإسلام وبعده من حسن المعرفة والخبرة التامة والتدبير النافع ، كعائشة رضى الله عنها ، وفاطمة بنت النبى ﷺ ، وكالخنساء وليلى وغيرهن ممن كملت آدابهن ، وعلت مداركهن ، وسرن بأولادهن وأسرهن فى طرق الهدى وسبل النجاح ، والشجاعة والإقدام . لو نظرنا إلى تربيتهن عرفنا أن أساسها هو الوقوف على التعاليم الدينيـة ،

وأخذهن منهـا بالحظ الأوفر ، والقسط الأعظم . فالدين هو الذى يعرف البنت كيف تعامل زوجها وأولادها ؟ وكيف تعاشر جيرانها ، وكيف تعيش مع الناس ، ويحتم عليها الصدق والأمانة ، وطهارة الأخلاق ، وعلو النفس مع العفة والبعد عن كل ما يضربها ، وبمن معها ، أو يضع من شرفها ، فواجب علينا إذا أردنا لبناتنا النجاح ، وأحببنا لهن السعادة والخير أن نبدأهن بتعليم القراءة والكتابة وحفظ طائفة من القرآن الكريم ، ثم بالتعاليم الدينية حتى تكون لهن حصناً منيعاً ، وحافظاً أميناً يبعدهن عن الشرور والآثام ويدنيهن من المكارم والآداب . وإنما يكون ذلك بانتقاء المعلمين من أهل الخبرة الدينية . وذوى الآداب الطاهرة المرضية ، وأولى الدراية ، وأصحاب التجربة والمعرفة حتى يسيروا بالبنات فى طريق الخير والسعادة . وبعد ذلك يعلمونهن تدبير المنزل تعليما شافياً كافياً وافياً نافعاً مفيداً . ولا سيما الأمور الصحية والأشغال اليدوية ، التى تغنيهن إذا افتقرن . وتساعدهن إذا احتجن . أما ضياع حياتهن وذهاب أوقاتهن ، فى درس العلوم الرياضية ، والحصول على اللغات الأجنبية ، وحفظ الأشعار ، ومعرفة الأخبار وكثرة الاستظهار . فذلك سعى فى شقائهن ، وشقاء من يعيش معهن . لأنهن يرين أنفسهن أرقى مقاماً ، وأرفع قدراً ، من أن يباشرن أعمال بيوتهن ويلاحظنها بأنفسهن ، وينصرفن إلى قراءة الروايات ، واستظهار الخرافات ، وترتيل الصحف والمجلات ، ويذهبن جل أوقاتهن فى التبرج والزينة ، ويخرجن عن حد الأدب ، وذلك ما نراه فى اللواتى تعلمن تعلماً ناقصاً ، وتربين تربية لا أساس لها ، هذا هو الضلال البعيد ، والفساد الكبير . وإن الأمة المصرية لتستقبل خطراً شديداً ، وبلاء عظيما ، من اختلاط الفتيات بالفتيان فى معاهد التعليم العالى . وقد بدت نتائجه السيئة ، وظهرت آثاره الضارة التى يشاهدها الناس فى النوادى والحفلات من هؤلاء المتعلمات ، ممـا لا يرضى به الدين ، ولا الشرع الشريف . وعلى الجملة يجب أن تربى البنت تربية دينية نافعة وسط قوم هم أحسن الناس آدابا ، وأكملهم أخلاقا ، وأعرفهم بما يفيدها ، وأعلمهم بما ينفعها ، ولا يسمح لها بمخالطة الفتيان ولا من لا تعرفه ، ولا

بالاجتماع مع الخدم أو غيرهم ممن سقطت آدابهم ، أو جهلت أحوالهم ، فبذلك نكون قد أعددنا لتربية الشعب أماً نافعة صالحة ، هى الإمام المقتدى ، والهادى المتبع فتربى لنا أولاداً صالحين ، وأفراداً للأمة نافعين . و بنات صالحات. وفتيات طيبات . وذلك ما يقصده من قال :

البنت مدرســـة إذا أعددتها   أعددت شـــعباً طيب الأعراق

٨٣ — الحرب

الحرب شقاء وعذاب ، و بؤس يتبعه عناء ، الحرب بحر ماؤه الدماء ، وسمكه الأموال والأنفس والثمرات ، الحرب نار وقودها الناس والحجارة ، والمدنية والحضارة ، وعاقبتها التدمير والتخريب والخسارة الفادحة والعداوة الباقية ، والنفرة الخالدة ، والعوز الشديد والضنك الفظيع ، والفقر المدقع ، والعذاب الأليم ، الحرب جحيم الدنيا ، فهى نيران تتأجج ، ومدافع تدك المعاقل والحصون ، وطيارات ترمى بالموت ، وتقذف بالحمم ، ورصاصات تخترق الصدور ، وسوائل تذهب بالأبصار ، وقذائف تصم الآذان ، وتأتى على العقول ، وتشعل النيران بالمدائن والقرى والأنفس والثمرات . وفى البحر ويل يتبعه ويل ، وهلاك بعده هلاك ، سفن هائلة تهوى إلى قاعه بمن فيها وما فيها ، وغواصات ونسافات وطرادات وحراقات ، وبارجات وطيارات ، وعذاب يغشى الناس من كل صوب ، من فوقهم ومن تحتهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فما هى إلا لحظة أو أقرب حتى تلعب بهم الأمواج ، وتتلقفهم اللجج ، ثم ينزلون إلى قرار مكين ، لايخرجون منه إلى يوم الدين ، اللهم إلا من كتب الله له السلامة ، ومد له فى الأجل .

فأى نفع يقابل هذا الضرر ، وأى ربح يرتجى بعد هذه الخسارة ، لانجد ولا نرى شيئاً يقوم بنفقات الحروب ، ولا سيا الحديثة منها ، كالحرب التى قامت بين ألمانيا وأعوانها وانجلترا وحلفائها ، فقد أوقدوا نارها فى أغسطس سنة ١٩١٤ ولم تنته حتى آخر سنة ١٩٢٢ فأوقعت العالم كله فى ضنك شديد ، وضيق كبير وشقاء عظيم ، وكانت تأتينا

أخبارها بالإغراق والإحراق ، والتدمير والتخريب والفتك الذريع ، والفعل الشنيع ، والتعذيب والتنكيل ، والإهلاك والتقتيل ، والضرب والأسر ، وهدم القرى والبلاد وضياع الأنفس والثمرات ، وقد ظهر فيها من أنواع المهلكات وصنوف الفاتكات ، مالم نكن نسمع به من قبل ، فما أفظعها من حرب لم يسبق لها مثيل ، ولم يتقدمها نظير منذ خلق الله السموات والأرض ، فهى الحرب العظمى ، والطامة الكبرى ، والداهية الدهياء ، والنكبة النكباء ، على العالم أجمع ، فلم ينج من أذاها أحد ، ولم يسلم من ضررها إنسان ، قد وقعت بين أشد الأمم بأساً ، وأقواها عدة ، وأكثرها عدداً ، وأعظمها حضارة ، ، لذلك طال أمدها ، واشتد ضرامها ، وعم ضررها ، وانتهت بتغيير عظيم فى نظام الأمم والحكومات ، والممالك والممتلكات ، بعد ماذهبت بالأموال والأنفس والثمرات ، وخرجت منها الدول مثقلة بالديون ، منهوكة القوى ، ثائرة النفوس ، مضطربة فى الحياة وقد أفضت إلى تكوين عصبة الأمم لتمنع الممالك من إيقاد نار الحرب ، فيتحاكمون اليها عند اشتداد الخصام ، واستحكام النزاع ، وهذه العصبة لاتأتى بالفائدة المرجوة إلا إذا برئت من التحيز ، وسلمت من الغرض ، وكان قصدها إقامة العدل وإيجاد السلام ونجت من الطمع الذى لايزال يقود الأمم إلى فاجعات الحروب ومهلكات المدنية والحضارة ، هذا الطمع الذى قاد إيطاليا القويه سنة ١٩٣٦ بمهلكاتها الجهنمية ، إلى غزو الحبشة و إنزالها بها ألوان العذاب والتدمير ، والإهلاك والتخريب ، والقسوة التي لم تعهدها الأرض منذ أوجدها الله للآن ، مماجعل الأحباش على شجاعتهم و بسالتهم وشدة بأسهم ونضالهم يسلمون قيادهم لإيطاليا ، بعد ويلات أفنت منهم أمماً ، وأزهقت نفوساً وأرواحا صعدت إلى بارئها شاكية ظلم الانسان لأخيه الانسان ، و إن ربك لبالمرصاد .

٨٤ — الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل وذل بالنهار

إن أصعب أيام ، وأشد أوقات تمر بالانسان ، وتضر به وتوذيه وتؤلمه ، وتنغص عليه عيشه وحياته ، هى تلك الأيام التى يكون فيها مدينا لغيره . وهذه الأوقات التى

يكون فيها مقترضا من سواه . ولو كان رب الدين أباه أو أخاه . أوصديقه الحميم ، بعداً للدَّين ماأشأمه . وما أشد ألم من لجأ إليــه وهو العبء الثقيل . والحمل الذى ينوء بحمله كل قوى . و إنه لهم بالليل . وذل بالنهار . فهو البؤس الدائم . والشقاء الكبير . إنَّ الفقير يحصل حاجته الهينة الحقيرة ، بعد العناء الشديد . والجهد الجاهد ، خير معيشة ، وأهنأ بالا . وأحسن حالا من الغنى الذى أثقل كاهله بالدَّين ، فالأول إذا أكل أكل هنيئاً وإذا شرب شرب مريئا ، وإذا لبس لبس فرحا مسروراً ، لأنه يأكل ويشرب، ويلبس من ماله ، ولو أنه تعب أشد التعب فى الحصول عليه . والثانى يكون منغصاً فى جميع الأحوال ، لأنه يقضى حاجته بمال غيره ، فلا يرى لذة . ولا يحس بسرور ، لأن شبح الدين أمامه فى كل وقت وحين . و إن الغنى الذى كان عزيزاً محترما ، عالى القدر والشأن رفيع المقام ، أصبح بالدين مهينا محتقرا ، ذليلا معذبا . يصاب المرء بمرض الترف والفخر ، وحب الظهور فيستدين الديون ليبنى له بيتاً مزخرفا ، أو ليركب جواد مطهما أو سيارة سريعة أنيقة ، أو ليلبس لباسا مجملا أو ليقيم زينة فاخرة ، أو مأتما لم يسبق له مثيل ، معتمداً على ثروته أو مرتبه ، فلا تساعده ثروته ، ولا يغنيه مرتبــه ، ولا يجد مايسد به دينــه ، فيقف موقف الحائر ، لايصادف طريقا للخلاص إلا الموت والهلاك فيستدين فينتحر و يموت وتذهب حياته ضحية الدين والجهل والغرور والفخر الكاذب أو يصبح من الذين يسألون الناس إلحافا فيعيش حقيراً ، ذليــلا مهيناً ، يطمع المغرور فى أن يصبح غنيا سريا ذا أرض واسعة ، وملك عظيم فيبيع مايملك من أرض وعقار . و يقرع أبواب المصارف ، فيأخذ المائة بمائة وعشرين وقد تزيد ليشترى أرضا أوسع ، وفدادين أكثر ، لتأتى له بغلة أوفر ، وأموال أغزر ، ليسد عوزه ويكون من أغنياء الأمة ، وذوى الثراء ، فلا تفى الأرض التى اشتراها بما ظن ، ولا تقوم بما طمع . فتتراكم عليه الديون وفوائدها ، حتى يضطر لبيع الأرض اضطرارا و يقع فى الفقر الدائم . والعذاب الأليم ، فما أنكد حياة رجل ساقه الطمع إلى المصارف ، وجره الغرور إلى الاستدانة

منها ، فإنه لايلبث حتى تنتزع منه أملاكه قهراً ، وتباع كرهاً وقسراً ، لسداد دينه ، والوفاء بما عاهد عليه المصرف ، فتنتقل ثروته إلى غيره ، وقد يكون غيره أجنبيا فيضر نفسه ووطنه ، وقد يستدين الرجل ولا يقدر على الوفاء فيقع النزاع بينه وبين الدائن ، وينتهى ذلك بالقتل أو السجن وقد يكون الدين الذى نشأت عنه هذه المأساة زهيداً ، دراهم معدودة كما حصل ويحصل من وقت لآخر . هذا هو الضرر البليغ ، والفساد الكبير ، وما يفعله بعض الموظفين من ابتياع الأشياء إلى أول الشهر أو إلى أجل ضرب من الحمق ، ونوع من الجهل فإنه يعيش لذلك عيشة الذل والهوان ، ويكون كخادم (أو أحط قدراً منه) يأخذ النقود من سيده آخر كل شهر ليوزعها على الدائنين ، فهذا يزدريه لقلة وفائه ، وهذا يحتقره لخلف وعده . وهكذا يقضى حياته معذبا . ولو أنه أحسن صنعاً لاقتصد ولم ينفق فوق طاقته ، وقتر على نفسه بعض التقتير ، حتى يتمكن من شراء كل شىء نقداً . فى ذلك نفع له عظيم ، لأن الأشياء التى تشترى بالنقد أجود وأقل ثمناً من التى تشترى لأجل ، وفوق هذا يكون المشترى عزيزاً محترماً حراً خالصاً يشترى ممن شاء ويأخذ ما شاء . لذلك كان الدين شر أنواع الفقر وكان هماً بالليل وذلا بالنهار ، ولذلك كان سبيلا صعباً سلوكها معذباً من سار فيها . فجدير بالمحتاج أن يعمل كل حيلة تبعده عن الدّين حتى يعيش عيشة طيبة ، بعيداً عن النزاع والخصام والجدال والازدراء والاحتقار . فإن الأخذ سهل والرد صعب ، والحاجة تنتهى والدّين يبقى ، والطلب يسير ، والوفاء عسير ، وقانا الله شر الدّين ، وهدانا إلى طرق الخير .

٨٥ — الاغراق فى الترف مدعاة لضعف الأمم

الترف أو التطرف فى أمور المعيشة من أسباب ضعف الأمم واضمحلالها ، وتأخرها وسقوطها ، فإنما الأمم بآدابها وأخلاقها ، وثروتها ومالها ، الترف ماحق الآداب والأخلاق مبيد الثروة والمال ، فكأين من أمة كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، سائرة فى حياتها بحكمة واعتدال ، وتدبير واقتصاد ، عاشت عيشة كلها خير

وهناء ، وعز وصفاء . فلما خرجت عن الحكمة ، وأمعنت فى الملاذ ، وأغرقت فى الترف وزادت عن الحد فى ملابسها ومساكنها ، وطعامها وشرابها ، وسائر أمورها ، ضاعت قوتها ، وذهبت سطوتها ، وسقطت من شامخ مجدها ، وانتهت حالها إلى أسوإ الأحوال ، ثم ماتت وزالت ، كأمة الفرس والروم والأمة العربية بالأندلس . قال الله عز وجل : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) ومن أصدق من الله قيلا . فالأمة إذا كثر فيها المترفون ومنيت بأهل العجب والغرور . فشا فيها داء الكسل والخمول ، والغطرسة والكبر ، والفساد والجهل فتؤذى ولا تنفع ، وتضر ولا تفيد ، حتى تهلك نفسها أو يهلكها غيرها ، تخلصاً من عبئها الثقيل ، وحياتها السيئة ، فإن همها يكون فى الملاذ والشهوات ، واللهو واللعب ، والزينة والخيلاء ، والعجب والكبرياء ، لا تُعْنى بثغورها ، ولا تسأل عن جيوشها ، ولا تنظر إلى العلوم والمعارف ، ولا تحفل بالفنون والصناعة ، فتكون على غير عدة ، ولا تبقى لها قوة ، وتعيش فى ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض ، فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى تندمج فى غيرها من الأمم ويحق عليها القول ، وتصبح أثراً بعد عين ، ويأتى على الكل أمر لا مرد له ، وكأن القوم ما كانوا . وذلك جزاء المترفين . زاد الله رزق الزراع والتجار وذوى الأملاك بمصر سنة ١٩٢٠ . فارتفع ثمن القطن ارتفاعا لم يسبق له مثيل ، فملئوا أيديهم بالمال ، ولكنهم لم يحسنوا تدبيره فأغرقوا فى الترف ، وأمعنوا فى الملاذ ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فخرجوا عن الحد ، وصار الغر منهم يرفل فى الدمقس وفى الحرير وينفق ذات اليمين وذات الشمال ، على غلاء الأسعار وارتفاع الأثمان ، وتغالوا فى شراء السيارات والضياع ، والمزارع والحقول ، بأثمان باهظة ، وأسعار عالية ، ظانين أن العام القابل سيكون كسابقه ، فأخلف الله ظنهم ، ونزل سعر القطن نزولا فاحشاً ، سنة ١٩٢١ فوقع التجار والزراع والملاك فى الضيق والبؤس ، وتبعتهم الأمة فى ذلك فأصيبت بالفقر المدقع ، والعوز الشديد ، ولم يزل الناس للآن كسنة ١٩٢٠ التى لم ينتفعوا بها ، ولم يستفيدوا

منها بادخار ما زاد عن حاجتهم ، واقتصاد ما فضل عن ضرورتهم ، حتى يجدوه وقت محنتهم ، وتلك نتيجة الإغراق فى الترف . ومما يستوجب العجب ويبعث على الكدر ما يقع من فئة الشبان المصريين ، الذين يتأنقون ويفرطون فى التأنق ، فى كى الشعر وتجميل الوجه وتزيين اللباس ، وتحسين الهيئة ، وتنسيق الشكل ؛ ثم يسيرون فى الطرقات كبراً وفخراً ، وعجباً واختيالا ، يؤثر فيهم النسيم ، ويؤذيهم الهواء العليل ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وإذ فتشت فى قلوبهم رأيتها كالحجارة أو أقسى . لا تفقهُ ولا تعقل . يحسبون أنهم على شيء من المعرفة والعلم ، وهم أجهل الناس بالحياة ؛ وأبعدهم عن الهدى والرشاد . فإن للرجال عملا ، وللنساء آخر ، وكل يليق به ما يناسبه :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات لبس الشّفوف

وإن للترف بمصر أعواناً وأنصاراً ، وجيوشاً لاتغلب ولا تقهر . أولئك هن الفتيات المغرورات ، والسيدات المفتونات ، كل يوم زى مخصوص ، وطراز حديث ، وبدع جديد . مما ناء بحمله الرجال ، ونفدت له الأموال ، وامتلأت به خزانات الأجانب من التجار ، فما أسوأ هذه الحال ، إن لم نحاربها بكل الوسائل ، ونأتى على شرها بكل الطرق ، والظفر مؤكد إن ساعدتنا الفضليات المتعلمات ، بأن يكن خير قدوة ، وينشرن الدعوة فى ذلك ، وما هو عليهن بعزيز .

٨٦ — الميسر (القمار)

ما لمصر قد شاع الميسر فيها ، وذاع القمار فى نواديها ، على مرأى ومسمع من أهليها ورضا قومها وبنيها . وكأنه أمر عادى ، وفعل ممدوح ، وعمل مقبول ، قد عكف عليه الصغير والكبير ، والغنى والفقير والمتعلم والجاهل ؛ يهب له وقته ، وينفق فيه حر ماله ، كيف وهو الذى يفسد الأخلاق ، ويمحق الآداب ، ويوقع فى الضيق والعسر والعداوة والشحناء ، والإفلاس القاتل . والفقر المميت . وكل نقيصة ورذيلة وفساد وهلاك . ومقت الله وغضبه الشديد . يذهب اللاعب إلى بيوت القمار . وأندية الميسر . وهو مثقل بالأموال

يحمل الذهب والفضة . ومعه الورق النقـدى . فيخسر كل مامعه ثم يخرج عائداً إلى بيته وأهـله وأولاده وذويه . وهو مثقل بالأوزار والديون . والآثام والهموم . حتى إذا طلع النهار . جاءه زبانية الشقاء والفقر يطالبونه بسداد ما اقترضه منهم، وتنفيذماوعدهم به بكل وقاحة وسفالة . ودناءة وفظاظة . وإذاً تـكون الطامة الـكبرى ، والداهية العظمى فاما الأداء والوفاء، وإما تحكيم القضاء . فلا يرجعون حتى يحصلوا على مايريدون وهم عن المدين لايسألون . ولا هم إياه يرحمون . ولو وقع فى الضيق والعسر والهلاك هو وأهـله وأولاده ومن تلزمه نفقته . والشواهد على ذلك كثيرة . إن أمكنة الميسر من أكبر الأدواء التى تعوق البلاد عن التقدم . هى السلاسل والأغـلال والأصفاد التى لانجاة منها ولا صعود . وهى باقية موجودة . هى ماحقة الثروة . هى ماحية الفضائل . هى الوسيلة الـكبرى لجميع الرذائل . فالـكذب والخداع والغش والاحتيال . والبطالة والـكسل . كل هـذه وغيرها من نتائج الميسر ومن ثمرات القمار . ماهو الرهان بالمال على سباق الخيل . . ؟ هو سبب الشقاء والويل ! . . وما هو (صيـد الحمام) . . ؟ هو والله الحمام والموت الزؤام ! . . ماهو (الروليت) . . ؟ هو الخسارة السريعة . والداهية المريعة . ماهو (البليارد) . . ؟ هو المفسدة الـكبرى . الضيعة العظمى . ماهو النرد (الطاولة) ؟ هو ماحق الثروة ، هو مهلك الزمن ، هو اللاهى عن العمل ، ماهى (الـكرشينة) هى الأدواء الدفينة ، جالبة الخسارة والضغينة . ماهو (اليانصيب) هو سالب مال الناس خلسة وخفية . ماهو وما هى من ضروب الميسر ، وصنوف القمار ، التى شاعت وذاعت ، وطمت وعمت ، ورست ورسخت ، فى مصر وفى أهل مصر ، فى القهاوى والنوادى والبيوت والمتنزهات ، والطرق والدكاكين ، إن هـذا لهو الضلال البعيد ، والخزى الـكبير ، يقول الغر المخدوع دعنا نتمتع بحياتنا ، دعنا نرتع ونلعب ، فساعة اللهو لاتعوض ووقت اللعب أجمل الأوقات ، وحلاوة الـكسب بالدنيا ومافيها ، ومن فيها ألم ير إلى الذين بيدهم المال من الأجانب ، ولهم فيه القول الفصل ، وبهم الحل والعقد ، هل فيهم

إلا جاد عامل ، حريص عنيد ، يقظ نبيه ، لايلهيه عن خدمة وطنه و بلاده ميسر ولا قمار ، ولا هزل ولا لعب . إن لها فبما يفيد ، وإن لعب فبما ينفع ، فلا يراهن ولا يقامر ، بل يصرف وقت الراحة فى تقوية جسمه بالألعاب البدنية : كركوب الخيل ، والجرى ، والصيد ، ولعب الكرة وغيرها ، فكل أعماله لفائدته وفائدة بلاده . فياويل مصر وأهلها إن لم يحاربوا هذا الداء القتال ، داء الميسر والقمار ، بالكف عنه ، ومنع العاكفين عليه من الدخول فى أنديته و بيوته ، ومقاومة الساعين إليه ، والقائمين عليه ، بكل الوسائل المشروعة ، والطرق المقبولة ، ياعجبا كل العجب . يأتى النزيل الخبيث إلى مصر فيفتح فيها دور الميسر ، ويقيم أندية القمار ، ليبتز أموالنا ، و يفسد أخلاقنا ، ويمحو آدابنا ، فنقبل عليه ، ونميل إليه ، ونقع فى حبائله وشباكه فيغنى ويسعد ، ونشقى ونفتقر ، ويرسل إلى بلده الذهب والفضة ، ونرسل على بلدنا صواعق الضيق والعسرة . أليس ذلك هو الجهل الفظيع ، الله أمرنا باجتناب الميسر فى محكم كتابه ، وأرشدنا إلى أنه (رجس من عمل الشيطان) فربح من سمع وأطاع ؛ وخسر من لها وعصى . إن سعادة الأمة والبلاد لاتكون والميسر موجود ، والقمار شائع ، فلنعمل على محوه بضرب الضرائب الفادحة ، وإرشاد الناس إلى نتائجه السيئة ، حتى لاتضيع علينا الحياة ، بل نملؤها بالفعال المجيدة ، والأعمال الحميدة ، فالحياة محدودة ، والأنفس معدودة ، وما مضى وانقضى من العمر لا يعود :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانى

٧٨ — الاتحاد والتفرق

الاتحاد هو اجتماع الكلمة ، وائتلاف القلوب ، وتوثيق عرا المودة بين كل جماعة تحب الخير لنفسها ، وتبغى السعادة لبلادها ، وتود الوصول إلى غايتها ، أما التفرق — نعوذ بالله من شر التفرق — فهو اختلاف الكلمة ، وتنافر القلوب . وفصم رباط الألفة وتباين الآراء تبايناً يضر بالأمة ويأتى على قوتها وسعادتها وهنائها ، فالاتحاد نافع محبوب

والتفرق ضار مكروه ، والله أمرنا بالاتحاد والألفة . ونهانا عن التنازع والفرقة . فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وقال (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فبالاتحاد تأتلف القلوب . ويخفق لواء السعادة والسلام بين المتحدين . وبالتفرق تضمحل الأمة وتتشعب الآراء . وتتنافر القلوب . ويسود الفشل . ويتأكد الضرر . وتكون العداوة والبغضاء ويفشو الخصام والشحناء، وتنصرف الأمة إلى المشاكسة والتنابز والقدح والذم. والسب والشتم ، وتبدو الفرصة للعدو فيثب وثبته ، وينال طلبته ، فالقوة فى الاتحاد . والخذلان فى التفرق .

والتاريخ بين للناس أن الأمة المتحدة كالمصريين أيام سطوتهم وقوتهم وعزهم ، والفرس أزمان مجدهم ، والرومان حين امتداد سلطانهم ، هم وغيرهم من الأمم ذات البأس والنفوذ ، لم يبلغوا غاية الشرف ، ولم يدركوا نهاية النعيم ، إلا بالاتحاد والائتلاف واجتماع القلوب ، وتبادل الحب والعدل بين جميع أفرادالأمة ، ولم يسقطوا من شامخ عزهم وعالى مجدهم ، إلا بالتنازع والتفرق والتنافر وتباين المذاهب والآراء ، وفساد القلوب ، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

هذه الولايات المتحدة بأمريكا لم تبلغ هذا الرقى العظيم ولم تدرك ذلك التقدم الكبير ، إلا باتحادها التام ، ووقوفها أمام أعدائها ، وقفة الطود الراسخ ، لاتزعزعه العواصف ، ولا تؤثر فيه العوارض ، والآن لها بين الدول المكانة العظمى ، والهيبة الحقة ، والعزة التى لا تسامى ، تأمر فيطاع أمرها ، وتطلب فيجاب طلبها ، بها يستغيث الضعيف ، ومنها يخاف القوى ، ذلك بأنها اتحدت كلتها ، واتجهت قدرتها لما فيه سعادتها لا خصام ولا تنازع ، ولا خلاف ولا شقاق ، ولا تفرق ولا فشل ، يشير الرئيس فتعمل الأمة بإشارته ومجلس الشيوخ رقيب عتيد يمنع كل ضرر أو سوء يحيق بالأمة ، بذلك بلغت ما بلغت ، وكانت قبل ذليلة خاضعة للغالبين من الإنجليز ، و باتحادها أزاحت عن كاهلها عبء الاستعباد ، وألقت عن نفسها رداء الذل والاستعمار ، وعاشت سعيدة آمنة

مطمئنة فى ظل الحرية ، وتحت لواء الاستقلال ، كذلك اليابان والطليان وكل أمة لها السيادة الآن ، وهذه الدول الإسلامية التى بلغت بالأندلس عزاً لا يسامى ، ومجداً ليس بعده مجد ، ضاع عزها ، وذهب مجدها ، وباد ملكها لما تفرقت شيعاً ، وتعددت أمماً ، وتشتت ملوكاً ، فى كل أرض أمير المؤمنين وفى كل بلد خليفة المسلمين ، وكل ملك بنفسه فريد ، وفى بحر لذته غريق ، ولعدوه معين ، ولأخيه محارب ، ولأبيه منازع ، ولابنه مخاصم .

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً سورة الأسد

فحق عليها القول ، ودمرها الله تدميراً ، وتلك نتيجة الفرقة ؛ وهذه عاقبة الفشل ، لامفر منها ولا محيص عنها .

أتى على الكل أمر لا مرد له   حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك   كما حكى عن خيال الطيف وسنان

فما أضل قوماً يقفون على ذلك ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ثم يسعون سعيهم ويقتلون وقتهم ليلاً ونهاراً ، سراً وإعلاناً لإحداث الشقاق فى أمتهم ، والعمل على التفريق بين بنى وطنهم الذى غطى عليهم نعيمه ، وغمرهم خيره وفضله ، أولئك هم الظالمون الباغون ؛ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء المنقلب ، فلا بد يوماً أن يكشف الله أمرهم ويعرف الناس سرهم وجهرهم ويقضى الله عليهم ، ويريح الأمة والبلاد منهم ، فما أوجب أن تتمسك الأمة بالاتحاد وتعتصم بحبل الائتلاف فى كل أعمالها ؛ وفى جميع مواقفها ، لتصل إلى غايتها ، وتدرك بغيتها ، ولو اتفق ثلاثة على أمر وصلوا إليه وأدركوه ، ولو اختلف ألف على أمر ما نالوه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

٨٨ — العمل للمصلحة العامة

المصلحة العامة ، أو الخير العام أو السعى لإفادة مجموع الأمة شىء واحد هو المقصود من هذه الحياة ، وهى نتيجة عمر المرء فى هذه الدنيا ، فما خلق الإنسان إلا ليفيد ويستفيد ،

وينفع وينتفع ، حتى يعيش مع أبناء وطنه على المحبة والوفاء ، والصدق والإخلاص ، فعليه أن يعمل الخير لبلاده ، ويسعى فى الفائدة لقومه ، مهما يصادف فى سبيل ذلك من أنواع المشاق ، ومختلف الصعاب ، فيهب نفسه وماله وقوته لتتقدم البلاد ، وتسعد الأمة ويتم الخير ، ويكمل الصفاء ، وكل واحد عليه نصيب من العمل الطيب للأمة والبلاد بقدر قيمته ومنزلته واستطاعته ، لا فرق بين الوزير الكبير ، والعامل الصغير ، فمن الجهل الشنيع ، ألا يعبأ المرء ببلاده ، ولا يهتم بشئون أمته ، فيقول ما على إذا سعدت البلاد أو شقيت ، وما يعنينى إذا تقدمت الأمة أو تأخرت ، ما دمت فى لذة ونعيم وهناء مقيم ، وخير عظيم ، مرتاح البال بعيداً عن جميع الآلام ، نعم هــذا هو الجهل الشنيع ، والجرم الفظيع ، وهو عين الجبن والمذلة والصغار والمسكنة والانحطاط الهائل فى الأخلاق والآداب .

وما للمرء خير فى حياة إذا ماعد من سقط المتاع

كبر مقتا عند الله ، وعظمت خيانة للوطن وأهله ، أن يعمل المرء لشخصه ويسعى لفائدة نفسه ، تاركاً إخوانه فى الوطنية يبيتون على الطوى ، ويتقلبون على جمر الغضا . ويذوقون مرارة الضيق والضنك ، وهو بعيشه نعيم ، وفى عقر داره مقيم ، ولو تحرك وعمل وخرج من كنه لأفاد كثيراً ، وكان من المحسنين ، أى عذر لمن يقدر على النفع ويحجم عنه ؟ وأى مانع يصد الخير عن فعل الخير ؟ لا عذر ولا مانع إلا ما يكون من الجهل المبين والبخل الشديد ، والجبن العظيم ، هذه صفات لو وجدت فى الشخص قتلته وعن البر أقعدته ، وفى المهالك أوقعته ، وعن الأمة أبعدته ، إن الوطن بيتنا جميعاً ، فليقدم له كل منا ما يقيه ويحفظه ، ويصونه ويحرسه ، جهد المستطاع ، حتى يدوم له ذلك البيت الذى ينتفع به ويأوى إليه .

فعلى كل إنسان أن يقوم بنصيبه من العمل للمصلحة العامة ، نابذاً خلق التواكل من نفسه ، طارحاً شيمة التخاذل عن قلبه ، محباً لغيره ما يحب لنفسه ، حتى تكون

الأمة كلها جسماً واحداً وبناء واحداً ، وقوة واحدة ونفساً واحدة ، وهـذا ما أمرنا الله به إذ يقول عز وجل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ، كفى الله الأمة شر الفرقة ففيها الضعف ، والفناء ـ نعوذ بالله من ذلك ـ إن العمل للمصلحة العامة سبب فى الائتلاف بين أفراد الأمة وداع إلى الاتحاد التام ، وموجب للمحبة الصادقة . والإخلاص الحق . والمودة الحقة ، فالصانع عليه أن يراعى المصلحة العامة فى صناعته فيتقنها و يسعى فى تقدمها ، و يعتصم بالأخلاق الفاضلة . والآداب الـكاملة . والمعلم عليه أن يخلص فى تعليمه . و يعمل لخير تلاميذه . والتاجر عليه أن ينتقى خير الأشياء بثمن مناسب متمسكا بـكل صفة كاملة ، وكل إنسان عليه أن يـكون له أثر فى إسعاد الأمة ونفع البلاد على قدر استفادته منها فما أشد جرم رجل يحب نفسه فيضحى ببلاده لنفع ذاته . و يقتل أمته لإحياء نفسه ، و يضر قومه حباً فى لذة فانية ، ومال زائل وحياة ذاهبة . إنه لخائن منافق ، لص غاش غدار مخـادع عليه اللعنة . وله سوء المنقلب . تعساً له ما أشد إجرامه . وحب الوطن ممـا يسوق الانسان إلى العمل للمصلحة العامة ، كذلك الإطلاع على سير العظماء ، والملوك والـكبراء وأهل الصلاح والخلق الحميد ، فإنهم لم ينالوا العلا إلا بالسعى للمصلحة العامة والعمل للخير العام ، فواجب على الوطنى المخلص لبلاده ، أن يمكّن من نفسه هذا الخلق بكل الوسائل فلا يعمل لذاته و يسعى جهده لنفع أمته و بلاده ، ليـكون هدى ونوراً وخيراً كبيراً لبنى وطنه ، و يعيش معهم فى أمن وسلام وعز تام .

٨٩ ـ الاستطلاع والـكشف ، والتنقيب والبحث

لا يصل الإنسان إلى كنوز الأرض وخيراتها . وخفيات البحار ومكنوناتها . ومخبآت السموات وما فيها ، ولا يدرك رغائبه مما خلقه الله فى هذه الدنيا عفوا بلا جد ولا تعب ولا بحث ولا سعى ، ولا تنقيب ولا تفتيش ، نعم لا يمـكنه أن يصل إلى شىء من ذلك وهو قاعد مستريح ، فهذا ما لا يـكون أبداً .

وهـذا زمان أرضه وسماؤه   مجـال لمقدام كـبير حياة

فالبحث لازم ، والسعى واجب ، والعمل مطلوب ، خلق الله لنا الأرض والسماء ؛ والبحار والأنهار ، والوهاد والجبال ، والنبات والحيوان ، وكل شيء ، لا لننظر إليهما نظر الجهلة الأغبياء ، ونعيش بينها عيشة الحيوان ، لاهم له إلا أن يأكل ويشرب ، بل خلقها العليم الحكيم ، لينتفع بها العاقل الفطن ، ويستفيد منها النبيه النشط ، ويبحث فيها المفكر العارف للحياة قيمتها ، وللدنيا فائدتها ، وليقر له بالوحدانية والقدرة كل من وجه نظره لتلك المخلوقات ، وهذه الموجودات ، قال تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأوض وما خلق الله) وقال (خلق لكم مافى الأرض جميعا) وقال(وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً) وقال (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وقال (وفى السماء رزقكم وما توعدون) فأمرنا بالنظر والبحث ، والسعي والجد ، والانتفاع بنعمه الوفيرة ، ومنه العظيمة ، وأوضح لنا ذلك كل الايضاح . هدى الله العاملين ، فجدوا وسعوا وساروا ومشوا ، وتعبوا وبحثوا وجاهدوا وصبروا ، وهاجروا وأوذوا ، يبتغون فضل الله ، ويرجون نعمة الله ، ويريدون الحياة السعيدة ، فعادوا بالربح والخير العظيم ، ووصلوا إلى مافيه رفاهتهم ، ورفاهة غيرهم ، وانتفعوا بالسماء وكواكبها ، والأرض ومناجمها ، والبحار وخيراتها ، والهواء والفضاء ، وما خلق الله فى الأرض والسماء ، واخترعوا المخترعات ، وأوجدوا المستحدثات ، ولكن بعد بحث طويل وتفكير عميق ، وصبر مرير ، وإنفاق كبير ، واجتهاد قاتل .

تريدون إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

فما هذا الخمول ، وما تلك الدعة ، أيريد الجبان العز وهو قاعد ؟ أيبغي الكسلان السعادة وهو قابع أيرغب فى الحياة وهو ميت ؟ يأتى السائحون إلى بلادنا ليروا آثار من سكنوها متعاقبين، وتتابعوا عليها حاكمين، واستوطنوها أمة بعد أخرى وتلك الآثار الدالة على مدنية خالدة ، وحضارة راقية؛ وحياة سعيدة ، وعيشة عزيزة ، لقوم أولى بأس وقوة ، ومنعة وعزة ، وعلم ومعرفة ، وخبرة وتجربة ، أولئك هم قدماء مصر الذين :

مشت بمنارهم فى الأرض (روما) ومن أنوارهم قبست (أثينـا)

يجيء السائحون ليشاهدوا آثار هؤلاء الأبطال ، وما خلفه أولئك الملوك ، وقد لا يكتفون بالمشاهدة ، فيحملون إلى بلادهم مايستطيعون حمله من هذه الآثار خفية ، وينقلون إليها مايتمكنون من نقله من تلك الكنوز ، وهاتيك النفائس الغالية سراً وخلسة

أبوتنـــا وأعظمهم تراث نحاذر أن يئول لآخرينا

ومن السائحين من يبحث عن مخبآت هذه الآثار ، وينقب عن مكنوناتها فى باطن الأرض ، حيث يظن وجودها ، وقد عثروا على كثير من تلك الكنوز الثمينة ، وأخرجوا مقداراً وفيراً من هذه الآثار الدفينة ، وأظهروا ماخبيء من العاديات القديمة ، بعد أن أنفقوا من أموالهم وحياتهم قسطاً عظيما ، فى سبيل هذا الغرض الشريف ، والله يعلم مقدار مايبقى منها لمصر صاحبة الدار ، وربة البيت ، ومقدار مايأخذه الجادون العاملون وقد عثروا فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ على آثار مخبوءة ذات قيمة نفيسة ، الملك (توت عنخ أمون) أحد الفراعنة بوادى الملوك بالأقصر ، عثر عليها بحاثة انجليزى مستعينا على بحثه بأموال ثرى انجليزى ، وقد اهتزت للعثور على هذه الكنوز جوانب مصر ، وشاع أمره فى جميع أقطار الأرض ، لنفاستها وعظيم شأنها ، وكتب الكاتبون ووصفوا ، وقالوا وأطنبوا ، ومدحوا وأكثروا ، والفضل فى ذلك لغير المصريين والعمل على رءوس المصريين وهو مما يؤسف له فالآثار آثارنا ، والبلاد بلادنا ، فنحن أحق بالبحث عنها ، والتنقيب عن مخبآتها وأجدر بالسعي لاظهارها ، والاحتفاظ بها والحرص عليها ، والقيام بحراستها ولا يزالون يعثرون على كنوز جديدة ، ولا تزال كنوز أخرى غير معلومة . ماهذا ؟ نرى من أغنياء مصر من ينفقون أموالهم بكرم وسخاء ، وإسراف وتبذير ، فى ضروب اللهو واللعب : مشاغل السفر والحضر ، ورؤية الملاهى ، ومشاهدة الطرب ، ويقطعون أوقاتهم فى غير نافع أو فائدة فلم لايكون فيهم من ينتفع بماله وحياته فيكسب جميل الاطراء ، وينال حسن الثناء ، ويبقى اسمه خالدا مشفوعا بالاجلال والاحترام على ممر

السنين والأعوام ، لم لا يكون فيهم مثل (كارنارفون) الذى ساعد بماله حتى ظهرت هذه الكنوز التى ستجعل فى التاريخ اسماً محمودا ، وسيكون لها أثر عظيم فى بيان التاريخ المصرى القديم ؛ لم نقبع فى بيوتنا ، ولا نهتم بأمور بلادنا الحديثة والقديمة . ذلك هو الموت .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

مصر أولى بالبحث عن هذه الكنوز ، مصر أحق أن تظهر هذه العاديات . فمن العار والخزى أن يأتى الأجنبى بعد أن يقطع البحار والوديان . والممالك والبلدان و يخترق الجبال والوهاد . وينال المتاعب والمصاعب ، وينفق الأموال والأزمان ليبحث عن كنوز مصر ومناجمها . وينقب عن خيراتها ومعادنها . ويعثر كل يوم على كنوز ثمينة ، وخيرات ويؤسس الشركات . ويفتح كل باب مغلق على هذه المخبآت . وينتفع بالبترول وغيره ونحن عن ذلك لاهون . و بالحرمان راضون . بيد المصرى وقوته وحياته وعلى كاهله تستخرج الشركات الأجنبية بأموالها بترول مصر . ومعادن مصر . وكنوز مصر . فهل كتب علينا الشقاء . ولغيرنا السعادة والهناء . أليس المصرى أحق بالقيام على خيرات بلاده . ألم يأن لأغنياء مصر ذوى المال والثراء أن يقوموا بجلائل الأعمال . ويفتحوا ميادين العمل للمتعطلين والعمال ، فيفيدوا أنفسهم وقومهم و بلادهم . ويسيروا جميعاً إلى حيث العز والعيش الهنىء ، وكل شىء ممكن مع العمل ، وأحقر شىء صعب مع الكسل كل شىء سهل مع الإرادة النافذة ، وأتفه شىء لا تصل إليه الإرادة الضعيفة . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة : ولكنها تمطر شقاء وجحيما ، وعذاباً أليما ، على القاعدين أهل الكسل والجمود .

والحمد لله قد بعث الله لهذه الأمة من رفع رأسها ، وأثلج فؤادها ، وشرح صدرها ذلكم هو البحاثة المقدام الأستاذ سليم بك حسن ، وكيل مصلحة الآثار المصرية ، ذلكم هو الرجل الفذ الذى أزاح بعلمه وذكائه ، المغاليق القوية عن كثير من آثار قدماء المصريين بالجيزة وغيرها ، أدام الله به وله التوفيق .

٩٠ — وسائل النقل

قد راجت سوق النشاط ، وازدادت حركة العمل وعمرت البلاد ، واكتظت المدن والقرى ، بالسكان والبنيان ، وأخذت الأرض زُخرفها وازينت ، فارتقت وسائل النقل وتقدمت وكثرت وعمت ، وذاعت وشاعت ، فظهرت السيارات تنهب الأرض نهباً ، والقطرات تطوى البلاد طياً ، والعجلات تجرى فوق الثرى جرياً ، والدراجات تسبق الرياح سبقاً ، والبواخر تشق عُباب البحر شقاً ، والطيارات تطير مسرعة فى الفضاء ، لا يعوقها جبل ولا ماء ، ولا موج ولا هواء ، والترام بكهربائه ، والبرق بأسلاكه، فعم الخير وازداد الرخاء . وكان قديماً يقوم بعبء ذلك كله الحيوان والإنسان ، فلقى فى ذلك العهد المظلم القديم ، صنوف العذاب ، وأنواع المشاق مع كثرة النفقات وضياع نفيس الأوقات ، والبطء المزعج ، والارتباك الشديد ، والقلق المؤلم ، لا فرق فى ذلك بين الأفراد والجماعات ، والأهلين والحكومات . فكان الناس فى تقاعد وتباعد لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولا يدرون ما يقع من الحوادث ، ولا ما يكون من الوقائع ، ولو كانوا فى بلدة واحدة ، وتبع ذلك التأخير فى التجارة والزراعة والصناعة والحضارة ، يضرب المسافر أكباد الإبل فى ذهابه وإيابه ليلا ونهاراً ، ويرى المتاعب ألواناً وأشكالا ويتعب نفسه ويتعب الحيوان معه ، ويكون فريسة للصوص وقطاع الطرق ، فزال ذلك كله ، واخترعت وسائل النقل ، فتعارف الناس وأتلفوا ، وأصبحوا كأسرة واحدة فى بيت واحد ، تقع الحادثة فى أقصى الغرب فيعرفها لوقتها من فى أقصى الشرق ، ويكون الرجل فى السويد شمالا ويستطيع الوصول إلى الكاب جنوباً ، وصارت الأرض مسرحا للناس يسافرون إلى أى جهة أرادوا ، وإلى أى مكان شاءوا . وإن وسائل النقل مع تقدمها وشيوعها وكثرتها وذيوعها ، لا تزال تحتاج لترتيب ودقة ، ونظام وعناية وضبط وملاحظة ، حتى يرتاح الناس فى غدوهم ورواحهم ، ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم وينتفعوا بحياتهم وأزمانهم . فلا يرون هذه الكوارث التى تتعدد كل يوم ، وتقع فى

كل مكان ، من المصادمات والمداهمات ، والمتالف والانفجارات، والإغراق والإحراق ـ مما يذهب بالأنفس والأموال والثمرات .

يقف الإنسان موقف الدهش والاستغراب ، ويرى العجب العجاب ؛ يرى الطيارات تخترق السحاب . والبواخر تشق العباب ،والعجلات تقطع المسافات،والسيارات تعدو فى الطرقات ، وهذا الحيوان يجرى إلى هنا ، وتلك الدراجة تسرع إلى هناك ، مما يدل على تقدم الإنسان فى هذا العصر ، عصر التمدين المادى والحضارة الظاهرة ، يكون المرء فى أحد شوارع القاهرة العظيمة فيدهش مما يرى من الحركة الشديدة ، والنشاط الكبير والسرعة التامة ، ويشاهد وسائل النقل المختلفة ؛ تذهب وتجىء وتروح وتغدو تسابق الريح ، وتجرى مع الهواء ، فيسير منزعجاً خائفا وجلا هائباً ؛ محترساً قلقاً ، ينظر خلفه تارة ، وعن يمينه أخرى ، وأمامه وعن يساره ،خشية أن يداهمه شىء منها.فيؤذيه أو يودى به ، وذلك أمر يدعو إلى يقظة الحكومة اليقظة الشديدة التى تمنع القائمين بحركة النقل من تهاونهم ، وتحملهم على الحرص الشديد على حياة الناس الذين ينقلونهم أو يرونهم فى طريقهم ، فلا يوردونهم موارد الحتف والموت الزؤام ، وقد قامت الحكومة فعلاً بتنظيم حركة المرور ، هذا التنظيم الذى أتى بالغرض المقصود ، فقلت المصادمات والمداهمات ، ونرجو أن توفق الحكومة إلى تنظيم حركة المرور تنظيما يقضى على كل خطر أو خوف

ولقد صارت السيارات من وسائل النقل المهمة ، فقد شاركت القطرات الحديدية فى عملها ، وزاحمت الترام والعجلات ، مع السرعة وقلة النفقة ، أما الطيارات فستكون أهم وسائل النقل وقد ساعدت الحرب العظمى على تقدمها تقدما عظيما فصارت تستطيع نقل الناس والبريد والأمتعة والجيوش والمدافع ، وتقطع المسافات البعيدة فى الوقت القصير إلا أنها لم تكثر الكثرة التى تجعل الناس يعتمدون عليها ويستغنون بها عن غيرها ، ولولا مشاغل الدول بالمنازعات والمشاحنات السياسية ،والاستعداد للحرب والقتال لسبقت

الطيارات عامة السيارات ، ولأنشىء منها المقدار الكافى لرفاهة الناس ونفعهم النفع التام ولقامت مقام قطرات سكة الحديد ، وذلك ماسيكون وهو منتظر القريب ، فقد ألفت الشركات لنقل الركاب بالطيارات من أقصى الأرض إلى أقصاها ولكن بأجر مرتفع وعملت تجارب ناجحة لنقل المسافرين والبضاعات مما سيكون له أثر عظيم فى مستقبل الناس

ولا يزال للحمير والبغال ، والخيل والجمال ، والجاموس والثيران ؛ أثر عظيم فى النقل فى القرى ، فالناس يركبونها ، ويحملون عليها ويستخدمونها سفراً وحضراً غير أنها لاتقوم مقام هذه المخترعات العجيبة ، والمستحدثات الغريبة التى سيأتى وقت قريب فيستغنون بها عن الحيوان فى الركوب والنقل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

٩١ — لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

الجاهل أشد على نفسه من أعدائه ، فهو عليها حرب ، ولها عدو مبين ، ينال منها أكثر منهم ، ويؤذيها أعظم من أذاهم ، يسعى وراء حتفه ، ويجرى إلى هلاكه ، ويعمل لموته ، فهو الأحمق الأبله ، الغر المغفل ، الذى لا يعرف الضار من النافع ، ولا الضلال من الهدى ، ولا القبيح من الحسن ، فهو من جهله فى ظلمات بعضها فوق بعض وهو فى عمى وضلال كبير ، ذلك الجهل الذى يقود إلى المعاطب والمهالك ، ويسوق إلى المصائب والنوائب ، ويوقع الجاهل فى أسوإ العواقب ، وأقبح النتائج يريد الجاهل خيراً فيلقى شراً ، ويبغى صلاحا فيرى فساداً ، ويطلب نوراً فيصادف ظلاما ، ويتمنى سعادة فيجد شقاء ، يقدم على المهالك مختاراً ، ويخوض غمارها راضياً مسروراً . ذلك بأنه فى رُكام من الظلام الحالك ، ذلك بأنه فى جهل وبعد عن العلم عظيم ، فلا يلبث حتى تحدق به المصائب ، وتنهال عليه الكروب ، وهو لم يعدّ لها العدة ولم يتخذ لها الأهبة ، فياويحه من جهله ، يبلغ به من نفسه ، أكثر مما يصيبها من عدوه ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وعمى القلوب هو ظلامها بالجهل ،

وخلوها من نور الفضيلة والعلم . الجاهل كثير الأعادى لجهله ، قليل الأصدقاء لحمقه ، عدو نفسه لبلاهته ، وعدو عاقل ، خير من صديق جاهل . لأن الجاهل إذا تكلم فضح ، و إذا اؤتمن على السرائر أفشى ، و إذا فعل شيئاً أخزى ، لا معرفة له ولا تجربة ، ولا دراية ولا خبرة ، ولا أناة ولا حكمة ، ولا عقل ولا تدبر ، ولا فهم ولا تبصر ، لا يعى ما يراد به ، ولا يعرف ما يطلب منه ، يسعى إلى حتفه بنفسه ، و يسير إلى حَينه برجله ، يريد الخير فيفعل الشر ، و يبغى الهدى فيقع فى الضلال .

وليس الجاهل هو الأمى الذى لايقرأ ولا يكتب . فمن الأميين كثير فاقوا القارئين الكاتبين ، بعقولهم العالية ، وأفكارهم الصائبة ؛ وآرائهم المفيدة ، وأعمالهم الجيدة ، كمحمد على باشا ، رئيس الأسرة المالكة بمصر ، فإنه كان أمياً وأتى بجلائل الأعمال ، حتى وصل إلى ملك مصر بهمته العالية ، وأفكاره النافذة إنما الجاهل هو الذى يتعثر فى أعماله ، فلا ينتهى من خطأ إلا إلى خطأ ، ولا يخرج من خطل إلا إلى خطل . هو ذلك الغر الأبله ، الغبى الأحمق ، الذى يجلب لنفسه الشرور ، ويعمل ما يعود عليه بالضرر ، غير مكره ولا مضطر ؛ وأعداؤه من حوله ينظرون ، وبه يشمتون ، وبما دهاه فرحون مستبشرون ، الجاهل هو الساقط المحتقر الذى لا قيمة له ؛ ولو كان شريف الأصل ، عريق النسب ، كثير المال ، فقيمة المرء ما يحسنه ، وما الإنسان ، إلا بقلبه ولسانه ، وعقله وعلمه . بالعلم يحيا ، وبالجهل يموت ، فالعلم نور ، والجهل ضلال وهلاك ، العلم يهدى إلى الخير و إلى الطريق المستقيم ، والجهل يوقع فى الشر ، ويردى فى الجحيم ، العلم شرف . والجهل خطر وهلاك . وتيه وضلال .

العلم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

فلنحارب الجهل محاربة الأبطال ؛ ولنذد عن البلاد شره المستطير وخطره الخطير ، فمن الجهل كل شر أصابنا ، وكل بلاء نابنا ، وكل شقاء وعذاب نحن فيه ، يجىء الطارقون من أقصى البلاد ، فيتمتعون بخيرات بلادنا . وينعمون بوفر أرضنا . و يحتفظون بالرفاهة

دوننا . ويختصون بالعز فى أوطاننا ، نحن لهم عبيد وخدم . حتى لقد يطردون أحدنا لا ستغنائهم عنه بواحد من جنسهم ومن أبناء جلدتهم . وما هو إلا الجهل الذى أوقفنا هذه المواقف المخزية وأوردنا هذه الموارد المهلكة . ورمانا بجيش جرار من المتعطلين والمنافقين والمارقين والمفسدين ، ومن لاشرف لهم ولا دين ، فلا نجاة بغير العلم ، ولا راحة بغير العلم ، ولا هناءة بغير العلم ، فليسقط الجهل وليحى العلم ، نعم فليسقط الجهل وليمح من البلاد محواً ، حتى نحيا حياة سعيدة ونعيش عيشة مرضية ، وحتى لا نكون عوناً لأعدائنا على أنفسنا ، وحتى لانكون فى بلادنا غرباء ، أقيمواللعلم مناراً يهتدى به كل فرد من أبناء مصر وبناتها ، رجالها ونسائها شبابها وكهولها فقرائها وأغنيائها ، أريد العلم العملى المفيد المثمر .

فبالعلم وحده نصل إلى ما نريد من خير وسعادة وعز وهناءة وأمن وسلام ، وتقدم وارتقاء ، بالعلم تحيا الأمة ، وبالجهل تموت . بالعلم تكون الأموال والأنفس والثمرات وجميع الخيرات ، فإذا رزقت الأمة بحماة مفكرين عقلاء نالوا من العلم أوفر نصيب أدركت من العز أعلى مكان ، وعاش أبناؤها عيشة مرضية فى كل جهة وفى كل زمان ، وإذا رزئت بقوم جهلاء أغبياء ، تقهقرت وتأخرت وعاشت فى بلاء وشقاء ؛ فبعداً للجهل وسحقاً ، وتعساً وقبحاً ، يبعث الجاهل على الظلم والاستبداد ، والقسوة والعناد ، والعجب والكبر ، والخيانة والغدر ، وكل خلق ذميم ، نعوذ بالله من الجهل والجاهلين ، ونسأله أن يكثر فى مصرنا من العلماء العاملين ، حتى نحيا حياة الشرف والرفعة والعز العظيم ، وإذا أعددنا العدة ، وجمعنا المال ، للدفاع عن البلاد ، بتكوين أسطول الطيران ، وإعداد الجيوش والجنود ، فيجب أن تعد أكثر من ذلك وأكثر لمحاربة الجهل ، وتثقيف العقول وتربية الناشئين تربية علمية ، تعصمهم من ويلات الجهل ، وتحميهم بنور الفضل والعلم .

٩٢ — واحذر مؤاخاة اللئيم فانه   يبـدى القبيـح وينكر المعروفا

اللئيم فى الناس من جمع خلال السوء ؛ فـكان من أعوان الفساد والشر ، والدناءة والخبث ، والخيانة والغدر ، هو الـكاذب المنافق ، الغاش المداهن ، الهماز المرائى ، الذى يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالإهانة ، والأمانة بالخيانة ، والملاينـة بالمخاشنة ، والمؤاخاة بالعـداوة ، والملاطفة بالتمرد ، والنعمة بالـكفر والجحود واللؤم والتمرد والغلظة والفظاظة .

إذا أنت أكرمت الـكريم ملـكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فتراه يسعى سعيه لإخفاء الحسنات ، ويبذل وسعه لإشاعة السيئات ، يتغافل عن المحامد ، ويرشد إلى المعايب ، يتظاهر بالمودة وهو العدو اللدود ، يبدى القبيح وينـكر المعروف ، ويمشى بين الناس بالفساد ، ويخدعهم بالمـكر والدهاء ، ويوقعهم فى الشرور بكيده وختله ، فاحذر أن تؤاخيه ، وإياك أن تصادقه ، فإن اللؤم قد دنس عرضـه ، ووضع قدره ، وحط نفسه ، وجعله كالعقرب يصيب بسمومه كل ما يتمكن منه ، وكل من صادفه .

حذار من بطشه وفتـكه ، حذار من خداعه ومكره ، ولو أنه إلى الغنى منسوب ، وبالثراء بين الناس معروف ، ومن أهل العلم معدود ، ومن النابغين محسوب ، فإن الغنى والعلم والنبوغ قد تـكون مع اللؤم ، وهى التى تفتح للئيم طرق الشر ، وأبواب الهـلاك فينساب منها على الناس انسياب الأفعى ، لا تبقى ولا تذر .

واللؤم ينشأ من ضعف النفس ، وخور العزيمة ، والجبن والخوف ، وحب المال ، والأثرة ، ودناءة الأصل ، كل صنف من هؤلاء اللئام لا يستطيع نيل مطالبه · ولايتمكن من إدراك رغائبه ، فيتخذ من لؤمه سبباً يوصـله إلى أغراضه ، فيتقول ويكذب ، ويخون ويغدر ، ويبدى غـير مايبطن ، ويتجسس ويتحسس ، ويبيت ويدبر ، حتى

ينال ما يبغى من عرض زائل ، وظل أعوج ، وحياة فانية ، ولذة ضائعة قاتلة ، فتعساً وسحقاً للؤم ومن يتصف به ، ولو كان مزداناً بأفخر الثياب ، وأجمل الحلل وأعلى الألقاب فمن نجا من اللؤم وشره كان محمـوداً مشكوراً ، ولو لبس الخلق من الثياب ، وتجرد من أسباب الزينة والجمال وعالى الألقاب .

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فـــكل رداء يرتديه جميـــــل

ربنا اصرف عنا كيد اللئام ، وقنا شر اللئام ، من عاش بينهم كان نـكد الحظ ، منحوس الطالع ، منغص العيش ، كاره الحيـاة مهدداً فى كل وقت وحين ، لقد تجردوا من كل وفاء ، وتمنطقوا بمناطق الشر والخداع ، فلا يصدقون ولا يرجى خـيرهم ، ولا يفلح من صادقهم ، ولا ينال غير الأذى من آخاهم ، هم الأرذلون أخلاقاً السيئون فعالاً ، خبثاء النية ، فاسدو الطوبة ، ليس لهم إلا المقاطعة والمقت الشديد ، ولبئس ما يصنعون

ومن بلى بمعاشرتهم فليأخـذ حذره منهم ، وليستيقظ لمـكائدهم ، وليتنبه لمـكرهم ، فهم قرناء السوء الدالون على المهالك ، المرشدون إلى المعايب ، المخفون للمحاسن الذين يظهرون طريق الإيقاع بمن لا يرضيهم ، ويبينون مـكان الضعف بمن ليسوا على شاكلتهم ، لا يثنيهم عن ذلك ذمة ولا ضمير ولا شرف ولا دين ، ولا وطن ، أولئك هم اللئام المنافقون ، هم داء الأمـة الدفين ، وشرها المستطير ، آوتهم فآذوها ، وأحسنت إليهم فأساءوا إليها ، واطمأنت إليهم فخانوها ، وبرت بهم فخرجوا عليهـا ، أولئك هم السفهاء المناكيد ، وقانا الله شرهم ، يستترون بستر الخداع والمـكر ، ويتظاهرون بالغيرة والمحبة ،والألفة والمودة ،والشفقةوالرحمة ، والانسانية والرأفة ،ويقولون ويفعلون. ويسعون ويعملون . وفى كل ذلك يراءون . فاياك أن تغتر بهذه المظاهر الـكاذبة . والاعمال الخاتلة .فوراءذلك ماوراءهمن اللؤم القاتل . والنفاق المردى .والمـكر السيء . حذار أن يخدعوك فتطمئن إليهم . وتأنس بهم وتأمن مـكرهم . مهما يأتوا من ضروب الختل والغش والرياء ويظهروا من الود والاخاء

إن اللئيم وإن أبدى مودته إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا

وثب يناصبك العداء هو يجاهرك بالشر . ويقابلك بالسوء. متى بدت له فيك الفرص، لا يخشى شيئاً إن قدر عليك . ولا يراعى شرفا ولا ذمة إن تمكن منك . فحذار أن تؤاخيه . وإياك ومصاحبته . وإلا كتبت على نفسك الشقاء والعناء والعذاب ، ما أكبر خيانة من يظهر خلاف ما يبطن ، ويفعل غير ما يقول ، ويبدى غير ما يريد ؛ هذا هو اللئيم ، ولا بد أن ينال عقابه الصارم فى الأولى والآخرة ، فينفض الناس من حوله ، وينفرون من عشرته ، ويصبح علماً على الذلة والانحطاط ، وفساد الأخلاق فى الدنيا ، وفى الآخرة له عذاب شديد ، ماله من محيص ، فخير للئيم أن يترك لؤمه ، ويؤدب نفسه ، ويعامل الناس بالحسنى حتى يجد الأنصار والأعوان ، والأصدقاء والإخوان ويعيش فى أمن وسلام .

٩٣ — التبرج الممقوت

الشرق شرق والغرب غرب ، ولكل عادات ومعتقدات تميزه من الآخر ،وتختص به دون الثانى ، وما يوافق سكان الجهات الباردة ، لا يوافق سكان الجهات الحارة أو المعتدلة ، فى كل شىء ، فى الأخلاق والعادات ، والأمزجة والطبائع ، والملابس والمساكن ، ومن مميزات الأمم المستقلة الرشيدة ، الحية الحكيمة أن تكون لها حياة خاصة ، فلا تندمج فى غيرها ، ولا تنعدم فى سواها ، فلها عاداتها المخصوصة ، وأزياؤها المعلومة ، ونظامها المعروف ، لا تسير وراء كل ناعق ، ولا تتبع كل طارق ، ولا تقلد فى كل شىء . تلك حياة الأمم المستقلة ؛ وكذلك كان آباؤنا الأولون ، كانوا متمسكين بعاداتهم الشريفة ، وآدابهم العالية ، ودينهم الحنيف وشخصيتهم السليمة ، من جميع الآفات ، كانوا قدوة وقادة للناس ولم يكونوا وراء الناس وخلف الناس ، فليس من الرقى ولا من الحضارة كما يدعون أن نتفانى فى تقاليد الغربيين ، وقد لمسنا الضرر بأيدينا ، ورأيناه بأعيننا ، وكادت تنمحى أخلاقنا ، وعاداتنا وآدابنا وديننا أمام سيل هذا التقليد

الأعمى الذى لا يبقى ولا يذر شيئاً من المحاسن والطيبات ، فيافتى النيل ، ويافتاة مصر ، ارجعا إلى عهد الآباء الراشدين ، واقتديا بالأجداد الصالحين ، وتمسكا بالعادات الحسنة وبالدين ، واتركا كل قبيح وفاسد ، فما هذا التبرج الممقوت ، وما هذا الترف المرذول ، وما هذه الحالة السيئة التى نشاهدها فى الطرقات ، ونراها فى حوانيت التجار ، ونبصرها فى البيوت والمتنزهات ، وما خفى لا يعلمه إلا الله . يسير الفتى المغرور يتلوى كالثعبان ، ويمشى مشية الخزى والعار . وقد تهيأ لذلك بما استطاع ، من زينة وجمال ، كأنه عروس تزف لزوجها ، يؤثر فيه النسيم ، ويقلقه الهواء العليل ، ويزعجه مالا يزعج الطفل الرضيع ، فهل مثل هذا الفتى الظريف ، المترف الخفيف ، يكون من حماة البلاد . ويدافع عن هذا الوطن ، وينتظر على يديه خير للأمة . وكيف يعد من رجال مصر . ويحسب من أبناء مصر . ذلك هو البلاء العظيم . كان عمر بن الخطاب على علو قدره . ورفيع مكانه . وعظيم شأنه . يخشوشن فى عيشته ويأكل العادى من الطعام وقد فتح من البلاد ، وأقام من الملك فى عشر سنين ، مالم يسبقه به سواه ، فإنما الرجال بالأعمال ، وما الجمال إلا جمال العلم والأدب والعمل وخدمة الأوطان .

لا يدرك المجد إلا سيد فطن   لما يشق على السادات فعال

لست أريد من الفتى أن يكون جلفاً خشناً كالأعراب ، ولكنى أرجوه ألا يتطرف حتى يسبق النساء فى التزين والترف أريده رجلا عاملا ، ولا أريده مخنثاً خاملا أسيراً للمرآة ، وعبداً للتأنق ، وقنا للملابس المخصوصة ، والزى المخصوص ، وتمشى الفتاة المخدوعة ، والشيطانة الملعونة ، بحالة مخزية ، وهيئة بشعة ، من غير احتشام ولا وقار ، ولا أدب ولا حياء ، تتيه عجباً ، وتتمايل طرباً ، وتفتن المغفلين ، وتخدع المعتوهين ، فهذا يقول ، وذاك يشير وهى بنفسها معجبة ، ومما تراه منهم مسرورة ، قد أخذت زخرفها وازينت ، وبكل أنواع الجمال تجملت ، ولكن لغير زوجها ، بل لمن حرم عليها وحرمت عليه ، تبدى صدرها للناظرين ، وتكشف عن ذراعيها للمبصرين ، وتلبس

جور باً يبين ساقيها للرائين ، وتلتحف بمعطف فيه العبر ، وتظهر وجها فيه شتى الألون ، وتلبس حذاء ذاكعبين عاليين لا تستطيع معه الاعتدال ، تميل عجباً ، وتختال تيهاً ، تلك هى المغرورة المفتونة ، لا بل هى الشيطانة الملعونة ، بل هى الخطر الأكبر والداء القتال ، فإياك أيتها الحرة المهذبة ، والعفيفة المؤدبة ، الشريفة المتعلمة ، إياك أن تغرك هذه بزخرفها الكاذب وشكلها الفاضح ، وجمالها المغشوش ، ورونقها الخادع ، فحرام عليك أن تظهرى جمالك ، أو تبدى زينتك إلا لمن يحل له ذلك منك كما يقول الله :

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

إن الفتاة الشابة التى لم يتم نمو عقلها مضطرة أن تقلد من تراهن من الغربيات اللائى طغين على البلاد كالسيل الجارف بأشكال متنوعة وأزياء مختلفة وتبرج فاضح ، ولكن الأمهات العاقلات ، والآباء الراشدين ، عليهم أن يحيطوا بنتهن بسياج من العلم الصحيح والدين القويم ، والتربية العالية ، والقدوة الحسنة ، حتى تنظر إلى الغربيات الخارجات على الآداب بعين المقت والازدراء ، لا بعين الرضا والقبول ، وإن أكبر هادم لشرف الأمة وحريتها ، وقاض على آدابها وعفتها ، وذاهب بدينها وقوميتها ، هو تلك الصواعق المرسلة عليها ، هو تلك الفتيات الأجنبيات اللاتى أرسلن للفساد والفسوق والعصيان ، لم لا تقتدى بذوات الشرف من الغربيات اللائى يؤدين الواجب عليهن لرجالهن وأولادهن ومنازلهن و بلادهن ، معتمدات على أنفسهن من غير ملل ولا كالل ، ولا شكوى ولا

تذمر ، كذلك كان أمهاتنا فاتقتد بهن بناتنا ، و إن أردنا الحياة الطيبة فلنحارب تلك العادات السيئة ، ولندفع عنا هذا السيل الجارف ، ولنقم دو نه السدود والموانع والحواجز من العلم النافع ، والأدب الـكامل ، والقدوة المباركة ، وترك التبرج الممقوت ، والترف المرذول ، والتمسك بالعفاف والطهارة ، بذلك ننجح وندرك الآمال ، ونعيش كما كان سلفنا الصالح فى هناءة وسرور وخير عظيم . فى هذا العهد المبارك عهد الحرية والاستقلال .

٩٤ — الغلظة

إن أشد الناس خطأ ، وأكثرهم خطلا ، وأدناهم سياسة ، وأحطهم عقلا ، وأقلهم تجربة وخبرة ، هذا الذى يلجأ إلى الشدة فى المعاملة ، والقسوة فى المعاشرة ، والغلظة فى التربية ، والفظاظة فى الإرشاد ، والجفاء فى الوعظ ، والتوحش فى الأمر والنهى ، فلا يقبل الناس قوله . ولا يرضون عمله ، ولو أنه مع الحق وعلى الحق وبالحق فيما يعمل و يقول ، و يحكم و يأمر ، و يريد ويطلب ، فما ظنك به إن كان على الباطل ، ان أطاعوا كانوا مكرهين ، و إن قبلوا قبلوا مقهورين ، وإن رضوا رضوا ملجئين ، والعاقل الحكيم من يملك القلوب ، لا من يملك الأشخاص والجسوم ، إن البطش والقوة ، والتخويف والإرهاب والقسوة والعنف والشدة والقهر ، تحمل على العناد والمخاصمة ، وتدعو إلى النفور والمقاومة ، وتلجىء إلي العداوة والمحاربة ، متى استطاع ذلك من يعامل هذه المعاملة ، و إن لم يستطع رضى مكرهاً ، وسكت ملجأ وسكن مضطراً ، وقلبه يغلى بالغيظ والحنق ، وصدره يستعر بالعداوة والحقد ، حتى إذا سنحت له الفرصة وأمكنته الأيام ، قام وجاهد ، وحارب وعاند ، واقتص لنفسه ، وثأر من عدوه ، بأشد ما يستطيع ، على أن الضغط يؤدى إلى الانفجار واليأس يسوق إلى الهلاك فيهب المظلوم فى وجه ظالمه . فإما حياة طيبة مباركة ، و إما موت فيه الراحة والاطمئنان والهدوء والسكون .

والمعاملة القاسية الغاشمة تحمل على التطبع بالأخلاق الفاسدة كالملق والنفاق ، والكذب والخداع ، والخيانة ، والجبن والرياء والدس فى الخفاء ، والرضا بالذل والاستعباد ، والخشوع

والاستسلام ، وإنك لترى هـذه الأخلاق الدنيئة فاشية فى الأمم الضعيفة المقهورة المستعبدة فما أذل المقهورين ، وما أسوأ عاقبة القاهرين ! !

إن الأب الذى يربى أولاده وزوجه على البطش والقهر . والقسوة والشدة ، ظالم غشوم غر جاهل ، لأنه يميت فيهم كل خلق فاضل شريف ، ويحيى فيهم كل خلق ناقص خسيس ، يميت فيهم الصدق ، ويحيي الـكذب ، يميت فيهم الشهامة والشجاعة، ويحيى الخور والجبن يميت أفـكارهم ، ويقضى على عقولهم ، ويصيرون كالأنعام بل هم أضل لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . فما أظلم هذا القاسى الشرير ، إن طالبته زوجته بحق من حقوقها ، أرغى وأزبد ، وسب وشتم ، وقال وفعل ماتسوله له نفسه الشريرة وشهوته الشيطانية وإرادته الخبيثة ، فيهينها ويغلظ فى معاملتها ، ويقسو عليها كأنها سلعة فى يده والله يقول (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) وقد يذيقها كأس الحمام شنيعاً. وإن رجاه أولاده أن يؤدى مايجب لهم ، أرهقهم بالإذلال ، وأثقل عليهم بالغلظة والاسترقاق ووضعهم فى القيود والأغلال ، وجعلهم فى ظلمة من القسوة والقهر ، فيختل نظام أسرته ، ويعيش معهم فى نـكد من العيش ، وبؤس من الحياة ، وكذلك يقضى حياته معهم فى شقاق وعناد ، وفشل واختـلاف ، وشقاء وعذاب ، يتمنون موته ، ويودون فراقه ، ولو إلى القبور .

والمعلم الذى يغلظ ويشتد ، ويقسو ويجفو ، ويركب متن الشطط فى معاملة تلاميذه فيسفه آراءهم الحـكيمة ويضلل عقولهم السايمة ، ويخطئهم فى أعمالهم المفيدة ، ويقهرهم على أن يطيعوه ولو أنه مخطىء وهم محقون ، يرى التربية والتهذيب والتـكميل والتأديب أن يكون التلاميذ خشباً مسندة وصوراً صامتة ، وأجساماً لاحراك بها ، لايسألون ولا يفهمون ، ولا يناقشون ولا يعارضون ، ولا يقولون ولا يفعلون، هذا عدو الرقى والتربية الحقه ، فإن تلاميذه يتخرجون على يديه آلات صماء ، وأجساماً جوفاء ، وعقولا جامدة لايفـكرون ولا يفقهون ، وهذا النوع من المعلمين يكاد ينعدم من الدنيا ولله الحمد، إن

المعلم الماهر هو الذى يعلم تلاميذه ويؤدبهم ، ويربيهم ويهذبهم ، فى ظل الأدب والنظام والمحبة الخالصة والاحترام الكامل ، متى كان قوى المادة . شريف النفس طاهر القلب هذا الذى يربي للأمة أبناء بررة كاملين ، ذوى عقول صحيحة ، ونفوس مهذبة شريفة وأفكار عالية صائبة ؛ وكذلك كل رئيس لاينجح فى عمله ، ولا ينتظم فى رياسته . ولا يقبل حكمه ولا يطاع أمره ، إذا استخدم الغلظة والفظاظة والجفاء والبلادة ، وكان من الظالمين .قال الله تعالى لرسوله الكريم (ولو كُنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حولك) فما اجتمع الأصحاب والأنصار ، والمهاجرون والأبرار إلى النبي المختار ينصرونه ويؤازرونه ، ويصدقونه ويطيعونه ، ويدافعون عنهوعن دينهبأنفسهموأموالهم،ما كان ذلك إلا لحكمة الرسول ورأفته وعدله ورحمته ، وإحسانه وشفقته ؛ وكمال هديهوجميل إرشاده ، وتمام فضله ، بهذا تملك القلوب ، وبهذا وحده تساس الناس ، ويستطيع الرئيس أن ينتفع بمرؤسيه ، وأن يكونوا له أنصاراً وأعواناً ، وأحباباً وأصحاباً ، يفدونه بأرواحهم ويدافعون عنه بأنفسهم وأموالهم وكل عزيز لديهم ، أما ذلك الفظ الغليظ القلب الظالم الغشوم الذى صار إليه أمر الناس ،وأمسكبزمامهم وأصبح راعيهم فغمطهم حقوقهم ، وظلمهم وقهرهم ، فإنه يسىء إلى نفسه بإساءته إليهم ، ويسعى فى حتفه بجنايته عليهم ، ويكون ثقيل الظل جامد النسيم ، مبغضاً مكروها . لايودون رؤيته .ويزعجهم مرآه . ما أقسى قلبه كيف يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهمأحراراً . كيفيرهقالناس وهو لايملك روحه التى بين جنبيه . والله رقيب عليه لايفلت من عقابه ظالم ، ولا يفر من حسابه مذنب . ولا يعصم من عذابه مال ولا بنون ولا أهل ولا جند ولا قوة ولا بأس (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً)

إن الحكومة التى تلجأ إلى القوة فى حكمها . والقسوة فى تنفيذ رغباتها . والغلظةفى أعمالها . لابد أن تكون جاهلة مختلة . سفيهة غير رشيدة . ضعيفة غير قوية.ولوأوتيت

كل سطوة وجبروت . فإنها تحارب الأمة . وتقف منها موقف العدو اللدود . فلا تحترم القانون . ولا تتبع العدل . ولا تأمر بالمعروف . وتسير وراء الشدة والقسوة . والضغط والقهر وتلك سياسة غير حكيمة لاتأتى بغير الاضطراب. ولاتنتج غير الاختلال. وتكون سبباً فى سوء الأحوال . ووقوف حركة الأعمال . وذهاب الأنفس والأموال . وكثرة الحوادث والأهوال . هنالك تكون الطامة الكبرى . على الأمة والبلاد .

أما الحكومة الرشيدة الحكيمة فهى تلك التى تقيم منار العدل والإنصاف فى الأمة ،وترفع ألوية الأمن والسلام فى البلاد . فترتبط مع الأمة بأوثق الروابط وتكون معها على أتم وفاق وأكمل وئام لا تقسو على غير المجرمين . ولا تشتد إلا على العصاة والمذنبين . وتلك هى حكومة العز والرخاء . والسعادة والصفاء . تنال الأمة معها أعلى درجات المجد والكمال ، والسؤدد والفخار ، فى كل شىء فى العلم والدين والسياسة والقوة والتجارة والصناعة والزراعة والغنى والثروة والحياة الطيبة المباركة . ففى الغلظة كل شر . وفى إقامة العدل بالحكمة كل عز وخير .

٩٥ ـ إن العدو وإن أبدى مودته إذا رأى منك يوماً غرة وثبا

إن أعدى أعدائك ، وأكبرهم حقداً عليك وأشدهم بغضاً لك ، ذلك الذى يعاملك باللين والرفق ، ويقابلك بالإيناس والبشر ، ويلاقيك بالمودة والمحبة ، وقلبه يستعر بالغيظ وصدره يغلى بالضغن وضلوعه تنطوى على الغل والغدر ، والعداوة والبغضاء .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

هذا هو الذى يظهر لك الإخاء ، ويعمل للايقاع بك فى الخفاء ويسعى فى أذاك من وراء حجاب ، ولا يكاشفك بما أكنته نفسه وأضمره صدره ، ذلك هو العدو الألد ، وهو الخصيم الأشد ،الذى لايبرح يدبر ويفكر لإهلاكك ، ولا يزال يجمع ويفرق لموتك وقتلك ، فيعد العدة لأغراضه ، ويتخذ الأهبة لنيل مآربه ويصرف فى سبيل ذلك الأنفس والأموال ، والأفكار والأعمار ، بكرم وسخاء ، وحزم وعزم ، وصبر

لا يلحقه يأس ، حتى إذا رأى الفرصة سانحة ، والغرة منك بادية ، وثب وتنمر ، وزأر وزمجر ، ونسى كل عهد وميثاق ، وقول ووعد ، فلا صدق ولا وفاء ، ولا مودة ولا إخاء ، وإنما هو العداء ثم العداء ، فيوقع بك النكال الشديد ، والعقاب الصارم ، والعذاب الأليم ، وينزل بك ما يستطيع أن يفعله ويقدر عليه من شديد الأذى ، وشنيع الضرر ؛ لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يردعه رادع ، لأن العدو إذا تمكن من عدوه كان ويلاً وهلاكاً ، وشقاء كبيراً عليه ، فيمثل به أشنع التمثيل ويعذبه العذاب الأكبر ، فإياك أن تستسلم لعدوك ولو أبدى لك مودته ، وإياك أن تثق به ولو أظهر لك محبته ، ومن البلاهة أن تأنس إليه ولو جاءك حاملاً روحه فوق يديه ، وأولى لك ثم أولى ألا تعتمد عليه ، ولا تميل إليه ، بعد أن تتثبت من عداوته ، وتتأكد من قصده ، وتتعرف من غرضه ، وتختبره مرة أو مرتين وأكثر ، فتراه من الأعداء ، وتعده من الخصوم ، لا يليق بك ذلك ولو أغدق عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، وغمرك باحسانه صباحاً ومساء ، وجعلك من أعز الناس عليه ، وأفضلهم لديه وإلا كنت كالشاة تربى لتذبح ،وتسلخ وتؤكل ، فاحذر عدوك كل الحذر ، وخفه أشد الخوف ، ولا تأمنه أبداً ، فإنه لا خير فى غير حاذر ، ولا سعادة لغافل ، وليس بحازم من يرتمى فى أحضان عدوه فيطلعه على سره ، ويوقفه على خفية أمره ، فلا يلبث هذا الغر الجاهل المخدوع ، حتى يجد نفسه بين أنياب المكاره والخطوب ، تمزقه شر ممزق ، وتفرقه شذر مذر .

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلاً به الخطب إلا وهو للخطب مبصر

وللعداوة أسباب كثيرة فقد تكون دينية وللدين أثر فيها وقد تكون للسياسة ، وكل عداوة منها ، وقد تكون للمنافسة والمزاحمة فى حرفة أو تجارة أو غيرها ، وقد تكون للاختلاف فى الفكر والرأى ، والمذهب والاعتقاد ، وقد تكون للقسوة والظلم ، والكبر والعتو ، وقد تكون من النساء وللنساء يد فيها فإياك أن تقع فى نوع من هذه الأنواع من العداوة ، ثم تأمن عدوك ، وتطمئن إليه ولو كان من أهلك وأقاربك .

وإذا عاديت فلا تنم ، وإذا خاصمت فكن على حذر ، وأعد لعدوك ماستطعت من قوة ومن بأس ، ومن حيلة ومن كيد ، حتى لا يجد منك الفرصة ، ولا يرى عليك الغرة ؛ فتقع فى مخالبه وبين براثنه ، وإياك أن تحتقر عدوك لضعفه وقوتك ، وفقره وغناك ، وضعته وعزتك ، فلربما جرح البعوض الفيل ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، ولا تيئس من مقاومة عدوك ومجاهدته إن كان قوياً وأنت ضعيف ، أو كان كبيراً وأنت صغير . أو كان ذا حول وطول . وشدة وبأس . وأنت مجرد من كل ذلك ، وإلا أسلمت نفسك للذل والصغار ، والامتهان والاحتقار ، وكنت كالسلعة تباع فى الأسواق ، وكالكلب أو أذل من الكلب ، ذلك إن لم تجد وسيلة تنقذك من عدوك القاهر ، ولم تظفر بحيلة تنجيك من بأسه الشديد ، وعذابه الأليم ، فإن وجدت الفرصة فى عدوك فإياك أن تنام عنها حتى تظفر به ، وتخلص من شره .

والدول والأمم كالأفراد لاتحيا ولا تقوى ولا تأمن إلا إذا اعتصمت باليقظة والانتباه ، والحذر والاحتراس ، وأعدت لحفظها كل العدد الممكنة ، وكل ماستطاعت من حصون وقلاع ، ومتارس ومعاقل ، وأساطيل ومدافع ، وطيارات وغواصات ، ومهلكات ومدمرات ، ورصاص وذخائر ، وعلم وأخلاق ، ومعارف وآداب ، وعمل واجتهاد ؛ ومزاحمة ومنافسة ، فإنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا رأى إلا للقوة التى تديرها السياسة الحازمة ، والفكرة الصائبة ، وبغير ذلك لا يكون نجاح ، ولا يرجى أمن ولا فلاح ، هذه الدول تتعاهد وتتحالف ، وتتفق وتأتلف ، وتتواد وتتحاب . ومع هذا فكل واحدة تخاف الأخرى وتحذرها أشد الحذر . فتعد لها كل ماستطاعت من قوة ومن بأس ومن عدد . والويل كل الويل للتى تغفل وتتوانى . وتتهاون وتنام . فإنهن يثبن عليها ويقتسمن بلادها ويستثمرن أرضها . وينتفعن بخيراتها على الرغم منها . وعلى غير رضاها . ولو قاومت أهلكنها وقتلنها واقتسمن تراثها . كما حصل ولا يزال يحصل . وذلك جزاء المهملين الغافلين . فحق على كل دولة ولو كانت صغيرة أن تعتبر بما

حاق بغيرها من الدول التى زال مجدها . وذهب عزها . وأفل نجمها . وأن تعد للحوادث عدتها ، وللطوارىء مايقيها شرها . وألا ترتمى فى أحضان عدوها . لأنه ألان لها الملمس وأحلى لها القول . وزين لها الكلام . وأعطاها العهود . بل يجب أن تكون منه على حذر . وتتيقظ له أشد التيقظ . حتى لاتؤخذ على غرة . وحتى تعيش فى أمن ومسرة ؟

٩٦ ـ الرشوة

إنى أخاف الله رب العالمين . وأعوذ به من شر أولئك الشياطين الذين يمدون أيديهم الآثمة . فيأخذون أموال الناس بغير حق ويأكلونها بالباطل . وإنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً . لعنهم الله وأصمهم . وأعمى أبصارهم . ووقى البلاد شرهم .

يقدم الآثم منهم بجرأة شديدة على صروح العدل فيهدمها ، ويسير مسرعاً إلى قصور الإنصاف فيأتى عليها . مقابل عرض زائل يتناوله . وبثمن بخس محرم يأخذه . فيقضى بغير ما أنزل الله، ويحكم بما نهى عنه الله . ويحل ما حرم الله . ويقدم الجاهل على العالم ، والغبى على النبيه . والخسيس على الشريف . والمبطل على المحق والأبله على الكفء . كل ذلك لشىء حقير من مال تناوله . أو عرض زائل قدم إليه . أو وعد وعد به . فهو يتفانى فى نصرة الباطل ولو انطبقت السماء على الأرض وكان ما كان . لذلك أعدت الحكومات أشد العقاب لمن تثبت عليه الرشوة ويكون من الموبوئين بدائها القاتل . وحرمها الله فى كتابه الكريم حيث يقول (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون)

إن الصلاح والنظام ، والأمن والسلام ، والخير والهناء ، لا تحل بلداً فشت فيه الرشوة ؛ ودخله هذا الداء البغيض . فالغاصب يغصب والقاتل يقتل والسارق يسرق ، والغاش يغش ، والمجرم يجرم ، ، والمؤذى يؤذى ، والمفسد يفسد ، وجميعهم يعلمون أنهم يفرون من وجه العدل بدريهمات يقدمونها ، وينجون من القصاص بما يدلون به من الأموال

والأعراض . و بذلك يغمد سيف العدل ، وتقبر القوانين ، وتكون الدولة للشريرين الفاسقين ، فيعيثون فى الأرض الفساد ، ويظلمون ويبغون فى الأرض بغير الحق ، ويفعلون من المنكرات ما يشاءون ؛ ويضربون الضرائب الظالمة ، ويفرضون الجزية الغاشمة ، ويؤسسون حكومة طاغية داخل حكومة مختلة ، فيضطرب الأمن ويهاجر الناس فراراً من الظلم ، وتخرب البلاد بخلوها من أيدى العاملين ، وامتلائها بأيدى العابثين . تلك نتيجة الرشوة السيئة ، وهذه عاقبتها الشنيعة ، فبئست النتيجة وبئست العاقبة .

ليس الجرم ممن يرتشى وحده ، إنما الجرم منه وممن يقدم إليه الرشوة ، ويعينه على هذا الاثم الكبير . كلاهما مجرم وآثم كلاهما شرير وفاسق ، كلاهما عدو للأمة والبلاد ، فلعنة الله على الراشى والمرتشى . ومن يسعى بينهما ، ويجري فى طريقهما ، ويعمل لنيل غرضها ، ويساعد على تحقيق مآربها . ويكون له أى أثر فى حصول هذه الجريمة الشنعاء جريمة الرشوة الممقوتة الحقيرة . كيف وبأى ضمير . أم بأى حق يتقدم هذا الآثم . ويمديده لأخذ مال الناس ظلماً وعدواناً . وهو يعلم النتائج السيئة التى تترتب على عمله المنكر . ربما يقول قد سعيت وعملت . وذهبت وجئت حتى أتممت المهمة . وحصلت على ما يريده الراشى . أفلا يعلم هذا الخبيث أنه جاهد فى غير حق وناصر غير المحق . وقضى على الأكفاء من الفقراء ، وأعطى السيف من يستعين به على الإجرام والقتل لا من يدافع به عن البلاد ، ويحافظ به على الأمة والعباد ، أليس من الدناءة أن يقدم الإنسان جاهه بالمال وغيره . أليس من الدناءة أن يقدم الإنسان نفوذه ليباع بيع السلع إنه والله لا شرف ولا مروءة لمن يفعل ذلك . لا أظن شخصاً عنده ذرة من الإيمان والوطنية ، يقدم على الإضرار ببلاده ويكون من المرتشين . لن يفعل ذلك إلا من ليس له فى البلاد ناقة ولا جمل ، لن يفعل ذلك إلا من يهمه أن تسوء الحال ، وتفسد الأخلاق ، وتقع الأمة فى ظلمات من البلاء بعضها فوق بعض ، لن يفعل ذلك إلا العدو المبين ، والغريب الأثيم والمجرم الزنيم المنحط .

إنه لا نعيم ولا حياة ولا سعادة لأمة تُبتلى بهذا الداء إلا إذا عملت على القضاء عليه ، واستئصال شأفته ، ومحوه محواً تاماً ، وذلك أمر يسير متى امتنع القوم عن الإرشاء ، ونبذوا المرتشين وتركوا الحق لأهله ، والميدان للأكفاء ، فحرام ثم حرام وألف حرام أن يكون الإنسان ذا حق ويقدم المال راشياً ، وحرام وألف ألف حرام على من لا حق له أن يستعين على الباطل بالرشوة ، فالأمة بيدها سعادتها وبيدها شقاؤها ، بيدها حياتها ، وبيدها موتها ، وإنه لا حياة وجراثيم الأدواء فاشية منتشرة ، فكل من يعمل ولو قليلاً لمحاربة هذه الأدواء . فإنما يعمل لحياته السعيدة . وحريته العالية ووطنه العزيز ، وكل من يساعد على نمو هذه الجراثيم يعد من أكبر الخائنين ، أى عذر لمن يتقاضى المرتبات الضخمة ، وأى حجة لمن يأخذ من الحكومة ما يكفيه ، ثم يمد يده الدنسة لأموال الناس يختلسها ، ويسرى فى الظلام ليسرقها ، ويختبىء تحت الجدران ليتناولها ، ويرسل أعوان السوء لجبايتها ، إن التربية الدينية الوطنية القومية ، هى التى تُعِدُّ للأمة العاملين ، ذوى النزاهة والاستقامة والآداب العالية ، والأخلاق الفاضلة ، الذين ينصرون الفضيلة ، ويمقتون الرذيلة ، ويعملون بحق لرفعة البلاد . والأمة التى توجه عنايتها وقوتها ونظرها إلى النبات الجديد من أبنائها وبناتها . فتغذيه بالتربية الدينية القومية . وتسقيه بماء الأمانة والاستقامة . والعفة وحب الوطن . هى تلك الأمة التى تدرك آمالها وتنال مطالبها . فإن الأساس المتين الثابت يحمل كل ما يبنى عليه من مجد شامخ ، وعزة علياء ، ومستقبل سعيد ، من غير أن تؤثر فيه العواصف ، أو تنال منه الأعاصير ، ويبقى ثابتاً مكيناً بقوة الإيمان بالله وحب الوطن ، وذلك ما نراه فى الأمة المصرية الحديثة الفتية ، فى عهدها الجديد ، ومستقبلها السعيد بعون الله وتوفيقه ؟

٩٧ — مصرف « بنك » مصر وآثاره

يوم سعيد هو اليوم السابع من مايو سنة ١٩٢٠ للميلاد ، ذلك اليوم المبارك الذى وُلد فيه مصرف مصر ، وإن ميلاده لحادث تاريخى عظيم ، إنه لأمر هام جليل ،

نشأ هذا المصرف ودرج ، ونما وترعرع وبلغ أشده ورشده فى أعوام قلائل ، وسنين معدودات، مما لم يكن لمثله من نوعه ، نشأ « حفظه الله » مصرياً فى كل شىء ، فى لغته ورجاله ، وموظفيه وعماله ، ومشتركيه وماله ، فرحم المصريين من ظلم المصارف الأجنبية ، وجعل مصر أمة اقتصادية ، لقد مضى من حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، سبع عشرة سنة وهو ثابت ثبوت شم الجبال ، وهو فى نمو مطرد ، واتساع كبير ، فى كل مرافقه ، وفروعه وشركاته، مما يدل على أن الحاجة كانت شديدة إليه ، وعلى إخلاص القائمين به وحَدَبهم عليه ، وعلى أن الأمة المصرية فيها حياتها الكامنة التى تبرزها الحوادث ، وتظهرها الضرورة ، وأنها الأمة ذات العز القديم ، والمجد العظيم ، والتاريخ الكريم ، فقد أقبلت عليه تشد أزره ، وتعلى قدره ، وتهب له الحب صادقاً ، والعطف خالصاً ، والإخلاص كاملاً ، والتأييد تاماً ، وهو بدوره يولى أمته الأمانة والصدق ، والرخاء واليسر ، وإنجاز الأعمال ، وحفظ المال ؛ نشأ هذا المصرف فأكثروا فيه الظنون ، وتربص به الأعداء ريب المنون ، وقالوا سيموت وليداً كما بدا ، ولكن مؤسسيه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ووجهوا كل همة وعناية إليه ؛ وأخلفوا ظنون المرتابين والحاسدين ، وأثلجوا صدور الوطنيين المحبين، وأقاموا صرح المصرف عالياً مشيداً، وساروا به فى سبيل الرقى شوطاً بعيداً ، فكان عملاً ثابتاً مجيداً ، وفعلاً نافعاً مفيداً .

ولقد دعا إلى إنشائه وفتحه دواع كثيرة ؛ وضرورة ملجئة شديدة ، فإن النهضة السياسية كانت فى عنفوانها ، وأموال مصر فى يدٍ غير يد أبنائها ، كانت فى المصارف الأجنبية ، وفى قبضة أيد أجنبية ، يستثمرها لغير فائدة بلادنا المصرية ، وتتحكم فى رقاب المصريين وتستعبدهم أذل استعباد ، وتستولى على زمام الاقتصاد فى البلاد ، وكان كثير من أغنياء مصر يخفون أموالهم فى غياهب الكنوز ، ضنا به أن يكون تحت سيطرة الأعداء ، يجلبون به على مصر الشقاء ، فتبقى هذه الأموال ملقاة فى ظلمات الكنوز ، أو تجتاحها الجوائح من سرقة أو إحراق ، أو يموت أصحابها فلا يُعرف مقرها ، أو يأخذها

من لم يجد فى جمعها مشقة ولا تعباً ، فيسرف فيها كل الإسراف ، ويطوح بهما ذات اليمين وذات الشمال ، وبهذا تضيع الأموال وتسوء الأحوال ، لهذا ولغيره وجب فتح مصرف مصر ، وقد فتحه الله فتولى قياد هذه الأموال ، ووجهها لخير البلاد ونفع العباد ، ووجهها لإقامة الشركات ، وفتح الفروع ، فجنى من ذلك ربحاً عظيماً ، وشغل الأيدى المصرية الكثيرة المتعطلة ، ورقى الشئون الزراعية والتجارية والصناعيــة والعلمية ، وجعل لمصر صوتاً مسموعاً ، وعلماً مرفوعاً فى البر والبحر ، والحزن والسهل ، والأرض والسماء ، وأزال هذا العار الذى لحق مصر سنين كثيرة ، هى سنو الظلم والاستعباد ، والجمود والخمول ، والخنوع والخضوع للأجانب بلا قيــد ولا شرط ، وأصبح مصرف مصر فى المقام الأول بين المصارف التى يَرد باسمها القطن إلى الأسكندرية ، وصار ثانى المصارف فى مصر فى اتساع الأعمال ، وعظم رأس المــال ، وكثرة الودائع والأمانات ، فقد زاد رأس ماله على المليون من الجنيهــات ، وبلغت قيمة الودائع أكثر من عشرة ملايين ؛ والمصرف داره الفخمة الضخمة الفسيحة الواسعة ، السامية العالية ، الجاثمة بشارع عماد الدين ؛ تسر الناظرين ، وتشرح صدور المصريين ، كذلك مبانى الفروع والشركات لهــا جمالها وروعتها ، وحسنها وقيمتها ، وإنه لعبء ثقيل ، وثقيل جداً ، ذلك العبء الذى احتمله أولئــك المؤسسون الأبطال ، أولئك الرجال ونعم الرجال ، الذين أقاموا المصرف وفروعه وشركاته ، ووصلوا بها إلى هذا المدى البعيد الجليل ، فى هذا الوقت القليل ، هؤلاء المخلصون الأوفياء . نفعوا البلاد وأهلها ، وأعادوا لمصر عزها ومجدها ، وبرهنوا على أن بمصر رجالاً ونبوغاً ، ونباهة وذكاءً ، وحياة وقوة ، ونبلاً وفضلاً ، فإن المصرف وفروعه وشركاته كلها مصرية فى كل شىء ، فى اللغة ورءوس الأموال ، والموظفين والعمال ، وتلك مفخرة كبرى يفخر بها كل مصرى ، ويعتز بهــا كل وطنى .

والمصرف وفروعه وشركاته سلسلة ذهبية ، محكمة قوية ، تتصل حلقاتها اتصالاً وثيقاً متيناً ، لا تستغنى حلقة عن أختها ، وكلها تسير بخطى واسعة لخير مصر وإسعادها ،

وغيرها وهنائها ؛ فأما الفروع ففى القاهرة فرعان وفى الوجه البحرى أربعة فروع لهـــا مكاتب فى البلاد المركزية ، ومثل ذلك فى الوجه القبلى ، وفى الأسكندرية فرع ، وفى سوريا فرع ، وفى فرنسا فرع ، والمصرف مراسلون فى جميع جهات العالم .

وأما الشركات فهى : مطبعة مصر ومكتبتها وتقوم بطبع كل مايحتاجه المصرف وفروعه وشركاته ، ومايحتاجه كل مصرى يقصـدها ، على أحسن مايكون دقة ونظاما ونظافة وجودة ، وشركة صناعة الورق ، وشركة حليج الأقطان ، وشركة التمثيل والسينما ، وشركة النقل والملاحة ، وشركة الغزل والنسيج ، وشركة الـكتان ، وشركة مصايد الأسماك ، وشركة نسج الحرير ، وشركة الطيران ، وشركة صناعة ودباغة الجلود وشركة عموم التأمينات ، وشركة الملاحة البحرية ، وشركة السياحة ، وشركة تصدير الأقطان ، وشركة بيع المصنوعات المصرية ، وشركة بيع الأوراق المالية ، وهى شركات مصرية محضة ، ولـكل شركة أثرها العظيم فى الحياة المصرية والهناءة المصرية والحضارة المصرية ، وهذه مصانع شركة الغزل والنسيج بالمحلة الـكبرى ، تقوم هناك على مساحة واسعة تزيد على مائة فدان ويشتغل بها عشرون ألف عامل ، يتعاقبون فيها العمل ، طائفة بالليل ، وطائفة بالنهار ، وتستهلك هذه المصانع خمسمائة ألف قنطار من القطن ، وقد أعجب بها كل من رآها أو زارها من ملوك وأمراء ، ووزراء وكبراء ، ودهشوا لتلك المدينـة الصناعية العظيمة التى ظهرت فى تلك المدة الوجيزة . والآن أغلب المصريين يلبسون شعارهم وظهارهم من نسج شركة مصر . وهذه بواخر شركة الملاحة ، وهى النيل وزمزم ، وكوثر والفسطاط وعرفات ، تمخر عباب البحار ، بين مصر وأوربا ، وبلاد العالم ، وزمزم وكوثر تنقلان الحجاج لبيت الله الحرام ، كل عام ، مما وثق الصلات بين مصر والحجاز ، ومصر والشام ومصر وأوروبا . وهـذه شركة الطيران تطير طائراتها داخل مصر وخارجها وتطير بين مصر وفلسطين ، وبين مصر والحجاز ، وقد فتحت الشركة مدرسة الطيران ، يتعلم فيها أبناء مصر هذا الفن الذى سيكون له السيطرة فى النقل والتجارة وإنماء الثروة ، وهذه

لطفية النادى المصرية ، تطير بطائرة مصرية ، فى المسابقة الدولية التى حصلت بالديار المصرية فى فبراير سنة ١٩٣٧ ، واشترك فيها مهرة الطيارين والطيارات من مختلف الأمم الراقيات فكانت الثالثة فى الفائزات والمصرف وفروعه وشركاته ومصانعه ومكاتبه معاهد للتربية الاستقلالية ، واستغلال المواهب المصرية ، والذكاء المصرى ، والنبوغ المصرى ، وقد برهنت على أن المصرى لاينقص ذكاء ونباهة وخبرة عن أخيه فى أرقى الأمم وأحدثها وأعظمها حضارة . وفتحت أبواب العمل الحر أمام تلك الجيوش الجرارة التى تعمل بالمصرف وفروعه وشركاته ومصانعه ومكاتبه ، ولولاها لكانت تلك الجيوش متعطلة ، ولأصبحت خطرا داهما على الأمة والبلاد .

وقد قام المصرف وتوابعه بأهم حاجات الأمة والبلاد ، وعوض عليها مافاتها فى سنى الظلام والاستعباد ، ونهض بها نهضة اقتصادية عظيمة ، ووجد المصرى حاجاته من مصنوعات بلاده ؛ ووجد الأغنياء سبلا جديدة لاستغلال أموالهم غير شراء الأطيان بمساهمتهم فى شركات مصر ، ومصرف مصر وحفظ لكثيرين أموالهم ، كما حفظ من السقوط فى الافلاس كثيرا من التجار . وقد نالت معروضات شركات مصر فى معارض مصر وغيرها (المداليات) الرفيعة الشأن ، لما بلغته من حسن وجودة .

فشكراً شكراً لكم زعماء الاقتصاد بمصر ، شكراً لكم على صيانة أموال مصر شكراً لكم على إسعاد مصر وأهل مصر ، شكراً لكم على إيجاد العمل الحر لشباب مصر شكراً لكم على بناء هذا الصرح القومى العظيم ، ورعاكم الله وحفظكم .

وأنت أيها المصرى ساهم جهدك فى الاحتفاظ بهذه المفخرة الكبرى بنفسك ومالك وإقبالك ودعايتك ، حتى تبقى خالدة فى نمو واتساع ، دالة على أن مصر حقيقة بالحرية والاستقلال ، جديرة أن تتبوأ بين الأمم أعلى وأعز مكان .

٩٨ — النفاق

بئس الخلق خلق النفاق ، إنه منبع الكذب والاختلاق ، ومبعث الخيانة والغش

ومصدر الغدر ونقض العهد ، وجرثومة الشر والفساد ، النفاق هو الذى يظهر المنافق بألوان عدة ، ومظاهر متنوعة ، وحالات مريبة ، وأشكال مخيفة ؛ وإذا بان على المنافق نفاقه أكسبه الخزى والعار ، وألبسه المذمة والاحتقار ، وكان كالموبوء يفر منه كل إنسان وينفض عنه كل من عرفه . ولحقارة هذا الخلق الوبيل ، خلق النفاق الخبيث ، ترى المنافق يكون منافقاً ، ويأتى كل ضروب النفاق ، ثم هو يبرىء نفسه وينفى عنها هـذا الوصم بكل ما أوتى من مكر وخداع وحول وقوة . لأنه خلق من أفسد الأخلاق ، ووصف من أحط الأوصاف ، فما أحقر ولا أحط ولا أسفل ممن يكون معك على وفاء وصفاء ، وأنت معه فى عز ورخاء ، يعرف سرك وتوقفه على جميع أحوالك ، وتعلمه بكل دخائلك ، وأنت إليه مطمئن ، وبه واثق وعليه معتمد ، فإذا هو يخونك ويغدر بك ، ويمكن عدوك من مقاتلك ، ويفشى إليه بما يضرك ، ويفسح له طريق الإيقاع بك ، ويمهد له سبيل النيل منك ، ليصل عدوك إليك فيضربك الضربة القاضية. هذا هو المنافق الشرير الذى يقول بلسانه ، ما ليس فى قلبه ، ويفعل غير الذى يقول ، ويكذب ويخون ، لبئس ما قدمت له نفسه الخبيثة ، وجنت يده الأثيمة ، والنفاق كما يضر الفرد يضر الأمة ويأتى عليها ، ويكون سبباً فى ضياعها وزوالها ، فهو الذى يخذل الجموع المتكاثفة ، والجيوش الباطشة ، ويفت فى السواعد القادرة ويضعف من الهمم العالية ، ويزيل من القوة الساحقة ، ويبعد عن النجاح المحقق ، ويأتى بأسوإ العواقب فى ميادين القتال ، وميادين السياسة ، وميادين الإدارة ، وفى كل عمل من الأعمال ، والمنافقون فى كل أمة ، هم عنوان الدناءة والسفالة ، وموقظو الفتن والنزاع ، ومثيرو الخصام والشقاق ، هم علتها القتالة ، فإن لم تسرع باستئصالهم تمكنوا منها فقضوا عليها القضاء الأخير ، فالويل لأمة كان من أبنائها المنافقون ، أولئك الخبثاء الذين تكونت أجسامهم النجسة ، وثروتهم المغتصبة ، من خيرها ومالها وسعيها وعملها ثم هم يكونون عليها لا لها ، فمثلهم كمثل الثعبان البارد تحن عليه بالحرارة فيثب

عليك ليقتلك . أولئك هم جواسيس الظالمين تزهق الأرواح لـكلمة يقولونها وتيتم الأطفال لوشاية يذكرونها ، وتخرب الدور لتقرير يقدمونه ويأكل السمك من أجسام بريئة لـكذبة يـكذبونها ، وتملأ السجون ويقع العذاب على الأوفياء المخلصين لفرية يفترونها . ولـكن الله لابد ينتقم لهم . وينزل بهؤلاء المنافقين والظالمين سوء العذاب بما كانوا يصنعون . ويريح الله منهم البلاد والعباد ، وإن للمنافقين فى عهد الرسول ومبدإ الاسلام فى الغزوات وغيرها مواقف منـكرة ومكائد سفيهة ، ومكر سيىء ، وكيد سافل فقد خذلوا الناس عن الجهاد وقالوا (ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا) وأشـعلوا نيران الفتن بين المسلمين ، وافتروا على الأطهار والمخلصين . وهم فى الجيش ذهابا وإيابا ووقت القتال ، فقابل الرسول وأصحابه مكائدهم بالثبات ، والصبر والإعراض والحذر الشديد حتى فتح الله على رسوله وعلى المؤمنـين ، ونصرهم نصراً عزيزاً . ورد الله الذين نافقوا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله رسوله والمؤمنين كيدهم ومكرهم والله لايهـدى كيد الخائنين ، كذلك كل أمة وكل جماعة يريدون الخير والحياة الطيبة ، عليهم أن يسيروا في عملهم الحق إلى النهاية ، حتى ينالوا الظفر ويدركوا الغرض وهم على حذر تام واحتراس كبير ، من مكائد المنافقين ، وحيلهم الشيطانية أولئك الأدنياء الذين يتقلبون مع الأهواء ويتلونون تلون الحرباء فبينما هم مخلصون إذا هم خاذلون ، إذاهم مذبذبون ، لاإلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، قبحهم الله وأهلـكهم وأراح العباد منهم .

ومن أسباب النفاق أن يكون المنافق جهولا خاملا لاعمل له فيتوسل بالنفاق إلى كسب العيش ، وصد غائلة الجوع ، فهو يتجسس على الناس ، ويشى بهم ، ويسعى بالنميمة لسفك الدماء البريئة وتعذيب الأنفس الـكريمة ، والتنـكيل بأهل الصدق والوفاء فما أشنعه من عمل حقير ، وفعل دنىء ، ماأذل نفسك يامنافق ياجبان ، ألا تحترف بغير هذه الحرفة الساقطة ، إنك لو بحثت لوجدت وحفظت نفسك وشرفك وقومك من هذا العمل السيىء وقد تنسد وجوه العمل لدى بعض الناس فيلتجئون إلى هـذا الخلق الذميم

ليصل بهم إلى طريق يكسبون منه ، ويسدون به حاجتهم ، ولو فتحت أبواب العمل للناس لألهتهم عن النفاق وغيره من سيء الأخلاق .

وقد ينافق المنافق خشية البطش والقوة وفراراً من التنكيل والتشريد ، فيقول غير الحق ، وينصر غير الحق ، ويخذل الحق ، وإنه لمفسد جبان ، فالنافع الضار هو الله الذى لايقع فى ملكه إلا مايشاء ويريد . ولئن اجتمعت الانس والجن على أن يفعلوا شيئاً بغير إذن الله لن يفعلوه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وهذا المفسد تراه لجبنه وضعفه وخور عزيمته يساعد على العبث بالحقوق ونشر الفساد فى الأرض ، ويظاهر أولى القوة والبأس والحول والطول ، والظلم والبطش ، والقوة والقهر ، ولو أنبه ضميره ، وخالفه قلبه ووخزته نفسه ، هذا هو الطامة الكبرى والداهية الدهياء ، فانه بعمله يجلب لنفسه وقومه وذريته والأجيال القادمة الضرر وسوء المصير بلاذنب جنوه ولاجريرة اكتسبوها ، فماأظلمه وما أقسى قلبه ، وما أخبث نفسه .

إن التجسس لدفع الشر محمود ، وأن العمل فى السر والخفاء لخير البلاد مطلوب ، فالذى يتجسس على الأعداء ، ويسعى لمعرفة مقاصدهم فى الخفاء ، ويستعين على خير بلاده بالكتمان ، يعد من الأشراف المخلصين ، والقواد الفائزين . أما الذى يعمل على الضد من ذلك فهو الدنئ السافل ، والجبان الساقط ، ومأواه جهنم وبئس المصير ، فهل للناس أن يفيئوا إلى أمر الله ، ويعملوا لنيل الشرف الرفيع ، والمجد العظيم ، والعز الدائم ، والصفاء الخالد ، من غير أن تغرهم هذه الدنيا الفانية ، ولذاتها الذاهبة ، وزينتها البائدة ، تلك حياة كلها خيال فى خيال ، وللآخرة خير وأبقى . والشرف لا يعد له شيء ونجاة الوطن ومن فيه مع العذاب الأليم ، خير وأبقى من الإضرار به وبمن فيه مع النعيم المقيم .

٩٩ — إذا كنت فى نعمة فارعها فان المعاصي تزيل النعم

بالشكر تدوم النعم ، وبالطاعة تبقى السعادة . وبالاستقامة يتم الخير والهناءة . وبالتقرب إلى الله تدرك الغايات . وينال الإنسان أعلى الدرجات . أما المعاصي فهي

أصل الشرور والمصائب . ومنبع الكوارث والنوائب . وسبب الفشل والسقوط . بها تزول النعم وتسقط الأمم . ويكون الذل والهوان . وكذلك يفعل الله بالمجرمين . الذين يتركون الدين وينبذون تعاليمه الرشيدة . ومبادئه القويمة . أولئك لهم الخزى الشديد فى الدنيا . والعذاب الأليم فى الآخرة . جزاء وفاقاً . وحكماً عدلاً .

الدين أساس كل نعمة . والتمسك به أصل كل خير . فلا حياة بغير دين ولا معنى للحياة الخبيثة المملوءة بالمعاصى والآثام تلك حياة مآلها الذل والاستعباد . والهوان ثم الهوان . وبعدها الفناء والاضمحلال . ألا وإن كل شر تصادفه الأمة . وكل شقاء ينتابها . وكل كرب تقع فيه . إنما هو من التهاون بالدين . ونبذ شعائره وترك تعاليمه . واحتقار مبادئه والاستهزاء بمن يتمسك به ويريد أن يرفع من شأنه . ويعلى من مقامه . ويقيم من شعائره ،ويدعو إليه ، ويشفق عليه .

ونحن بنى مصر نرى الموبقات الشنيعة ترتكب باسم المدنية والجرائم المهلكة تُقترف باسم الحضارة . والمعاصى القتالة تُفعل جهاراً تحت ستار التقليد الضار . وفى ظلال الاقتداء الممقوت وباسم التجدد المشئوم . وإن هذا لضرراً بليغاً . وهلاكاً واقعاً لا مفر منه . إن دام هذا الفساد . لقد أسرف بعض بنى مصر فى المعاصى . وأمعنوا فى الفساد . وغرقوا فى بحار المآثم والمنكرات . وأعرضوا عن ربهم . فقست قلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم . فأذاقهم الله النكال الشديد بما كانوا يصنعون . ووقعوا وأوقعوا الأمة معهم فى فتن كقطع الليل المظلم . ولا منجى من ذلك إلا بالرجوع إلى الله . وتطهير القلوب من دنس المعاصى . وكدر الذنوب . (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون) فنحن بنى مصر شيباً وشباباً . نساءً ورجالاً . يطالبنا الوطن العزيز . أن نرجع بكل سرعة إلى الله القدير . ونتبع طريقه القويم . وصراطه المستقيم . ولا نكون كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . بل نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . نحن نريد الحياة سعيدة . والوطن عزيزاً .

والمقام محموداً . والعيش هنيئاً . فعلينا بترك المعاصى . علينا بنبذ الذنوب . علينا بتطهير القلوب . على الرجل أن يؤدى ما يلزمه من الفرائض حق الآداء . وأن يكون هدى ونوراً . ومبعث خير وسعادة لبنيه و زوجه وأسرته وقومه . وعلى المرأة أن تفعل ذلك . وأن تنبذ كل تقليد وتطرح كل اقتداء فيه الإسراف والتبذير . وخروج المال من يدها إلى يد من لا يرق ولا يرحم . وعليها أن تتمسك بعادات قومها وتحفظ كيان وطنها ، وأن تعتصم بالدين فى جميع أعمالها . فلا تتبع كل شيطان مريد . فتتبرج تبرج عديمات الشرف والحياء وتخرج عن حد الآداب . فى ملابسها وأفعالها ، فتقصر من ثيابها ، وترفع من كعب حذائها ، وتلبس الجورب الذى ينم عن ساقيها ، والنقاب الذى يدل على قحتها ، أو تكشف عن وجهها للناظرين، وتتزين لغير زوجها من المفسدين ، فذلك مالا يكون معه فلاح ولا نجاح ، وإنما هو والله الذل والهوان والفناء العاجل لها ولبنيها وقومها وأمتها ، فلا عاشت من تريد ذلك ، ولا طلعت عليها شمس النهار ، إنها لتسير بالوطن إلى البوار والدمار . باسم الحرية والتجديد ونبذ القديم العتيد .

كل الصلاح إنما يرجى من المرأة ، وكل الفساد إنما يخشى من المرأة ، فلو صلحت صلح كل شىء ، ولو فسدت فسد كل شىء ، ولا صلاح لها بغير الدين والعلم الصحيح ، ولنا من تواريخ فضليات النساء أكبر شاهد ، وأعظم دليل ، على أن إنقاذ الأمم من الهلاك ، والأخذ بيدها إلى العز والعلا ، لم يكن إلا حيث تكون المرأة بالمقام الأول ديناً وعلماً ، وفضلاً وشرفاً ، ولعلنا نرى بمصر من هذا الصنف المقدار الوفير ، حتى تظفر البلاد بالنجاح على يد بناتها الشريفات ، الكاملات العاملات ، لعل ذلك يكون ويكون فى هذا العهد المبارك ، عهد العمل لصيانة الوطن وعزته وسعادته .

١٠٠ — الواجب للنفس

النفس جوهرة غالية ، وهبة من الله سامية ، بالأخلاق العالية عزها ، وبالآداب الراقية كمالها ، وبالفضائل زينتها ، وبالتربية الحقة حليتها ، وبذلك كله صونها وحفظها

وشرفها و رفعتها ، و بالرذائل ضعتها و بالنقائص خستها ، و بسوء الطباع فسادها ، و بالحمق والجهل انحطاطها ، فوجب للنفس تأديبها بالأدب الكامل ، وتطهيرها بالخلق الفاضل ، وتكميلها بالعلم والمعرفة ، حتى تكون نفساً شريفة وثابة للمعالى ، سباقة إلى المكارم ميالة للخير ، بعيدة عن كل سوء وشر ، والنفس بيد صاحبها ، إن شاء رفعها وجعلها صالحة خيرة و إن شاء وضعها فسار بها إلى الحضيض ، و رمى بها فى مهاوى الذل والهوان

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالباً فى الناس أعلى المراتب

وتربية النفس وتهذيبها ، وتأديبها وتكميلها ، وحربها وجهادها ، ومنعها و زجرها ، من أصعب الأمور وأشق الأعمال ، وأكبر الجهاد ، وتلك أمور تحتاج لإرادة قوية ، وعزيمة ماضية ، وثبات وصبر عظيمين ، فإن الارتقاء صعب المسلك ، والوصول إلى الكمال دونه أكبر المتاعب ، ولكن بالصبر الشاق ، والثبات العظيم ، يبلغ الإنسان ما يريده من السؤدد والفخار .

أخلق بذى الصبر أن يحظي بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فعلى المرء الراغب فى الكمال أن يصبر على الأشق المؤلم قليلاً ، ليتمع بالأرفه المريح كثيراً ، فيحبس نفسه عما تشتهيه من لذة يعقبها الندم ، و يمنعها من عمل يتبعه الألم ، و يصدها عن غى بعده الضرر .

إذا ما أراد المــرء إكرام نفسه رعاها ووقاها القبيح وزينـا

إن المدرسة والمنزل عليهما قسط كبير من تربية النفس وتهذيبها وتأديبها وتعليمها ، ولكن المرء أدرى بنفسه ، وأعرف بها ، وأعلم بأحوالها ، وهو الرقيب عليها فى كل جهة ومكان ، يعلم ماظهر منها وما بطن ، لايشاركه فى ذلك غير الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يستطيع تأديب نفسه ، وهو القادر على ذلك أكثر من المدرسة والمنزل ، فإن شاء كانت نفسه طاهرة كريمة ، و إن شاء كانت سيئة خبيثة ، ولكن يجب عليه لنفسه أن يساعد المدرسة والمنزل فى تقويمها وتهذيبها ، وتربيتها وتعليمها ، حتى تصل إلى الكمال ، و يبلغ بها غاية الآمال .

رأيت العز فى أدب وعلم وفى الجهل المذلة والهوان

وكيف يبلغ المرء مناه ، وينال الإنسان مطلبه ، ويحصل على السعادة والرقى ، والرفعة والمجد ، وهو لاجىء إلى الكسل ، ميال إلى الخمول ، مخلد إلى الراحة والسكون لا يكون ذلك ، ولا تنال نفسه ما تشتهى من المعالى ، حتى يكون من ذوى النشاط والعمل والجد والاجتهاد ، والسعي بعزيمة صادقة ، وإرادة قوية كاملة ، فالعلم والأدب ، والمعارف والفنون ، والمعلومات والذكاء ، كل هذه وغيرها لا تأتى بالغرض المأمول ، مع الكسل والخمول .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام الكرائم

ومن الواجب للنفس السعى فى الخير ، والاشتراك فى الأعمال النافعة ، والجرى وراء الفائدة ، وصنع المعروف ، وعمل البر ، فبذلك يصبح صاحبها مثالاً حسناً ؛ وقدوة صالحة . وإنساناً محبوباً ، وهذه هى السعادة النفسية الحقة ، وصاحب النفس العالية يأبى ألا أن يخالط أهل الصلاح والتقوى ، ومن بلغوا فى الكمال غايته القصوى ، حتى يكون مثلهم ويحذو حذوهم .

وليست السعادة جمع مال ، أو إدراك جاه ، أو قوة نفوذ أو شدة بأس ، أو تمام سيطرة ، ولكن التقى النقى الشريف الكامل هو السعيد ، فيجب للنفس أن تحصن بالصلاح والتقوى ؛ وتدرب على الكمال فى العلانية والنجوى ، وألا يختلط صاحبها بغير أهل البر والإحسان ، هذه هى الواجبات للنفس ، يجب أن يؤديها كل محب لبلاده حتى تنال السعادة والخير العظيم .

١٠١ — المواد المخدرة وأثرها فى الامة

مصر تستغيث ، ومن هول ماحاق بها تئن ، ومن شدة ما أصابها تتوجع وتتحسر ، تستغيث من فشو المواد المخدرة ، وتئن لشيوع هذه السموم القاتلة ، وذيوع تلك الجرائم الفاتكة ، تستغيث وتئن ، وتتوجع وتتحسر ، من الكوكايين والأورايين

والمورفين . هذه وما تفرع منها من دواعى البلاء ، وأسباب الشقاء ، وجالبات الفناء ؛ لقد كانت مصر تتألم وتتوجع ، وتئن وتتصدع ، من الخمر والحشيش والأفيون ، فإذا الطامة الكبرى ، والداهية العظمى ، والمصيبة الماحقة ، والبلية الحالقة ، وامصيبتاه ، واأسفاه ، قد عكف الشبان من أفراد هذه الأمة الأسيفة ؛ على تعاطى تلك المواد ، وتهافتوا على تناول هذه السموم ، ولم يسلم من شرها كثير غيرهم من باقى الطبقات رجالا ونساء ، فعمت البلوى ، وانطلقت الألسن بالشكوى والأقلام بالتحذير من سوء العقبى ، وقامت فى البلاد تلك الضجة ، خوفاً من خطر هذه النكبة . ونادى حكمدار القاهرة (رسل باشا) على صفحات الجرائد يحذر الناس من شم الكوكايين ، ويخوفهم عاقبة ذلك الداء الدفين ، وينذرهم بالويل الأكبر ، والهلاك الأشنع ، أن يقلعوا عنه ، ويتركوا تناوله ، ويبتعدوا عن تعاطيه وترى كل يوم حملات صادقة من الشرطة على باعة هذه السموم يقدمونهم للقضاء فيقضى عليهم ، ويوقع بهم العقاب الشديد . ولكنهم لا يرجعون . لكثرة ما يربحون . أليس لمن يتعاطون هذه السموم دين يزعهم . أليس لهم وطن يغارون عليه . أليس لهم شرف يحتفظون به . أليسوا عقلاء أليست لهم قلوب ، بلى ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ؛ أولئك هم الغافلون . إن المواد المخدرة تمحق الأخلاق محتماً ، وتفسد الآداب إفساداً ، وتقضى على الآمال كل القضاء ، وشر القضاء ، وتسير بالأمة إلى العذاب والشقاء ، والهلاك والفناء ، فلا مال معها ولا آمال ، ولا عمل ولا أعمال ، ولا حماة ولا رجال ولا أدب ولا كمال . ولا أمن ولا اسلام . وإنما هو الضرر والضرار ، والوبال والنكال ، والفساد والضلال ، وسوء الحال . أيها العمال . أيها الأبطال . أيها الرجال . هأنتم هؤلاء قد كثر منكم من يتعاطون الكوكايين وغيره من المواد الخطرة القاتلة أنتم قوى مصر وأيديها العاملة ، ولقد وقع من بينكم صرعى وقتلى تلك المهلكات ، فى الشوارع والطرقات والمنازل والحانات ، ووجد منكم من أصبحوا

عاجزين بتعاطى الكوكايين ، أصبحوا لا قيمة لهم فى الحياة ، أصبحوا لا قدرة لهم على العمل ، أصبحوا بائسين يائسين ، أصبحوا وقد خارت قواهم ، وضعفت عزائمهم ، وصاروا ينتظرون بل يتمنون الموت فى كل وقت وآن . وهذا بربكم هو سبيل الفناء ، وطريق الشقاء ، ومسلك كله كرب وبلاء ، لأولئك الخاطئين الذين جنوا بتعاطيهم هذه المواد على أنفسهم وأسرهم وقومهم وبلادهم ، فإياكم وهذه المواد احذروها كل الحذر ، ولا تصادقوا من يتناولها . يتعاطى الغر الأحمق المعتوه المجنون تلك المواد فيضر صحته وماله وشرفه وسمعته ووطنه ، وترتبك أحواله ، وتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا يُوثَقُ به فى عمل ، ولا يُعتمد عليه فى شىء ، حتى إنه لا يثق بنفسه ، ولا يزال فى هم وغم ، وبؤس وكرب ، إلى أن يموت غير مأسوف عليه ، تلك المواد ملعونة ، ملعون متعاطيها ومتناولها وبائعها ومشتريها ، وجالبها ومقتنيها ، كل أولئك ملعونون مطرودون من رحمة الله ، لأنهم أشرار منا كيد ، ينشرون الخبائث ، ويشيعون المفاسد ، ويفسدون الأخلاق !! لقد صار الدين غريباً بين الناس لاَ يأبَهُونَ لَهُ وَلاَ يُعنَوْنَ بشأنه ، ولا يستمعون لأمره ، ولا ينتهون بنهيه ، فوصلوا بذلك إلى شر غاية ، وأشأم نهاية ، وفشا فيهم الفساد ، ولم يعد للنفوس من الدين وازع ، فأمعنت فى الضلال ، وأوغلت فى الشرور والآثام ، فلو كان للدين سلطان على النفوس ما شاعت فى الأمة هذه المواد ، ولا ذاعت تلك السموم ، إن الوطن لفى خطر منها . فمن تعاطاها فهو عدو لوطنه ، عدو لنفسه ، التى بين جنبيه ، إنه آثم شرير ، إنه جاهل جبان يسعى إلى حتفه بقدمه .

ولقد عنيت الحكومة بأمر تلك المواد فسنت قانوناً صارماً يحفظ الناس من شرها ، ولكنه لم يأت بالثمرة المطلوبة ، ولن يأتى بها إلا بمعاونة الأمة ومساعدتها ، فعلينا أن نوجه عزمنا وكل ما نملك من قوة للقضاء على تعاطى هذه السموم ، وكل منا عليه هذا الواجب ، وكل منا ملزم بوقاية نفسه وغيره من شر تلك المواد ، فالخطيب والمدرس ، والمعلم والحاكم ، والرئيس والراعى ، والأب والأم ، كلهم عليهم جميعاً أن يقولوا ويرشدوا

ويدلوا وينصحوا ، ويبينوا للناس مضار هذه الموبقات المبيدات ، التى دسها لنا الأعداء وجلبها إلينا الأدنياء ، ليقضوا علينا آخر القضاء ؛ فلنحارب هـذه الموبقات بكل قوانا حتى ترتاح الأمة ويسلم الوطن وتحسن سمعة الأمة المصرية بين الأمم .

﴿١٠٢﴾

ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى　　من العيش ما يصفو وما يتكدر

الدنيا حلوة مرة ، صافية كدرة ، غرارة خداعة ، خوانة غدارة ، لا تحلى إلا لتمر ، ولا تسر إلا لتسىء ، ولا تفرح إلا لتحزن ؛ لا يدوم نعيمها ، ولا يؤمن بؤسها ، فـلا حزن يدوم ولا سرور ، ولا فقر ولا غناء ، ولا سعادة ولا شقاء ، فيوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر ؛ ودوام الحال من المحال .

فمن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى فيها ما يريده ويتمناه ، وما يسيئه ولا يرضاه ، وما يؤلمه ويكدره ، وما يحزنه وينغص عيشه ، فهى دار الهموم والبلوى ، والمتاعب والأحزان ، فالحازم الحكيم من وطن نفسه على مصائب الحياة ، وذللها على مكاره الخطوب ، وراضها على نوب الأيام ، حتى إذا نزلت به ملمة ثبت ، وإذا حاقت به شدة صبر ، وإن أصابه خير اطمأن به ؛ وإن أصابته فتنة رضى بما قسم الله له ، فلا يخرجه الفرح عن الحكمة ، ولا يبعده الحزن عن الصواب ، ولا تغره الدنيا بزخارفها ، ولا يطغيه ما يرى لنفسه من حول وقوة ، وعز ونعيم وخدم وأعوان ، وسيطرة وبأس ، فيظلم ويبغى ، ويضر ويؤذى ، ويعيث فى الأرض الفساد ، فالدهر ذو غير ، والأيام دول ، والله لا يحب الظالمين ؛ وهو مع الصابرين .

وليس بدائم أبداً نعيم　　كذاك البؤس ليس له بقاء

فمن الحزم ألا يهمل المرء نفسه ، معتمداً على ما لديه من ثروة ومال ، وعز ونعيم ، وسؤدد ومجد ، قد ورثه عن الآباء والأجداد ، واكتسبه بلا تعب ولا عناء ، فالمال لا يبقى ، والثروة لا تدوم ، والسؤدد لا ينفع ، والمجد لا يفيد ؛ إن لم يعد نفسه لخوض غمار الحياة

معتمداً على عمله ، قادراً على القيام بأعباء المعيشة وحده ، فليكن من وراء الثروة علم نافع ، وفكر ثاقب ، ورأى سديد، وفعل حميد، ونظر فى العواقب، وتبصر فى الأمور ، وادخار من اليسر للعسر ، ومن القوة للضعف ، ومن الشباب للهرم ؛ ومن الصحة للسقم ، ومن الغنى للفقر ، ومن الحياة الموت ، حتى لا تزعجه الحوادث ، ولا تكدر صفوه النوازل ، ولا تنال منه الكروب ، ولا تؤذيه الخطوب ، إذا أصيب صبر ، وإذا نزلت به كارثة ثبت ، علماً بأن ما فات فات ، وكل ما هو آت آت ، وليس بنافع حزن ولا ضجر ، ولا غم ولا جزع ، ولا عويل ولا بكاء ، وإنما هو الصبر والثبات ، والرضا بما كان ، وإن مع العسر يسرا ، ومع الضيق فرجاً ، ومع الشدة رخاء ، أما إذا استسلم لليأس ، وخضع للجزع ، واستكان للحزن ، ويئس من الحياة ، فالويل ثم الويل له ، ترتبك عيشته ، وتضطرب حياته ، ويبقى فى عناء وشقاء ، وكرب وبلاء ، وهو الجانى على نفسه بيأسه وخور عزيمته ، وكذلك لا ينبغى أن يلهو الإنسان عن مستقبله . ويفرط فيما أعطاه الله من نعمة وخير ، بالإسراف والتبذير ، واللهو واللعب . لئلا يقع فى بؤس دائم . وحزن شامل . وذل قاتل . بل يجب عليه أن يعمل لمستقبله معتمداً على نفسه . معدها لقبول الخير والشر . واليسر والعسر . والفرح والترح . والسرور والحزن . حتى لا تكون نفسه لعبة فى يد الحوادث تقلبها كيف تشاء . وتتصرف فيها كما تريد . فلا تفرح بما جاءها . ولا تحزن على ما فاتها . وترضى بما قسم الله لها .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده . وليس عليه أن يجعل الدنيا طوع إرادته . أو يصل إلى السعادة قوة وقهراً . ويكون كما يشاء فى كل شىء . ويعيش دائماً فى سرور وصفاء ، فذلك مالا يكون ، ولله فى خلقه شئون ، يعز من يشاء ، ويعطى من يشاء ، ويأخذ ممن يشاء ، (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) ، ومن ذا الذى عاش فى الدنيا من غير أن يتذوق ألمها ، ويتجرع غصصها ، ويشرب صابها ؟ أم من قضى حياته فى سرور دائم وفرح مستمر ؟ كل من عليها لا يدوم على حال ، ولا يبقى هنىء البال .

ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى ... من العيش ما يصفو وما يتكدر

﴿١٠٣﴾

وقد يكبر الخطب اليسير ويجتنى أكابر قوم ماجناه الأصاغر

إن فى كل أمة قوما قلت خبرتهم ، وضعف تدبيرهم ، وعميت قلوبهم ، لايتدبرون العواقب ، ولا يفكرون فى العمل قبل الشروع فيه ، تضطرب أفئدتهم لتافه الأمور ، وتنتفخ أوداجهم لصغائر الأشياء . وتغلى صدورهم من غير سبب ، يتسرعون و يطيشون ويعملون مالا يفقهون ، أولئك هم أصاغر الأمة ، وأولئك هم المتوهون ، وأولئك هم المتسرعون ، يقعون فى المهالك من حيث لا يشعرون ، وتنصب عليهم المصائب وهم لا يبصرون ، ويجلبون لأمتهم ولأنفسهم الضرر الكبير من الأمر الحقير ، والفساد الأكبر من الشىء الصغير ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، فينالون وتنال الأمة بهم ما يؤلمها ويؤذيها ، ويضرها ويضنيها ، وقد يفلتون من العقاب؛ ويوقعون بغيرهم العذاب .

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

ما أجهل من يباشر عملا لا يعرف نتيجته ، ولا يعلم عاقبته وما أحمق من يدفع بنفسه إلى المهالك مختاراً ، ويلقى بها فى المخاوف غير مضطر ، معتقداً أنه يدافع عن وطنه ، ويذود عن قومه ، فيجنى على نفسه وعلى وطنه وعلى أمته وقومه . إن الوطن عزيز والدفاع عنه شريف ، والذود عنه واجب ، وحفظه مقدس ، ومن يقوم بحراسته وخيره يستحق كل ثناء ومدح ، وحب وإكرام ، ولكن ينبغى أن يكون ذلك بعقل وحكمة ، وفكر وروية ، وتبصر وتدبر . وإن أحسن عمل يحمى البلاد ، ويحفظ الأوطان ، أن تتكمل الأنفس بالعلوم والآداب ، وتتحلى بأحاسن الأخلاق وتعتصم بالصبر والثبات ، وتتمسك بالوفاق والاتحاد ، وأن تعد العدة للدفاع ، من الجيوش المدربة ، وأدوات الحرب الحديثة . فإذا قامت قامت على قلب رجل واحد ، وإن دافعت دافعت مجتمعة بذلك تسعد البلاد ، وتحفظ الأوطان ، وينتشر الخير والأمان . وإنا لنرى كثيراً من الأسر ذوات القوة والبأس ، والرفاهة والعز ، والغنى والثروة ، أصبحت فى خصام ونزاع

وجدال وعناد ، واختلال واضطراب ، حتى تسيل الدماء وتزهق الأنفس ، وتقلع الزروع وتحرق المنازل والحقول ، وتموت المواشى بالسموم ، وتتفاقم الشرور ، من أجل غرين تشاجرا ، أو مجنونين اختصما ، أو معتوهين اختلفا ، على أمر حقير تافه صغير ، وكل منهما من أسرة كبيرة ، وقبيلة عظيمة ، فتقتتل الطائفتان ، وتتطاحن الفئتان ، ويجد الشيطان الفرصة سانحة ، فيلقى بينهم العدواة والبغضاء ، والخصام والشحناء ، ويدوم ذلك السنين والأعوام ، هذه الجنايات الفظيعة ، والآثام الكبيرة ، والشرور القاتلة نراها ارتكبت لشىء حقير ، وفعلت لأمر طفيف ، وحصلت لسبب ضعيف ، يتشاجر صاحب المزرعة مع جاره على بعض من الماء يروى حقله ، فيسارع إليهما الأعوان والأصدقاء ، ولا يخمدون الفتنة بل يشعلون نار العداوة ، فيقع الضرب والقتل ، وتنجلى الموقعة عن قتلى وجرحى ، لسبب حقير تافه صغير ، ولو تدرعا بالحلم والثبات لما كان ما كان من سفك الدماء ، والعداوة والبغضاء ، والفتنة والشقاء ، وضياع الأموال والأنفس والثمرات . فمن الحكمة والعقل أن يستشير المرء أكابر قومه ، ويعرض عليهم نتيجة عمله ، حتى لا يقع فى شر تسرعه ونزقه ويجنى على عشيرته وقومه ، ويجدر بأكابر الأمة ، وذوى الرأى فيها ، وأصحاب الأمر والنهى منها ، أن يستأصلوا شأفة المغفلين بالإرشاد والتعليم ، ويقطعوا دابر الطائشين بالتربية والتهذيب ، ويأتوا على الفتن قبل اشتعالها ، وعلى الشرور قبل استفحالها ، وعلى العداوة قبل اضطرامها ، بالإصلاح والصلح ، والسعى الجميل ، حتى لا يقعوا فى شر جناه غيرهم ، وضرر أتاه سواهم . (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) والله ولى التوفيق .

١٠٤ — حث على مساعدة جرحى القتال

جرحى القتال أو منكوبو الحرب ، هم أولئك الباسلون الشجعان ، والكماة الفرسان الذين قاموا للذود عن أوطانهم ، والدفاع عن بلادهم ، ومنع الشر عن أنفسهم وقومهم ، والاحتفاظ بحريتهم واستقلالهم وشرفهم ، قاموا فى وجه القسوة والظلم ، ووقفوا أمام

التوحش والغدر ، فتناولتهم السيوف من كل جنب،وانصب عليهم الهلاك من كل صوب ، وهطلت عليهم القنابل والرصاصات،وأتاهم الموت من جميع الجهات ، ولاذنب لهم،ولا إثم عليهم ، ولا جرم قد وقع منهم ، إنما هو طمع الإنسان وظلمه وقسوته جعلته يلقى بالجحيم والعذاب الأليم ، على رءوس الأبرياء فى بلادهم ، لأنهم يدافعون عن أوطانهم ، إنما هو ظلم الإنسان للانسان ، فى عصر التمدين والعرفان . إن قوماً كهؤلاء أصيبوا بنكبات الحرب ، وويلات القتال ، ورزايا الضرب ، والنضال ، وعذبوا وأوذوا ، وقاتلوا وقتلوا وجاهدوا وصبروا،وشاهدوا الموت بتخطفهم ، والهلاك يحيط بهم، والعذاب ينصب عليهم والشقاء يكتنفهم ، والدماء تسيل من أجسامهم ، والجراح تؤلمهم ، حتى سقطوا فى ميادين القتال مكلومين ، ووقعوا فوق الثرى مجروحين ، فارتوت الأرض بدمائهم العزيزة ، وتغطت بأجسامهم البريئة . إن قوما كهؤلاء نالهم ما نالهم فى سبيل شرفهم ، والاحتفاظ بمجدهم ؛ وحرصاً على وطنهم ، وخوفاً على عزهم ، بقلوب لا تهاب الموت الزؤام إذا عدا ولا تخشى المنايا إذا طغت ، ولا تحفل بالمصائب إذا نزلت،ولا تخاف الصواعق إذا وقعت إن قوما كهؤلاء سقطوا فى الميدان بعد أن صادفوا أنواع العذاب ، ورأوا صنوف الشدائد وتجرعوا الغصص ، وذاقوا مرارة الحرب ، صباحا ومساء بقلوب طاهرة ، ونفوس شريفة وأفئدة ثابتة ، وجأش قوى وإيمان صادق . إن قوما كهؤلاء لجديرون بكل إسعاف وإغاثة ، وعطف وإحسان ، وشفقة وحنان ، ورحمة وإكرام ، وجود وسخاء ، وبذل وعطاء ، فماهم بآثمين ولا مجرمين ، ولا طاغين ولا ظالمين . إنما هو طمع الإنسان الذى إذا قدر وثب ، وإذا تمكن غدر ، وإذا استطاع أصبح وحشاً ضارياً وذئباً فاتكا ، بل أصبح أسبق من الوحش فى فعله ، وأقسى من السبع فى شره ،فينكل بمثله ، ويفترس أخاه ، ويمثل به أشنع التمثيل .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

هؤلاء القوم الذين استجابوا للشرف ودعوته ، وجاهدوا فى سبيل الحق ونصرته ،

وتركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم ، للدفاع عن أوطانهم ، والذود عن بلادهم ، من غصب الغاصبين ، وعدوان الظالمين . إن هؤلاء لجديرون بكل عطف وإقبال ، ومساعدة ومعاونة ، فهم فى ضيق ونحن فى سعة ، هم فى شدة ونحن فى يسر ، هم فى شقاء ونحن فى صفاء ، هم فى عذاب وكرب ، ونحن فى خير ويسر ، هم فى غم وهم ، ونحن فى سلام وأمن ، هم فى عناء وشقاء ، ونحن فى نعيم ورخاء ، هم فى شرور ونحن فى سرور ، فلنشكر الله الذى عصمنا من الحرب وشرها ، والمدافع وصوتها ، والقنابل وانفجارها ، والبنادق ورصاصها ، والسيوف وضربها، والطيارات وقذائفها، والأفراس وصهيلها، والرماح وطعناتها، والغازات السامة وفتكاتها ، والقذائف المحرقة وإحراقها ، ، من شر الإنسان إذا خاصم وتنمر ، وعادى وتوحش ، لنشكر الله ونقدم لهؤلاء الشجعان المظلومين ، والفرسان المكلومين ، والذادة المجروحين ، ما يساعدهم على كربهم ، ويخفف عنهم ما ألم بهم ، فهم والله أحق بالإحسان ، وأولى بالمساعدة ، وأجدر بالمعاونة ، وذلك واجب علينا مقدس . فجدير بنا ونحن بنو مصر المعروفون بالبر والجود ، المشهورون بالكرم والسخاء ، الموصوفون بالصدق والوفاء ، أن نقوم بمساعدة هؤلاء المعذبين، وإسعاف أولئك المكروبين ، فقد قام المصرى وشهد له العالم فى مثل هذا الموقف ، بأكثر مما يجب عليه فيأهل مصر ، يا شعب وادى النيل ، يا ذوى النجدة والشهامة ، يا أولى الغيرة والحمية، هذا أوان البذل فهلموا ، وذلك وقت السخاء فابذلوا وأعطوا .

ولا تتوانوا فالبدار غنيمة ولِلمُدلج السارى صفاء المناهل

ولينفق كل منا على قدر طاقته ، وليساعد جهد استطاعته ، ولا يخجل الفقير أن يقدم قرشاً ، ولا يمتنع عن المساعدة ولو بالقليل، فالقليل على القليل كثير ، وقد قال الرسول (اتقوا النار ولو بشق تمرة) وقال تعالى (لينفق ذو سَعة من سعته ، ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) . هلموا وأسرعوا وعاونوا وساعدوا ، فهذه أوجه البر ، وتلك سبل الإنفاق ، وهذا أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم ، (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) .

١٠٥ - حث على مساعدة قوم نكبوا بالحريق

إنها النار قد أشتعلت بالمنازل فدمرتها ، واضطرمت بالمساكن والدور فأهلكتها ، وعلقت بالأموال والثمرات فمحتها ، فما أشد الهول ، وما أكبر الخطب ، وما أعظم المصاب؛ أكلت النار الحرث والنسل ، وقضت على الفرع والأصل ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته رماداً ، وتركته هباء ، فكان لذلك منظر يفتت الأكباد ، ويذيب القلوب ، ويملؤها حسرة لحسرة ، إذا رأيت ثم رأيت الباكين والباكيات ، والمذعورين والمذعورات ، والمستغيثين والمستغيثات ، والذاهلين والذاهلات ، والهائمين على وجوههم والهائمات ، والحائرين فى أمرهم والحائرات ، هذا يستنجد ولا منجد ، وتلك تستجير ولا مجير ، وكل بنفسه مشغول ، وعن غيره مغلول ، ومما أصابه فى غم وارتباك ، ولما حاق به فى هم واضطراب ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على المصابين غير يسير ، يوم أذهل الخل عن خليله ، والصديق عن صديقه ، والولى عن مولاه ، يوم نسى فيه الأخ أخاه والولد أباه ، فلم يلبثوا جميعاً أن رأوا ديارهم وأموالهم كُثباناً من الرماد ، لم يبق لهم من طريف ولا تلاد ، ولا سبَد ولا لبد ، وأصبحوا فى بؤس وكمد ، سقفهم السماء ، ومقامهم الغبراء ، يستظلون بالحيش الحقير ، وما عندهم من فتيل ولا قطمير ، وهم فى لهف إلى رحمة الرحماء ، وفيض الأغنياء ، يرتقبون إحسان المحسنين ، وينتظرون عطف المؤمنين ، وكل حسنة ولو حقيرة تفيدهم ، وكل عطية ولو صغيرة تنفعهم ، فعطفاً عليهم أيها المحسنون ، ورحمة بهم أيها المصريون آتوهم من مال الله الذى آتاكم ، أغيثوهم وأدركوهم بما منحكم مولاكم ، فأنتم بذلك مطالبون ، وعن هؤلاء مسئولون ؛ غنيكم وفقيركم كبيركم وصغيركم فلا يتكل أحد على أحد ، ولا يستقل ما يقدمه ، فالقليل على القليل كثير ، والصغير إلى الصغير كبير ، أعينوا إخوانكم واشكروا الله الذى أصابهم ونجاكم ، وحفظكم وما ابتلاكم ، اشكروه بالبذل والعطاء ، اشكروه بالجود والسخاء ، فلن يضيع والله ما تنفقون ، ولن يذهب ما تعطون . (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم) .

أيها الرحماء الأوفياء ، ما ظنكم بقوم كانوا على الأرائك متكئين ، وفوق البسط والنمط جالسين، وفى مساكنهم منعمين ، و ببلدهم آمنين ، ولأقواتهم جامعين ، و بحياتهم مسرورين هانئين ، ثم نظروا فإذا هم على الثرى يجلسون ، وتحت السماء ينامون لايجدون ما به يستترون ، و إليه يلجئون ، و به يقتاتون ، إنه لخطب جسيم ، ومصاب أليم ، وكرب عظيم ، يتطلب الشفقة والرحمة والإحسان ، أيها المصريون الكرماء ، لكم مواقف مشكورة ، وحسنات مذكورة ، وبر معهود ، و إحسان معروف ، فى مثل هذه الأحوال وفى أقل منها ، فأضيفوا حسنة إلى حسناتكم ، ومبرة إلى مبراتكم ، أغيثوا بنى وطنكم ، فهم أحق بعطفكم وأولى ببركم ، وأجدر بإحسانكم ، وكثيراً ما أنفقتم عن سعة ، وأعطيتم عن كرم ، و بذلتم عن سخاء ، فخففوا عن القوم آلامهم ، وهونوا عليهم مصابهم ، وأعطوهم ما يسدعوزهم ، و يقضى على ماهم فيه من عسرة وضيق ، ولا تعتمدوا على الحكومة فإن الحرائق هذا العام قد كثرت ، ولا تستطيع الحكومة وحدها أن تقوم بهذه المطالب التى قد تشعبت واتسعت ، جودوا وابذلوا ، وعلى الحكومة لا تتكلوا ، حتى تحفظوا لمصر كرامتها ، وتبقوا على جميل سمعتها ، (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) . والله ولى المحسنين .

١٠٦ — التزاحم على وظائف الحكومة

اكتظت مصر بالسكان ، وامتلأت بالوافدين عليها من كل مكان ، وكل يريد الحياة طيبة ، و يرجو العيشة سعيدة هنيئة ، فقامت الحروب مشمرة عن ساقها ، واشتد إعصار التنافس فى أهلها ، ولكن علام تلك الحروب ، ولم هذا التنافس ، ذلك للحصول على الوظيفة ، وللظفر بها قبل فوات الفرصة ، فيأخذها هذا دون ذاك ، ترى القوم على أبواب الحكومة وكل يصطحب واسطته ، و يرافق شفيعه ، أو يحمل الرجاء المكتوب ، لأنه على فلان محسوب ، وعندئذ يلاقى الرئيس المختص من ضروب

الإعنات ، وصنوف الإلحاح ، وأنواع الشفاعة ، وألوان النطاعة ، فى بيته وفى مقر حكمه وفى ذهابه و إيابه وموضع سمره ، ما يقلق راحته ، ويفسد عليه عمله ، وينغص عيشه ، ويزعجه ويؤلمه ، إن أجاب وقبل ، أنبه ضميره ونهاه شرفه ، ولامته نفسه . لأن طالب الوظيفة غير كفء . ويطلبها مئات غيره وكلهم أكفأ منه . ولكن ليس لهم وجيه . ولا شفيع . وإن أجاب ولم يقبل كان من الكاذبين . وعدوه من المخلفين . وإن لم يجب ولم يقبل ووضع الحق موضعه . وأعطى الوظيفة كفأها . عاداه الناس ورموه بكل جارحة ونقيصة . ونسبوه إلى الجحود والجمود . فما أسوأها من حال .

ما هو السبب ؟ لذلك أسباب كثيرة . أهمها سوء التربية الاستقلالية بمصر . فإن مدارسنا ودور التعليم عندنا بنيت وأنشئت وملئت وأفرغت لتخريج خدم للحكومة . وأيد للحكومة . وعمال للحكومة . لتخريج الموظفين ليس غير . فيصرف الطالب زهرة شبابه . وينفق نفيس عمره . فى شتى المدارس يتعلم بها . ويقاسى شدائدها وأهوالها . ويبذل الوالد عزيز ماله بكرم وسخاء . ورضا وقبول . وهو محتاج إليه . مفتقر إلى بعضه : ولكنه يتحمل الصعاب . ويتكبد المشاق فى سبيل نجاح ابنه وفلذة كبده وثمرة حياته . ثم ينتهى كل ذلك بأن يكون الولد من القاعدين . والوالد من الآسفين . لأن دور الحكومة غصت بموظفيها . وامتلأت بمن فيها . وفاضت بعامليها . فنشأت تلك الأزمة التى نعانيها وتعانيها الحكومة من جيش المتعطلين أرباب الشهادات الذين تخرجوا فى معاهد مصر . لحكومة مصر . وما العلاج إلا أن يكون التعليم عملياً ناجعاً يفتح أبواب الرزق المغلقة فى وجوه المصريين ، وإنها لكثيرة بمصر يتمتع بها الأجانب الذين تعلموا علم الحياة فأوصلهم إلى ماهم فيه من نفوذ وسيطرة .

ياعجباً كل العجب ، لايزال الناس يحترمون الوظيفة ويعدونها فخراً ويحسدون الموظف ويحسبونه ماسكا ؛ ويودون أن يكونوا هم وأبناؤهم وذووهم من الموظفين ، وهم على علم بما يلاقيه الموظف من الإعنات والإذلال والاستعباد ، وما يراه من رئيسه من القهر والاضطهاد ،

ويعلمون أن سيف النقل والحرمان من الترقية أو العلاوة مُصلت فوق رأسه ، فالويل له، إن لم يسر على هوى رئيسه طلب نقله ، وفى ذلك مافيه من تعذيب زوجه وبنيه ، أو حرمانه من حقه الذى ناط به كل آماله ، فيتألم ويشكو ولا من سميع ، ذلك معروف معلوم لا يخفى على أحد ، ولكنه يهون ويسهل فى سبيل المرتب المضمون ، والرزق الثابت المأمون ، وللناس عذر مقبول ، إذ يرون أبواب الحياة أمامهم مقفلة ، وطرق الكسب فى وجوههم مغلقة ، إلا على بعض المصريين المجازفين . وكثير من الأجانب الحاذقين ، لم هذا ، لأن العادة لها تأثيرها فى حب الوظيفة ، ولا يزال التعليم بمصر نظرياً جامداً ناقصاً لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولو كان التعليم نافعاً شافياً كما هو بغير مصر لما كانت هذه الأزمة ، ولانتفع المصريون بما فى مصر من ماء وأرض وسماء ، وقد شعرت الحكومة بذلك ، فغيرت مناهج التعليم ، ونرجو أن يكون التغيير فى هذا العهد كفيلا بتخريج طالب يستطيع الاستغناء عن وظيفة الحكومة ، ويقوم بأعماله حراً طليقاً ، يكسب قوته ، وينفع أمته وبلاده ، بعيداً عن الوظيفة ، غنياً عن دور الحكومة .

نرى الأجانب يسيطرون على الأعمال الحرة بمصر من تجارة وصناعة وزراعة وتكوين شركات وإقامة مبان وحفر ترع وإخراج معادن ، بل تراهم وبيدهم مقاليد الوظائف العظيمة بل والصغيرة ، ذلك بأنهم تعلموا فى مدارسهم كيف يعيشون وينتفعون بما خلقه الله للانسان فى السموات وفى الأرض .

أما آن لنا أن نقتدى بهم ، ونسير على نهجهم ، فنقلب كيان هذا التعليم الذى جعلنا خدماً وعبيداً لغيرنا ، وأكثر فى عدد المتعطلين من أبنائنا . نعم يجب علينا سريعاً أن نزيح هذا الكابوس عنا بتعليم ما نستطيع معه مباراة الأمم ومزاحمتها فى ميادين الحياة المختلفة الكثيرة الأنواع . تلك الحياة التى أصبح لا ينالها إلا العالمون العاملون المجدون المكافحون المسلحون بما يضمن لهم الظفر والفوز والنجاح ، يجب علينا أن نبعث البعوث إلى بلاد الدنيا فتحمل إلينا العلوم والمعارف الحديثة التى نصل بها إلى الانتفاع بكنوز

بلادنا وخيرات وطننا وإسعادنا ، يجب علينا أن نفتح المعامل والمصانع العديدة ، ونصلح الأرض البائرة ، ونشجع المصريين على الهجرة بتكوين الجمعيات المصرية فى البلاد المحتاجة إلينا وإلى جهودنا ، كبلاد الشرق التى تنتفع بنا وبعلومنا ومعارفنا وآرائنا وأفكارنا ، وكثير منا من لقى فيها الحياة الهنيئة ، والمقام المحمود ، يجب أن يجازف أغنياؤنا بإخراج مالهم للتجارة والصناعة المصرية ، وإنشاء دور العمل الوطنية ، ومزاحمة الأجانب ؛ ثم يجب أن نربى أبناءنا على كره الوظيفة وبغض التوظف ، وإفهامهم ما فى الوظيفة ، من الإذلال والقهر والاضطهاد والاستعباد . . . بذلك نقضى على هذا الداء العنيد ، داء حب الوظائف الممقوت ، ونصل وتصل بنا مصر إلى ما نريد من سؤدد وصفاء ، وسعادة وهناء ، واحتفاظ بالحرية والاستقلال .

وحقيقٌ أنْ يُوفى حقه مَنْ بحبل الله والصبر اعتصم

وتم فى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ الهجرية — ٥ مارس سنة ١٩٣٧ الميلادية : وأعتقد أنه نافع فى بابه ؛ يستفيد منه من يقرؤه ؛ ولله الحمد والشكر ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين

عبد الفتاح خليفة

الفهرس

(تمت الفهـــرس)





